

جلال أمين
ماذا علمتني الحياة؟
سيرة ذاتية



ماذا علمتني الحياة؟

الطبعة الأولى مايو ٢٠٠٧

الطبعة الثانية أغسطس ٢٠٠٧

رقم الإيداع ٢٤٥٧٢ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولي ٦ 1930 977 - 09 ISBN

يتمتع بملحق المنتج لتتميز

© دار الشروق

٨ شارع سيدي بيه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون - ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

جلال أمين

ماذا علمتني الحياة؟

سيرة ذاتية

دار الشروق

المحتويات

٧	الإهداء
٩	تفهيد
١٣	مقدمة
٢١	ولادة متعصرة
٢٣	أبي وأمي
٢٣	مذكرات أبي عن أمي
٤١	البيت
٤٩	الإخوة السبعة
٦٥	أصدقاء الصبا
٧٧	مباهج الصبا
١٠٥	الجامعة
١٢٩	البعث
١٤١	البعثة
١٧١..	ثورة يوليو
٢١١	عين شمس
٢٣٧	الكويت
٢٦١	لوس أنجلوس
٢٧٥	الجامعة الأمريكية
٢٩٣	«ماذا حدث للمصريين؟»
٣٠٣	«التراثيون الجدد»
٣٢١	المرض والشيخوخة
٣٣٣	البدائيات والنهايات
٣٩٥	كتب أخرى للمؤلف

الوقوف

إلى زوجتي جان،

عرفانا بجميل ثلاثة وأربعين عاما من الحب والصداقة،

وإلى أولادي: دانية وتامر وأحمد،

وحفيديّ: شريف ولارا.

سنة أشخاص ملأوا حياتي بالبهجة.

٢٣ يناير ٢٠٠٧

تهيد

بدأت أكتب هذا الكتاب منذ عشرين عاماً، عندما كنت أفضى سنة فى لوس أنجلوس، أدرس فى إحدى جامعاتها، ووجدت لدىّ من الوقت ما يزيد على ما أحتاج إليه لتحضير محاضراتى . وكان لدىّ أيضاً من هدوء البال وقلة المشاغل ما يلائم الجلوس لاستعادة ذكريات قديمة . لم أبدأ الكتابة بالترتيب ، بل أخذت أكتب عن أى حادث حدث لى وأعتبره مهماً، أو عن أى شخص عرفته يوماً ما وأثر فى نفسى، بحسب ما يلائم مزاجى أو حالتى النفسية وقت الكتابة . وزاد ما كتبه مع مرور الزمن حتى بدا وكان لدىّ بالفعل شيئاً يصلح لأن يكون سيرة ذاتية، إذا أحسن ترتيبه واستكمل الناقص فيه، وإذا استعدت الأجزاء التى يظهر لى أنى لم أحسن كتابتها . فعلت كل ذلك دون أن أعطى أى اهتمام لما قد يسبب بعض هذا الذى كتبه من ألم لبعض الأشخاص، الذين ذكرتهم بالاسم، أو الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة، أو ما قد يشير على غضب هذا الصديق القديم أو ذاك، إذا حدث وقرأ الكلام المكتوب عنه .

فلما اكتمل الكتاب أعدت قراءته من هذه الزاوية، فكننت أقارن بين النفع الذى يأتى من ذكر الحقيقة كاملة وبين الألم الذى قد يحدثه ذكرها . فوجدت فى معظم الأحيان أن حذف اسم الشخص الذى قد يؤلم ما كتبت، أو إدخال بعض تغييرات لطيفة على الظروف التى تم فيها الحدث الذى أصفه، لا يترتب عليه أى ضرر على الإطلاق . وأن القصة إذا كان لها مغزى، لن يقلل من قيمتها ما إذا كان مرتكب الجرم هذا الشخص أو غيره، أو أن يكون طبيبياً بدلاً من أن يكون مهندساً، أو العكس .

أما الأشخاص الذين أحببتهم، ولم يكن لدى ما أذكره عنهم إلا فضائلهم وحمس صنيعهم، فلم أجد أى سبب للامتناع عن ذكر أسمائهم. كذلك لم أمتنع عن ذكر الأسماء الحقيقية لبعض الأشخاص الذين أوجه إليهم النقد في هذا الكتاب، حتى لو كان نقدا قاسيا، إذا كانوا شخصيات عامة، تاريخهم مدث للناس جميعا، كـ بعض السياسيين المصريين الذين كان لى معهم قصة أو قصص لا يعرفها غيري، ورأيت فيها مغزى عاما يجعلها جديرة بأن تروى.

كنت أتردد أحيانا بين الإبقاء على فقرة وبين حذفها، إذا تصورات أن النقد يمكن أن يكون مؤلما، ولكنى لم أتردد قط إزاء النقد الذى وجهته لشخصية عامة، بل أبقيت على النقد على اعتبار أن النفع المتوقع يبرر ذلك.

ترددت أيضا عند فقرات كثيرة، بين الإبقاء عليها وحذفها، لسبب مختلف تماما، وهو الخوف من أن أكون قد أطلقت العنان أحيانا للتعبير عن أحداث حدثت لى واعتبرها أنا مهمة، بسبب ما أثارته فى نفسى وقت حدوثها من مشاعر قوية، وقد لا تهتم القارئ فى قليل أو كثير. ولم يكن القرار هنا أيضا قرارا سهلا، إذ يشوق على تقديرى لدى صبر القارئ على قراءة مثل هذه الأجزاء، ولما إذا كان هذا الحادث أو ذاك يحمل أى مغزى عام، أم يقتصر أثره على ما أثاره فى أنا وحدى من مشاعر.

كان على أن أتخذ قرارات كثيرة من هذا النوع أو ذاك، ولكن كان لابد أن أنتهى من هذا الكتاب اجلا أو عاجلا. وعندما شعرت بأنه لابد أن يكون لهذا كله آخر، اعتبرت أنى أتممت الكتاب وقررت إرساله إلى المطبعة، وأنا واثق تماما من أنه لا يزال فيه ما يؤلم ويغضب، وأن فيه أيضا قدرا زائدا من الترجية أو اهتماما زائدا عن الحد بنفسى. لابد لى إذن أن أرجع من القارئ أن يتحلى، وهو يقرأ هذا الكلام، ببعض الكرم والأريحية. ولعلنى أستحق بعض الكرم والأريحية لسبب واحد على الأقل، وهو أنى فتحت للقارئ صندوقا مليئا بالأسرار لا يضطرنى أى شىء إلى فتحه، وإنما دفعنى إلى إشراك القارئ فى الاطلاع على خباياه، لا الإعجاب الزائد بالنفس

ولا الرغبة في المباحاة بعمل عظيم قمت به ، بل مجرد الأمل في أن يجد بعض القراء فيه ما قد يخفف عنهم بعض الأحران ، أو يزيد من قدوتهم على الاستمتاع ببعض بواعث السرور . بل حتى إذا لم يتحقق هذا النفع ولا ذاك ، قد تفيد قراءة هذا الكتاب في شيء واحد على الأقل ، وهو أن يعرف القارئ ، إن لم يكن قد عرف بعد ، أن الناس أشبه كثيراً ، بعضهم ببعض ، مما قد يظن ، سواء فيما يتعرضون له من بواعث السرور أو فيما لابد أن يصادفوه ، بين الحين والآخر ، من خيبة أمل .

مقدمة

قرأت مرة قولاً منسوباً إلى نحات مشهور مؤداه أنه كان يفرح فرحاً عظيماً عندما يصادف كتلة كبيرة من الحجر من النوع الذى يستخدمه فى صنع تماثيله، إذ كان بمجرد أن يراها يتصور التمثال الذى يمكن أن يستخرجه منها. كان يتصور كتلة الحجر وكأنها تحتوى فى أحشائها على هذا التمثال الكامن فى خياله، وأن كل المطلوب منه هو أن يقطع بمجوله قطعة صغيرة من الحجر بعد أخرى، من هذه الكتلة الكبيرة، ويلقى بها جانب لى يخرج هذا التمثال الرائع الكامن فى جوفها. لو كان هذا التصور يعبر عن الحقيقة لكان معناه أن النحات لا يصنع شيئاً فى الحقيقة، بل هو فقط يستبعد بعض الأشياء. لا يضيف شيئاً إلى الأشياء الموجودة بالفعل، بل يستغنى عن غير الضرورى منها ويستبقى فقط ما يستحق البقاء.

تذكرت هذا عندما شرعت فى التفكير فى مقدمة هذا الكتاب، وسألت نفسى عما إذا كانت حالة هذا النحات كحالتنا جميعاً. إن حياة كل منا تشبه قطعة الحجر فى هذا التصور. لا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى البحث عن تبرير لكتابتها، إذ إن قنناً جميلاً يكمن فى حياة كل منا والمطلوب فقط هو الكشف عنه. لا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى أن يكون شخصاً عظيماً أو سياسياً خطيراً، أو أن يكون قد قابل فى حياته بعض الكبراء والمشهورين، أو أن يكون كاتباً مرموقاً أو فناناً موهوباً. إلخ. فكل منا شخص متميز، بل ومتميز جداً، ولديه فى مسيرة حياته ما يستحق أن يروى. التمثال الجميل كامن داخل كل قطعة من الحجر، حتى ولو بدت قطعة حجر عادية. المطلوب فقط استخراج التمثال المختبئ من سكمته.

هذا هو ما حاولت أن أفعله فى الصفحات التالية: أن أستغنى عما يغطى التمثال مما يطمس ملامحه ويخفى مغزاه. أن أكشف عن هذه الملامح وأستخلص مغزاه.

ولن يستطيع أن يحكم حكماً صحيحاً على مدى نجاحي أو فشلي إلا القارئ . لابد أنني تركت بعض التفاصيل أو الأحداث التافهة دون أن أضربها بمعولي ، ربما لمجرد أنها تتعلق بشخص عزيز عليّ ، ليس هناك مبرر لاعتباره عزيزاً أيضاً أو مهماً لدى القارئ ، أو لأن الحادث ترك أثراً كبيراً في نفسي دون سبب معقول فظننت أن له من الأهمية في ذاته ما ليس له في الحقيقة ، فلذا بي أنقل على القارئ بذكر تفاصيله وكان الأجدر بي أن أهمله وأسقطه كما أسقطت غيره . وما أكثر ما حدث خلال حياتي أن شرعت في رواية قصة حدثت لي ، أو في الحديث عن شخص كنت أظنه مهماً ، ثم تبين لي من وجهه من يستمع إليّ أنني أخطأت التقدير ، وأن القصة التي كنت أظنها جديرة بأن تروى ليست جديرة بهذا على الإطلاق ، وأن الشخص الذي كنت أظنه مهماً ليس مهماً إلا في نظري .

أرجو ألا تحتوي هذه الصفحات على الكثير من ذلك . ولكنني من ناحية أخرى لاد أنني أخطأت بسبب قلة حظي من المهارة أو الموهبة . فضربت بمعولي خسارة أقوى من اللازم فاططحت بأنف أو أذن أو إصبع لم يكن هناك أدنى سبب للإطاحة به . بصراحة أخرى ، لابد أنني ، بالرغم مني ، قد أهملت بعض الأحداث المهمة أو بعض الأشخاص الذين كان يجدر بي أن أذكرهم ، مدفوعاً بخطأ في التقويم أو ترتيب خاطئ للأهمية . بل وربما كان الدافع إلى هذا الإهمال أو هذا الحذف أقطع من هذا وأشنع ، وهو حاجة لا شعورية لديّ في طرد هذه الأحداث أو هؤلاء الأشخاص من ذهني ، لإخفاء حقيقة محزنة ، ليس فقط عن القراء بل وعن نفسي أيضاً .

على أي حال ، فهذه هي حصيلة جهدي ومحاولاتي . أستطيع أن أؤكد أنها لم تحتو على ما يخالف الحقيقة (أو على الأقل لا تحتوي على ما يخالف الحقيقة كما أراها) ، ولكن من المؤكد أيضاً أنها لا تحتوي على كل الحقيقة . وليس في هذه العبارة الأخيرة ما يدعو إلى الاستغراب ولا إلى الاعتذار . ففضلاً عن أن ذكر الحقيقة كلها مستحيل ، فإنه لا نفع يُرجى من ورائه ، إذ لو قُبلت كل الحقيقة لانتهى الأمر بأن أعيد إلى القارئ قطعة كاملة من الحجر لا قيمة لها بالمرّة .

ولكن لابد مع ذلك من الاعتراف بأن حذف بعض الحقائق لم يكن دائما بدافع برئء تماما. ذلك أن ذكر كل الحقيقة لابد أن ينطوى على ذكر بعض القضايع، المتعلقة بنفسى أو بغيرى، بما لا أحب ذكره. لقد كتب جورج أروويل، الكاتب الإنجليزي الشهير والأثير لدى، بصراحته المعهودة: «إن كتابا فى السيرة الذاتية لا يمكن أن يصيح محلا للثقة إلا إذا كشف بعض الأشياء التى تشين صاحبها»⁽¹⁾.

وأظن أن الرجل كان هنا على صواب، كما كان عادة. ولكنى لا أظن أننى ارتفعت إلى هذا المستوى الذى يطلبه. صحيح أنى ذكرت فى هذه الصفحات بعض الأعمال والمشار التى أحجل الآن منها، ولكنى لم أذكر كل ما أحجل منه. ومع هذا فلا أعتقد أن حذف بعض هذه المشار والأعمال قد أضّر كثيرا بهذه السيرة الذاتية، كما أن إدراكى لهذا الحذف لا يشكل عبئا ثقيلا لوطأة على نفسى، وإن كان من الممكن أن يكون ثقل الوطأة على نفسى منذ عشرين سنة أو أكثر. ذلك أنى أعرف الآن أننى بوجه عام، لست أموا كثيرا من غرى، كما أنى أعرف كثيرين من الناس ممن لديهم أكثر مما لدى بكثير مما يستوجب الحجل.

من ناحية أخرى، لقد أشفقت على القارئ، وخجلت من نفسى، كلما خطر لى أن أتكلّم عما أعتقد أنه مبهز فى، فحذفت أكثر هذا الكلام أو يُخيل لى أنى حذفته. وربما اكتشف القارئ مع ذلك أنه قد بقى من ذلك، فى الصفحات التالية، أكثر مما يلىق.



على الرغم من كل ما ذكرته عن قطعة الحجر واستخراج الثمنا من جوفها. إلح، فلا أخفى على القارئ أنى طوال كتابتى لهذه الصفحات كنت أعود لأسأل نفسى، المرة تلو الأخرى، عما إذا كان لدى بالفعل أشياء جديدة بأن تروى، وعما إذا كنت قد صادفت فى حياتى أحداثا لها من الجسام ما يبرر أن أشغل القارئ به.

(1) "Autobiography is only to be trusted when it reveals something disgraceful"

قلت لنفسى أكثر من مرة: «أليست حياتى عادية جداً مثل آلاف وملايين غيره؟ لست إلا الابن الأصغر فى أسرة كبيرة الحجم ومتوسطة الحال. أبوه أستاذ فى الجامعة، أرسله إلى المدرسة ثم إلى الجامعة مثل ملايين آخرين من تلاميذ المدارس والجامعات. تخرج وسافر إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه فى الاقتصاد. ثم عاد ليعمل بدوره أستاذاً فى الجامعة، وظل أستاذاً حتى من متقدمة. ما الغريب أو المدهش أو غير العادى فى أى شيء من هذا؟ صحيح أنه يكتب فى الصحف ونشر بعض الكتب، ولكن ماذا فى ذلك؟ ألا يستحسن، والحال كذلك، السكوت، كما يسكت الآلاف المؤلفين من الناس ولا يشغلون بقية الناس بسيرة حياتهم؟».

حطرت لى هذا الحاضر أكثر من مرة، ولكنى كنت أيضاً أتذكر أحيانا حادثاً فظيعاً أو مذهشاً حدث لى، مما يجعلنى أقول لنفسى: «وماذا عن هذا الحادث الفظيع أو المدهش أو ذاك؟ هل يحدث هذا لكثيرين؟ وحتى لو كان قد حدث مثله لكثيرين، ألا يتوقف ما إذا كان يستحق أن يروى أو لا يستحق، على كيفية روايته؟».



شيء آخر كان يقلقنى أثناء كتابة هذا الكتاب. قرأت مرة جملة جميلة لألدوس هكسلى، الروائى الإنجليزى الشهير، يقارن فيها بين القصة الخيالية (fiction) وبين ما يحدث بالفعل فى الحياة، فيقول: «مشكلة القصة الخيالية أنها تنطوى على مغزى (أو معنى) بأكثر مما ينبغى، بينما ما يحدث بالفعل فى الحياة لا يبدو وكأن له مغزى (أو معنى) على الإطلاق»⁽¹⁾.

إذا كان هذا صحيحاً، فكيف لى أن أجعل ما أرويه مما حدث فى حياتى، ومَنْ قابلت وعرفت من الناس، وما جرى بينهم من علاقات، ذا مغزى على الإطلاق؟ كيف يستطيع أى شخص منا أن يستخلص من حياته أى معنى، إذا كانت الحياة الواقعية بالفعل خالية من المعنى؟ من الممكن بالطبع أن نستخلص مغزى معينا من

(1) "The trouble with fiction is that it makes too much sense. Reality never makes sense".

هذه الحادثة أو تلك، وأن نجد طرافة أو مأساة في واقعة يعينها أو عمل معين، ولكن هل يمكن أن تروى قصة حياة واقعية، كما حدثت بالفعل ودون إضافة مصطنعة بقصد التجميل أو إظهارها بمظهر القصة الخيالية، ويكون لها مع هذا نفس الأثر الذي نجسده لما نقرأه من قصص وروايات وما نشاهده على المسرح أو نراه في الأفلام؟ وإذا كان هذا مستحيلا، فما الذي يبرر رواية هذه القصة أصلا إلا مجرد إعجاب الكاتب بنفسه، وتعليقه أهمية على ما حدث له أكبر بكثير مما له في الحقيقة؟

أصارع القارئ بأنى لم أفقد الأمل قط وأنا أكتب فصلا بعد آخر من هذا الكتاب، من أن يكون للقصة التي يحترها - كما حدثت بالفعل - ودون أى تجميل - مغزى عام يتجاوز مغزى الأحداث الجزئية. وكنت أشعر دائما، ولا أزال، بأن القصة إذا فشلت في نقل هذا المغزى للقارئ، فلا بد أن يكون السبب هو مجرد أنى ضربت بمغزى أكثر من اللازم أو لم أضرب به بالقوة اللازمة.



بعد أن كتبت الجزء الأكبر من هذا الكتاب كنت أتذكر من حين لآخر، سيرة ذاتية بعد أخرى، مما كنت قرأته من قبل، فأعود إليها للقراءة فيها، أو أتذكر سيرة ذاتية مهمة لم تسبق لى قراءتها فأقنيتها وأشرع فى قراءتها. كنت متلهفا، إذ بدأت أفعل شيئا فعله آخرون من قبلى، أن أقارن بين أدائى وأدائهم، وأتأمل سبب نجاح هذا ونشل ذلك، حتى يكون فى هذا وذاك درس لى أتعلم منه.

تذكرت بالطبع «الأيام» لطفه حسين، و«زهرة العمر» و«سجن العمر» لتوفيق الحكيم، و«أوراق العمر» للويس عوض، ناهيك طبعاً عن كتاب «حياتى» لأبى، (أحمد أمين) الذى ظل بجوارى دائما أعيد القراءة فيه، المرة بعد المرة، حتى كنت أحفظه عن ظهر قلب. وتذكرت أيضاً بعض السير الذاتية التى همتُ بها حبا لمؤلفين أجدان: كالفيلسوفين البريطانيين برتراند رسل (B. Russell) وألفرد إيسر (A.J. Ayer) فأعدت القراءة فيها من جديد.

وقد كان رد فعلى فى جميع الأحوال مذهشا. كانت الدهشة أحيانا من مدى

سذاجتى إذ قدّرت الكتاب فى الماضى بأكثر كثيراً مما يستحقّه، وأحياناً من أنى - وإن كنت أعجبت فى الماضى بكتاب جيد - لم أعطه من التقدير قدر ما يستحقّ.

كنت دهشى كبيرة بوجه خاص من أنى لم أكتشف من قبل روعة كتاب أبى «حياتى»، وأنى كنت سخيفاً عاية السخافة وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى، عندما كان أبى علىّ على بعض فصول هذا الكتاب بسبب ضعف بصره واعتماده على الإملاء بدلاً من الكتابة بيده، فقد كانت إجابتى عندما سألنى عن رأى فيما أملاه عنيّ أنى أفضل عليه كتاب «الأيام» لطفه حسين! إجابة مراهم سخيّف يريد فقط أن يتحدّى أباه!

وجدت بعض كُتّاب السيرة الذاتية يفضلون الإشارة إلى أنفسهم بصيغة الغائب، فبدلاً من أن يكتبوا قلت وفعلت، يقولون قال صاحبنا أو قال الفتى كذا أو فعل كذا. ولم أستغ هذه الصيغة قط فى القراءة، فلم يخطر ببالي قط أن أستخدمهم فى الكتابة. وإذا كان البعض يرى فى هذه الصياغة تواضعاً فإنى أرى فيها عكس ذلك. بل إنها تُكَنّ الكاتب من كيل اللناء على نفسه، ونسبة الفضل إليها بأكثر مما تمكّنه الإشارة المباشرة إلى نفسه دون التواء.



منذ سنوات كثيرة، رأيت فيما بولنديا صامتاً لا يزيد طوله على عشر دقائق، ظلت قصته تعود إلى ذهنى من وقت لآخر، وعلى الأخص كلما رأيت أحداً من أهلى أو معارفى يصادف فى حياته ما لا قبّل له برءه أو التحكم فيه.

تبدأ القصة البسيطة بمنظر بحر واسع، يخرج منه رجلان يرتديان ملابسهما الكامدة، ويحملان معاً، كل منهما فى طرف، دولاب عتيقاً ضخماً. يتكون من ثلاث ضلف، وعلى ضلفته الوسطى امرأة كبيرة. يسير الرجلان فى اتجاه الشاطئ وهما يحملان هذا الدولاب بمشقة كبيرة، حتى يصلا إلى البرّ فى حالة إعياء شديد، ثم يبدآن فى التجول فى أنحاء المدينة وهما لا يزالان يحملان الدولاب. فإذا أرادا ركوب الترام حانولا صعبود السلم بالدولاب وسط زحام الركاب وصيحات

الاحتجاج . وإذا أصابهما الجوع وأرادا دخول مطعم ، حاولا دخول المطعم بالدولاب فيطردهما صاحب المكان .

لا يحتوى الفيلم إلا على تصوير محاولتهما المستميتة فى الاستمرار فى الحياة وهما يحملان دولابهما الثقيل ، إلى أن ينتهى بهما الأمر بالعودة من حيث أتيا ، فيبلغان الشاطئ الذى رأياه فى أول الفيلم ، ثم يغيبان شيئا فشيئا فى البحر ، حيث تغمرهما المياه وهما لا يزالان يحملان الدولاب .

منذ رأيت هذا الفيلم وأن أتصور حالى وحال كل من أعرف وكأن كلاً منا يحمل دولابه الثقيل ، باتى معه إلى الدنيا ويقضى حياته حاملاً يده دون أن تكون يديه أية فرصة للتخلص منه ، ثم يموت وهو يحمله . على أنه دولاب غير مرئى ، وقد نقضى حياتنا متظاهرين بعدم وجوده ، أو محاولين إخفائه ، ولكنه قدر كل منا المحتوم الذى يحكم تصرفاتنا ومشاعرنا واختياراتنا أو ما نظن أنها اختياراتنا . فأننا لم اختر أبى وأمى أو نوع العائلة التى نشأت بها ، أو عدد إخوتى وموقعى بينهم ، ولم اختر طولى أو قصرى ، ولا درجة وسامتى أو دسامتى ، أو مواطن القوة والضعف فى جسمى وعقلى . كل هذا على أن أحمله أينما ذهبت ، وليس لى أى أمل فى التخلص منه .

(١)

ولادة متعسرة

تبدأ قصتي حتى من قبل أن أولد . ذلك أن والدتي كانت لا تكف عن رواية قصة حملها بي بافتخار، حتى رسخت قصة هذا الحمل في ذهني على نحو لا يمكن معه نسيانها . كانت فخورة بمقاومتها لأبي ، وما لجأت إليه من حيل والآعيب حتى تحفظ بي في أحضانها وتتيح لي فرصة الوجود .

كان أبي لا يريد من الأولاد إلا اثنين أو ثلاثة ، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح أبا لعشرة ، مات منهم اثنان في المهد وبقي ثمانية . على أنه عندما وصل الأمر إلى احتمال محيء الثامن ، وهو أنا ، لم يطلق أبي صبرا وقرر أنه إن الأولاد لأن يضع حداً للأمر وأن يجبر والدتي على الإجهاض . ولا أدري بالضبط سرّ تمسك أمي بهذا الطفل الثامن ، فقد كانت لديها وفرة من الأولاد والبنات . من المؤكد أن المصريين كانوا ، ولا يزال أكثرهم يعتبرون كثرة الأولاد مفخرة للام . ولكن الأرجح أن الأمر كان يتعلق بوجه خاص بعمتي التي كانت ، على حد قول والدتي ، تحسدها أشد الحسد لكثرة ما أنعم الله به على والدتي من الأبناء الذكور ، ومن ثم كان تمسك والدتي بي يرجع في الأساس إلى رغبتها في إغاظه عمتي .

لم يكن الإجهاض في هذا الوقت (منتصف الثلاثينات) أمراً سهلاً ، وكان على أبي أن يستعين في ذلك بطبيب أجنبي ، إذ ربما لم يكن هناك طبيب مسلم في ذلك الوقت يقبل أن يقوم بهذه المهمة ، فرتب أبي موعداً مع طبيب إيطالي . لم يكن من السهل على أمي أن تعصى أبي ، ومع ذلك فقد حاولت عدة مرات الهرب ، مرة إلى بيت أخيها في العباسية ، ومرة إلى بيت أختها في قريتهما (زاوية البقل) بالمنوفية ،

حتى اضطرت في النهاية إلى الرضوخ لتهديدات أبي، فانصاعت لأمره وارتدت ملابسها لتذهب معه إلى الطبيب. وفي الطريق إلى محطة لنتر وكان أبي، كمادته، يتقدم أمي بضع خطوات، إذ لم يكن من المألوف أن يسير الرجل في الشارع بمحاذاة زوجته، حتى وصلا إلى المحطة. فلما جاء القطار استقل أمي العربة الأمامية على أن تصعد أمي إلى عربة السيدات، وهي عبارة عن ديوان صغير في آخر القطار كُتب عليها (سيدات) ولا تسمح لأكثر من ست أو ثمان من النساء. واستجمعت أمي كل شجاعته وتوكلت أبي يصعد وحده إلى القطار وعادت أدرجها إلى المنزل، فإذا بأبي، لدى محطة الوصول، يجد نفسه - في ذلك الموقف المضحك - ينتظر نزول أمي من عربة السيدات فلا تنزل، ويكتشف أن زوجته قد خدعته. بإمكانه أن أتصور الصياح والشجار اللذين لا بد أن عمّا البيت لدى عودة أبي، بما في ذلك، بلا شك، التهديد بالطلاق. ومع ذلك لم تفتّر عزيمة أبي، وعاد إلى محاولته، مستخدماً العنف مرة واللين والملاطفة مرة، حتى رضخت أمي بالفعل للذهاب إلى الطبيب.

جلست أمي أمام الطبيب الإيطالي وسمحت له بأن يبدأ الكشف. ثم تحرك في قلبها غضب غريزي جعلها تدفع الطبيب بقدمها بكل قوتها صائحة في ثورة: «روح يا شيخ، هوّه أنا حبل في الحرام؟» فتراجع الطبيب خائفاً وقال، معلناً استسلامه، وبلكنة أجنبية طلت دائماً مبعثاً للمضحك في أسرتنا على مرّ الأيام كلما أعادت أمي رواية القصة: «يا خبيبي أنا مالي؟ عايز تسقط تسقط، عايز تخيل تخيل!» وأعادت الزوجة إلى البيت منتصرة، والأب خائبا، ولم يعاود أبي الكرة مستلماً لمشية الله.

هكذا جئت إلى الوجود في ٢٣ يناير ١٩٣٥.

(٧)

أبى وأمى

لا يجب أن يتوقع أحد أن يكون بحوزتى صورة لأبى وأمى يوم زواجهما، يتسم فيها الزوج لزوجته كما يفعل الناس فى هذه الأيام. لدى بالفعل صورة لأبى يوم زواجه، ولكنها له وحده، فقد ذهب بمفرده إلى المصور بعد إتمام عقد الزواج، فالتقط له المصور صورة، وبدلاً من الزوجة استند أبى بيده إلى بضعة كتب، وكتب خلف الصورة، التى لا تزال فى حوزتنا، أنه اختار الكتب رمزاً أو شعاراً، كما كتب أيضاً وراء الصورة «وأرجو من الله أن يوفقنى إلى عمل عظيم أنفع به أمتى». وقد وفقه الله إلى ذلك فعلاً، ولكن المهم لدى الآن أنه لم يشر فيما كتبه وراء الصورة، ولو إشارة عارضة، إلى أمى التى كان قد عقد لثوة زواجه عليها.

كان أبى رجلاً قليل الكلام، قليل المرح، يأخذ الحياة مأخذ الجد، ولا يجد متعة حقيقية إلا فى القراءة والكتابة. والزواج فى نظره لا يستلزم الحب، بل هو مجرد تكوين أسرة وإكمال الدين. ومن ثم فهو يطلب يد أمى دون أن يراها، وأسرة الفتاة تقبل تزويجها له دون أن تشترط موافقة الفتاة، التى لم تكن بدورها قد وقعت عينها عليه قط. المهم فقط أن ترضى أسرة الفتاة أو ولى أمرها عن خلقه واستقامته وتؤكد من قدرته المالية.

كان أبى من أسرة قاهرة. جاء أبوه وهو صغير إلى القاهرة هرباً من قرية بمديرية البحيرة حيث كان يُجلد الفلاحون بالسياط إذا لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب. وتعلم جدى فى القاهرة حتى صار من علماء الأزهر. كانت أسرة متواضعة الدخل تعيش عيشة غاية فى البساطة، ولكن أبى لم يذق شظف العيش فى طفولته أو

صباح. فلا هو قضى الليل جانحاً ولا تعرّض لمقارنة مريّة بين حاله وحال الأسر الأكثر ثراءً ويسراً. لم يكن لدى الأسرة بالقطع وفرة من المال، ولكن المال لم يكن أيضاً شاغلاً لها أو مصدر قلق زائد. سمع هذا الأبى بأن يشغل فكره بما هو أعظم شأنًا، وإن لم يكن هذا بالطبع تفسيراً كافياً لهذا الانشغال بما هو «أعظم شأنًا». إنى لا أعرف كيف أقسر لماذا استغر في ذهن أبى - منذ وقت مبكر من حياته - أن من الواجب، ومن الممكن، أن يكرّس حياته لعمل عظيم؟ هل كان السبب ذكائه وتوفيقه المستمر في دراسته؟ أم نزعة متأصلة فيه منذ الطفولة نحو الإصلاح، تحتاج بدورها إلى تفسير؟ لقد كان عندما كتب تلك الجملة وراء صورته، عن أمله في القيام بعمل عظيم، في التاسعة والعشرين من عمره، وكان يعمل فاضياً شرعياً، وهي وظيفة لا تعد بذاتها بعمل عظيم، وإن كان قد عرف عن قرب رجالاً عظاماً أثروا تأثيراً كبيراً في نفسه، أكبرهم أثراً عاطفياً بركات، ذو النزعة الإصلاحية القوية، وناظر مدرسة القضاء الشرعي عندما كان أبى تلميذاً ثم مدرسا صغيراً بها.

إن التفسير الذي أميل إليه أكثر من غيره لهذا الطموح القوي عند أبى، ومنذ وقت مبكر، إلى القيام «بعمل عظيم فيه نفع أمته» هو حسّ الأخلاقى البالغ القوة. نعم، كان أبى من أسرة شعبية متوسطة الحال، ولكنه كان بلا شك «أرستقراطى» الأخلاق والحسّ. كان دائم التساؤل عن الموقف الأخلاقى الصحيح، وكان المسائل كلها وأمور الحياة كلها تتحول عنده في نهاية الأمر إلى مشكلات أخلاقية. إنه يستقبل من وظيفة رفيعة لدى نى اعتداء لطيف على كرامته، ويقف ضد السلطة إذا رآه ظالماً، ويرفض منصباً خطيراً إذا اعتقد أنه ليس أهلاً له، ولا يرقى موظفاً لأنه يجهل ولكن لأنه أجدد من غيره بالترقية... إلخ.

من أين أتى بهذا الحسّ الأخلاقى القوي؟ هل ورثه عن أبيه؟ أم كان نتيجة لتربيته الدينية العميقة؟ إنى لا أعرف كيف يورث الحسّ الأخلاقى أباً عن جد، كما لا أعرف كيف يولد الشعور الدينى القوي حسّاً أخلاقياً قوياً عند البعض ومجرد تمسك بشكليات الدين عند البعض الآخر.

أذكر مرة أن كنا، أنا وأخى حسين، نتحرق شوقاً لرؤية فيلم يعرض في سينما

في وسط البلد . كنا نسكن في مصر الجديدة وكان الأمر يتطلب ركوب المترو الذي لم يكن أبى يسمح لنا بعد بركوبه وحدنا ، إذ لم تكن قد تجاوزنا العاشرة أو الحادية عشرة من عمرنا . (ربما كان الفيلم «ليلي» ليلي مراد وحسين صدقي ، والمأخوذ عن رواية غادة الكاميلى ، وأظن أن السينما كانت كوزموس بشارع عماد الدين أو محمد فريد الآن) . كنا على يقين بأننا إذا استأذناه فسوف يرفض . فهدانا تفكيرنا إلى الحلّ الآتى : سألتنا عما إذا كان يسمح لنا بالذهاب إلى سينما في مصر الجديدة فأذّن لنا ، ثم استجمعنا شجاعتنا وركبنا المترو ، وذهبنا إلى السينما التي نريدها في وسط البلد ، وفي طريق عودتنا نزلنا من المترو قرب السينما التي سمح لنا بالذهاب إليها ، وذهبنا إليها فعلا دون أن ندخلها ، ثم سرنا على أقدامنا منها إلى المنزل ، مبررين فعلتنا لأنفسنا بأننا في الواقع فعلنا ما ذكرناه له بالضبط . أى أننا لم نقل له شيئا يخالف الحقيقة ، وإنما فقط لم نقل له كل الحقيقة . ومع ذلك فلا أدري كيف انتهت القصة بأن اعترفنا له بما فعلنا ، ودارت مناقشة طويلة بيننا وبينه عما إذا كنا قد ارتكبنا عملا غير أخلاقي لمجرد أننا لم نقل له كل الحقيقة .

لم يكن لأبى هذا الحس الأخلاقي القوي الذي كان عند أبى . ربما كنت أخف ظلاً وأنطف معشراً ، ولكنها كانت بلا شك أكثر مكرراً وأشد دهاءً . لم تكن بخيلة بخلاً منفراً ، ولكنها كانت بلا شك حريصة على المال حرصاً واضحاً . كان يزيد هذا الحرص قوة اعتقادها بأن الرجال لا يمكن الاطمئنان إلى وفائهم ، وكانت دائمة التردد لتمثل الشعبى «يا مأمنة للرجال ، يا مأمنة للماء في الغربال» ، فسيطرت عليها فكرة أن يكون لها من المال ما يكفي لشراء بيت باسمها يدرّ عليها من الدخل ما يفيها عن أبى ، إذا حدث وتناكر لها .

بدأت أبى منذ أيام زواجها الأولى تضيف القرش بعد القرش إلى دفتر التوفير بمكتب البريد ، تقتصه مما يعطيه لها أبى من مصروف البيت ، إذ لم يكن لها مصدر للدخل إلا ما يعطيه لها أبى . وهى تحتفظ بحجم مدخراتها سراً من الأسرار لا يعرفه غيرها . كان أبى يعرف ما يحدث بالضبط ويغض البصر عنه . وكانت هى تعرف قلة مبالغته بلال فتبالغ فى تصوير ما يتكلفه الطعام ولوازم البيت فبعيها دائماً ما تطلبه

دون نقاش ، وهو يعرف جيداً أن ما يعطيه لها أكثر بكثير مما تحتاجه ولكنه ، إذ كان يعرف هو نفسه عجزه التام عن الادخار ، يتظاهر بتصديقها أملاً في أن تقوم هي بما يعجز عن القيام به من ادخار . فاجأته مرة بإخباره بأنها أصبحت الآن تملك ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه في دفتر التوفير ، وأنها تريد أن تشتري منه نصف البيت الذي نسكنه ، وكانت قيمة هذا النصف تزيد بالطبع عدة مرات عما تملكه ، فإذا به يوافق ، دون مناقشة ، على أن يكتب باسمها نصف المنزل . وتصر هي بعد قليل على تسجيل ذلك رسمياً فيمضيه . ثم لم تنتقض سنتان أخريان أو ثلاث حتى أعلنت أنها تملك الآن بضع مئات أخرى وأنها ترغب في شراء النصف الآخر ، فوافق أبى على ذلك أيضاً ، رغم تهاة المبلغ الذي تعرضه عليه . وإذا بالبيت الذي نسكنه ، وهو فيدلا جميلة من دورين بحى راق من أحياء القاهرة (الدقى) قد اشترته أمى بأقل من ألف من الجنيهات . ثم تمر بضع سنوات أخرى وإذا بأمى تقول لأبى ضاحكة إنه يسكن في بيتها دون أن يدفع لها إيجاراً ، ثم تتحول التكتة إلى جد ، فيقبل أبى أن يعطيها عشرين جنيهاً في الشهر إيجاراً للبيت الذي نسكنه . ولم تقنع أمى بهذا بل طلت كل بضع سنوات تتندر بتهاة هذا الإيجار ، معددة مزايا المنزل ومشيرة إلى جماله وجمال حديقته ، بما فيها من أشجار الجوافة وشجرة المانجو ، فإذا بها تطلب كل بضع سنوات زيادة الإيجار ويقبل أبى عن طيب خاطر ما نطلبه .

كان حصول أحد منا على بضعة قروش من أمى أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر ، فقد كانت دائماً تتظاهر بأنها لا تملك قرشاً واحداً ، حتى يأتي تصريحها المفاجئ هذا ، كل بضع سنوات ، بأنها تعزم شراء هذا البيت أو ذلك . لم يكن من السهل أيضاً أن يطلب أحدنا من أبى ما لا يزيد على ما قرره لكل منا من مصروف شهري . ولكن الصعوبة هنا لم يكن مصدرها حرصه على المال ، بل مجرد الخوف من إزعاجه ، ومن أن يكشف عجزنا عن الالتزام بما قرره لنا . كان من أكثر الأمور لديه أن يرضخ لمطلب أحد منا لبعض المال قبل أن ينتهي الشهر ؛ خوفاً من أن يولد لدينا هذا شعوراً بأنه لا حدود لما يمكن لنا الحصول عليه من المال فيفسد علينا هذا مستقبل حياتنا .

كان هذا الموقف من جانبه معقولاً تماماً ، ولكن ما كان يضايقنا من أبى حقيقة هو

عجزه عن التعاطف مع أية رغبة لدينا في أى نوع من أنواع الرفاهية . كان هو نفسه قبل الاحتفال بأية صورة من صور التأنق ، وزاهداً تماماً في أى محاولة بمجاراة الآخرين في رفاهية العيش . وكان يفترض أن لدينا نفس الدرجة من اللامبالاة في سن لم تكن تسمح لنا بمجاراته في بساطته . تهور مرة فأعلن لنا أنه قرر شراء سيارة جديدة من طراز دكرايزلر لتحل محل سيارته القديمة التي كانت تثير الرئاء من فرط قدمها ، وتستدر الضحك والسخرية من أصدقائنا . وقمنا نحن بإعلان الخبر على الفور للأصدقاء ، ونحن نشعر بمنتهى الفخر . فإذ به يصيبنا بخيبة أمل كبيرة إذ يخبرنا بعد بضعة أسابيع بأنه قد استرد العربون ، وألغى فكرة السيارة الجديدة ، إذ هذه تفكيره إلى أن الأمر لا يزيد على أن يكون حماقة بالغة ، وحباً للمظاهر الفارغة ، ما دامت السيارة القديمة قادرة على أداء الوظيفة المطلوبة منها لعدة سنوات أخرى .

هكذا كان حاله مع كل مظاهر المدنية الحديثة . فقلّة الماء والإبريق الفخارى الواقفان في صينية على سور الشرفة ليشرّب منها الجميع ، يغنيان عن الشلاجة الكهربائية ، وجهاز الراديو يغنى عن الجرامافون والأسطوانات . . إلخ . ومن ثم لم يكن بيتنا يحتوى إلا على الضروريات ، فلا أذكر أن صورة جميلة قد علفت على الحائط ، أو قطعة أثاث جديدة اقتنيت بسبب جمالي بحت . ومع ذلك فمن المؤكد أن أبى كان يحمل إلى جانب حسّه الأخلاقى القوى ، حسّاً جماليّ قويا كذلك . كان حسّه الجماليّ يظهر في جلوسه أمام البحر ساعات طويلة يتأمل تتابع أمواجه ، أو في حبه للخروج إلى الصحراء للاستمتاع بالامتداد اللانهائى للرمال وبالهدوء الشامل ، وفي تفضيله للجلوس والكتابة أو القراءة في الحديقة ، وفي متابعته لما نما وما لم ينم من أشجار وزهور ، وفي كراهيته الشديدة للضوضاء والصوت المرتفع ، وفي تقديره للغة الجميلة والنكتة الذكيّة ، بل وربما ، قبل هذا وذاك ، في حسّه الأخلاقى القوى . أوّلى صحيحاً أن الحسّ الأخلاقى هو من نفس فصيلة الحسّ الجمالى أو هو جزء منه ؟



لا أعرف الكثير عن طفولة أمى وظروف نشأتها ، اللهم إلا أنها كانت من أسرة

متوسطة الحال تعيش في قرية من قرى الموفية (زاوية البقلي)، وأن أباه كان قاصيا في مدينة إقليمية، مات في طفولتها، فهي لا تكاد تعرفه، وإن كانت ظلت دائما تنخر به، من باب محاولة تحقيق درجة من الندية مع أبي، فتكرّر أنه كان قاصيا، وأن عبد العزيز باشا فهمى عندما اتصل تليفونيا مرة بأبي، وردّت هي على التليفون وعرف أنها بنت القاضي عبد الوهاب فهمى وكان من نفس قرينته، ترخّم عليه وأثنى عليه طويلا. ثم ماتت أمها وهي في نحو العاشرة من عمرها، فانتقلت أمى وإخوتها اليتامى إلى بيت خالتها.

كانت القصة التي لا تغل أمى من روايتها لى، عدا قصة كفاحها أثناء حملها بى، هي قصة حبها الأول، وما صاحبه من شجون وخيبة أمل ظلت معها، فيما يبدو، إلى يوم وفاتها. كان لأمى خال آخر، غير الحال الذى تقيم فى بيته، وقعت أمر فى حب ابنه ووقع هو فى حبها. وتعاهد الاثنان على الزواج، فذهب أبو الفتى العاشق إلى أخيه، ولىّ أمر الفتاة العاشقة، يطلبها لابنه، فرفض الطلب بقسوة، إذ كان لولىّ الأمر بنات فى سن الزواج ولم يكن يرغب فى أن تزوج البنت اليئسة قبلهن، وأخذ يختلق الأعذار لرفض. سأل عن المهر فقبل له إن الفتى لا يملك شيئا ولكنه مستعد لدفع المهر المطلوب بالتقسيط. فرد لولىّ الأمر ساخرا بأن ابنة أخته ليست مأكينة خياطة يمكن شراؤها بالأقساط. تحطم قلب الفتى وورقد مريضا من شدة الحزن، وكتب رسالة إلى محبوبته حفظتها أمى عن ظهر قلب من كثرة قراءتها لها، ثم حفظتها أنا عن ظهر قلب من كثرة ترديد أمى لها على سمعى. قالت لى إنها كانت تبكى بكاء مرّا كلما وصلت إلى نهايتها التى تقول: «وبالاختصار أن مريض، ولم أر مثل هذا المرض من قبل فى حياتى: لا نوم ولا أكل وجميع حسمى يورجنى، وهذا المرض جاءنى من يوم مقابلة الحال مع العم. قال هذا العم كلاما يضحك ويبكى. فإن كان لى عمر تقابلنا وإن لم يكن، فعليك منى ألف سلام» والتوقيع «مريض سشتاق».

هربت الفتاة من بيت خالتها، على أثر هذه الواقعة، دون أن تخبر أحدا بما عزمت عليه. وقصدت قريبا من أقرانها كان يقيم بالقاهرة، واسم الشراء وعظيم الجاه اسمه

محمد عفيفى باشا، كان يشغل وظيفة عالية فى الدائرة الملكية، وله بنت فى مثل سن أمى اسمها (هدية)، وتزوجت فيما بعد رجلا من عائلة كبيرة أصبح له شأن كبير فى السياسة المصرية (بهى الدين بركات). استقبلت العائلة الأرستقراطية العريقة هذه الفتاة اليتيمة وذات القلب الكبير بالترحاب، وأحاطتها بالحب والعطف فقصت الفتاة معهم سنتين أو ثلاثا، كانت دائما تذكرها بالحب والامتنان وكأنها كانت أسعد سنوات حياتها. كان يسرها غاية السرور أن تذهب لإيقاظ الباشا العجوز فيتسم لها بمجرد أن يفتح عينيه قائلا إنه يستبشر بوجهها. فكانت تنبظه أحيانا بأن ترسل إليه من يوقظه غيرها فيغضب ويقول إنه لا يريد أن يوقظه أحد غير «زينب» فيزداد سرورها، إلى أن تقدم أبى لزوجها فبدأت متاعبها، أو هكذا كانت تقول.

وجدت أبى رجلا قليل الكلام لا يعرف المزاح أو المرح. وهو يطلب الزواج منها دون أن يراها، فليس هناك إذن حب ولا حتى تفضيل لها على غيرها، بينما هناك على قيد الحياة قلب ينبض بحبها ولا يتمنى سواها. ثم تصطدم الفتاة فى أول أيام الزواج بعد انتقالها، إلى بيت الزوجية بانشغاله المستمر بكتبه وأوراقه. تدخل عليه لتخبره بأن الغذاء جاهز فيشير بإصبعه إلى رأسه علامة انشغاله بالتفكير، وكان وقتها - كما شرح هو لنا فيما بعد - يترجم جملة صعبة من كتاب «مبادئ الفلسفة» بالإنجليزية الذى كان قد تعلمها حديثا. تسأل الفتاة نفسها باستغراب عما إذا كان هذا هو معنى الزواج، ثم ترفض الفكرة قائلة لنفسها: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فقد رأيت خالى يكلم زوجة خالى أحيانا». ويزيد الأمر سوءا الموقف العدائى الذى تجده الزوجة من شقيقات الزوج ودأبهن على انتقادها منذ اليوم الأول. فإذا أرسلهن الزوج لتفقد بيت الزوجية قبل الانتقال إليه للطمئنان على أن أهل العروس قد فرشوا البيت فرشًا ملائمًا، عادت الشقيقات إليه بتقرير غير سار وملء بالانتقادات، من أهمها أنهن لم يعثرن فى البيت على كنكة لصنع القهوة. وإذا اشتد اليأس وخيبة الأمل بأبى استجمعت يوما شجاعته وسألت أبى عما إذا كان يقبل الزواج من أختها بدلا منها، فكانت إجابته «لا أنت ولا أختك». ثم فكر جديا فى الطلاق منها عندما وقعت الواقعة التالية:

كانت أمي وأختها مشغولتين يوماً بالعجين وصنع الفطائر والكعك استعداداً للعيد، وكانتا يتبادلان الحديث والضحك عندما وصل الفطير من الفرن فلاحظنا انتفاخ إحدى الفطائر انتفاخاً غير عادي، فإذا بأمي تسأل أختها ضاحكة عما يترى الشخص المنفوخ مثل هذه الفطيرة؟ - قاصدة أبي - ثم تنفجر الأختان بالضحك، وإذا بأبي واقف عند باب المطبخ يسمع حديثهما. وترتعد أمي خوفاً ويغضب الزوج غضباً هائلاً وتدور فكرة الطلاق في ذهنه، ولكن العقل والمنطق يتغلبان في النهاية، كالعادة، وتعود الأيام إلى سابق عهدها بلا طلاق ولكن أيضاً دون الكثير من الحب.

لا بد أن الأمور قد تحسنت مع مرور الزمن، فلماذا أن أبي قد زاد كلامه مع أمي عما كان في البداية، إذ لا يتصور أن تحمل منه عشر مرات دون ذلك، ولكن خيبة الأمل ظلت كامنة في قلب الزوجة التي لم تشعر فيما يبدو بالحب الحقيقي إلا لآلئ حالها. كان الزوج يعالٍب دون جدوى آثار بيئته الأولى وما تعرض له من تربية صارمة في طفولته. فمع أفضل الأفكار التي كانت تدور برأسه عن الأسرة السعيدة ومع كل حسن نية، لم يكن قادراً على التخلص من دور الزوج الديكتاتور صاحب السلطة المطلقة أو أن يجد في نفسه القدرة على ملاطفة امرأته. ظلت والذتي طول حياتها لا تستطيع أن تصدق أن زوجها لم ينادها باسمها مرة واحدة، بل كان إذا أراد أن يلفت نظرها إلى شيء صاح «يا ولد» فتفهم أنها هي المقصودة. وكانت تتندر بذلك أحياناً إذا أحسّت منه ببعض الرضا، فتسأله عما إذا كان من المحتمل أن يأتي اليوم الذي تترقى فيه فيخاطبها على الأقل بـ «يا بنت!»، إذا كان مصراً على رفضه أن يناديها باسمها. كان أقصى ما يستطيع، إذا شعر نحوها بمتنها الرضا أن يناديها بـ «أم حمادة»، مستخدماً اسم التذليل لأكثر أبنائهما، ولكن هذا كان أمراً نادراً للغاية لا أذكر أني سمعته منه أكثر من مرتين أو ثلاث طوًل حياتي، وإن كانت هي شغوراً بذكر القصة التالية على مسامعنا، عندما توديت بالفعل بـ «أم حمادة» في ظروف كان أبي يشعر فيها بمتنها الاضطراب والتجمل أمامها، وهو الأمر الأكثر ندرة بالطبع والأكثر مدعاة لشعورها بالاعتزاز والفخر.

أما القصة فهي أن أبى كان يخطر له أحيانا فى لحظة من لحظات سأمه من القراءة والكتابة، أن يقوم بعمل غير مألوف لديه، من باب الترويع عن نفسه، كصنع المربى مثلا. كانت أمى فى زيارة لأخيها عندما خطر لأبى مثل هذا الخطر فأبى بعض البلج وشرع فى صنع المربى، فوضع البلج مع بعض السكر على النار ونسى أن يضيف الماء. ثم خطرت له فكرة مقال جديد فتأدّر المطبخ واتجه إلى حجرة مكتبه ليشرع فى الكتابة ونسى أمر المربى برّته. وصلت إليه بعد مدة رائحة حريق، فإذا به يجد البيت كله وقد امتلأ بالدخان بينما كانت أمى تصعد السلم عائدة من زيارتها. استقبلها أبى فى أعلى السلم وهو مضطرب، وقد اعتلت وجهه ابتسامة عريضة وقال لها مرّ حبا على غير عادته: «أهلا بالسّ أم حمادة!». وأصبّت أمى دهشة عظيمة، إذ تستقبل هذا الاستقبال الخافى، وبهذا التعبير الودى غير المألوف، فنظرت إليه نظرة ملؤها الشك قائلة: «والله إنك عامل عمّله»، وسرعان ما اكتشفت قصة المربى التى لم يكن من الممكن إخفاؤها فاتضح لها كل شىء.



نعم، كانت أمى تودد من حين لآخر قصة حبها لابن خالها وحبها لها، ولكن القصة كانت تبدو لى عندما كنت أسمعها منها وأنا صغير، مجرد قصة مضحكة ومسلية، لا أكثر ولا أقل، كما كانت تبدو لى وكأنها قد حدثت فيما قبل التاريخ، عندما كانت أمى فتاة صغيرة جميلة قادرة على الشعور بالحب وإثارة الشعور بالحب. فإذا بى أكتشف فيما بعد أن الأمر كان جدّا محضاً بل وكان يحمل طابعا مأساويا بكل معنى الكلمة. لقد تُوفى أبى فى سنة ١٩٥٤، وبعد ذلك بستين حدث الاعتداء الإسرايلى على مصر المشهور بحرب ١٩٥٦. وقد راح ضحية هذا الاعتداء عدد كبير من الشان المصريين، كان من بينهم ابن هذا المعشوق القديم، ابن خالها. وتعرفت أمى على اسمه على الفور من قراءتها لصفحة الوفيات فى جريدة الأهرام. وقد استرعى انتباهى أثر هذا الخبر على أمى بالمقارنة بأخبار أخرى مماثلة، وعبرت أمى عن ضرورة ذهابها لأهل الشان المتوفى للتعزية، وأخذت تفيض فى التعبير عن حرقة القلب التى لا بد أن تكون قد أصابت أباه وأمه. وذهبت أمى

للتعزية وعادت وقد بدا عليها التأثر والحزن الشديداً. ثم مرت شهور قليلة جاء بعدها الأب نفسه ليشكر أُمى على قيامها بالعزاء. وجلسا معا فى شرفة بيتنا يتبادلان الحديث. كنت أراه فى ذلك اليوم لأول مرة، فرأيت رجلاً مهيب الطلعة فى نحو الخامسة والستين من العمر أو أكثر، فارح الطول وأنيفاً أناقة واضحة. لم أعلق أهمية وقتها على هذه الزيارة ولكننى عندم تذكّرتها بعد وفاة أُمى بعدة سنوات، بدت لى هذه الزيارة وكأنّها نهاية مزرّة لقصة حب ظل مكتوماً ومحروماً من التعبير عن نفسه لعشرات السنين. كنت أدرس فى إنجلترا عندم توفيت والدتى، ولكن أختى الكبرى قالت لى إن أُمى قبل وفاتها بأسابيع قليلة جاءها خبر وفاة ابن خالها فلم تعلق عليه، وإن كان قد بدا عليها حزن عميق لعدة أيام قبل أن تُعرض المرض الذى أودى بحياتها.

(٢)

مذكرات أبي عن أمي

كان أبي في الخمسين من عمره عندما ولدت ، وكانت أمي في نحو الأربعين . وعندما بدأت أفهم معنى العلاقة الزوجية كان أبي قد جاوز الستين وأمي جاوزت الخمسين . لم يكن من المتوقع إذن أن أشهد أى منظر للتودد بين أبي وأمي أو لتبادلتهما أى نوع من عبارات الحب والفرام . بل أصبح نشوب الشجر بينهما مع تقدمهما في السن أكثر تكراراً بكثير من لحظات الصفاء . أثر هذا بلا شك على تصوّري لطبيعة العلاقة بينهما ، وربما جعلنى هذا أبالغ فى تصور ما كان يشوب هذه العلاقة من جفاء .

لهذا كان استغرابي شديداً عندما وقعت يدي ، منذ سنوات قليلة ، على مفكرة ترجع إلى سنة ١٩١٧ ، كتب فيها أبي مذكرات يومية يدور أغلبها حول علاقته بأمي . فقد تبين لى من قراءة هذه المذكرات أن سنواتهما الأولى لم تكن فقط خالية من الشعور بالودودة والحب ، كما أن أبي يبدو من قراءة هذه المذكرات فى صورة رجل أكثر رقة بكثير من الصورة التى استقرت فى وعيى من خلال ما كانت تردده أمي على أسماعى من شكوى .

بدأ تدوين أبي لهذه المذكرات فى ٩ يناير ١٩١٧ وعمره ٣١ سنة ، وكان قد مضى نحو عام على زواجه ، واستمر يكتب فيها على فترات متقاربة حتى نهاية العام ، عندما بلغ عمر أول أولاده ثلاثة أشهر . وكان يكتب بصراحة لافتة للنظر ، وإن كان أحيانا يكتب بعض الجمل المتعلقة بزوجه بالإنجليزية ؛ خوفاً من أن تقع المفكرة فى يدها فلا يقرأ فيها .

وسوف أخل للندري هنا معظم ما كتبه عن علاقته بأُمي، مما يلقي بضوء ليس فقط على شخصيته وشخصيتها، ولكن أيضاً على بعض اجوانب الشائعة من حياة الأسرة المصرية، المتتمة لشريحة من الشرائح المتوسطة من الطبقة الوسطى، في مطلع القرن العشرين.

٩٥ يناير ١٩١٧ - أشعر كثيراً من الأوقات بأنني سعيد لأنني رزقت wife مدبرة ونظيفة، ذات عواطف مخلصة، لا تقول غير ما تضرر، وإن كنت أحياناً - feel rath-er painful for she is not very beautiful وأحمد الله على هذه الحال.

وقد أحسبت بأن العلاقة بيننا تزداد متانة بمرور الأيام. لست أجد زمناً أخلو فيه بنفسى كثيراً، كما كنت أجد، ولا أقرأ كثيراً كما كنت أفعل. فإذا قرأت يوماً كثيراً أنبني ضميري لأنني لم أعطيها حقها من الالتفات، وإذا لم أقرأ أسفت بذلك. فأن بين أثنين. أحس بأنه يجب علي تنمية عقلها ببحث بعض المعلومات العامة، وأرجو أن أوفق إلى الشروع في ذلك والسير فيه.

١٩ يناير - مع أن معيشتي على العموم بعد الزواج خير مما كانت قبله، فقد اعترضتني صعوبات سببها أمراض اجتماعية من حجاب، وعدم انتشار تعليم البات تعليمًا كافياً. . إلخ.

٢٢ يناير - بلغني اليوم خبر عجبت له جد العجب. فقد كنت خطبت فتاة من أبيها وهو متوسط الحال، ليس من عائلة عريقة في المجد، ورفض أبوها أن يزوجها لأنني معتم، ثم زوجها من شاب في المحاكم الأهلية بماهية قدرها خمسة جنيهات، وهو «ظهورات» (أي غير مثبت في الوظيفة) وأقل مني استقامة.

٢٣ يناير - لي نحو ثلاثة أيام أحس فيها بشيء من الضيق for my wife is not very beautiful وألوم نفسي على هذا الألم، والواجب حمد الله على ما وصلت إليه.

وكان هذا الألم على أثر حديث حدثتني فيه أختي عن فتاة كانت خطبت لي، وكانت very pretty، وكانت قد رضيت أخيراً بتزويجي ففضلت عليها زوجتي التي اخترت.

٦ فبراير - انتهى اليوم بأسف وحزن . وتفصيل ذلك أن والدتي ، قبل اليوم ، شكت لى من عدم مجاملة زوجتى لها . وقد جرث بينهما بعض منازعات صغيرة على أمور تافهة ، مثل أن والدتي تريد أن تناديهما (يا والدتي) وتأتى زوجتى ذلك بحجة أن والدتها متوفاة وذلك يذكرها بوفاتها .

ولاحظت اليوم . . أن زوجتى لا تحامل والدتي ، ولا تقابلها ببشاشة ، ولا تتكلم معها كلام المحب المحترم ، فلا تتكلم إلا القليل ، وما تتكلمه تتكلمه ببرود . فبعد أن نزلت والدتي خاطبت زوجتى بكلمات تأنيب على عملها وردع لها عن العود لى مثل ذلك . ومما قلت لها :

«إنى أجالس خادmates الباشا إرضاء لك فلا يليق ألا تحاملى والدتي إرضاء لى» . غضبت من ذلك وغضبت . وأنا ساعة هذه السطور غضوب أسف . أتردد بين مصاحتها وعدمها . أقول لعل تركها وقتنا أطول أردع لها ، وأقول من جهة أخرى لعل ما عندها من صراحة وعدم خلطة بالناس حملتها على ذلك ، وبالتعلم تتعلم .

وكل هذه دروس تعلمنى التمسك برأى فى البقاء بمنزل وحدى ، وعدم سكتاى مع أهلى ، فإنه إن كان النزاع ونحن وحدنا وهم وحدهم ، لا يجمعنا إلا التزاور ، فما بالك لو كان الاجتماع دائما والمعيشة واحدة؟

٧ فبراير - استحسنت إظهار قوة إرادتى نصممت على هجرها مدة ، وضغطت على نفسى يوما ونصفا إلى أن جاءت زائرة ، فاضطرونا إلى التخاطب أمامها ، وزال الحصام ، وحصل ما كنت أريده من التأثير .

١٦ فبراير - تحقق أنها حامل ، وقد كنا - كما ذكرت - نود أن لو تأخر حتى نتمتع بالزوجية جد التمتع ، ولكن لم يقع ما أملنا . وابتدأت تظهر مشاعب الحمل وتغيصاته .

وبالأمس سألتها رأيها فى صاحب لى يود الزواج بفثاة تعرفها ، وكانت على مثل الحال الذى وصفت ، فقالت إنها صالحة لزواجه ولكن خير من ذلك أن تصحه بعدم الزواج . . ولعلنا لا نقول هذا القول فى أوقات سرورها .

أخشى أن يرث أولادى منى قصر نظرى ، وأرجو أن يرثوا نظرهم من أمهم فى أطول وأجمل عينا .

ندم كثير من النساء اللاتى رفضن أن يزوجن بناتهن لى بحجة أنى شيخ ، على رفضهن ، بعد أن شاهدن حسن معاملتى للزوجة وحسن سيرتى فى بيتى . فحدثنى والدتى أن زوجة أفتدى التى رفضت الزواج بى أنت البيت ويكت فى أثناء حديثها وندمت على ما كان من الرفض .

١٤ مارس - لا يزال أبى وأمى وأختى يلحّون فى الرجوع إلى بيتنا القديم والاشتراك معهم فى المعيشة (على أن) يخلوا لى دورا من دورى البيت أعيش فيه ، وأنا أرفض . . . وكنت أظن أن مضى أربعة أشهر على معيشتنا هذه بنسبهم (هذا الأمر) . ولكن لم يكن ذلك ، فاستمروا يلحّون وتظهر عليهم أعراض الحزن الشديد لفراقى .

١٩ مارس - قالت لى مدرستى الإنجليزية Miss Power : «استحسن أن تعيش مع والدك وتضحى شيئا من لذائذك لإرضاء والدك فى آخر أيامهما» . وقالت : « إننى فى مصر الآن أتمتع بحسن جوها وهو أوفق لصحتى ، ولو دعيتى أمى لسافرت إليها على أول باخرة ، وضجيت جو مصر المناسب لى إرضاء لوالدتى » . فاستحسننت كذلك ما رأت .

٢٠ مارس - تهيب زوجتى من الذهاب إلى بيتنا لتخويف بعض النساء إياها من المعيشة مع أم الزوج . ولذلك أراها واجمة تفكر فى ذلك كثيرا ، وأحاول تخفيف ذلك عنها فلا أفلح .

٢ إبريل - جاءها دور الغضب فبكت ، وغضبت من غضبها ووبختها بكلام أشد . وامتنعت عن الأكل طول يومها ، ثم أخذت تسترضىنى ووعدت بعدم العودة .

لا تزال أمى تعتقد فى زوجتى الكبير لأنها لا تقول لها «يا نيتى» ، ولأنها لا تعاملها . وزوجتى من طبيعتها عدم المجاملة فهى تقول «صباح الخير» و«كيف أنت؟»

ولا تريد . . . وقد نصحت أمي وزوجي بأن خطئي التي رسمتها إلا أسمع كلمة من أمي في حق زوجي ولا من زوجي في حق أمي ، وفهمت أمي أن هذا طبع وليس بكبر .

١٨ مايو - كنت أخشى قبل الانتقال إلى بيتنا الحالي أن تفسد أخلاق زوجتي . فإني أعتقد أنها صريحة لا تكاد تخفي عنى شيئاً ، صدقة فقلما تكذب ، وإذا شاءت الكذب ظهر ذلك على عينيها فقرأت الصدق فيهما . وقد تبين لي صدق رأيي في هذه الخشية ، فكلتا زوجة أخى وبته مكاراة كذوبة قادوة على إحقاف ما فى نفسها ، تعمل أعمالا كثيرة من ورائي ثم لا يظهر عليها ما عملت . وقد ابتدأت أشعر بتأثير ذلك فى زوجتي . فمن حديث طويل اليوم عرفت أنها خرجت فى هذا الشهر من غير إذن ثلاث مرات (لزيارة بعض السيدات) ، ولكنها لم تستطع أن تكتم ما فى نفسها فباحث به . فألمت جد الألم ، وخفت من شر أتوقعه واجتهدت فى درء الشر ، وعسى أن أوفق فيه . (أضاف أبى ما بين القوسين بقلم مختلف على سبيل الاستدراك!) .

١٩ يونيو - من أغرب ما أروى أن لى مدرسة إنجليزية احتفلت فى العام الماضى بمرور ٦٤ سنة عليها . فهي عجوز ، وهى غير جميلة المنظر . لى معها ثلاث سنوات تدرس الإنجليزية . رغبت فى زيارتي فى هذا اليوم فذهبت إلى منزلها بميدان الأزهار ، وركبت معها عربة وأنا خجل جداً ؛ لأن الناس لم يألفوا شيئاً معهما يجالس أوروبية ويحدثها ، ولكنى لم أعبأ بالرأى العام فى هذه المسألة ، حتى وصلت إلى البيت فأظهرت التألم من مبالغة الناس فى الرشى أمام البيت ، لما رأيت كثرة المياه التى تحولت إلى وحل . وصعدت المنزل فقابلتهما زوجي ببشاشة وترحاب ، ثم والدتي ثم أختى وبنت أختى . وشرنا الشاي جميعا وكنت أترجم بين المدرسة وأهلى ، وكان موضوع الحديث يدور حول مسائل عادية ، من تقصيرى السكنى مع الأهل ونحوه . مكثت ساعة وانصرفت ، فركبت الترام وركبت معها إلى الأزبكية ، وأركبتها ترعواى الجزيرة إلى ميدان الأزهار ثم ودعتها وانصرفت .

رجعت إلى المنزل بعد نحو ساعتين ، فى موعدى المعتاد ، فأحسست من زوجتي بشيء من النفور ، فنجيتنى ببرود ، وتعمل ما تعمل بثل . سألتها عن السبب فقالت :

لا شيء ، وإنما أنا نعية أريد النوم . ألححت عليها فما زادت عما قالت . نامت ولكن لا كالمعتاد ، فكانت نافرة تصدر عنها حركاتها بشراسة ، حتى أصبحت ، فقالت : إنى أُرغب فى الخروج وأريد المكث فى بيت الباشا أسبوعاً أو نحوه . ألححت عليها فى بيان السبب فقالت :

«الإنجليزية» . «مالها» ؟ . «تركبها العربة ، وتركب معها ، وتسير بجانبها وهى لابسة لباساً خليع ، و . . . و . . . » . ففهمت أنه أدركتها الغيرة من هذه المعجوز التى لا تُستهى بحال . فعجبت من ذلك جد العجب ، ووبختها على ظنّها السيئ ، وأهمّلها ، ثم أنت واعتذرت وانتهت المسألة .

٣ يوليو - رأيت أنى لا أصل إلى الخير إلا بالخوض فى كثير من الشر ، فخضت . علمتلى التجارب أن المرأة - وربما كل إنسان - لابد لها من دائرة ترك لها فيها الحرية فتتصرف كما تهوى ، وتكون هى فيها الرئيسة ، وإلا لا يستقيم حالها ، إلا إذا كانت امرأة ميتة الإرادة .

كان أغبط شيء لزوجى أنها لا تنصرف فى البيت تنصرفاً ما . فزوج أختى أو ابنته تطبخ وتهبى الأكل . وزوجى تنزل فتأخذه جاهزا . فشكت لى من ذلك ففرضت على كل واحدة أسبوعاً تطبخ فيه ، ومنهن زوجى . فتعدى عليها فى نوبتها فألمت . وقد قالت لى إنها وهى تأخذ الأكل من تحت ، تغرورق عينها بالدموع تخفيها عن الناظرين باختفائها ومحاولتها عملاً من الأعمان . فرأيت خير طريقة أن أنفصل فى معيشة وحدى . وقد أغضب هذا والدنى واعتقد أن سيزول هذا الغضب وتؤلف الحياة الجديدة . وقد اعتقدت أن لزوج أختى دخلاً فى إفهام أُمى أشياء على غير حقيقتها للإيقاع . فأفهمتها أنى عالم بذلك وحذرتها من العودة .

٣١ يوليو - جرى بينى وبين my wife حديث مفيد لى أمس . تذاكرنا امر-marriage وكيف ابتدأت الخطبة وكيف أن الخاطبات are deceived قالت : « إن زوجة محمود أفندى فهمى ، وهى السبب فى الزواج ، خذعها التقرب من بيت عفيفى باشا واحترام العائلة لها فأرادت أن تكتسب صحة هذا البيت بزواجى ؛ لأنها رأتنى على طبيعتى خالية من الزينة والحلى ، لابسة ثوبى العادى ، ولكن أرضاها أنى من

بيت الباشا وقريته». وأما أختي وزوج أخي وباقي الخطابات فقد خدعتهم أمور أولها: أنهم خجالات، وقد فقدن شعورهن أو كدن يفقدن بدخولهن في بيت ضخم وتقدم لهن أنية ضخمة، غاية في الجمال. وتمر عليهن خادما لإفريغيات غاديات رائحات. وثانيها: حديث جميل خلّاب من زوجة الباشا. وثالثها: قصر الوقت الذي جلست فيه الزوجة أمامهن. وقد كنّ في كل مرة تذهب الخطابات يجلسن في حجرة غير ما قبلها. ورابعها: أنهن ألبسهن عقدا من اللؤلؤ لبنت الباشا تساوي مئات من الجنيهات فظنن أن هذا لها وأن مصاعها وجهازها سيكون بالغاً متهى الجمال. وهذا يعلل الغضب والحزن الذي اعترى أعلى عتد رؤية الجهار. وخامسها: مهارة بيت الباشا في تزيينها (بنمة) جميلة.

ذكرت لى زوجى هذه الأمور على سبيل المزاح، ولكن it has great effect علىّ. فقلت أيضا مازح: «وقد تم الحدع بدعوى زوجة ابشا، كما بلغنى، أن لنت خمسة جنيهات شهرياً» فقالت: «نعم» وتم الحديث. ترك الحديث في نفسى أثراً وموعظة وأمنت بالقدر خير وشره.

٢٧ سبتمبر - فى هذا اليوم، يوم الخميس ٢٧ سبتمبر ١٩١٧ الموافق ١٠ ذو الحجة ١٣٣٥ هـ، الساعة التاسعة والعشرون دقيقة مساءً، وكُنْد لى مولود سميتة «محمد أمين»، وقد استمرت أمه فى ولادته نحو ثلاث ساعات مع أتم شديد، ولما نزل قالوا كعادة النساء إنها ولدت منتا فشعرت بشىء من الحزن خفيف جداً، ومكثت أبنى آمالا على تربيتها وتطبيق النظريات العصرية فى تهذيبها إلى غير ذلك، وبعد ذلك بنحو ساعة قبل لى إنه ولد وشعرت بفرح أكثر.

وقد كنت من قبل الولادة موهوما وجلّاً حساساً حساب ما أنا قادم عنه من أنى أب وما أكلف به من مشاق الأبوة، خائفاً أن يرث عنى قصر نظرى فيتعب فى الحياة. ثم لا ولد كان يماز حتى أحيانا أمل فيه وفى تعليمه وتربيته، وأدعو الله أن يرزقه جمالاً فى جسمه وعقله وخلقه.

وقد تأملت بعض الأثم لانتقاد أعلى عليه كبر أنفه، وبالغوا فى وصفها بالكبر، وحمدوا الله على أنه ذكر، ولو كان بنتاً ما كانت جميلة ولصعب زواجها. أما أنا

فيصبرنى عن ذلك ما قاله صديق لى إن الأولاد لا يظهر جمالهم أو قبحهم فى الأيام الأولى من ولادتهم . وحدثنى أنه كان له ابن ولد كبير الأنف جداً وهو الآن صغيرها . على أنى أعتقد أن جمال علمه وخلفه ، إن عم ذلك ، سيهوض عن جمال بدنه . وإبتدأت لا أتمتع بما كنت أتمتع به من قبل من النوم الهادئ العميق ، فالأم تشكو من الوجع . وغداً سيبكى الولد لحاجته إلى الرضاع أو نحو ذلك .

٤ أكتوبر - مضى هذا الأسبوع والمولود كثير البكاء ونحن شديداً والتعب؛ لأنه جوعان ولا يعرف كيف يرضع لأن ثدى أمه ليس له حلمة بارزة ، وتغلى له البنسون فيثعبه . وقد اشتد ضجرى من ذلك وكان سبباً فى انتقال والدته به إلى حجرة أخرى .

٢٢ ديسمبر - طعمنا المولود هذا اليوم ، وقد انتظم فى نومه ورضاعه وقلل من بكائه . وحمدت الله لأن أنفه صغرت عما كانت وصار أجمل من يوم ولد .

٣١ ديسمبر - لا تزال نجد بعض حظرات أقول فيها فى نفسى "ليتنى رزقت more beautiful wife" وأرجو أن يهدأ فكبرى فى هذا الموضوع وتقر نفسى .

(٤)

البيت

لم ترث أمي قرشاً واحداً من أسرتها ولم يرث أبي شيئاً يذكر، ولكن كان لأبي دائماً دخل معقول من وظيفته، كمدرس أو قاض أو أستاذ في الجامعة، بالإضافة إلى مكافآت عما ينشره من مقالات وكتب أو يشترك فيه من لجان، سمح له بشراء بيت من دور واحد في مصر الجديدة، ثم ببناء دور آخر فوقه .

كانت الملامح الأساسية لهذا البيت، الذي عشنا فيه طوال الثلاثينات ومعظم الأربعينات، تتكرر بحذاق في معظم بيوت أقاربي وأصدقائي ومعارفي . حجرات وشرفات واسعة، وأسقف مرتفعة (إذا ما قورنت ببيوت الطبقة الوسطى اليوم) في منزل يندر أن يزيد ارتفاعه على ثلاثة أذوار . لم يكن إذن هناك ما يحول دون وصول الهواء أو أشعة الشمس، كما كان هناك دائماً متسع للأطفال للعب والجري، سواء داخل البيت أو في حديقة صغيرة حول البيت، أو في الشارع، إذ كان من الممكن أن تمرّ عليهم الساعات دون أن يعكر صفوهم مرور سيارة واحدة .

كل هذا صحيح، ولكنني لا أكاد أصدق، عندما أستعيد في مخيلتي ما كان عليه منزلنا وأنا طفل، أي منذ نحو ستين عاماً، ليس فقط خلو المنزل من أي مساحة من الجمال، ولكن كيف أن أحداً منا، لا أبي ولا أمي ولا أنا ولا أحد من إخوتي، كان يلاحظ وقتها هذا الافتقاد إلى الجمال، أو يعلق أهمية على ذلك لو كان قد لاحظته .

الأمر يدعو للدهشة لأكثر من سبب . فأسرتنا لم تكن أسرة فقيرة يعوزها المال اللازم لشراء باقة من الورد من حين لآخر، أو برواز صرورة جميلة وتثبيتها بالخائط، أو انتفاع قماش لتغطية الكنب أو الكراسي بلون ينسجم مع لون السجادة مثلاً . .

إلخ . لالـم نكن عاجزين عن شىء من هذا، كل ما فى الأمر أن شىئـً من هذا لم يخطر ببالنا قط . وأبى رجل واسع الثقافة، بل هو كاتب وأديب عيز الجمال ويقدره فى أشياء أخرى كثيرة، فلماذا لا يلاحظه فى البيت وطريقة تأنيـه؟ وما كان الأمر يحتاج إلى تقدير لشوع معين من جمال هو الذى يتوافر للفنون التشكيلية، وإلى التدريب على إدراك الجمال فى انساق الألوان والخطوط، وهو ما لم يتلقه أبى أو أمى قط لا من المدرسة ولا من خارجها . ولكن الأرجح أن العامل الحاسم كان يتعلق بالبيئة الثقافية بوجه عام . كان المجتمع كله . باستثناء حفنة ضئيلة للغاية تعرضت لتأثير قوى من المجتمع الغربى، ينظر إلى طريقة تأنيـ المنزل نظرة «وظيفية» بحتة، أى أن المهم فقط فى نظرها هو أن يودى الأثاث وظيفته بكفاءة، دون أن يدخل فى هذه الوظيفة أشياء كسالية من نوع إثارة الإحساس بالجمال . الكرسي للجلوس والسرير للنوم والمكتب للكتابة والحمام للاستحمام . . إلخ، فما الذى تريده أكثر من ذلك؟ تعليق صورة على الحائط؟ لماذا بالضبط؟ لا بأس من ذلك إذا صممت عليه، وهى فى هذه الحالة توضع أعلى من مستوى النظر بكثير، لا تكاد تستلفت نظر أحد، وإذا هبَّ بعض الهواء فمالت عن وضعها الصحيح فقد نطل على هذه الحبال سنوات، بل ربما عشرات السنين، دون أن ينتفت إلى هذا أحد، أو يبالى أحد بتصحيح وضعها .

من المؤكد أننى لو قد رى أن أدخل من جديد مطبخنا كما كان عليه من سنين عاما لأصابنى الذهون من حاله ومنظره . نعم لم يكن أبى ليدخل المطبخ قط، أو على الأقل لا أذكر قط أنى رأيته فيه، ولم يكن يدخله إلا أمى والخدمة . ولكن كيف استطاعت أمى أن تتحمل مطبخا بهذا الشكل، تقضى فيه كل هذه الساعات كل يوم، وهو الخالى من أى جمال أو نظام، ومن أى تهوية صحية أو أى وسيلة من وسائل الراحة، دون أن تندم أو حتى أن تلاحظ أن فى الأمر أى نقص يجب تداركه؟ بل كيف استطاعت أمى، على أى حال، أن تنتج من هذا المطبخ الصغير القبيح كل هذه الأصناف الرائعة من المأكولات؟



كان النموذج الشائع للبناء، الذي نادرا ما كان يشذ عنه أى منزل من منازل الطبقة الوسطى فى مصر، هو صالة واسعة (كنا نسميها «الفسحة» قبل أن نطلق عليها الاسم الأفرنجي «صالة») تخرج منها من كل ناحية أبواب يـُـدى كل منها إلى حجرة أو إلى المطبخ والحمام. هذه الصالة أو الفسحة كانت تستخدم فى الأساس لوضع مائدة الطعام التى كانت توضع عادة فى الوسط بالضبط. لم تكن نعرف شيئا اسمه «حجرة الطعام»، بل حتى حجرة الجلوس أو الاستقبال، كانت فى العادة حجرة مغلقة لا تفتح إلا فى المناسبات، فلا عجب أنها كانت تسمى «حجرة المسافرين»، إذ إنها لم تكن فى الأصل تفتح إلا لاستقبال الآتين من سفر طويل. وكانت تحتوى عادة على كراسى مرصوفة فى شكل دائرى بحيث يلتصق كل كرسى بالحايط، على نحو يتكرر فى كل بيت دون أى تغيير أو استخدام لأى خيال.

إذن فحجرات البيت المستخدمة كلها، هي حجرات النوم. وكلها حجرات تستخدم «على المشاع» وتفتقر إلى أى خصوصية، باستثناء حجرة واحدة كانت تتمتع بهيئة منحوطة وتلقى عناية خاصة عند تنظيفها، ولا يدخلها أحد إلا لسبب وجيه. كانت هذه هي حجرة نوم أبى، اكتسبت فى نظرنا الهيبة بل والرهبنة التى كانت تحيط بأى شىء يتعلق بأبى. كان لهذه الحجرة أيضاً اسم غريب ليس من السهل تفسيره وهو «حجرة السرير». فالحجرات الأخرى كانت بها أيضاً أسرة، فهل النسب هو أن حجرة أبى كان بها أفخم سرير، وهو صحيح، أم أهم سرير؟ المؤكد أننى أذكر كيف أنى، وأنا طفل صغير، كنت إذا مدت يدي لأمس الملاءة المقروشة على هذا السرير شعرت بأنها من نوع مختلف تماماً عن أى ملاءة أخرى بالمنزل: ناعمة الملمس كالحرير، وباردة ببرودة منشفة فى عز الصيف. لا أذكر أنى رأيت أمى قط على هذا السرير أو حتى بالقرب منه، وإنما كنت أعتبر أن سريرها هو نفس السرير الذى أنام أنا عليه. ذلك أنى باعتبارى أصغر الأولاد، كنت أحظى بامتياز النوم إلى جوار والدتى بعد أن طُرد الولد الأكبر منى، بمجرد وصولى أنا إلى الوجود، للنوم «تحت الرجلين»، وهو تمبير كان معروفا عندئذ

ومعناه النوم فى نفس السرير الذى يتنام عليه شخص آخر ولكن فى اتجاه معكوس ، ومن ثم كان هناك دائما خطر يتعرض له كلا النائمين وهو أن يصطدم وجه أحدهما بقدمى الشخص النائم فى الاتجاه الآخر .

كان هذا السرير ، ذو الاتجاهات المتعددة ، موجوداً فى حجرة لها اسم بسيط هو «حجرتنا» ، والمقصود بذلك أنها كانت الحجرة التى يتنام فيها «الجمهور» أو «لُعامة» ، تميزُ لها عن حجرة «السرير» التى يتنام فيها والذى . وقد كانت «حجرتنا» هذه ، كالسرير القائم بها ، هى بدورها متعددة الأغراض . ففضلاً عن السرير ، كانت تحتوى أيضاً على مرتبة موضوعة على الأرض ، يجلس عليها للحديث أو لتناول العشاء ، وأمامها مائدة صغيرة مستديرة وقليلة الارتفاع اسمها «طبيلة» . يمكن للفراش إذن أن يتصور درجة الفوضى الضاربة فى هذه الحجرة ، التى كان يمكن أن يجرى فيها أى شئ : «لثوم أو الأكل أو استقبال الزوار من الأقارب ، أو استذكر الدروس أو اللعب والهزار . . إلخ . وذلك بعكس حجرة أبى أو «حجرة السرير» ، التى لم تكن ندخلها إلا إذا شعرنا بأن مزاج أبى يسمح بتبادل الحديث معه ، وحينئذ تدخل أُمى الحجرة ونحن وراءها ، فنختلس النظر بحذر إلى أبى الجالس على الكبة الاستانبولى وهو يحتسى القهوة . فإذا لم نجده مشغولاً بكتاب أو جريدة جلست أُمى على الأرض وجلستنا إلى جوارها كالقطط الصغيرة . كانت هذه الجلسة هى أقرب ما كان يمكن أن يحدث للجلسة «العائلية» الحميمة ، وهى على أى حال لم تكن تدوم طويلاً ، إذ سرعان ما تبذر من أبى كلمة أو حركة يفهم منها أن الزيارة قد انتهت ، فنسحب وراء أُمى كما دخلنا .

لقد ذكرت بعض الأسماء الغريبة التى كانت أسرتنا تطلقها على هذه الحجرة أو تلك ، ولكن الحقيقة أن الأسماء الشائعة لهذا الجزء ، أو ذاك من بيوت الطبقة المتوسطة كانت بدورها أسماء غير مألوفة لأسماعنا اليوم . فالشرفة أو البلكونة كانت تُسمى بالاسم الإيطالى «تراسينه» ، و«التواليت» كنا نسميه «بيت الأدب» أو «بيت الراحة» أو «الكنيف» ، كما أن بيوت هذه الطبقة كانت تحتوى على أشياء ثابتة لا يكاد يخلو منها بيت ولكنها كادت تنقرض انقراضاً تاماً اليوم . من ذلك

«صينية القفل والإبريق» الموضوعة على سور إحدى الشرفات، والتي كانت المصدر الوحيد للماء البارد في الصيف، ثم حلت محلها ثلاجة بدائية لا تزيد على كونها صندوقاً خشبياً لا صلة له بالكهرباء، يوضع في الجزء العلوى منه لوح أو قطع من الثلج على ماسورة متصلة بصنبور يخرج منه الماء البارد، ريشما يذوب لوح الثلج فيستبدل به غيره.

والحقيقة أن الكهرباء لم تكن طوال فترة طفولتى وصباى، تلعب دوراً ذا بال فى حياتنا المنزلية. فلم نكن نعرف من آثارها إلا لمبة الكهرباء التى تتدلى عادة من وسط السقف. فلا ثلاجة كهربائية ولا غسالة أو مكينة أو مروحة كهربائية، ولا جهاز لتكييف الهواء أو تليفزيون. بل حتى الراديو كان يعتبر شيئاً ثميناً يتطلب وضعه على رف عال لا تصل إليه أيدي العابثين. لم تدخل الثلاجة الكهربائية بيتنا إلا فى سنة ١٩٤٧، عندما كنت فى الثانية عشرة من عمري، وكانت ثلاجة أمريكية ضخمة، مرت فترة من الزمن قبل أن نعرف مدى فائدتها، وهل كانت تستحق حقاً المبلغ الكبير الذى دفعه أبى ثمنها، ولكننا مع مرور الزمن أصبحنا لا نتصور العيش بدونها. تلا دخول الثلاجة، وصول الغسالة الكهربائية التى اشتراها أبى وجلبها إلى المنزل دون أن نطلب والدتى منه ذلك، صدقاً بما سمعته عن مدى توفيرها للجهد والتعب. وقد حاول أبى دون جدوى إقناع أمى باستخدام هذه الغسالة الكهربائية، إذ لم تحظ هذه الغسالة من أمى إلا بالاستخفاف والاحتقار، ليس فقط من باب الميل الطبيعى لدى الزوجة للتقليل من زهو الرجل وإعجابه بما يصنع، بل بسبب اعتقادها الصادق بأن الغسيل باليد هو الطريقة الوحيدة لتنظيف الملابس نظيفاً حقيقياً. وعندما قامت أمى بتجربتها تحت إلحاح أبى، أعلنت بحسم تام أن هذه الغسالة الكهربائية تعبها أكثر من نفعها. وتركناها فى مكانها دون استعمال لعدة سنوات حتى فقدت قيمتها بظهور ما هو أفضل منها بكثير، ولكنى على أى حال لا أذكر أنى رأيت أمى قط تستخدم أى جهاز فى غسيل الملابس سوى يديها.

إذا كان هذا هو مصير الغسالة، فلا يجب أن نتوقع شيئاً مختلفاً فيما يتعلق

بالمكنسة الكهربائية، فهذه لم تدخل بيتنا قط حتى انفردت أنا بمسكن خاص بى بعد الزواج. وإنما ظلت وسيلة تنظيف الأرض هى تلك الأداة العتيقة ذات الأهمية البالغة فى أى بيت مصرى، وهى «المقشاة»، أو العصا الخشبية الطويلة التى تنتهى بحزمة من القش. كان استخدام هذه «المقشاة» فى تنظيف الأرض ثم دحك الأرض بالماء والخيش بعد ذلك، هو الوسيلة المناسبة تماماً للبلط الذى لم نكن نعرف غيره فى أرضيات المنزل. كان استخدام السجادة والكليم نادراً، ويكاد يقتصر على فرش سجادة فى «حجرة المسافرين»، أى الصالون، وربما سجادة أخرى تفرش فى الشتاء فى بعض الحجرات المهمة كحجرة أبى مثلاً. وأما الخشب فلم يكن يستخدم على الإطلاق فى أرضيات منزل الطبقة الوسطى أو الدنيا، بل كان مقصوراً على منزل قليلة للغاية من منزل الطبقة العليا المتأثرة بأنماط المنازل الغربية. وعلى الرغم من أهمية هذه «المقشاة» وجردل الماء وقطعة الخيش، وضرورة استخدامها باستمرار مع كثرة التراب فى مصر، لا تعلق بذهنى قط صورة أمى وهى تمسك بأى شئ من هذا، بل كانت هذه المهمة التى تحتاج إلى درجة لا يستهان بها من اللياقة البدنية، تلقى على عاتق الخدم، وعلى الإناث منهم بوجه خاص، الأمر الذى كان يخلق فرصاً لا يستهان بها أيضاً. للدلال أمام الذكور من أفراد العائلة، مما لا يمكن أن يتصور حدوثه بالطبع من المكنسة الكهربائية.

على أن أثر الكهرباء لم يقتصر على إحلال المكنسة الكهربائية محل الكناسة الأدمية. فكلما استدعت ذاكرتى كيف كانت حياتنا فى البيت فى طفولتى وصباى بالمقارنة بما آلت إليه حياتنا اليوم، راعنى كيف أدى دخول الكهرباء إلى جزء بعد آخر من أعمال اليومية، إلى قلب عطف حياتنا رأساً على عقب. فعلى سبيل المثال، كان «يرم الغسيل» يوماً تشيع فيه الفوضى فى البيت بأكمله، سواء كان من يقوم بغسيل الملابس أمى أو غسالة أدمية مدفوعة الأجر. فالحمّام يصبح مغلقاً بسبب حالة الطوارئ التى تستدعى استخدام «طشت» كبير للغسيل، واحتلال تلك المرأة المقرطة السمنة القائمة بالغسيل لما يقرب من نصف مساحته، ناهيك عن الفوضى الناجمة عن صوتها العالى من ناحية ومن بابور اجاز الضرورى لتسخين الماء. . إلخ. كان من النادر أن يصل إلى سمعك صوت راديو (ناهيك عن التلفزيون) من

بيوت الجيران ، ولكن كثيراً ما كنت تسمع أصواتهم ترتفع بالشجار أو النحيب . أدت قلة الأجهزة الكهربائية أيضاً ، إلى شدة اعتماد الطبقة المتوسطة المصرية على الخدم ، فالخدم في كل مكان ، رائحون غادون في كل لحظة ، يرسلون لشراء كمية تافهة من الخبز أو قطعة صغيرة من الجبن ، ثم سرعان ما يبعث بهم مرة أخرى إذا كانت ربة البيت قد نسيت في المرة الأولى أن تطلب أيضاً شراء ليمونة أو ليمونتين ، إذ ليس بالبيت ثلاجة كهربائية تحفظ الأكل من العفن . وهم ذاهبون غادون أيضاً في طريقهم إلى المكوجى أو عائدون منه ، إذ لم يكن يعرف أحد بعد المكواة الكهربائية ، أو ذاهبون إلى القرن العمومي أو عائدون منه ، حاملين صينية المكرونة أو البطاطس ، إذ لم يكن بالبيت فرن خاص به يعمل بالكهرباء أو الغاز . أما لعب الأطفال التى تحتاج إلى الكهرباء ، فلم تكن نعرفها أو نتصورها . كان لعبنا ونهوتنا ، مثل كل شئ آخر فى حياتنا ، «كثيف الاستخدام للعمل و قليل الاستخدام لرأس المال» ، إذا استخدمت لغة الاقتصاديين . فكم لعبت بعلبة سجائر أبى بعد أن يلقي بها فارغة ، وكم استخرجت أصواتاً من وقتها المفضضة الباهرة ، بوضمها ملاصقة لشفتى وتحريكها مع النفخ فيها . فإذا كنا قد حرمتنا فى طفولتنا من تلك السيارات الباهرة التى تسير بالبطاريات ، أو من النماذج الرائعة للقطارات والقضبان . . إلخ ، فقد كان لدينا لحسن الحظ متسع للعب فى الشوارع .

مع مرور الزمن حلت «الأجهزة» بمختلف أنواعها محل العمل الأدنى أو الاتصال الإنسانى المباشر . فقلل التلفزيون من الكلام وربما أيضاً من الشجار ، وقضت الثلاجة الكهربائية على القلة والإبريق ، كما كادت الشلاجة والغسالة والمكواة الكهربائية تغنى الناس عن الخدم وعن الغسالة الأدمية والمكوجى . ولكن هذه الأشياء الكهربائية كلها ، وإن كانت قد جعلت حياتنا اليومية أكثر نظافة وأقل عشوائية ، فرضت على الجميع إحاجة إننى كسب المزيد من المال حتى يمكن اقتنائها . وهكذا بدأ الحديث عن المال وطريقة توفيره أو زيادته ، يزداد فى بيتنا مع مرور الزمن ، بما كان يندر أن نسمعه فى طفولتى .

الإخوة السبعة

كان لدى دائماً اعتقاد واسع بأن الاختلافات الشاسعة بين شخصيات وميول إخوتي السبعة لابد أن يكون مرجعها، قبل كل شيء، عامل الوراثة. فهد نحن نشأنا في نفس البيت، وذهبنا إلى نفس النوع من المدارس، وقضى كل منا، فيما عدا إحدى شقيقتي وأخي أحمد، عدة سنوات في أوروبا، فإذا بكل منا عالم مختلف تماماً عن بقية الإخوة. قد يكون من الممكن اكتشاف علاقة القرابة بيننا من مقارنة شكل العينين أو حجم الأنف، أما الشخصية والميول فلا يشبه أحدهنا الآخر فيها قيد أنملة.

كان أخي الأكبر (محمد) يكبرني بسبعة عشر عاماً، وقد منع هذا الفارق الكبير بين عمريتنا من أن تنمو بيننا أية صداقة حقيقية، وجعل التفاهم بيننا شديد الصعوبة، كما جعل معرفتي بظفولته وسنوات شبابه المبكر لا تعتمد على الخبرة المباشرة بل على ما سمعته من الآخرين. سمعت مثلاً أن أبي كان أشد قسوة في معاملته منه في معاملة أي من الإخوة الآخرين، ظن من أبي بأنه إذا صلح الابن الأكبر اقتضى به الآخرون. كما سمعت أنه تعرض للضرب من أبي بينما لم يضرب غيره. ولكن ما سمعته عن تصرفاته المبكرة يدولي الآن مما يستوجب الضرب حقاً.

كان طويل القامة ذا وسامة واضحة، إذ زان تماماً ذلك الخطر الذي كان يقلق أبي وهو كبر حجم أنفه. كما لم يتحقق قط ما كان يقلق أبي عليه من وراثة قصر نظره، فقد تمتع محمد بقوة الإبصار ولم يحتاج إلى نظارة طوال حياته. شديد الاعتزاز بكرامته، عفيف في غضبه، قليل التسامح، وذو ميل قوى للانتقام ممن يسيء إليه.

له خلق الإقطاعى المستبد، يعامل خدمه ومرءوسيه معاملة أقرب إلى معاملة السيد للعبد، ويخيف الجميع بهاجه وغضبه بل وبمجرد احتمال وقوع هذا الغضب .

لم يظهر لى منه ما يدل على الملية زائدة إلا فى الإدارة وعلى الأخص فيما يتعلق بإدارة أموره المالية . قضى سنوات دراسته طالباً عادياً لا يظهر تفوقاً ملحوظاً، رغم كل ما وجهه أبى من اهتمام لتعليمه وتنمية عقله، ولم يبد أن كان حياة أبى فى نظره ما يغريه بتقليده أو اقتفاء أثره، بل كانت تصدر منه أحياناً عبارات توحى بأنه كان يعتقد أن أبى أضاع من فرسه الكسب واعتلاء المناصب الكبيرة ما كان يعتبره محمد أجدر من قضاء الوقت فى قراءة وكتابة الكتب . لا أذكر أنى سمعته يتكلم عن كتاب قرأه أو مقال أعجبه به . كان حلمه أن يصير مليونيراً، فإذا اختار كلية الهندسة فلاعتقاده بأنه بها أقرب إلى تحقيق هذا الحلم منه بغيرها، وإذا ذهب إلى أوروبا لتحضير الدكتوراه شغلته محاولاته الحصول على توكيل لإحدى شركات الإعلانات الإنجليزية ليورد إلى مصر وسائل الإعلان الأتوماتيكية الحديثة، وكان بالفعل من أول من أدخل إلى مصر ما تحفل به الفاترينات اليوم من إعلانات متحركة، كتمثال رجل ينحنى لك مرحباً، وأسماء المحلات المضيفة بالنيون والنى تحطف البصر بتتابع إضاءتها وإطفائها .

لم يكن من الغريب إذن أن تنشأ فجوة كبيرة بينه وبين أبى . فهما طرفا نقبض . لم يكن بقدرة أحدهما أن يستسيغ طريقة الآخر فى التفكير أو نظره للحياة . كان كلام أبى فى الأدب يمر من أذن أخى محمد ليخرج من الأخرى دون أن يترك أى أثر . أما استهانة أبى بالمال وقلة احتفاله بجمعه فلم تكن تستدر من محمد أى إعجاب . وعندما تجمّع لدى محمد من المال ما يمكنه من شراء أرض واسعة فى المعادى وبناء فيلا فاخرة عليها، فضل بناءها على جزء من الأرض على نحو لا يقلل من القيمة التجارية لبضبة الأرض، ثم ملأ الفيلا بقطع الأثاث التى يمكن أن تزيد قيمتها مع الوقت، فأصبح بيته مخزناً هائلاً للتحف الثمينة . لم تكن زيارته فى هذا البيت مهمة سهلة، فباب الحديقة باب حديدى شديد الارتفاع مقيد بالسلاسل التى تحتاج لمن يأتى من داخل البيت ليفكها، وتغمره أربعة من الكلاب المخيفة التى تهب

مستعدة لالتهامك بمجرد اقترابك من الباب، حتى يصيح فيها أحد الخدم تنهدها وليخفف من روعك . فإذا دخلت البيت راعك ظلامه الشديد، حتى لو كانت الشمس ساطعة في الخارج ، إذ وضعت ستائر ثقيلة على النوافذ لحماية الأثاث الثمين من الشمس . وفي طريقك إلى حجرة الجلوس يمكنك أن تلمح النصف الثمينة متراسة يميناً ويساراً، ولكن الخادمة تقودك إلى حجرة مفروشة فرشاً بسيطاً للعامة لا يحتوي من الأثاث إلا ما قلّ ثمنه بحيث لا يبالى أصحاب البيت بما يحدث له . هنا يقضى أصحاب البيت يومهم تاركين بقية البيت بأثاثه الفاخر قابلاً في الظلام، لا يراه أحد ولا يلمسه أحد إلا في مناسبة أو مناسبتين خلال العام، كترتيب بنت أو استقبال وزير .

من المؤكد أن حب أمي لابنتها الأكبر لم يكن يعادله حبها لأى من أولادها الآخرين ، أو لأى من البنّتين، ولم تكن تنوع عن أن تظهر هذا للجميع . ربما كانت تدرك بغفرتها من البداية أنه، بمبولة واستمداداته الطبيعية، ينتمى إلى معسكرها هي لا إلى معسكر أبى . كان يسيطر عليها شعور دفين بحاجتها إلى «الحماية» من أبى، إذ كانت تشعر بنوع من الخوف المستمر منه، ولم تطمئن قط إلى دوام تماسكه بها . وقد أظهر محمد من البداية أنه، إذا حدث ما يدفعه إلى الاختيار ، فسوف يختار الوقوف إلى جانبها هي . كان وجهها يتهلل لدخوله البيت كما لا يتهلل لأى واحد منا، وكانت تعتز بهدية منه اعتزازاً لا تظهر مثله لأى ابن آخر أو بنت أخرى لها . على أن هذا الحب العظيم أصابها بصدمتين كبيرتين .

كانت الصدمة الأولى عندما دخل عليها أبى يوماً معلناً أنه استطاع أن يحصل لمحمد على بعثة حكومية لتحضير الدكتوراه في إنجلترا . وقع عليها الخبر وقع الصاعقة وأصابها همٌ عظيم : فهي هو الزوج المستبد يفرق بينها وبين «بنها المفضل» ويرسله إلى بلاد البرد القاتل ، وكأنه يتعمد إيذاءها وتجريدها من وسيلتها الوحيدة للتصدى لجبروته . منذ أن عرفت أمي الخبر تتابع عليها مرض بعد آخر، ونعوذ أن نرى ونسمع بكاءها ونحيبها لدى وقوع أى حادث مهما كان صغيراً، أو لدى رؤيتها لفيلم تمثل فيه أمينة رزق دور الأم التي فرقت الأيام بينها وبين ابنتها .

كان نستيقظ ليلاً مذعورين إذ نجدّها قد قامت من نومها تصيح وتشتحب أثر كابوس يدور حول فراقها القريب لابنها، ويحاول أبى تهدئتها قائلاً إن سفر محمد شىء المفروض أن تفرح له وتبتهج به، وأنه لا يجوز لها أن تقف عقبة فى طريق تقدمه. فيكون ردّها أن بإمكانه أن يرسل كل أولادها الآخرين إلى الخارج إذا شاء، بشرط أن يترك لها هذا الابن المفضّل.

وإذ لم تستطع أمى إقناع أبى بالمدول عن رأيه لجأت إلى الحيلة. كانت تعرف مكانة طه حسين ونفوذه فى وزارة المعارف، وأنه هو الذى ساعد أبى فى الحصول لابنه على البيعة، فإذا بها تتصل بطه حسين تليفونياً من وراء ظهر أبى، وتصف له بؤسها وعذابها منذ سمعت الخبر، فيظهر طه حسين أولاً عجبه ثم يلين لها قلبه ويقول لها جملة يرتاح لها قلبها ونظّل ترددها علينا وكأنها الطلسم الذى سيضع حداً نهائياً لعذابها. لقد قال لها الرجل باللغة العربية الفصحى: «كونى واثقة أنه لن يسافر حتى يأتى الأذن منك». ووصلت القصة لأبى عن طريق طه حسين نفسه فاستشاط غضباً، وحاول أن يبدد مخاوف طه حسين بما ذكره له عن «جهل أمى وحماقتهما». ومع ذلك ظلت أمى مطمئنة إلى وعد الرجل بضرورة حصوله على إذنهما، وتردد عبارة «كونى واثقة» لتأكيد حصولها على ما أرادت، حتى رأت ابنها يسفل الفطار فى طريقه إلى إنجلترا، بعد أن أجبرها أبى على الاتصال بطه حسين لتقول له إنها توافق الآن على سفره.

وجاءت الصدمة الثانية بعد عودة الابن من البيعة، وقد حصل على الدكتوراه، بسنتين أو ثلاث، حينما أعلن لها عزمه على الزواج. كان الأرجح أن زواج محمد من أى امرأة، ولو كانت هى التى اختارتها له، سبب لها من البؤس مثل ما مببه لها السفر، ومن ثم لم يكن هناك أى أمل فى أن تحظى الزوجة المختارة برضاها. كانت العروس المختارة امرأة محنكة قوية الشخصية سمعت أمى أنها تزوجت من قبل وطلقت مرتين، وأن محمداً هو زوجها الثالث. لم يبد الأمر مفهوماً لها على الإطلاق. فمحمّد بدا لها، وكأنه يستطيع أن يتزوج من أفضل بنات البلد، أسرة وطباعاً وجمالاً وصلاً. وكانت له أثناء إقامته بالخارج، صديقات إنجليزيات

وسويسرييت وسويدييات رائعات الجمال، طمعن كلهن فى الزواج منه . وقد حاولت أمى إقناعه بالتقدم لخصبة ابنة صديقتها «هدية» ، الأرستقراطية المتعلمة والثرية ، فرفض محمد لعذر تافه اختلقه اختلاقاً ، ثم إذا به يختار امرأة من أسرة اعتبرتها أمى أسرة عادية ، متوسطة الجمال ، لا يعرف عنها ثراء أو جاه ، كما سبق لها الزواج والطلاق . كان موقف أبى فى مثل هذه الأمور موقفاً عقلائياً عاماً ، فهو يقر فى داخل نفسه بحق ابنه فى اختيار من يشاء زوجة له ، فإذا أصابته خيبة الأمل رأى من الواجب ألا يظهرها . قد يحاول إنشاء عزم ابنه برفق ودون إلحاح ، فإذا رأى تصميمًا من الابن لم يعاود الكرة مرة أخرى . أما أمى فقد أعلنت الحرب على الزوجة ، فرفضت زيارة عائلتها ، ولم تستقبلها فى بيتها إلا مضطرة ، ثم انسحبت انسحاباً تاماً من حياة ابنها بعد زواجه ، وقعدت تحترز أحزانها وخيبة أملها . وتكرر الأمر عندما طلق محمد زوجته وتزوج بأخرى ، إذ لم تحظ الزوجة الجديدة من أمى بمعاملة أفضل مما حظيت به الأولى .



ولد أخى عبد الحميد بعد أخى الأكبر بشمالية أعوام ، رُزق خلالها والدى بأربعة أطفال لم يعيش منهم إلا بشان ، ومات الآخرين فى المهد . كان المتوقع إذن أن يحتل هذا الذكر الذى مد الله فى عمره مكانة خاصة لدى أبى وأمى ، ولكنى لا أذكر شيئاً يدل على ذلك ، بل يسترعى انتباهى بوجه خاص قلة احتفال والدتى به بالمقارنة بشعوره نحو الابن الأكبر . فما أذكره هو مقارنة متكررة تعقدتها أمى بين الولدين تنتهى منها دائماً إلى تفضيل الأكبر ، ولا تنوع عن أن تسمع عبد الحميد رأيه . كان عبد الحميد فى نظرها ، على ما يبدو . ينتمى إلى معسكر أبى ، له نفس حسنة الخلقى القوي ، وقلة اهتمامه بكل ما يتعلق بالمال وأمور الحياة اليومية . كان منذ طفولته «رجل فكر» ، بينما كان محمد «رجل عمل» . ولابد أن والدتى قد لاحظت ذلك منذ البداية ، فمال إليه قلب الأب دون أن يسمح لنفسه بأن يعلن تفضيله له ، بينما مال قلب الأم إلى الابن الأكبر وأطلقت لنفسها العنان فى الإفصاح عما تشعر به .

لم يبد عبد الحميد لأمى الشخص المزهل حمايتها من أبى ، فهو هادئ الطبع ،

بطيء الاستجابة لمشاعر الغضب، مبال للتروى في العواقب، وهو على كل حال يحمل تقديرا فائقا لقدرات أبي الفكرية والخلقية، ويميل ميل أبي إلى الكتب ويستهو به نفس ما يستهوى أبي من معضلات إنسانية وأخلاقية، مما لا تفهمه أمي أو تصبر عليه. كان بعكس الأخ الأكبر يأخذ دراسته مأخذ الجد، ويصيه القلق الشديد لدى اقتراب موعد الامتحان. وهو صادق بطبعه وذو إحساس فني قوى، يجيد الرسم ويتحمس للقصة الجيدة والنكتة الذكية، وله قدرة ملحوظة على رواية ما يقرأ من قصص بطريقة شائقة تأخذ باللبابنا، وعلى رواية النكتة على نحو نفجر له ضاحكين.

دخل عبد الحميد كلية الهندسة مقتنيا خطوات أخيه الأكبر، فتفوق فيها حيث لم يتجح الآخر إلا بصعوبة. وإذ سافر الاثنان إلى إنجلترا للحصول على الدكتوراه، حاز عبد الحميد بذكائه واجتهاده تقدير أساذه الإنجليزي وإعجابه، بينما لم يحصل الآخر على مثل هذا التقدير والإعجاب. وبينما فضى الأخ الأكبر وقته في الخارج يبحث عن تركيبات تجلب له الربيع بعد عودته، انغمس عبد الحميد، إلى جانب دراسته، في نشاط سياسى أدى به مرة إلى إلقاء خطبة في النادي الثقافى المصرى فى لندن نادى فيها بسقوط الملك فاروق، وكادت تؤدى إلى اعتقاله لدى وصوله إلى ميناء الإسكندرية، لولا أن قامت ثورة ٢٣ يوليو وهو على ظهر الباخرة فى عرض البحر. وبينم كان محمد يبدل عشيقاته الأوروبيات دون أن تعرف له قط صديقة ثابتة أو غراما جامحا، وقع عبد الحميد فى حب فتاة عسائرية طيبة القلب أخلص لها طوال إقامته بإنجلترا وعاد متزوجا بها إلى مصر.

عاد الاثنان ليبدأ التدريس فى كلية الهندسة بمصر، ولكن سرعان ما ترك محمد الجامعة ليثولى وظيفة أعلى مرتبا وأقوى نفوذا فى مؤسسة جديدة أنشأها عبد الناصر للتهوؤ بالصناعة هى «مركز الكفاية الإنتاجية»، وتعد بالترقى السريع فى المرتب والمركز، بينما ظل عبد الحميد أساذا بالجامعة، يعشقه تلاميذه عشقا ويقضى أزمائه فى مركز للبحوث، وقد أصبح فيه صاحب مدرسة صغيرة يتابع فيها البحث فى موضوعات مبتكرة ويتصل ببعض الأساتذة العالمين فى فرعهم، ممن يأتون للمساهمة فى جهود عبد الناصر لإحداث نهضة علمية وصناعية فى مصر.

عندما أعلن عن إنشاء تلك المؤسسة الجديدة (مركز الكفاية الإنتاجية) وعن وظائف جديدة بها يشغلها بعض حاملى الدكتوراه فى الهندسة، تقدم محمد وعبد الحميد بطلب التعيين بها، ففاز محمد بالوظيفة ورفض عبد الحميد. كان واضحا أن محمدا هو الأكثر تصميمًا والأشد حرصًا على ترك الجامعة التى لم تستهوه كثيرا، ولم يحقق فيها نجاحا يذكر. كما أن المسئولين عن الاختيار لابد أن وجدوا فى جراءة محمد واعتزازه برأيه ما يعد بقدرات إدارية عالية بينما رأوا فى عبد الحميد عالما وباحثا لا يصلح للإدارة.

استمر نجاح الأخ الأكبر فى الترقية من وظيفة إلى وظيفة أكبر، حتى أصبح فى سنوات قليلة وكيلًا لوزارة الصناعة، وفى تنمية ثروته فبنى بيتا بعد آخر. واشترى شقة بعد أخرى، بينما ظل عبد الحميد بجنيته المهددة التى يحصل عليها من الجامعة، لا يكاد يستطيع الحصول على الضروريات، ولا يستطيع أن يضيف إليها إلا شئ الأنفس، مترجمة كتاب لمؤسسة فرانكلين فى مقائل خمسين جنية، أو بتأليف كتاب مبسط فى الذرة لسلسلة الألف كتاب ويحصل به على جائزة لا تزيد على مائة جنية.



كيف لا يكون عامل الوراثة هو المسئول عن ذلك الفارق الشاسع بين شخصيتى أختى: فاطمة ونعيمة؟ إن الأولى لا تكبر الثانية بأكثر من عامين، ومن ثم فقد واجهتا ظروفًا عائلية تكاد تكون متطابقة، ومع ذلك فهما بدوان وكأنهما تنتميان إلى عالمين مختلفين، ولا يمكن لمن لا يعرف أنهما أختان أن يخمن أنهما كذلك، إذا شاهد سلوكهما وميولهما ونظرة كل منهما إلى الحياة.

كانت فاطمة دائما تنتمى من قمة رأسها إلى أخمص قدميها إلى «العالم الحديث أو المتقدم»، ونعيمة إلى «العالم القديم أو التقليدى». فمنذ أن بلغت فاطمة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها وهى تبدى مظاهر التمرد على السلطة الأبوية وتطالب بحريتها وتحول اكتشاف المجهول، وأن تتعلم الجديد وأن ترى العالم. وهى مغامرة ومقاومة ولا حد لظموحاتها. تحب الثراء ولكن كوسيلة للحياة الطيبة:

البيت الجميل ، والطعام الجيد ، والثياب الأنيقة . تحيد الإنجليزية ولها معرفة لا بأس بها بالفرنسية ، وتواظب على قراءة الصحف الأسبوعية الإنجليزية ، وتتابع من خلالها تطورات السيامة في العالم . وهي وإن كانت لا تبالى بما إذا كان رئيس الوزراء المصرى على صبرى أو زكريا محيى الدين فإنها تعرف أدق تفاصيل السياسة الإنجليزية وخصوصيات أسرتها المالكة . وإذا كانت لا تبالى بالتمييز بين نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم فإنها تعرف أدق تفاصيل العلاقة بين سارتر وسميون دى بوفوار ، وتقرأ لثولستوى ونعشق دستويينسكى عشقا ، وتستطيع أن تقص عليك تفاصيل «أنا كارينينا» أو «الإخوة» كرامازوف» التى تعود إلى قراءتها المرة بعد المرة ، وأن تقدم لك تحليلا بديعا لشخصية كل بطل من أبطالها .

رغم كل ذلك ، فإن علاقة أختى فاطمة بأبى لم تكن طيبة فى أى يوم من الأيام . لا أستطيع أن أفسر ذلك إلا بحدة طبعها ومزاجها الثورى الذى كان من الصعب على أبى أن يقبله فى أحد أبنائه المذكور ، فما بالك إذا وجده فى بنت من بناته؟ كانت فاطمة بلا شئ ، منذ طفولتها ، إحدى منقصات حياتها ، فهي دائمة الثورة على سلطته وعلى تدخله فى حياتها ، سواء تعلق الأمر بما ترتديه من ثياب أو باختيار من تتزوجه . حاز الرجل فى أمرها حتى اهتدى إلى حل يريح به نفسه وقد يودى ، كما كان يظن ، إلى تهذيب طباعها . فأرسلها إلى مدرسة ثانوية داخلية بحلوان ، وهو تصرف غريب من أب مصرى ، يقيم فى مصر . ويبدو أن غرابة هذا التصرف ، وإبعادهما فى هذه السن عن الأسرة ، قد زادا عما كانت تشعر به من غضب على أبى ، وهو غضب لازمها طول حياتها . فهي وإن كانت تذكر أمى دائما بحب ، لا تكاد تنسى بحرف عن أبى .

أظهرت البنت تفوقا وذكاء فى دراستها الثانوية ، كما أظهرت من الجرأة والشجاعة ما جعل أبى يستجيب لرغبتها فى أن تذهب لإكمال دراستها فى فرنسا ، وهي لم تتجاوز الثامنة عشرة ، فى بعثة حكومية لبعض الفتيات المصريات تحت إشراف سفير القضاوى ، على أنها سرعان ما عادت بعد بضعة شهور قضتها فى باريس بسبب قيام الحرب العالمية فى ١٩٣٩ .

عادت فاطمة إلى التنفيس على أبي بر فضها الزواج من ابن عمى . كان أبى يستعجل تزويج بنتيه ، ولم يبد منه التروى الواجب من كان له مثل ثقافته وسعة أفقه ، فى اختيار زوجيهما . كان تبريره الوحيد للموافقة على تزويجهما من ابن عمته أنه «يعرفه معرفته لشخص عار أمامه» ، قاصدا أن مجرد كونه ابنا لأخته ومعرفته لكل شىء عنه يجعل الزواج مأمون العواقب ، أما أمور الحب أو عدمه فلم تكن مما يأخذه مأخذ الجد . الأغرب من ذلك أن العويس المرفوض لم يتورع عن التقدم لطلب يد البنت الصغرى بعد أن رفضته أختها ، وأن أبى قبل منه ذلك ، وأن الأخت الصغرى قبلته بدورها .

كانت نعيمة فى ذلك الوقت فى السابعة عشرة من عمرها ، فلعلها يقبول هذا الزواج لم تكن تنرى بالضبط ما تفعل ، كما أنها لم تكن تحب متعة كبيرة فى الدراسة ، فرحبت بهذه الفرصة للخروج من المدرسة إلى الأبد وقبل أن تتم دراستها الثانوية ، ولعلها تطلعت إلى ما يصحب الزواج عادة من هدايا وبعض المجهزات . أما فاطمة فقد انتظرت أن يتقدم لها عريس آخر مناسب ، تحبه ويحبها ، فلم نظفريه حتى بدأ يصيبها القلق من أن يفوتها القطار ، واضطرت إلى قبول عريس آخر أكثر اتصالا بالعالم الحديث من ابن عمته ، ولكن قلبها لم يهتز له أكثر مما اهتز للآخر . كان العريس الجديد وسيما سخيا ، رفيق المشاعر ومحبا للثقافة ويطمح فى أن يكون له مستقبل فى الأدب وكتابة الشعر ، ولكنه كان بعيدا كل البعد عن فامس الأحلام الذى كانت تنتظره فاطمة ، والذى لا يوجد إلا فى الكتب أو الأفلام . كما أخطأ الرجل خطأ جسيما يستحيل إصلاحه عندما بدرت منه عبارة مؤداها أنه جاء «ليتزوج لا من فاطمة بل من أحمد أمين» ، وسمعت الفتاة عن تفوهه بهذه العبارة ، ولم تكن هى من النوع الذى يمكن أن يغفرها له قط .

تزوجت فاطمة إذن من رجل كان يشعر بالحب ، لا نحوها هى ولكن نحو أبيها ، وتزوجت نعيمة من ابن عمته الذى لم يكن يهيم كثيرا ما إذا تزوج من هذه البنت أو أختها . وقد كتب أبى عن هذين الزوجين فى كتابه «حياتى» أنه «زوج بشه «زواجا بقدر الإمكان سعيدا» ، وهو وصف اعتبره بالغ التهذيب لحالة كلا الزوجين . فانا لا

أكاد أذكر الشقيقة الصغرى إلا وهى تشكو من زوجها، وما أكثر المرات التى سمعت فيها زوج أختى الكبرى وهو يشكوها إلى أبى. ومع هذا وذلك فلم ينته أى من الزوجين بالطلاق، ولعل السبب الوحيد لذلك هو خوف كل من الزوجين والأختين من أبى الذى لم يكن يتصور سماع كلمة «الطلاق»، خاصة إذا تعلق بإحدى بتيه.

توفيت أختى نعيمة فى سن مبكرة نسبيا، إذ لم تبلغ الثالثة والسنتين، وتركت وراءها ثروة لا بأس بها. وأما فاطمة فعاشت حتى الخامسة والثمانين وماتت وهى لا تملك شيئا غير وديعة فى البنك كانت تعيش على ما تدره من فوائد ولا تملك حتى الشقة التى تسكنها. عاشت دائما عيشة أرسطراطية، تسكن أجمل شقة، وترتدى أفخر الثياب، ولا تأكل إلا أفضل الطعام، وتقضى جزءاً من كل صيف فى أفخر الفنادق. كانت نعيمة كثيراً ما تعبر عن ضيقها من قلة مالها أو من ارتفاع الأسعار، أما فاطمة فظلت دائما مبتهجة وراضية عن الحياة، وظلت حتى أيامها الأخيرة تطلق الضحكات المستبشرة بالحياة، وتلمع عيناها بسرور كلما ذكر أحد أمامها هذه القصة أو تلك من قصص دستوفسكى.



لا بد أن أختى أحمد قد احتار حيرة بالغة إذ وجد نفسه فى ذلك المركز المخرج فى وسط هذا الجيش الضخم من الأولاد والبنات. لقد وجد نفسه فى مركز لا يسمح له بالتفاخر على الآخرين، ولا يتيح له ما يمكن أن يستخذه فى زيادة قوته فى المساومة مع أبيه أو أمه أو سائر إخوته. فهو ليس أكبر الإخوة حتى يتمتع مثلما كان يتمتع أختى محمد بامتياز والدتى إليه وتفضيلها له على كل من عداه، أو باهتمام أبى، ولو بالشدة الرائدة، حتى يصلح حاله فيصلح حال الجميع. وهو ليس أصغر الأولاد طراً مثلى مما يمكنه، على الأقل نظرياً، من أن يطالب برعاية خاصة. كان لا بد لأحمد أن يجد حلاً لهذه المشكلة، إذ إن الحياة بدون هذا الحل لا يمكن أن تطاق. عثر أحمد على الحل الذى يبحث عنه فى أن يبنى لنفسه عالماً خاصاً فى استقلال شبه تام عن العائلة. ويتكون هذا العالم الخاص من بعض الأصدقاء من

المدرسة أو من الجيران، فأصبح يقضى كل وقته معهم، لا يأتي إلى البيت إلا لالتهايم لقصة سريعة يجري بعدها إلى أصدقائه بأى حجة من المصجع . هكذا لم تكن نرى أحمد إلا لماما ولم نعتبره عضوا عاملا فى أسرنا، بل عضوا متسببا . فهو لا يسمع أخبار العائلة، ولا حتى المهم منها، إلا بعد أيام أو أسابيع، ولا يشاركها أفراحها أو أتراحها، بل له أفراحه وأتراحه الخاصة التى لا يتكلم عنها معنا . فلذا اضطر إلى الجلوس معنا جلس صامتا، وبدأ دائما مشغول بالبال بشئ آخر لا ندرى كنهه ولم نعد نرى جدوى من سؤاله عنه .

لم يكن من الممكن لأحمد، مع ذلك، أن يستغنى عن العائلة استغناء تاما، فهو لابد أن يحتاج من حين لآخر إلى شراء بدلة جديدة مثلا، بل هو أكثر حاجة منا إلى ذلك بسبب ما يراه من ملابس فاخرة لدى أصدقائه الذين يتكون منهم عائله الأساسى . وهو يرغب فى استعمال سيارة أبى ولو مرة فى كل شهر، لكيلا يشعر بالخرج أمام هؤلاء الأصدقاء . كان أبى كما سبق أن أشرت، لا يشيخ بالمرءة تبادل الملابس بهذه السرعة، كما أنه لا يستطيع أن يفهم بالمرءة ما حاجة صبي أو شاب صغير فى سن أحمد إلى سيارة وهو الذى لم يركب سيارة خاصة قط قبل سن الخمسين؟

لجأ أحمد إلى الحيلة وكانت حيله تتخذ أحيانا صورةا طريفة للغاية، ومع ذلك كانت تنطلى على أبى فيصدقه ويقع فى الشرك الذى نصبه له أحمد . فعلى سبيل المثال عندما رفض أبى أن يعطى أحمد المال اللازم لشراء بدلة جديدة، وكان أحمد فى سنته الأولى أو الثانية بالجامعة، بكى أحمد بكاء مرّا فلم ينفع هذا فى استدراار المبلغ المطلوب من جيب أبى، فإذا بأحمد يتفق مع أحد أصدقائه على أن يذهب إلى أبى متظاهرا بالخزع الشديد لينبئه بأن أحمد حاول الانتحار بلقاء نفسه من فوق الهرم الأكبر، ولكنهم أنقذوه فى اللحظة الأخيرة . وكانت النتيجة أن حصل أحمد على البدلة .

بمرور الزمن اكتسب أحمد قدرات ومهارات جديدة جعلته محل أنظارنا جميعا واكتسب بها تقدير الجميع واحترامهم . ذلك أنه بعد أن حقق مركزا مرموقا فى

يحدى الوزارات وأصبح لديه من المال ما يفوق ما لغيره من الإخوة باستثناء الأخ الأكبر، اشتهر أحمد بين أفراد العائلة بقدرته على تحقيق أى رغبة لأى فرد منا باستخدام نفوذه، واتصالاته الواسعة، واستعداد الكثيرين لخدمته بسبب هذا المنصب أو بسبب علاقاته الاجتماعية الكثيرة والحميمة، مع استعداد مخلص لديه لتقديم أى مساعدة لمن يحتاجها من أفراد العائلة. كان أحمد هو الملجأ الذى تلجأ إليه إذا احتاج أى منا لشراء تذكرة طائرة أرخص من التذاكر المتاحة للجميع، أو لحجز حجرة فى فندق يظن الجميع أن كل حجراته محجوزة، أو للحصول على موعد مع طبيب شهير بمجرد إبداء الرغبة فى ذلك، بينما يكون أول موعد متاح لبقية الناس بعد شهر أو أكثر، فضلا عن تعيين صديق فى وظيفة، أو تصريح باستيراد سيارة لا يحصل على مثله إلا عليّة القوم. . إلخ. كن جَمِيعًا، باستثناء أحمد، عاجزين عن الإتيان بمثل هذه المعجزات، إذ لم تكن نعرف مثل أحمد هذا العدد الفغير من الشخصيات ذات النفوذ.



كان موقع أخى حافظ فى العائلة قريبا من موقع أحمد، لا يجلب لصاحبه أى ميزة، فلا هو فى أعلى السلم ولا فى أسفله، وقد اختار حافظ مسلك الناس المتصرف والزاهد فى ماديّات الحياة، وظل مخلصا لهذا الاختيار طول حياته، فلم يظهر منه أنه يفعل شيئا ضد طبيعته، ولا أعرف أنه فعل فى الخفاء شيئا يخالف ما يفعله فى العلن.

كانت كل اختيارات حافظ مجردة عن اعتبارات الثراء أو السلطة أو النفوذ أو المظهر الاجتماعى، سواء كان الأمر يتعلق باختيار وظيفة أو صديق أو زوجة أو بتعلق بطريقة تربيته لأولاده، أو باقتناء سيارة أو تأثيث بيت. . إلخ. كان المهم دائما فى نظره هو رضا عن نفسه، أو راحته وراحة أسرته، أو أثر هذا الاختيار أو ذاك على صحته، أو ما يسمى بوجه عام «راحة البال». كان يشعر باحتقار حقيقى لكل شخص يتكبر على جمع المال، أو يسافر إلى بلد عربى لزيادة ثروته، أو لمن ينفق الآلاف المولّفة من الجنيهات لشراء سيارة كان يمكن أن يستغنى عنها بسيارة أصغر

وأرخص أو حتى بالمشى ، أو من يرسل أولاده إلى مدرسة باهظة التكاليف ولا تقدم تعليماً أفضل مما تقدمه مدرسة حكومية مجانية ، أو من يذهب للتصنيف فى أوروبا حينما يكون التصنيف فى جمصة أو رأس البر يتيح له نفس الدرجة من الراحة والتقدير بعشر التكاليف ، أو من يأخذ أسرته للعداء فى مطعم يستولى على نقوده دون أن يشيع جوعه . بينما كان من الممكن أن يستغنى عن ذلك ببضعة سندوتشات تعدها زوجته بقروش قليلة ويجلسان لتناولها فى يوم مشمس فى سفح الهرم .

كان ينطبق عليه ، ربما أكثر مما ينطبق على أى شخص آخر عرفته عن قرب ، «تفضيل الأفعال على الأسماء» أى تفضيل ممارسة نشاط أو القيام بعمل ، على اقتناء شئ أو حيازة سلعة . ومن ثم كان يبدو لى دائماً أنه أخفنا جميعاً حركة وأكثرنا نشاطاً ، إذ لا يشغل كاهله ما يملكه من سلع ولا يقيد من حركته رأى الناس فيما يفعله . من بين هذه «الأفعال» كان أكثر ما يجلب له السرور والرضا عن نفسه تأليف المسرحيات . وربما كان هذا هو الشئ الوحيد الذى كان حريصاً على أن يحصل فيه على رضا الناس عنه واعتراؤهم به . وكان يتمتع بالفعل بالقدرة على كتابة حوار مقنع ومؤثر ، وأن يحول القصص الردى لأى حادثة إلى حوار جذاب . وما أكثر ما كتب من مسرحيات ، قصيرة وطويلة ، مؤلفة وترجمة ، وما أكثر ما أرسل منها لهذه الفرقة المسرحية أو تلك ، المشهور منها والمغمور ، القومى والمحلى ، ومحطات الإذاعة والتلفزيون . وكان إلحاحه ومثابرته فى هذا مما يستحق الإعجاب حقاً ، إذ لم يكن ليصدّه أى رفض أو نقد عن هدفه وعن إعادة المحاولة من جديد . فإذا طلب منه إجراء تعديل على مسرحية كتبها ، عكف على إنجازاته مهما كان التعديل جذرياً وشاملاً ، حتى يظفر بالموافقة على تمثيلها . ومع كل هذا فما أقل ما حظى به من نجاح فى هذا الصدد . نعم مثلت له بعض المسرحيات المترجمة ، وقامت بعض الفرق المحلية الصغيرة بتمثيل مسرحية قصيرة له أو مسرحيتين ، وعرفه واستمع له بعض المخرجين الكبار ، ولكنه لم يظفر منهم بمسألة ذات شأن ، وظل إلى أن مات لا يعرفه ككاتب مسرحى إلا عدد صغير جداً من الناس ، عدا أفراد أسرته .

مع تكرار عجزه عن تحقيق النجاح الجماهيري الذي كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه يستحقه ككاتب مسرحي، أصيب بخيبة أمل شديدة زادت قوتها مع مرور الزمن، وجعلت حديثه لا يكاد يدور، في منواته الأخيرة، إلا حول هذا الموضوع: إما أن يشيد بقدراته ككاتب مسرحي إشادة فيها مبالغة غير مقبولة، أو ينتقد الكتاب المسرحيين الناجحين انتقادات فيها أيضاً قسوة غير مقبولة، فضلاً عن أن الدافع إلى هذه القسوة كان واضحاً للجميع. وقد زاد الميل إلى الفخر بنفسه وإلى توجيه سهام النقد إلى الناجحين في هذا الميدان الذي كان يتمنى النجاح فيه دون جدوى، إلى درجة كانت تبعث أحياناً على السأم. ولابد أن صدرت مني، مرة أو مرتين، خلال السنوات الأخيرة من حياته، عبارة أثرت في نفسه تأثيراً بالغاً، قلتها بشكل عفوى وندمت عليها بمجرد أن توهت بها، وتحمل معنى شعوري بالملل من كثرة ما يردده من فخر بنفسه ونقد للآخرين. سكنت وقتها بضع لحظات ثم عاد إلى ما كان يقول ولكن بعصبية واضحة لم تستطع إخفاء أثر عذرتي في نفسه. لا أزال أشعر بوخز الضمير حتى الآن كلما تذكرت هذه الواقعة، ولكني أقول لنفسي أحياناً إنه ربما لم يكن هناك مفراً من أن يحدث شيء كهذا في يوم من الأيام.



حسين هو الأخ الذي يكبرني مباشرة، يكبرني بعامين ونصف، وهو بلا شك أكبر إخوتي أثراً فيّ. كان ينسم بصفة لا يشترك معه فيها أي طفل آخر من أطفال العائلة، ذكراً كان أو أنثى، وأحار في تفسيرها، مما يجعلني أستمع في النهاية لهذا التفسير الوحيد الباقي (إن كان هذا تفسيراً على الإطلاق)، وهو أنه قد ولد بها وأنها من بين خصائص جيناته الموروثة. أقصد بها ذلك الميل البالغ القوة للاعتقاد بأنه شخص فريد من نوعه، لم يأت أحد مثله من قبل، ولن يأتى أحد مثله في المستقبل.

كان يأتينا بين الحين والآخر بشئ أنه قرر من هو الشخص الذي سوف يتخذه مثلاً أعلى لنفسه. وكان هذا الإعلان يتكرر بكثرة، ولكن الأهم من ذلك نوع الأشخاص الذين كان يختارهم كمثل أعلى له. فكلهم من النوع الذي يمكن أن

يرشح للقب «أعظم الناس» أو أقوى الناس، أو أشدهم نفوذًا، أو أبدهم أثرًا». فامثل الأعلى هو تارة نبليون، هذا القائد العسكري الأعظم، وهو أحيانًا كارل ماركس، ذلك الثوري العظيم صاحب اللحية الكثيفة، وهو أحيانًا تولستوي، ذلك الكاتب العبقري الذي يمكن اعتباره بسهولة أعظم الكتاب الروس، وهو أيضًا صاحب اللحية البيضاء الكثيفة والطويلة. لاحظ التفاوت الكبير بين هؤلاء العظماء الثلاثة في مجال العبقرية ومضمون الرسالة، فبعضهم يكاد يكون الطرف المناقض تمامًا للبعض الآخر. ولكن هذا لا يهم بالطبع، المهم أن كلا منهم يمكن ترشيحه للحصول على هذا اللقب العظيم. لم يكن غريبًا إذن ولع أخى حسين بالمثل المصرى العظيم يوسف وهبى، الذى كان يهوى القيام بتمثيل شخصيات معينة من نوع راسبوتين أو الحاكم بأمر الله، بل كثيرًا ما كان يحول الشخصية العادية إلى شخصية من هذا النوع.

كان المطلوب منا جميعًا، كلما أعلن حسين عن تغييره لثله الأعلى، أن نوافق على أن المثل الأعلى الحالى، هو بالفعل أعظم الناس طرًا، وحتى إشعار آخر. وكان أى اعتراض أو تحفظ من جانب أحدنا بالقول بأن هذا الزعيم المختار ليس خاليًا تمامًا من العيوب، لا يقابل من جانب حسين إلا بالاحتقار. دون أن يأتى حتى بالرد على ما نقول، ومن ثم لم تكن هناك جدوى تذكر من إبداء الاعتراض أو التحفظ.

كانت وسيلة حين الإنبات أنه أعظم الناس تحصيل أكبر قدر من الثقافة. وقد نجح بالفعل فى تحصيل قدر من الثقافة يتجاوز بمسافة شاسعة ما حصله أى أنج أو أخت، بل ومعظم من عرفت من المثقفين المصريين. وقد اقترنت هذه الثقافة الواسعة بموهبة حقيقية لديه فى الكتابة والتعبير عن النفس، وبسلامة وجاذبية نادرين، جعلتا أبى يعلق عليه آمالًا فى أن يخلفه ككاتب وأديب أكثر مما علقه على أى ولد آخر من أولاده، وإن لم يكتم أبى ما كان يعتريه من خوف من أن يجابهه حين فى حياته الكثير من الصعاب من جراء اعتداده المفرط بنفسه.

بما ذكره من تصرفات حسين المدهشة ونحن أطفال، ما حدث عندما أخذنا أبى -

نحن الإخوة الثلاثة : أنا وحسين وأحمد وأعمارنا تتراوح بين السادسة والعاشرة - إلى طبيب الأنف والأذن والحنجرة في عيادته لاستئصال اللوز . كان المطلوب عمله أمراً كريهاً جداً ومخيفاً للغاية بالنسبة لنا نحن الأطفال الثلاثة ، ولكن دخل أكبرنا ، أحمد ، في البداية دون اعتراض ، فاستئصلت لوزته . وجاء دور حسين فرفض رفضاً باتاً أن تجرى له العملية ، غير متصور ، فيما يظهر ، أن يجري عليه ما يجري على الآخرين ، وأخذ يجري من حجرة لأخرى من حجرات العيادة ووراء الطبيب والمرضى يحاول أن الإمساك به وهو يصيح بصوت عالٍ سمعه كل من في العيادة «أنا قتل مش حاعمل عملية اللوز ، والله اعظيم ما أنا عاملها ، شرف والله العظيم يعني إيه؟» وقد صارت هذه العبارة من العبارات المأثورة بين أفراد الأسرة ، نعيد ذكرها ضاحكين كلما دار الحديث حول حسين وشخصيته . لم يرضخ أبى بالطبع للأمر وأجريت العملية للجميع ، وإن كان قد اضطر أن يعيد ترتيبنا ، فدخلت أنا كالحمل الوديع بعد أخى أحمد ، وأجريت لى العملية فى هدوء تام ، ريثما يتم القيص على حسين .

(٦)

أصدقاء الصبا

عندما أقرأ الآن ما كتبه أبى عن حيرة جدى، والجهد المضى الذى بذله لاختيار نوع التعليم المناسب لابنه، وعن العذاب الذى تعرض له أبى من جراء إخراجه من مدرسة بعد أخرى لإدخاله مدرسة يسمع عنها جدى أنها أفضل وأنسب، أشعر بالإشفاق على أبى وجدى على السواء. أشعر أيضاً بالإشفاق كلما سمعت الآن عن حيرة الكثيرين من معارفى وأصدقائى لنفس السبب، والتضحيات الكبيرة التى يبذلونها لكي يتعلم أولادهم فى مدرسة دون أخرى. ذلك أنه لم يعد لدى شك فى أننا نبأغ بشدة فى أهمية المدرسة فى تنمية القدرة العقلية للطفل أو تنمية حسه الخلقى. نعم، هناك بلا شك مدارس أكثر قدرة على إدخال البهجة فى نفوس تلاميذها وأقل تعذيباً. ولكن لم يعد يخامرنى أى شك، بعد ما شاهدته فى إخوانى من ناحية، وفى أولادى من ناحية أخرى، وفى أصدقائى ومعرفى وأولادهم، فى أن أثر الأسرة والمناخ السائد فى البيت فى التربية العقلية والخلقية أهم من أثر المدرسة. ولكن الأهم بكثير من هذا وذاك هو الاستعداد الفطرى الذى يولد به الطفل. فإذا توفر هذا الاستعداد الفطرى فما أسهل أن يعرض الجهد الشخصى عما فشلت المدرسة فى تحقيقه.

يصف أبى فى كتابه «حياتى»، حيرة جدى فى اختيار نوع التعليم الأفضل له، على النحو التالى:

«وضع لى أبى برنامجاً مرهقاً لا أدرى كيف احتملته. كان يوقظنى فى الفجر فأصلى معه، ثم أقرأ جزءاً من القرآن وأحفظ متناً من المتون الأزهرية كالتفية ابن مالك

فى النحر، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ولبست ملابسى وذهبت إلى المدرسة
أحضر دروسها إلى الظهر. وفى فسحة الظهر أتعدى فى المدرسة على عجل وأذهب
إلى كتاب مسجد قريب من المدرسة. وقد اتفق أبى مع فقيه الكتاب أن يسمع منى
جزءاً من القرآن حتى إذا ما أتممته سمعت جرس المدرسة فذهبت إلى الفصل. ثم
أحضر حصص المدرسة بعد الظهر، فإذا دق الجرس النهائى خرجت إلى البيت
وخلعت ملابس المدرسة ولبست جلباباً وذهبت إلى المسجد الذى أبى إمامه،
فمكثت معه من قبيل المغرب حتى يصلى العشاء، أستمع لدرسه الذى يلقيه فى
المسجد بين المغرب والعشاء، ثم أعود معه إلى البيت. وفى أثناء الطريق يحفظنى
بيناً من الشعر أو بيتين ثم يسألنى إعرابه فأعربه، ويصحح لى خطئى، وكل ذلك
ونحن سائران فى الطريق، ثم أتعشى وأنام. وإذا كان على واجب من المدرسة
أتمته على عجل قبل أن أذهب إلى أبى فى المسجد، وليس لى من الراحة إلا عصر
يوم الخميس ويوم الجمعة. على أنى كثيراً ما أحرم أيضاً من صبح يوم الجمعة لعمل
واجبى المدرسى أو لقراءة مع أبى. وهو برنامج غريب متناقض الاتجاه، سببه أن
أبى كان حائراً فى مستقبلى، أبوجهنى الوجهة الدينية فيعدنى للأزهر، أو يوجهنى
الوجهة المدنية فيعلمنى فى المدرسة الابتدائية والثانوية؟ وكنت أدرك حيرته من كثرة
استشاراته لى يتوسم فيه حسن الرأى، وهم لا يتقذونه من حيرته، فمنهم من يشير
بهذا ومنهم من يشير بذلك، فأمسك العصا من وسطها، فكان يعدنى للأزهر يحفظ
القرآن والمتون، ويعدنى للمدارس المدنية بدراستى فى المدرسة. وهذا أسوأ حل.
ولكن جزاء الله خيراً على تعبى المضى فى التفكير فى مستقبلى، وغفر الله له ما
أرهنى به فى دراستى.

كيف استطاع أبى أن يقطع بأن هذا الذى فعله أبوه فى تعليمه كان «أسوأ حل»؟
ومن منا يستطيع أن يقطع برأى حاسم فى هذه الأمور؟ ومن يدرنا أن الذى اختاره
جدى لتعليم أبى لم يكن هو، على العكس، أفضل حل، لو لا ما فيه من إرهاب
مبالغ فيه؟

لقد أبدى أبى اهتماماً عائلاً باختيار نوع التعليم الأفضل لأولاده، ولا شك

عندى فى أنه بدوره ، على الأقل فى المراحل الأولى من حياته ، كان يظن أن للمدرسة تأثيراً أكبر مما لها فى الحقيقة ، فى التربية العقلية والخلقية . لا يبدو إذن مدعها تماماً أنه قرّر إرسال ابنه الأول إلى مدرسة الفريز الفرنسية ، إذ لا بد أنه سمع من بعض أصدقائه عن مستواها الراقى فى التعليم ، فضلاً عما كان يسيطر على أى من اعتقاد فى الأهمية القصوى لتعلم لغة أجنبية . لا بد أن هذا وذاك كانا وراء ذهاب أخى محمد إلى مدرسة الفريز ، ولكن يبدو أن التجربة لم تكن ناجحة تماماً ، فلم يظهر على أخى محمد أنه أفاد فائدة كبيرة مما قدمته هذه المدرسة من مزاي . كل ما لاحظته من أثر هذه المدرسة عليه أنه عندما كان يقوم بعملية حياية تتعلق بالبيع أو الشراء ، بصوت مسموع . كان يستخدم الفرنسية بدلاً من العربية .

لا بد أن اهتمام أبى بنوع المدارس التى يتلقى فيها أولاده تعليمهم قد ضعف بعض الشيء بعد تجربته مع محمد ، ولكنه لم يزل تماماً . فلا بد أن قيامه بتحويلى أنا وأخى حسين من مدرسة مصر الجديدة الابتدائية إلى المدرسة النموذجية فى حدائق القبة كان لهذا السبب . ولكنى لا أظن أنه كان فى نهاية حياته لا يزال عند اعتقاده الأول . فيها هم خمسة أولاد ، إذا استبعدنا الولد الأول الذى ذهب إلى مدرسة فرنسية ، يكادون أن يكونوا قد تلقوا نفس التعليم بالضبط ، ومع ذلك كان أدائهم العلمى متفاوتاً أشد التفاوت . وها هما يتدان أرسلهما أبى إلى نفس المدارس فتفوت واحدة وأظهرت طول حياتها شغفا واضحا بما يمكن تسميته بـ «المشكلات الفكرية» ، أيا كان نوعها ، أدبية كانت أو فلسفية الطابع أو سياسية ، ولم يظهر أى شئ مماثل فى البنت الأخرى التى لم تستطع صبرا حتى على الدراسة الثانوية فخرجت منها قبل إتمامها . كذلك فإن تجربتى وشاهدتى ، ليست فقط المستمدة من أسرتى بل ومن خارجه أيضاً ، تكاد تجعلنى أقطع بأن الجنس الخلقى للمرء يولد مع الطفل بدرجة معينة من القوة ، مثلما يولد معه ألف بحجم معين وصوت ذو نغمة خاصة . إن من بين أفراد عائلتى من لا يتصور الكذب ومنهم من يكاد يستعذبه . منهم ما لا يهمه كثيراً ما إذا كان عنياً أو لم يكن ، ولكن منهم من كان ، منذ نعومة أظفاره ، على استعداد لبيع نصيبه من المأجور التى قد يجلبها أبى معه للنفاء ، وإضافة حصيلة البيع إلى مدخراته . منهم من كان دائماً يلتهم الكتب التهاماً ، ومنهم من

كان مجموع ما قرأه ، عدا الكتب المدرسية ، بعض مقالات خفيفة فى كتاب أبى «فيض الحاضر» ، كان يقرأها أحيانا قبل النوم ثم سرعان ما يغلبه النعاس .

وعندما أستعرض ما آل إليه أصدقائى فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية ، من عرفت تطور حياتهم بعد تخرجهم ، أجد ما يقطع بصحة هذا الاستنتاج . كان من بينهم الباق والمحدود الذكاء ، سريع الفهم والبطء ، العميق والسطحي ، من يلتقط الفكرة الصعبة بسهولة وسرعة ، ولكنه قليل الصبر على الربط بينها وبين فكرة أخرى ، ومنهم المتأني البطيء الذى لا يفهم بسرعة ، ولكنه يصبر على البحث عن العلاقات غير الظاهرة حتى يجدها . كذلك كان من بينهم النبيل والسافل ، الشهم والاندل ، المستعد دائما للتضحية ومن لا يفكر إلا فى نفسه . لقد دخل معظمهم ، بل وربما كلهم ، الجامعة وتخرجوا بشكل أو بآخر فيها ، وحصل معظمهم على وظائف محترمة ، وحصل بعضهم على الدكتوراه ، من بين الأذكاء والأغبياء ، ولكن ظل كل منهم على حاله الذى بدأ به ، عقليا وخلقا .



منذ ثلاث أو أربع سنوات خطر لأحد زملائى القدامى ، الذى كان تلميذا معى فى نفس الفصل المدوسى منذ ما يقرب من ستين عاما ، عندما كنا فى نحو الثانية عشرة من عمرنا ، أن يدعو أكبر عدد ممكن من هؤلاء الزملاء القدامى إلى العشاء فى مطعم يطل على النيل . وقبلت الدعوة مسرورا ومتشوقا إلى أن أرى ما فعله الدهر بأصدقاء الصبا . وبعضهم لم أكن رأيت قط منذ كنا فى تلك السن الصغيرة ، فرأيت عجبا . نعم ، لقد شاب شعر أكثرهم ، وتشققت البشرة بالتجاعيد ، وجاء أحدهم يستند إلى عكاز ، وسيطر الحزن على آخر بسبب أزمة قلبية حديثة العهد . ولكنى وجدت أن من كان ذكيا لا يزال ذكيا ومن كان غبيا لا يزال غبيا ، وثقيل الظل ظل كما هو ، وكذلك خفيف الظل . كلهم فى يسر نسى ، وكلهم لهم ، أو كان لهم وظائف أو أعمال محترمة ، ولكن التفاوت العقلى والخلقى لم يطرأ عليه أى تغير ، إذ يبدو أنه لا المدرسة النموذجية ، ولا المدارس الأقل نموذجية ، استطاعت أن تقضى على هذا التفاوت .

لم يحضر للأسف إلى حفل العشاء صديق قديم كنت دائماً أعتبره ملح الأرض، إذ كان يجمع بين عدد من الصفات نادراً ما رأيتهما مجتمعة (هو المهندس محمود كاشك). لم يكن، ونحن تلاميذ صغار، متفوقاً في دراسته بمقدار تفوقى، ولكن الأرجح أنه لم يكن يبذل فيها مثلاً كنت أبذل من جهد، وهو على أى حال لم يتعثر فيها قط. كان ينجح دائماً بدرجات معقولة، ولكن دون أن يلفت أذاؤه الأنظار إذ لم يكن يشعر بالحاجة إلى ذلك. دخل كلية الهندسة فخرج بسهولة مهندساً من قسم الاتصالات، وعين فور تخرجه فى منتصف الخمسينات مهندساً فى الإذاعة. وأذكر زيارتى له فى ١٩٥٦، فى داخل كهف من الكهوف فى جوف جبل المقطم، عندما اضطرت حكومة الثورة إلى نقل محطة الإرسال الإذاعى إلى هذا المكان الحصين بعد أن بدأت القاهرة تُضرب بالقنابل رداً على تأميم قناة السويس. وأخذ يطوف بى ليربى طريقة عملهم وما اتخذوه من احتياطات لضمان استمرار الإذاعة حتى فى أحلك الظروف. ثم مرت بضع سنوات وقررت الحكومة إدخال التلفزيون إلى مصر وأرسلته فى بعثة إلى أوروبا للدراسة والإعداد لهذا الأمر. ثم عاد وأشرف على بدء البث التلفزيونى. فلما قررت الحكومة إدخال التلفزيون الملون، أرسلته مرة أخرى فى بعثة إلى أوروبا للدراسة والإعداد له، ثم عاد لتنفيذه، حتى أصبح بعد بضع سنوات كبير المهندسين فى التلفزيون المصرى. كنت أراه خلال تلك السنوات على فترات متقطعة فيبهرنى أدبه الجم، وتقانيه فى عمله وحبه له، وكان يشرح لى ببساطة شديدة ما استعصى على فهمه مما يتعلق بعمله، وكنت ألح شعوره الوطنى القوى من خلال ما يقوله عن عمله، دون أن تظهر عليه أى رغبة فى التباهى أو استدرار الإعجاب. كان مصرياً مائة بالمائة، مخلصاً لبلده تمام الإخلاص، دون أن يقول كلمة واحدة لمحاولة التذليل على ذلك. وكان يدهشنى بقوله إنه قرأ لى هذا المقال أو ذاك فى مجلة الهلال أو فى صحيفة معارضة، ويستسم من جرأتى وكأنه يتذكر تصرفتى أثناء التلمذة، ولا يرى فى هذا إلا استمراراً لذلك. احتشاج ابنه إلى خدمة صغيرة منى فى أمر يتعنى بدراسته، فاستفى صديقى بأن عرفنى على ابنه وتركنا دون أى تدخل منى أو أبى محاولة للتأثير على، إذ كان لا يريد أن يحكم تصرفى إلا ضميرى. ثم قابلته منذ

سنوات قليلة هو وأسرته مصادفة، وقد أتى بزوجه وكل أولاده ليحضروا حفلة من حفلات الموسيقى العربية في مسرح الجمهورية، فوجدت في ولديه وابنته نفس الهدوء النفسى الرائع الذى أعرفه فى أبيهم، وأخبرنى فى أثناء الاستراحة أنه عيّن مسئولاً عن محطة التلفزيون الفضائية التى قررت الحكومة إنشاءها، وأنه سوف يحتاج إلى بعض خريجي الجامعة الأمريكية للعمل فيها، وسيتصل بى قريب عندما يبدأ فى اختيار الموظفين بعد عودته من رحلة لفرنسا يجرى فيها الترتيبات النهائية لتدشين هذه المحطة. كان يتكلم عن مهمته الجديدة بحماسة وفرح. ثم قرأت بعد ذلك بأيام خبر نعيه منشوراً فى جريدة الأهرام، إذ توفى فجأة وحده فى أحد فنادق باريس أثناء مقاضاته مع الفرنسيين حول المحطة الفضائية.

فى الحفل الكبير الذى أقامته الحكومة بعد ذلك بشهر أو شهرين لإعلان بدء تشغيل المحطة الفضائية، شكر الوزير رئيس الجمهورية على رعايته للمشروع، وعلى إصداره الأمر بتنفيذه، وشكر رئيس الوزراء على تحمسه عطاء حضور حفلة الافتتاح، وشكر عددًا من الوزراء لسبب أو آخر لم أتبينه. ولكنى لم أسمع اسم صديقى الذى حمى الإذاعة المصرية من عدوان ١٩٥٦، وأبشأ التلفزيون الأبيض والأسود، والتلفزيون الملون، والمحطة الفضائية نفسها. لم يكن هناك أى شيء غير مألوف فى هذا السلوك من جانب المسئولين المصريين، كما أتى لا أظن أن صديقى كان ليأبه كثيراً له لو كان قد امتد به العمر ليشهده بنفسه.



سألت صديقنا الذى نظم هذا اللقاء بين الزملاء القدامى، عما إذا كان قد تذكر أن يدعو «تيمور»، فقال: بالطبع، ولكنه اعتذر بسبب السفر. فضحكنا كلنا من سبب اعتذاره. ذلك أن تيمور هذا كان دائماً يجلس فى آخر صف فى الفصل ويبدو دائماً مشغولاً بشيء آخر غير ما يقوله المدرس، ومن ثم لم يستطع أبداً أن يحقق تفوقاً فى أى مادة من المواد، بل كان يجد صعوبة بالغة فى الوصول إلى درجة النجاح. كان انشغاله منصباً على شيء واحد وهو «الطائرة». فالمدرسون جميعاً، الواحد بعد الآخر، عندما يصممون على معرفة ما الذى يشغله عن الدرس،

يضبطونه وهو يحاول إخفاء شيء في الدرج أو تحت الكرسي ، فإذا استقصوا الأمر وجدوا طائرة صغيرة قام تيمور بصنعها من الورق ، وهو مشغول إما بتلوينها أو بتركيب جناح لها أو مروحة . كان المدرس القاسي يطرده من الفصل ، والمدرس الطيب يحذره من أن هذا الذي يفعله لابد أن يؤدي به إلى مستقبل مظلم للغاية .

ومرت السنوات دون أن نرى تيمور ، حتى تخرجنا في الجامعة وتوظفنا وإذا بي مرة ، وأنا راكب في طائرة لشركة مصر للطيران إلى لندن ، وقد ربطت لتوى حزام المقعد ، أسمع صوتا من الميكروفون يرحب بالأسافرين ويقول لهم : «الكابتن تيمور يحييكم» . قلت لنفسي على الفور إني مستعد للرهان بأي شيء على أن هذا الكابتن تيمور هو زميلنا القديم ، إذ كيف يمكن أن يكون شخصا غيره؟ وهذا هو ما كان بالفعل ، فعندما طلبت مقابلة الكابتن ، أدخلوني كابينة القيادة ووجدته هو بعينه . وقابلني بنفس الالتماسة التائهة التي لم تكن توحى بأي نأثر من جانبه لمقابلة زميله القديم ، ولكني اطمأنت على الأقل أن نبوة المدرس القديم بمستقبل مظلم له لم تتحقق بالمرّة .



كان هناك أيضا من زملائنا القدامى من سافر إلى الأبد ، وترك مصر مع عزم أكيد على عدم العودة . من هؤلاء صديق كان بالغ الرقة ، وسيمًا للغاية ، قليل الكلام ولكنه عميق المشاعر . يؤدي أداء طبيًا في الدراسة دون لمعان ، ويحب كل المدرسين بدون استثناء . دخل كلية الطب وتخرج فيها ، ولكني لم أره قط بعد تخرجه إلا حزينا متأثرا بما يراه من حال المرضى الفقراء والمعاملة التي يلقونها في مستشفى قصر العيني . وكان يقص علينا قصصا كثيرة مؤثرة عن رجال أو نساء أتوا إلى قصر العيني من أقصى الصعيد وهم لا يكادون يملكون ثمن تذكرة السفر ، واضطروا للعودة دون علاج لأنهم لم يجدوا سريوا في المستشفى ، أو لأنهم لا يعرفون أحدا إذا شأن في القاهرة يمكن أن يتوسط لهم . كان الخل الذي وقع عليه اختيار صديقي الرقيق ، هو أن يترك مصر كلها ويبحث عن عمل مناسب في الخارج ، لا يعرضه لرؤية مثل هذه المواقف الصعبة . وانتهى به الأمر طبيبا وأستاذا في جامعة مرموقة في الولايات

المتحدة، واشترى هناك بيتاً جميلاً وتزوج من زميلة تركية وأنجب منها ولدين واستقر في أمريكا استقراراً دائماً. وهو حل لا بأس به من بعض الوجوه، وإن كان يحظر بإبالي أحياناً أن هناك شيئاً من الغرابة في أن يكون حل مشكلة المرضى الفقراء في مصر هو الاشتغال بعلاج المرضى ميسوري الحال في أمريكا.



زميل آخر لم تدفعه إلى الهجرة رقة المشاعر بل مجرد حب المال. كانت هذه الحصة من خصاله واضحة لنا جميعاً وضوح الشمس منذ أول يوم عرفناه فيه. كان قصيراً ماكراً لا يدفع أبداً ما يجب عليه دفعه، ويحاول دائماً، وينجح عادة، التهرب من أى مسئولية يمكن أن تورطه في دفع أى مبلغ من المال. كانت خصلة منفرة في حد ذاتها، ولكن الذى جعلنا نضمه إلى شللتنا ولا نمانع في مصاحبته أنه كان ذا ذكاء ملحوظ، ومحباً للنكتة، فضلاً عن أنه لم يكن منافقاً. كان يجهر بحبه الشديد للمال ولا يخجل من يخذه، ويخبرنا بصراحة بين أن نقيله كما هو أو أن نتصرف لخالنا، فهو لا يبالي برأى أحد فيه، والمهم لديه هو التمتع بليوم الذى هو فيه، ما دام هذا التمتع لا يكلفه شيئاً من المال.

سافر صديقنا هذا إلى أمريكا لاستكمال دراسة الطب. ثم اشتغل طبيباً في إحدى الشركات الأمريكية الكبرى، ثم سمعنا عن زواجه بامرأة فيتنامية جاءت إلى أمريكا هرباً من صعوبات الحياة في فيتنام. بعد أن بلغ سن الستين قرر أن يعود إلى مصر، مع زوجته الفيتنامية، ليستقر نهائياً فيها، معتمداً على ما تدره مدخراته من دخل؛ ودعائى لزيارته في الشقة التى اشتراها بالقرب من النيل بالمعادى. كانت شقة قريبة من النيل حقاً ولكنها - كما كان لابد أن أتوقع - خالية من أى مسحة من الجمال. العمارة كلها مبنية بأقل قدر ممكن من التكاليف، وكأنها بنيت خصيصاً ليسكن فيها صاحبنا. ونظرت إلى الأثاث فإذا به أقل أثاث ممكن، لا بد أن صاحبنا قد دفع فيه أقل ثمن ممكن. لم يكن هناك فى الشقة أى شيء يتجاوز الضروري، وكان الرجل قد جاء ليقيم في مصر يومين أو ثلاثة لا بقية عمره. ليس هناك صورة

واحدة على الحائط أو بعض الأزهار على المائدة . أرائى بعض الكتب العربية التى اشتراها قائلًا إنه استمتع بها ، أى استمتع ، فقلبتها وتصفحها ووجدت أن ميزتها الوحيدة هى رخص ثمنها . فهو يختار الكتب ليس بحسب موضوعها أو شهرتها مؤلفها ، بل بحسب سعرها . وأظن أن السبب الأساسى لاستمتاعه بقراءتها أنه كلما صادف عبارة لطيفة فى الكتاب أو معنى به بعض الذكاء ، يقول لنفسه بإعجاب : «تصور أرى لم أدفع أكثر من جنيتين فى الحصول على هذا الكتاب !» .

لم يكن كل هذا غريبًا تمامًا علىّ ، وإنما الذى أدهشنى حقًا هو أنه مع كل هذا السعى والدهوب طول حياته ، لجمع المال وتخزينه ، لم يكن لديه أى معرفة بحجم الثروات التى يحققها بعض الناس فى مصر ، دون أن يغادروا مصر إلى أمريكا أو غيرها ، أو يكملوا دراستهم فى الخارج أو الداخل ، ودون أن يدرسوا الطب أو غيره . . إلخ . بل كانت تبدو عليه دهشة حقيقية عندما أذكر له مثلاً أن شخصًا ما حصل على مكافأة مائة أو مائتى دولار مقابل مقال صغير كتبه لجمعية تصدر فى الخليج ، أو أن رئيس تحرير إحدى الصحف المصرية قد تجاوزت ثروته بضعة ملايين من الجنيهات . لم يكن قادرًا على تصور شىء من هذا ، ذلك أن غرامه بالمال كان قويا لدرجة أن المبلغ النافه كان يبدو فى عينيه كبيرًا للغاية ، ومن ثم كان عاجزًا عن تصور كميات من المال كبيرة حقًا . كان حبه الشديد للمال إذن سببًا فى عجزه عن تحقيق قدر كبير منه ، على الأقل بالمعايير الشائعة فى هذه الأيام . أى أن الدني قد عاملته ، من الناحية المادية ، بنفس المعاملة التى عاملها به : «ما دمت تصور أن هذا المبلغ النافه كبيرًا ، فلن نعطيك إذن أكثر منه» .

عندما عدت من سفر قصر خارج القاهرة ، أخبرتنى زوجتى بأن سيدة مصرية اتصلت بنا تليغوني وأخبرتني بوفاة زميلى القديم فجأة بالسكتة القلبية أثناء جلوسه بعد الإفطار لتناول كوب من الشاي . اتصلت بالزوجة انفيتمانية لأعزيها وأعرض عليها أى مساعدة قد تحتاج إليها فى مثل هذه الظروف . فأكدت لى أن كل شىء على ما يرام . لم أعثر له على نعى فى أى صحيفة على الإطلاق . وأخبرنا صديق اخر من كان على صلة أوثق به ، بأن شقيقه ، أى شقيقى زميلنا المتوفى ، أخبره أنه لم

يجد ثمة حاجة لنشر أى نعى لأخيه فى أى جريدة، لا فى مصر ولا فى أمريكا، إذ إنه على حد قول هذا الشقيق «لم يكن يعرف أحدًا فى الواقع».



كان صديقى «على مختار» من نوع مختلف تمامًا من الناس. إن كل من عرفته فى حياتى يهين نفسه على شىء، ولكن سعيد الحظ حقًا هو من يتوافر فيه بالفعل ما يهين نفسه عليه. وكان على مختار من هؤلاء الناس سعداء الحظ. كانت الميزة التى يشعر بالفخر بنفسه بسببها وتتوافر فيه بالفعل هى «الكفاءة». لا أقصد الكفاءة فى مجال معين أو عمل بعينه، بل الكفاءة بوجه عام، بمعنى تحقيق أقصى عائد ممكن من أى حجم معين من الجهد، أو الوصول إلى هدف معين بأقل جهد ممكن. الكفاءة بهذا المعنى تكاد أن تكون مرادفة للعقلانية، وهذا بالضبط كان هو المصدر الأساسى لرضا «على مختار» عن نفسه. كنا جميعًا، بالمقارنة بمعنى مختار، عديمى الكفاءة ومعمنين فى اللاعقلانية. كان يحقق فى اليوم الواحد ما نحتاج لتحقيقه إلى أيام أو أسابيع. فهو دائم الحركة من مكان لآخر، ولا يضيع وقته فى ثثرة لا تفيد أو لحضور حفل لا نفع فيه، أو فى الذهاب لشهقة صديق أو زيارة مريض ما دامت الشهقة أو الزيارة لا تحقق أى فائدة عملية. نعم من الممكن أن يجلب للمريض دواء يحتاج إليه، أو يرتب له موعدًا مع طبيب، أما مجرد الكلام والتظاهر بالشفقة فما جدواهما؟ كلنا يغلبنا النعاس بعد الظهر غنًا، وهو يعتبر هذا إضاعة لوقت ثمين كان من الممكن أن تنجز فيه عدة أشياء، حتى فى أشد الأيام حرارة. نعم كان يغلبه النوم أحيانًا من فرط التعب، ولكن كان هذا يحدث أثناء جلوسه معنا، عندما لا يكون ثمة ما يمكن عمله، فإذا به يومى برأسه ويستغرق فى النوم أثناء انهماك أحدنا فى كلام لا ضرورة له ولا نفع يرجى منه.

كان لا بد أن تنعكس هذه الكفاءة أو العقلانية فى اتخاذ مواقف متحجرة تمامًا من التقاليد والعادات المألوفة إذا لم يكن لها نفع واضح أو مربر معقول. هكذا كان على مختار أكثرنا جرأة فى اتخاذ مواقف كنا كلنا نتمنى أن تكون لدينا الجرأة على اتخاذها، ولكننا لم نفعل تجنبًا لما يمكن أن يقوله الناس. كان جريئًا فى اختيار ما

يرتديه من ملابس، وما يتناوله من طعام، وفي تحديد الوقت الذي يأكل أو يشرب فيه، وفي اختيار المرأة التي يتزوجها. ففى وقت كنا كلنا فيه نضمّر الحُب لهذه الفتاة أو تلك، ولكن عن بعد ودون أن نتخذ أى خطوة إيجابية لتكوين أى علاقة معها، بل وأحياناً ولا حتى لمخاطبتها، جاء على مختار ليعلن لنا أنه تقدم بالفعل لخطوبة فتاة، وأنها قبلت، وأن الزواج سيتم بعد شهر. والفتاة ليست امرأة عادية بل فتاة جميلة مثقفة وفنانة، كانت قد تخرجت لتوها فى كلية الآداب، ثم التحقت بمعهد السينما لتدرس الإخراج. وهى ليست مصرية بل لبنانية، تجلس معنا فتكلمنا كلام النّدّ للنّدّ، وتضحك بحرية ودون عقد، وهو ما لم نتعوده قط من أى فتاة مصرية. كنا جميعاً محرومين حرماناً تاماً من أى علاقة سوية مع الجنس الآخر، وها هو مختار، بجرائفه وثقته بنفسه، يصل إلى ما كنا جميعاً نتمنى فى خيائنا تحقيقه. الأطراف من هذا أن هذه الفتاة اللبنانية استطاعت، بسبب ندرتها وسط هذا الجمع من الذكور المساكين المتعطشين لأى كلمة أو ابتسامة تصدر من أنثى، أن تنظر بحب عدد لا يستهان به منا، ولكننا اضطررنا بالطبع إلى السكوت والرضا بالنظر من بعيد، بعد أن أعلن صديقنا عزمه على الارتباط بها.

كان هذا الصديق الغدّ، على مختار، هو أول من عرفنى على العمل السياسى، وكنا - هو وأنا - الوحيدين من بين هذه الشلة من الأصدقاء، اللذين يهتمان بالسياسة على الإطلاق. ولكنه كان بالطبع، فى هذا الأمر أيضاً، أكثر كفاءة منى بكثير، كما كان أكثر شجاعة، مما أدى به إلى دخول السجن لمدة أسبوعين فى منتصف الستينات دون أن يكون قد ارتكب أى جرم من أى نوع، بينما اكتفيت أنا بالسعى لإخراجه منه دون نتيجة. ولكن هذه قصة أخرى تنتمى إلى مرحلة مختلفة تماماً من العمر.

(٧)

مباحث الصبا

- ١ -

ما أجمل الكتب التي قرأتها بين سنَى العاشرة والعشرين . كانت هذه هي السنوات العشر التالية للحرب العالمية (٤٥ - ١٩٥٥) . وعندما أسترجع في ذهني ما كنت أقرأه في تلك الفترة لا تدهشني كميته بقدر ما تدهشني جودته . وأتساءل بأسف : كم هو صعب في أيامنا الحالية أن يصادف صبي في مثل هذه السن ، لا في مصر وحدها بل وفي غيرها أيضاً ، هذه الفرصة الرائعة التي أتيت لي منذ خمسين عاماً

كان الفضل الأكبر في هذا يعود بلا شك إلى طبيعة البيت الذي نشأت فيه . كان أبى يتلقى سيلاً لا ينقطع من الكتب المهداة إليه من مختلف الأنواع . وكان بعضها من قصص الأطفال التي كتبها بعض أصدقائه أو تلاميذه ، فكان يلقى إلينا بهذه الكتب لنقرأ منها ما نشاء دون أى توجيه منه أو متابعة لما نقرأ . هكذا قرأت في سنواتي الأولى كتب كامل كيلاني ذات الطباعة الأنيقة والصور الملونة ، وما كان يؤلفه أو يترجمه أحمد عطية الإبراشي وجودة السحار . لا تزال منطبعة في ذهني حتى الآن صورة الحصان المسحور ذي الجناحين التي كانت مرسومة على خلاف قصة مفضلة لي ، والتي لا بد أني كنت أطيل النظر إليها لشدة التصاقها بذاكرتي ، وقصة العرنيس الذي ابتلع سمكة فاستقرت في حلقه . لعلني قرأت كل قصص كامل كيلاني الذي يدين له جيل بأكمله من المصريين بإجادة العربية ، وبخيال أكثر اتساعاً ، وبطفولة أكثر سعادة أو أقل بؤساً .

من الأمثلة القليلة التي لا أزال أتذكرها مما قرأته في طفولتي وصباي، بلغت نظري كم كان المرء مستعداً في تلك السن لأن يضرب الصنح عن أى أحداث غريبة وغير معقولة في مقابل أن يحصل على الحد الأقصى من الإثارة. فاللباط السحري الذي يحمل بطل القصة من مكان إلى مكان، أو مصباح علاء الدين الذي يجلب لصاحبه أى شئ يريده، بمجرد أن يحث المصباح بيده، أو جنية البحر التي تقودك إلى ما في قاع المحيط من لآلئ وكنوز، أو عبدة «افتح يا سمسم» المذهشة التي تتبع لك الاغتراف كما نشاء من كهف على بابا. . إلخ، كل هذا يُقبل دون تساؤل، ويستمتع المرء بقراءته المرة بعد المرة ويرقيته صورته، التي قد تكون مرسومة رسماً بدائياً للغاية، بل ورسماً سيئاً، دون أن يبالي قط بمدى الواقعية أو الغرابة. كم كان يجذبنا في تلك السن أى قصة تدور حول الملك والوزير، والملكة أو الأميرة ذات الحسن والجمال، وكم كنا نصدق ما تفعله الصبية الجميلة، البيضاء كالثلج، مع الأقزام السبعة، وتلك الصبية الجميلة الأخرى التي ذهبت لزيارة جدتها فوجدت الذئب قد التهمها، وتخفى في صورة الجدة بمنتهى السهولة، أى بمجرد أن وضع على رأسه غطاء رأسها وعلى عينيه نظارتها، فلم تستطع الصبية أن تميز بين الذئب والجدة. كل هذا يُقبل بصدور رحب في ميل أن نصل إلى نهاية سعيدة للقصة.

ثم انتقلت كبقية جيلي إلى قراءة محمود تيمور وتوفيق الحكيم وطه حسين والملازني والمنفلوطي، والروايات أو المسرحيات المترجمة ترجمة بدئية التي كانت تنشرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار المعارف وغيرهما لجوته وبرناردشو وتوماس هاردي وأندرية جيد، وبعض مسرحيات سوفوكليس. . إلخ، قبل أن نصل في مطلع الشباب إلى غيب محفوظ. أثرت في نفسى بوجه خاص، في تلك الفترة، رواية جوته «آلام فيرتر» التي ترجمها الزيات، والروايات الفرنسية الشهيرة التي اقتبسها المنفلوطي، ورواية «سلوى في مهب الريح» لتيمور، وأعجبت بشدة بكتاب «زهرة العمر» للحكيم، وهو كتاب يصف فترة إقامته في باريس في بداية شبابه متلفها على تكيف نفسه من ناحية، ومعبراً عن اثباته الشديد بمختلف مظاهر التقدم الفني والأدبي في أوروبا. وجد هذا الكتاب صدقاً قوياً لدى، وأنا في تلك السن المبكرة. ولكن عندما وقعت يدي من جديد على نسخة من هذا الكتاب وقد

تجاوزت الستين، وقرأته مرة أخرى، لم يترك لدى أي أثر من الإعجاب والتقدير القديسين، بل تعجبت كيف ظفر هذا الكتاب بإعجابي وإعجاب كثيرين في أي وقت من الأوقات. كان فيما يبدو ليس أكثر من تعبير عن زفرات وطموحات شاب وجد صدي لدى صبي مرهق له طموحات مماثلة. كذلك فتنت لفترة قصيرة في تلك الأيام بأسلوب طه حسين، ولكن لم تضي سنوات كثيرة قبل أن أجده مملًا ومصطنعًا. كنت في تلك السن أصغر من أن أقدر كتب العقاد حق قدرها أو مقالات وكتب النقد الأدبي للويس عوض أو مندور أو أنور المعداوي، فكان أسلوب العقاد سرعان ما يصيبني بالإعياء فيما عدا قصة سارة التي أحببتها، ولم يلتفت نظر أحد في ذلك الوقت إلى سلامة موسى الذي كان يكتب على أي حال في موضوعات لم تكن تثير اهتماما لدى في تلك السن.



كان يغفلني من أخى حسن، الذي يكسرنى بعامين ونصف، أنه كان دائما يتكلم عن «مثله الأعلى» الذي كان نابليون مرة وتولستوى مرة، ويسألني باستمرار: «عمن يكون مثلي الأعلى دون أن أكون حصلت على واحد بعد». فبحثت بسرعة عن مثل أعلى لا يقل قيمة عن مثله العليا، وإذا وقع بيدي كتاب عن فولتير، قرأته بسرعة ووجدت الرجل مناسبًا تمامًا لأخي حسين أن فولتير هو مثلي الأعلى، وكتب عنه مقالًا كان لدى أبي الخرافة الكافية لنشره في مجلة الثقافة التي كان يرأس تحريرها، تشجيعًا لي على القراءة والكتابة. وربما كان هذا أول مقال نشر لي عني الإطلاق. مع ازدياد شهرة نجيب محفوظ أخذت أقرأ له، ولكنني لا أظن أنني تحمست له مثل حماسي لبعض كتب الحكيم طه حسين، باستثناء ثلاثيته، وعلى الأخص (بين القصيرين)، إذ كنت دائما أفتقد فيه الفكرة الفلسفية أو الاجتماعية، أو هكذا كنت أظن وقتها، ولا أذكر أنني كنت أطيل التفكير لدى انتهائي من قراءة رواية له. ولهذا لا أظن أنني خرجت من كتب نجيب محفوظ بغير المتعة. على العكس من ذلك فتنت بقصص يوسف إدريس في الخمسينات، واشتعلت حماسي وأنا أشاهد مسرحيته ملك القطن وجمهورية فرحات، وظللت حريصًا على قراءة كل ما ينشره، بما في ذلك مقالاته السياسية في الصحف.

كان لى أيضاً بعض الشغف بالفلسفة، حتى فى تلك السن المبكرة، فكنت قادراً على الصبر على كتبها بل والاستمتاع ببعضها، لاهتمام حقيقى لى بالعلوم على إجابات عن بعض أسئلتها. أذكر أنى فى الخامسة عشرة أعجبت بديكارت، مفضل كتب الديكور عثمان أمين، وكتبت عنه مقالاً لا بأس به بعنوان «أدلة ديكارت على وجود الله»، ونشره لى أبى فى مجلة الثقافة قبل أن أدخل الجامعة، كما نشرت لى نفس المجلة، فى نفس الفترة، بعض المقالات الحمقاء بعنوان «نظرات فلسفية».



ثم بدأت مرحلة جديدة عندما بدأت أقرأ كتباً فى الأدب باللغة الإنجليزية. كان أول كتاب أقرأه بالإنجليزية، عندما كان مقرراً علينا فى المدرسة، قصة طويلة للكاتب الأمريكى دى الأصل الأرمنى: وليام سارويان، أعارها لى زميل فى المدرسة ممدوحاً إياها بشدة. لا بد أن قراءتى لها قد استغرقت وقتاً طويلاً. إذ لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة، وكانت معرفتى بالإنجليزية محدودة. ولكنى أذكر أنى طرت بها فرحاً وكأنى قد دخلت عالماً لم أكن أعرف بوجوده من قبل. وتعمست لكاتبها تغمساً شديداً ورحت أبحث عن كتبه فى مكتبات شارعى عماد الدين وعبد الحالى ثروت فوجدت له أربعة أو خمسة كتب أخرى، تضم روايات أو قصصاً قصيرة. وزاد إعجابى به وحماسى له، إذ لم أكن قادراً وقتها على مقارنته بغيره، ومن ثم خلدتني بساطته وخفة دمه وما بدا فيه من مشاعر إنسانية. كان إعجابى بأول رواية قرأتها له (الكوميديا الإنسانية The Human Comedy) قد وصل إلى حد أنى ترجمت أحد فصولها ونشرته لى أيضاً مجلة الثقافة، ووصلتني عنه مكافأة قدرها جنيه واحد.

ثم نسيت سارويان نسياناً تاماً، وضاعت كتبه مع ما ضاع بسبب سفرى فى البعثة إلى إنجلترا، والغريب أنى لم أحاول أثناء وجودى فى إنجلترا أن أبحث عن أى كتاب آخر له، بل لا أظن أنى تذكرته أو سمعت اسمه طوال إقامتى هناك. ومرت السنوات حتى تصادف، عندما زرت الولايات المتحدة وأنا فى الخمسين من عمري، أن وجدت كتاباً صغيراً له فى إحدى المكتبات يضم بعض ذكرياته.

ففرحت بعشوري على صديقي القديم بعد فراق ٣٥ عاماً، ولكن خاب أملى خيبة عظيمة . لم أجد فيه ، وأنا أقرأه في سن الخمسين ، أى سمة من سمات العبقريّة التي كنت أظنها فيه عندما كنت في الخامسة عشرة ، ومع ذلك فقد صدفت بعض الفقرات القليلة التي ذكرتني بمتعني القديمة به . ففي روايته لذكرياته وهو طفل ، وصف وصفاً شائفاً عملية الاستحمام التي كن يتعرض لها على يد جدته ، ورأى الشبه الشديد بين ما كانت تفعله به جدته في أرمينيا ، وما كانت تفعله أمى أثناء استحمامى وقيامها بتنظيف جسمى ، كجلوسها على كرسى الحمام الخشبي الصغير والمصنوع خصيصاً لهذا الغرض ، وغلى الماء في صفيحة موضوعة على بابور جاز ، وملء كوز بالماء البالغ السخونة ثم صبّه على جسمى الصغير دون أن تقلب أمى أن تصدق صياحى وشكواى من شدة السخونة ودخول الصابون فى عينيّ ، وهى جسمى باللوفة حتى يحمرّ الجلد من شدة الحكّ ، ورفض أمى أن تعبير أن الاستحمام قد تم حتى تسمع صياحى وترى حمرة جلدى .

بحثت عن كتب أخرى له على أمل أن أجد ما يعيد إلى إعجابى القديم به ، فوجدت كتاباً له نشر فى ١٩٦١ ، ويحتوى على سيرته الذاتية ، فقرأته فى محاولة لاكتشاف حقيقة الرجل ، وربما أيضاً لاكتشاف سبب إعجابى المبكر به ، فخاب أملى مرة أخرى إذ كان من الواضح أن الرجل كان قد أصابه الهرم وهو يكتب هذا الكتاب ، ففقد حتى طُرفه القديم . لغت نظرى فى الكتاب أنه وإن كان لا يكف عن ذكر ابنه (آرام) وابنته (لوسى) وأهله الأرمن الذين هاجروا إلى أمريكا ، وبقيض بالتعبير عن الحب لهم جميعاً ، لا يذكر أى شىء عن زوجته ، التى يوحى الكتاب بأن أمرها انتهى بالطلاق . ثم وجدت فى نفس المكتبة كتاباً آخر عن سارويين ، كتبه ابنه آرام ، فشافنى بشدة أن أعرف قصة الرجل بالتفصيل ، خاصة إذا كان الراوى هو هذا الابن المحبوب الذى كتب عنه الأب بكل هذا الحنان وسمى أحد كتبه باسمه . فإذا بى أجد كتاب الابن لا يحتوى إلا على ذمّ مستمر للأب ، وكان الرجل ليس له حسنة واحدة تستحق الذكر . بل إنه حتى عندما يأتى إلى ذكر منحه جائزة بوليتزر ، وهى أعلى جائزة أدبية فى أمريكا ، ورفض سارويان للجائزة قبالاً : «إن المال لا يجب أن تكون له صلة بالأدب» ، حتى هذا فسّره الابن بحب سارويان للمشهرة .

كان من الواضح أن الابن لم يكتب هذا الكتاب إلا في محاولة مستميتة للدفاع عن أمه ، وإلقاء الذنب كله على أبيه الذي ينعتة بالأنانية المفرطة والقسوة وما يشبه الجنون . والذي يفهم من الكتاب أن الأم كتمت عن زوجها أنها طفلة غير شرعية وأنها يهودية حتى انقضت عدة سنوات على زواجهما ، وذلك خوفاً من أن يهجرها إذا عرف الحقيقة . وقد طلقها الرجل بالفعل عندما أخبرته بالحقيقة ، إذ لم يتصور أن تكون لديها هذه القدرة على كتمان مثل هذا عنه ، واستمراره في الكذب طوال تلك السنوات .

على أن إقبالني على قراءة كتب الأدب بالإنجليزية حدث أساساً بفضل أخي حسين ، فعن طريقه تعرّفت على الأدب الروسي فانفتح أمامي فيجأة عالم جديد تماماً . كانت روايات دوستوفسكي وتولستوي وترجييف من نوع يختلف عن أي شيء قرأته من قبل ، وكانت قصص ومسرحيات تشيكوف على الأخص هي التي استولت على قلبي . ولازلت لا أملاً من رؤية مستان الكرر أو الشقيقات الثلاث أو الخيال فايب على المسرح ، المرة بعد الأخرى . فإذا حللت بلندن وكانت تعرض مسرحية من مسرحيات تشيكوف كانت هي ما أختار رؤيته مهما كان عدد مشاهداتي لها من قبل . عرفني حسين أيضاً على سارتر وأندريه جيد وكامو ، وعلى إستيفان زفانج وإيسن وأرثر ميلر ، حتى إنني عندما تركت مصر إلى إنجلترا في ١٩٥٨ ، كانت قراءتي بالإنجليزية تكاد تقارب قراءتي بالعربية في السهولة . وإن لم تقاربها حتى الآن في المراحة .



لا أستطيع أن أفخر بمعرفة واسعة بالشعر والشعراء ، في أي لغة ، بما في ذلك اللغة العربية ، كما أنني لا أحفظ منه إلا أقل القليل . بهرتني أحياناً بعض عبارات شكسبير ولكن يصعب عليّ أن أعثر على مثال لشاعر أوروبي آخر أثار حماسي ، بل ولا أستطيع أن أزعج هذا حتى عن شكسبير ، وقليلون جداً من الشعراء العرب من جلبت لي القراءة بهم متعة زائدة ، فيما عدا المتنبي الذي أدين بحيي له للصدفة البحتة . ففي آخر سنوات دراستي الثانوية كانت وزارة المعارف تسمح للتلاميذ

بدخول مسابقة في الأدب العربي يتغير موضوعها سنوياً، وتتطلب من يشترك فيها قراءة مجموعة من الكتب في موضوع واحد، ويمتحن فيها تحريراً ثم شفويّاً من بعض كبار أساتذة الأدب في مصر. وكانت الجائزة فيما أذكر ثلاثين جنيهاً. وكان موضوع المسابقة في ١٩٥١ المتنبي والشاعر الأندلسي ابن زيدون، فكان عليّ أن نقرأ شعر المتنبي ونحفظ بعضه وندر من حياته، بما في ذلك كتابان كتبهما الشاعر علي الجارم. والتحقت بالمسابقة وقرأت فيما قرأت عن المتنبي كتاب طه حسين عنه، والكتاب الصغير الرائع الذي كتبه محمود شاكر، واستطعت أن أعرف قدر هذا الكتاب وتفوقه على كتاب طه حسين، وأنا في تلك السن الصغيرة، ولم أكن أعرف وقتها أن الأستاذ شاكر كان قد اتهم طه حسين بالسطو على بعض أفكاره عن المتنبي. المهم أنني فنتت وقتها بالمتنبي ولا أزال حتى الآن أفضله على غيره، وألفت عنه مسرحية كاملة بالاشتراك مع زميل لي، لا أعثر لها الآن على أثر. وحصلت على الجائزة إذ كنت الأول في المسابقة، رغم أنني حصلت على درجة منخفضة نسبياً في امتحان اللغة العربية في السنة التوجيهية (الثانوية العامة)، وكانت درجتها تضاف إلى درجة مسابقة المتنبي. كما حصلت على جائزة أكبر منها، هي خمسون جنيهاً، لكوني أول الثانوية العامة في القسم الأدبي في القطار المصري، ونشر اسمي في الجرائد وأذيع في أحر نشرة الأخبار بالإذاعة، رغم أنني كنت أخشى الرسوب بسبب خروجي عن الموضوع المطلوب في سؤال الإنشاء في امتحان اللغة العربية.

حدث أيضاً عندما كنت طالباً في المدرسة الثانوية، في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، أن جاء يرم زميل لي إلى المدرسة وهو يحمل كتاباً صغيراً، لا يزيد حجمه على حجم الكفّ، يتضمن شعراً بالإنجليزية للشاعر الهندي الشهير طاغور. كان اسم الكتاب «البستاني» (The Gardener)، وقال لي إنه معجب جداً بهذه الأشعر وأغار الكتاب لي. وبالفعل وجدت الشعر رائعا، وبدأ أسم طاغور يصبح محبباً إلى نفسي، ترجمت له وأنا في الخامسة عشرة أو نحوها بعض أشعاره، ونشرت أيضاً في مجلة الثقافة، ثم اقتنيت مجموعة أشعاره في مجلد واحد لا أزال

أعتبره من الكتب المحببة إلىّ. وبعد سنوات كثيرة شاهدت له في التليفزيون الإنجليزي فيلماً مأخوذاً عن روايته «البيت والعالم» فراعنى، ليس فقط جمالها وحكمتها، بل وما تلقى من ضوء وما تثيره من فكر، وهى المسرحية المكتوبة منذ ما يقرب من مائة عام، عما يحدث الآن من تعصب وتطرف فى بلادنا وخارجها، وفى الصراع الخالد بين الوافد والموروث. كان الفيلم من إخراج ذلك المخرج الهندى الشهير أيضاً، والذي أصبح بدوره من المحبين إلىّ، ساتياجيت راي (Satyajit Ray)، فأصبحت أتلقف أى حبر يتعلق بطاغور أو ساتياجيت راي بشغف وأقرأ باهتمام أى خبر أو مقال يتعلّق بهما. لا عجب أن أقبلت بلهفة على قراءة مقال وجدته فى صحيفة بريطانية كتبه المخرج راي بمناسبة ذكرى طاغور. وفيه إشارة إلى الواقعة المؤثرة الآتية التى حدثت له وهو طفل فى الثامنة من عمره. قال راي إنه نشأ فى نفس البلدة من بلاد البنجال بالهند، التى عاش فيها طاغور. وكانت أم راي تزور طاغور أحيانا فكان يسألها عن تعليماتها وتطوره العقلى. وفى أحد الأيام جاءته الأم مصطحبة ابنتها ساتياجيت وطلبت من طاغور أن يدعو لابنتها ويباركه، فقام طاغور وأحضر قدما وورقة وكتب عليها مقطوعة شعرية قصيرة من تأليفه، وطواها وأعطاهها للام قاتلا: «احتفظى بهذه القصيدة القصيرة لابنك حتى يكبر. إنه لن ينهما الأنا، ولكنه سيفهما بكل تأكيد عندما يكبر». وكانت القطعة التى كتبها طاغور:

«لقد أنفقت ثروة طائلة فى السفر إلى شواطئ بعيدة، فرأيت جبالا شاهقة ومحيطات لا يحدها حد. ولكنى لم أجد متسعا من الوقت لأن أخطو بضع خطوات قليلة خارج منزلى، لأنظر إلى قطرة واحدة من الندى، على ورقة واحدة من أوراق العشب».

"I have spent a fortune travelling to distant shores, and looked at lofty mountains and boundless oceans, and yet I have not found time to take a few steps from my house, to look at a single dew drop on a single blade of grass".



وقعت يدي على مفكرة صغيرة لسنة ١٩٥١ وجدت أنني دونت فيها، يوماً بيوم، من أول السنة إلى آخرها، ما فعلته خلال اليوم باختصار شديد، بما في ذلك ذكر أسماء الكتب التي كنت أقرأ فيها والأفلام والمسرحيات التي شاهدتها. كانت هي سنة امتحانات الثانوية العامة (التي كانت تسمى حينئذ بالتوجيهية)، ودخلت خلالها أيضاً مسابقة الأدب العربي التي ذكرتها حالاً والتي عقد امتحانها في فبراير ١٩٥١، وكانت الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة هي أول شهوري في كلية الحقوق. ومع ذلك وجدت أنني خلال اثني عشر شهراً (هي السنة السابعة عشرة من عمري) قرأت عدداً لا بأس به بالمرّة من الكتب الجيدة، بالعربية والإنجليزية. فبالإنجليزية قرأت عشرة كتب لوليام سارويان (ما بين روايات وقصص قصيرة ومسرحيات) وجزءاً كبيراً من كتاب يضم الأعمال الشعرية والمسرحيات الكاملة لطاغور، وقصتي لوزيالكوت الشهيرتين ساء صغيرات وزوجات طبيبات، ورواية عصر العقل لجان بول سارتر، ورواية لتولستوي أظن أنها رواية البحث، وأربع روايات لشرجنيف، وثلاث روايات لدمستوفسكي من بينها الجريمة والعقاب، وثلاث روايات لأندريه جيد من بينها الباب الضيق، ومجموعة من القصص القصيرة لتشيفوف، ومسرحية الضابطة بربارا لبرنارد شو وأخرى لإبسن (البطة البرية)، ومجموعة من القصص القصيرة لموباسان، وبعض قصص أوسكار وايلد. قرأت كل هذه الكتب بالإنجليزية، كما قرأت بالعربية كتباً عن المتنبي وابن زيدون (استعداداً لمسابقة الأدب) وكتاباً عن الفيلسوف مابينوزا، وأربعة كتب لتوفيق الحكيم، ورواية إبراهيم الكاتب للمازني، وترجمة لآلام فيتر لجوته، وترجمة لرواية تاييس لأنتول فرانس، وترجمة لرواية البيت والعالم لطاغور، وجزءاً من ترجمة لكتاب أصل الأنواع لداروين، وترجمة لكتاب لديكارت لا أفكر لأن كم فهمت منه. ومع ذلك فأنا واثق من أنه كان من السهل على أن أقرأ أكثر بكثير من هذا القدر من الكتب لولا انشغالي المستمر في تلك السنة بما تفعله بنت الجيران، دون أن يسفر هذا الانشغال للأسف عن أي نتيجة ذات شأن.

لابد أنى اتخذت هذا القرار فى سن مبكرة جداً، وهو أن أحقق نوعاً من التفوق أو التميز عن طريق الكتابة. ولابد أن كانت لهذا القرار علاقة وثيقة بالمكانة العالية التى كانت تحتلها الكتابة والتأليف والنشر فى أسرنا.

كانت شهرة أبى ومكانته العالية فى المجتمع يعودان إلى هذا وحده: الكتابة والتأليف. نعم لم يكن أبى يتمتع بشهرة تضاهى شهرة طه حسين أو العقاد أو توفيق الحكيم، ولكنها كانت فى نظرنا نحن الصبية الصغار، تضاهى شهرة هؤلاء وتزيد عنها. كنا نرى لأبى مقالا بعد آخر فى مجلة بعد أخرى، ونرى صورته إلى جانب المقال، ونسمع صوته وهو يلقي حديثاً فى الإذاعة، ونسمع جرس التليفون يرن فإذا بالتكلم هذه الكلمات الكبيرة أو ذلك، وفى الأعياد نرى ساعى البريد يحمل له عدداً كبيراً من كروت المعايدة، كثير منها لأسماء معروفة ومشهورة، وعلى الطرف اسم أبى مفتوناً بعبارة «الكاتب الكبير» أو حتى فى بعض الأحيان «عميد الأدب العربى». وكل هذا أتى من الكتابة والتأليف، فما أعظمها من مهنة، وما أجدرها بالافتاء!

ولكن إلى جانب هذا لابد أن هناك عاملاً آخر، يتعلق بقدرتى أنا الذاتية على الكتابة. إذ لا جدوى من أن أظاهر بغير ما أعتقد، وألا أعترف باعتقادى بأن لدى قدرة على التعبير الواضح والسهل عن نفسى بدرجة تفوق قدرة كثيرين غيرى. لابد أن كان لدى استعداد طبيعى للتعامل مع الكلمات ولتعزيز الأسلوب الجميل عن القبيح. هذا الاستعداد اتضح مبكراً لمدرسى اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية فكانوا يعطونى دائماً درجة عالية على ما أكتبه من موضوعات الإنشاء أو فى مادة «التعبير»، كما كانت تسمى فى مدرستى النموذجية، وكثيراً ما كان المدرس يكتب جملة أو جملتين من الثناء على ما أكتبه من نوع «لابد أنك ستصبح أدبياً ممتازاً» أو «أنتى لك بهذا وذاك...». وكان هذا يسرنى سروراً عظيماً، إذ لم أدرك وقتها أن كثيراً من عبارات الثناء هذه كان المقصود بها أبى فى المقام الأول، فقد كان كثير من

مدرسى اللغة العربية حريصين على أن يحصلوا على رضاه، وأن يعرفوه بأنفسهم، عسى أن يستطيعوا فى يوم من الأيام تحقيق بعض النفع من وراء ذلك. ولكن يجب ألا أبالغ فى هذا أيضاً، فلا شك أن بعض هذا الشاء كان فى محله.

لا شك أنني تبينت أو ظننت فى نفسى بعض التميز فى القدرة على الكتابة فى سن مبكرة للغاية، تعود إلى سنوات روضة الأطفال (وكانت تبدأ حينئذ من سن الخامسة وتنتهى فى الثامنة)، إذ من بين أولى ذكرياتى عزمى على كتابة قصة لكى أعرضها على مدرسة رقيقة من المدارس كان اسمها «أبله فاطمة»، وأنى كتبت هذه القصة بالفعل، وذهبت فى اليوم التالى متلهفاً أشد التلهف على إعطائها لها، ولكنها، لحبيبة أسمى الشدينة، لم تحضر إلى المدرسة فى ذلك اليوم، بل ولم تظهر فى المدرسة بعد ذلك قط، وبالتالي لم تقرأ قصتى ولا قرأها غيرها.

بعد هذا بستين أو ثلاث، وكنت فى الثامنة أو التاسعة من عمري، اشتركت مع أحوى حسين وأحمد، فى كتابة مجلد يتكون من تسع صفحات، ويحوى على ثلاث قصص قصيرة. كانت قصتى، التى تقع فى نحو ثلاث صفحات، تحمل هذا العنوان التراجيدى «دنيا»، وكانت مأساوية بالفعل، إذ كان موضوعها حليماً زعمت أنى حلمته، وتعرضت فيه لأحداث مأساوية متتالية، منها تعرضى للتعذيب القاسى من مختلف الأنواع، على يد سيدة غليظة القلب بشعة المنظر، دون أن يبين فى الحلم أى سبب واضح لهذا التعذيب. وتنتهى القصة بأن أسأل عن اسم هذه السيدة فأكشف أن اسمها «دنيا»، فأقول فى نفسى نعم، كم أنت قاسية يا دنيا. وبهذه الجملة تنتهى القصة، وأستيقظ من نومي، وأكتشف أن كل هذا لم يكن أكثر من حلم. للقدري أن يتصور الحالة النفسية التى يمكن أن تدفع طفلاً فى الثامنة من عمره إلى أن يكتب قصة كهذه، وأن يصف «الدنيا» على هذا النحو. وأنا أميل إلى تفسير تلك الحالة النفسية بموقعى كأصغر طفل فى العائلة وتعرضى المستمر لمضايقات أخوى اللذين يكبراننى مباشرة: حسين وأحمد.

كانت القصة الوحيدة من بين القصص الثلاث، التى تتمتع بأى قيمة أدبية على الإخلاق، هى قصة حسين، أو هكذا على الأقل ظلت اعتقد لسنوات كثيرة، كلما

قرأتها من جديد . كانت تحمل عنوان «كهولة مرحة» ، وكانت ، على عكس قصتي ، خفيفة الظل ومشوقة بل وذات مغزى .

كان هذا في سنة ١٩٤٣ أو ١٩٤٤ ، ولا تزال لدى حتى الآن نسخة من هذا «المجلد» . وهو مطبوع طباعة آنيقة في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التي أسسها أبي ومجموعة من أصدقائه في سنة ١٩١٤ ، وظل رئيسا لها حتى نهاية حياته . كما أنه كان «مجددا» بمعنى الكلمة ، أي كانت له جلدة حمراء أكثر سمكا من بقية صفحات الكتاب ، كتبت عليها أسماء القصص والمؤلفين وتحت اسمي كتبت عبارة «تلميذ بالسنة الثانية في المدرسة الابتدائية» . كنا نعبر موافقة أبي على طباعة مثل هذه القصص بمطبعته أمرا طبعيا ولا يتطوّر على أي تسامح أو كرم من جانبه ، بل كنا نعبر ذلك واجبا عليه . والحقيقة أنه كان من أسهل الأمور عليه أن ينهرنا ويأمرنا بالكفّ عن هذا الكلام الفارغ ولكنه لم يفعل . وافق أبي أيضاً بعد هذا بسنوات قليلة ، وكنت في نحو الحادية عشرة من عمري ، على أن تُطبع في مطبع لجنة التأليف مجلة أسستها أنا وعدد من أصدقائي تحمل اسم «عصفور النيل» ، صدرت منها ثلاثة أو أربعة أعداد ثم احتجبت عن الصدور عندما حققت الغرض الأساسى من إصدارها وهو أن نرى أسماءنا مطبوعة ، وموصوفة بالقلب مثل رئيس التحرير . أو حتى رئيس مجلس الإدارة ، وهو منصب لم يكن من الممكن أن يحتله شخص غيري ، ليس فقط لأن المجلة تطبع في مطابع أبي ، ولكن لأنى أنا الذى كنت أكتب معظم مقالات المجلة .

الأغرب من هذا أن أبى ، عندما بلغت أنا وأخى حسين سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، كان يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه في مجلة «الثقافة» . تلك المجلة الرقيقة التى كان يرأس تحريرها طوال عمرها ، باستثناء السنة أو الستين الأخيرتين السابقتين على إغلاقها ، والتى لعبت دورا مهما في الحياة الثقافية في مصر في الثلاثينات والأربعينات . بالإضافة إلى هذه المقالات القليلة التى نشرت بفضل تسامح أبى وكرمه ، كتبت أشياء كثيرة أخرى مما لم يكن يتصور نشره في أى مكان . كنت حتى دخولى الجامعة دائم التأليف للكتب المخطوطة بخط اليد . لم تكن كتبنا

ضخمة، بل إن بعضها لم يكن يزيد حجمه على عشرين صفحة، يتكون معظمها من صفحة الغلاف، و صفحة الإهداء، ثم صفحة المحتويات والمقدمة، يليها خمس أو عشر صفحات قبل أن تأتي الخاتمة. كان المهم هو بالطبع مراعاة القواعد الصارمة التي تراعى في أى كتاب: فلا بد للكتاب من إهداء و صفحة محتويات، وقد تأتي تحت عنوان الكتاب عبارة بليغة لكاتب مشهور، بل وربما ذكرت على صفحة الغلاف أن هذا هو الجزء الأول من عدة أجزاء سوف تصدر تباعاً. وقد يتضمن الكتاب قصصاً وأشعاراً ومجموعة من الأقوال المأثورة وبعض الخواطر الفلسفية، وقد يضم موضوعاً للإنشاء كتبه لأحد المدرسين وعبر عن إعجابه به. كما أذكر أنى فى سن السادسة عشرة عندما قرأت الترجمة العربية لكتاب آلام فيرتر لجوته تأثرت به تأثراً شديداً، جعلنى أقرر أن أكتب قصة ماثلة أصب فيها ما كنت أشعر به من حب لابة الجيران، فصعدت إلى سطح المنزل وجلس فى الشمس ومعنى الورق والقلم وشرعت أكتب كتاب بأكمه، دون أن يكون لدى أدنى فكرة عن موضوع القصة أو كيف تبدأ وكيف يمكن أن تنتهى، ومن ثم لم أكتب إلا سطرين ثم سبت المشروع بأكمله.

كان من المحتم أيضاً أن أجرب الشعر كما جربه غيرى، قبل أن أكتشف مثلاً اكتشف كثيرون غيرى، عدم وجود موهبة بناتنا فى هذا المجال. وأظن أنى كنت فى نحو السابعة من عمرى عندما بدأت أكتب قصيدة أعبر بها عن فرحى بعودة أمى من سفرها، فقلت فى البيت الأول:

أمى العزيزة قد أتت أمى العزيزة قد أتت

ثم توقفت للإلهام تماماً عند هذا الحد. وعندما ذكرت لأبى ما حدث تصادف أن كان خالى البال فقرر تشجيعى بأن يؤلف بنفسه بيتين إضافيين على أمل أن أضيف إليهما فيما بعد فقال:

هيا بنا إليها نلقى السلام عليها

نقول يا أم أهلاً ومرحباً وسهلاً

ولكن هذه المساعدة السيئة من جانبه لم تنمر أى شىء جديد من جانبى.

كنت أصغر من أن يلحقنى أى أثر ذى شأن من الحرب العالمية الثانية . فقد قامت احرب قبل أن أبلغ الخامسة من عمرى وانتهت وأنا فى العاشرة . نعم أذكر صفارات الإنذار وصفارات الأمان ، وأنها كانت صفارات حقيقية وجدية تبعث الأولى اخوف وتعيد الثانية الطمأنينة ، وذلك بعكس صفارات الإنذار والأمان التى سمعها بضع مرات خلال حرب ٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، إذ لم تكن تأخذ هذه مأخذ الجذء ، وكنا على حث فى الاعتقاد بأنها كانت فى أغلب الأحيان ، من بين وسائل الحكومة لإيهام الناس بأن هناك قتالا حقيقيا .

أذكر أيضا جرينا إلى المخبأ فى بدروم المنزل ، وصباحات النامس فى الشوارع بضرورة إطفاء الأنوار ، ولكنى لم أسمع صوت قنبلة قط أو مدافع ، وإن كنت أذكر رؤية أضواء الكشافات فى السماء التى تبحث عن الطائرات المغيرة . من ذكرياتى القليلة عن سنوات احرب حرص أمى على تجميع الجرائد والمجلات التى فرغ أبى من قراءتها . كان ابورق فى تلك السنوات شيئا ثميناً بسبب صعوبة الاستيراد ، حتى إن ثمن ما يبيعه أمى من هذه الجرائد كان يغطى ثمن كل ما تشتريه من خضراوات بالإضافة إلى بعض الفاكهة . أذكر أيضاً تهكم الصحف بما تنشره من رسوم فكاهية بمن كانت تسميهم «أغنياء الحرب» ، وهم من جمعو اثروات طائلة من التجارة بأشياء أصبحت نادرة بسبب الحرب ، أو بب تعاملهم مع قوات الجيش الإنجليزى المنتشرة فى مصر . على أن أهم آثار سنوات الحرب على حياتنا العائلية كان أثرًا طيبا ولم يتبقى منه فى ذهنى إلا ذكريات وصور سارة للغاية . كان هذا هو قضاؤنا لبعض شهور الصيف من كل عام ، فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ ، فى رأس البر ، إذ ظلت الإسكندرية طوال هذه السنوات معرضة لأخطار كانت رأس البر بعيدة عنها . ومن الصعب على أن أنقل إلى القارئ صورة لما كانت عليه رأس البر من جمال ورونق فى تلك الأيام ، بالمقارنة بما آلت إليه فيما بعد . لا بد أنها كانت تستقبل فى كل عام عائلات من علية القوم ، من رجال السراى إلى الباشوات من الإقطاعيين ، إلى كبار

المهنيين والميسورين من الطبقة الوسطى فى مصر . وكان أبى يعتبر التصنيف شيئاً شبه مقدس ، بعكس كثيرين غيره من المنتمين إلى نفس طبفته ووضعته الاقتصادى ، ومن ثم فقد نشأت وكبرت على فكرة أن التصنيف « من ضرورات الحياة » ، وأعتبر البقاء طوال الصيف فى القاهرة أمراً غريباً حتى الآن ، بعكس كثير من أصدقائى وزملائى الذين لا يعتبرونه شيئاً ضرورياً على الإطلاق .

لابد أن كان لرأس البر سحر خاص للأطفال ، فالبيوت ليست إلا عيشة مقامية على أرضيات من الخشب ، والشوارع رملية غير مرصوفة فلا تسمح بمرور أى نوع من السيارات أو اندراجات ، ومن ثم للأطفال أن يجرؤا ويلعبوا حول بيوتهم دون أن يخشى عليهم من شىء . واليوم ينقضى بين عوم فى البحر فى الصباح ، وركوب القوارب الشراعية فى النيل فى المساء ، أو التمشية على كورنيش النيل الساحر ، حيث يجتمع البائعون لكل ما يمكن أن يخطر ببال طفل . من بين كل هذا التصقت فى ذهنى أربع أو خمس صور لا يمكن أن يحسوها الزمن . وتعود إلى ذاكرتى بين الحين والآخر قوية واضحة ، ليس فقط فى شكلها الذى رأيتها به وأنا فى السادسة أو السابعة من عمري ، بل وتكاد أيضاً تعود إلى رائحتها ومذاقها .

من بين هذه الصور التى لا أنساها صورتى أنا وأخى حسين ونحن جالسان فى إحدى الفنادق الفاخرة التى أقيمت على شاطئ النيل فى رأس البر ، وقد أحضر إلينا الخادم ما طلبنا منه إحضاره وهو «شاي كومبليه» ، ويتكون من إبريق فاخر للشاي ، وإبريق آخر أصغر قليلاً للماء الساخن ، وإناء آخر صغير له لمعان النضة للسكر ، ومثله للين . وإلى جانب كل هذا يأتى لكل منا طبق صغير وسكين وشوكة وملعقة لكى نأكل منها قطع الكيك الإنجليزي الفاخر ، المحلى بقطع الفاكهة المجففة ، وقطع التوست ، بعد أن نغطيه بالزبد والمربى . كان كل هذا يشمله هذا التعبير المختصر «شاي كومبليه» (أى الشاي الكامل) . ويصعب على أن أفهم الآن بالضبط ما سحر هذا الشاي الكومبليه فى نظر طفلين صغيرين يشراوح عمرهما بين السادسة والتاسعة ، ولكن مما يمكن أن يبقى ضوئاً على هذا السحر الخاص الواقعة التالية : كان أبى قد أخذنا يوماً إلى هذا الفندق (وأظن أن اسمه كان فندق دويال) كوع من

الفسحة لتعويضنا عن حرماننا شبه المستمر منه وهو مستغرق طوال الوقت في القراءة والكتابة. وسمعناه يطلب لنا «شاي كومبليه»، بينما طلب لنفسه فنجانا من القهوة بدون سكر، إذ كان ممنوعا من أكل أى نوع من الحلويات. فلما أتى الخادم بهذا الشاي كومبليه لأبد أن أذهلنا، ليس الأكل نفسه، بمقدار ما كان يأتي معه من أشياء بدعية تبرق في الضوء، من إبريق الشاي إلى أصغر ملعقة. لأبد أن طعم الأكل في هذا الإطار الفاخر من الفخامة والأبهة، كان له لذة مضاعفة، تاهيك عما لهذه الأشياء في فم طفل صغير من لذة، في أى ظرف من الظروف، تفوق بكثير ما يمكن أن يكون لها لدى الأكبر سنا. رأينا إلى جوارنا شابين يلعبان الطاولة، فاستقر عزيمتنا. أنا وحسين. أن ندخر مصروفنا ليضعة أسابيع حتى نستطيع أن نخرج وحدنا، أنا وهو فقط، إلى فندق رويال، فنطلب الشاي كومبليه ثم نطلب طاولة لنلعب بها لعبة «العادة» تعقبها لعبة «المحبوسة».

عندما أتذكر هذا النعيم الذي كانت تمرح فيه الطبقة الوسطى والطبقة العليا في مصر، في أشد أيام الحرب العالمية قسوة على الأوروبين، أعود فأتعجب من درجة «التدليل» التي تمتعت بها الطبقة اليمسورة في مصر، على مرّ العصور، بالمقارنة بدرجة المعاناة التي تعرضت لها كافة الطبقات الاجتماعية في أوروبا بين فترة وأخرى، إما بسبب الحرب أو بسبب الأزمات الاقتصادية الطاحنة.

تصف لى زوجتى (وهى إنجليزية وكانت تنتمي في مجتمعهما إلى نفس الطبقة الاجتماعية التي كنت أنتمي إليها في مصر، وقد ولدت في نفس السنة التي نشيت فيها الحرب العالمية)، مختلف أوجه الحرمان التي تعرضت لها هي وأسرتها في سنوات الحرب، وكيف كان الجميع، ميسورين أو غير ميسورين، يعتبرون من قبيل المسلمات اشتراك الجميع في التضحية. حكّت لى مثلا كيف أن أخويها اللذين يكبرانها في السن كانا يغيظانها وهي طفلة، ويعيرانها بأنها «طفلة حرب»، قاصدين بذلك أنها، وقد ولدت مع نشوب الحرب، لم تتمتع بما كانا يتمتعان به قبل الحرب من الحلويات والشوكولاتات التي أخفت تقريبا من الوجود طوال سنوات الحرب. وكيف أن أسرتها قبلت عن طيب خاطر أن يقيم معها، في منزلها الواقع في مدينة

صغيرة في وسط إنجلترا، ولعدة شهور، ست عشرة امرأة وطفلاً ممن كانوا يقيمون في لندن، حيث ذهب الرجال للقتال وجرى تهجير النساء والأطفال إلى خارج العاصمة ووزعوا على المدن البعيدة لتقليل عدد ضحايا القنابل. وحكت لي أيضاً كيف كانت أمها مع عدد كبير من النساء عضوات فيما كان يسمى بـ «جيش الأرض»، إذ كن يقمن بزراعة بعض الأراضي إلى جانب أعمال أخرى، بدلاً من الرجال من المزارعين الذين ذهبوا إلى جبهة القتال.



لابد أننا قضينا عطلة الصيف في رأس البر في أربع أو خمس سنوات متتالية خلال الحرب، فلما انتهت الحرب عدنا إلى قضاء الصيف بالإسكندرية. ثم مرت سنوات كثيرة دون أن أحظى برؤية رأس البر مرة أخرى، إلى أن خطر ببالي بعد مرور ١٢ سنة على انتهاء الحرب، أي في ١٩٥٧، أن أذهب مع بعض الأصدقاء لقضاء بضعة أيام فيها تدفعني الرغبة في استعادة أيام هذا الماضي الجميل. ولكن كم كانت خيبة أملى. كانت العشش قد حل محل معظمها بيوت قبيحة مبنية بالطوب والحديد والأسمنت، وكان اكتظاظ شاطئ البحر وشاطئ النيل بالناس شديداً لدرجة كان لابد أن تختفى معها أي مسحة من الجمال. بحثت عن الودع الجميل القديم الذي كان يزين الممرات المؤدية إلى كثير من «المبانى» (أو العشش) الحكومية، كمبنى المحافظة أو الشرطة أو المطافى، فلم أجده أثراً، ناهيك عن الشاي الكومبليه في فندق رويال، إذ حل محل هذا الفندق فندق آخر يحمل اسماً أكثر شعبية ولا يقدم شايًا من هذا النوع.

كان من الواضح أن الطبقة التي كانت تتمتع وحدها برأس البر منذ اثني عشر عاماً قد طردت شر طردة إلى مكان آخر، وحل محلها أعداد غفيرة من الناس يتمنون إلى طبقات شعبية أعادت لها ثورة يوليو بعض حقوقها المضاعفة. عدت كسير المخاطر إلى القاهرة، أحمل في رأسي نفس الأفكار الاشتراكية التي نادى بها ثورة يوليو، ولكن قلبى كان يحن بلا شك لأيام «الشاي الكومبليه».

كنا ونحن صبية صغار لا ننظر إلى السينما إلا على أنها مصدر رائع للمتعة الخالصة . وقد كانت بالفعل كذلك . كان بجوار منزلنا بمصر الجديدة ، الذى ولدت وتربيت فيه حتى بلغت الثانية عشرة من عمرى ، سينما صيفية جميلة تعرض أفلاما عربية وأجنبية . وكان الحصول على إذن أبى لى ولأخى حسين بالذهاب إليها مصدراً للفرح الغامر ، نظل نعبّر عنه بالجرى تارة وبالصراخ تارة أخرى حتى يحين موعد الفليم ، أو بالأحرى حتى لا يبقى على موعد بداية الفليم إلا ساعة واحدة أو ساعتان فنذهب إلى السينما ونجلس منتظرين بدء الفليم على أحر من الجمر . كانت الأفلام العربية كلها من نوع الميلودراما الصارخة ، الشرير فيها شرير جداً والطيب فيها طيب للغاية ، والفيلم كله صراع مفضوح تماماً بين الاثنين ، ويتهى بالطبع بانتصار الطيب على الشرير ، ولكن بعد أن يكون بين هذا الشرير والانتصار خطوة قصيرة واحدة ، أو طعنة واحدة بالخنجر . ثم يتدخل الشخص الطيب فى آخر لحظة . لم يكن شئ من هذا يضايقنا بتاتا ، بل كان يلائم عقليتنا وسننا حيثذ تمام الملاءمة .

هكذا كانت أفلام بدر لاما ، الفارس الشجاع تماماً ، وسراج منير ، البطل المغوار فى فيلم عترة وعيلة ، وزكى رستم ، الذى كان وجهه يلائم أدوار الشرير ، ومحمود المليجى الذى كان رائعاً دائماً فى تدبير المؤامرات والمكائد فى الخفاء للأشخاص الطيبين ، وعبد الفتاح القصوى الذى كان يلائمه دور رئيس العصابة . . الخ . وهكذا كانت أفلام يوسف وهبى الرائعة ، مع ليلي مراد الفتاة الرقيقة الجميلة ، سواء مثلت فى فيلم ليلي بنت الأغنياء أو ليلي بنت الفقراء ، وكذلك عندما مثلت فيلم «ليلى» بدون أى وصف . . الخ .

وعندما دخل أحمد سالم ميدان اسيسما ومثل أدوار البطل بوقار وهدوء غير معمولين ، أثر فينا جداً فيلمه مع ليلي مراد أيضاً ، الذى فقد فيه ذاكرته بسبب حادث سيارة ، وانقضى الفيلم كله فى محاولة لإرجاعه لزوجته المسكينة ، وتفشل

كل الجهود التي يبذلها الأشرار لإثناء زوجته عن محاولة العثور عليه ، أو لتزويج أحمد سالم بعير زوجته الحقيقية ، حتى تعود الذاكرة ويعود إلى زوجته وينتهي الفيلم نهاية سعيدة جداً . كانت أفلام نجيب الريحاني مختلفة عن هذا ، وأظن أنت لم تقدرها حق قدرها إلا في من أكبر قليلاً ، ولكنها كانت رائعة بدورها في خفة ظلها وتصويرها للشخصيات وللنفارق الصارخة بين الطبقات . تعرفنا أيضاً من خلال السينما على موضوعات روايات عائية كالبؤساء لفكتور هوغو ، وغادة الكاميليا لألكسندر دوما ، وغيرهما مما قدّر منتجوا الأفلام عندنا ملاءمته للذوق المصري ، ولكن بعد أن أدخلوا عليها كل ما خطر ببالهم من تعديلات رأوا أنها تزيد من إقبال الشعب المصري عليها ، وكان تقديرهم في محله .

كان اسم هذه السينما القريبة من منزلنا «سان استيفانو» عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري ، ثم تغير اسمها إلى فريال بعد أن رزق الملك فاروق بابته الأولى فريال وأنا في الثامنة أو التاسعة ، ثم تغير اسمها إلى سينما التحرير بعد ذلك بسنوات ، عندما قامت ثورة يوليو . وكانت تعرض إلى جانب الأفلام العربية ما كان يناسب من أفلام أمريكية . وقد أغرمت على الأخص بأفلام لوريل وهاردي ، اللذين كنت نسميهما (التخين والرفيع) ، إذ كان من الصعب علينا نطق اسميهما الحقيقيين . وأفلام شيرلى تمبل التي كانت حينئذ طفلة صغيرة ، واستغرقت جداً وخاب أملى عندما رأيت صورتها بعد ذلك بسنوات كثيرة فإذا بها امرأة عادية كبقية النساء ، وأفلام ميكى رونى الذى بدا لى وقتها رائعاً أيضاً ، ثم خاب أملى جداً عندما شاهدته فى أفلام أخرى بعد ذلك بسنوات إذ وجدته رجلاً بالغ القصر وخالياً من أى جاذبية . كما أغرمت جميعاً بأفلام طرزان حيث بدا لنا ما يتعرض له من أخطار من الحيوانات المفترسة أخطاراً مخيفة حقاً ، كما بدت قدرته على الانتقال من مكان إلى مكان آخر بعيد بالإمساك بأحد فروع الأشجار ، أقرب إلى أعمال السحرة أو الجن .

عند بلغنا من المراهقة أصبحت تستهوي أفلام من نوع آخر كالسباحات الفاتنات لإستر وليامز - وذهب مع الريح للكلارك جيبيل ، وجسر واترلو لروبرت تايلور . وستقتنا جميعاً صرعى واحدة أو أكثر ممن قدر لهن أن يكن جميلات

السينما وقت بلوغنا سن المراهقة، كإيجريد برجمان وهيدى لامار وفيبيان لى . .
إنخ، ولم يكن لدينا فى الأفلام المصرية من يستطيع متفستهن فى إيقاعت فى الغرام.
قليل مراد مثلاً، وإن كانت جميلة، لم تكن طاغية الأثونة مثل ريتا هيوارت، كما
أنها، وإن كانت تمثل أدوار الحب والغرام، لم نرها قط وهى تقبل حبيبها. وكوكا
صاحبة وجه جميل قطعاً، ولكننا لم نكن نعرف شيئاً عن مدى رشاقتها إذ كانت
الملابس البدوية التى ترتديها دائماً تمتع ذلك.

كل هذا كان رائعاً، واستمر حتى بلغت الخامسة عشرة أو نحوها. وهنا سمعنا
من يقول كلاماً عن السينما مثلما سمعنا عن الموسيقى الكلاسيكية، أى اعتبار رؤية
بعض الأفلام أمراً حيويلاً لا مجرد الاستمتاع والتسلية، ولكن كشرط لتحقيق سعة
المعرفة والثقافة. وهكذا أصبح الذهاب إلى بعض الأفلام «واجباً»، مثلما أصبح
الاستماع إلى سمفونيات بيتهوفن. وكانت قد بدأت تأتى إلى مصر فى ذلك الوقت
أفلام إيطالية مشهورة تنمى إلى ما يسمى بالمدرسة الواقعية فى السينما، وكان أشهر
مخرجيها لدينا هو فيتوريو دى سيبكا، فرأينا له فى سينما أوديون فى وسط القاهرة
عددًا من الأفلام الرائعة «كسارقى الدراجات» و«حب وخبز ودلع»، ثم «حب
وخبز وغيره» وكثيراً غيرها، استمتعنا به غاية الاستمتاع كما أمدنا بموضوعات
للحديث الجاد والتفلسف، فضلاً عن التمتع برؤية جينا لولا بريجيديا التى لم
نكتشف ضعفها فى التمثيل إلا بعد ذلك بسنوات كثيرة، إذ صرف نظرن عن ذلك
جمالها الأخاد، خاصة عندما كانت تمثل أدوار فتاة فقيرة مهلهلة الثياب. كما أثرت
فينا بشدة أفلام مثل: «الطريق» لفيلىينى، رغم خلوه التام من أى امرأة جميلة، أو
«روكو وإخوته» لفيسكونتى. . . إنخ، مع بداية غو شعورنا بالمشكلة الطبقيّة فى مصر
وبداية تعاطفنا مع الأفكار الاشتراكية.

-5-

كنت فى نحو العاشرة من عمري عندما لاحظ أبى أنى كثيراً ما أذندن بأغنية ما
وأنا راضع أو غاد فى البيت، أو أنى أجلس ملتصقاً بالمذياع الكبير فى صالة المنزل
عندما تناع أغنية جديدة لأم كلثوم أو عبد الوهاب. فاجأنى يوماً وهو يدخل المنزل

حاملًا «كمنجة» في صندوقها الكبير فإذ بها لى، ونصحني بترتيب دروس للكمان مع المدرس الإيطالي الذي يعطى دروسا خصوصية في بيته القريب من بيتنا. ذكر لى أنه، وقد لاحظ منى شغفا بالموسيقى لم يلاحظه من أى من إخواني من قبل، استدعى شخصا يعمل في لجنة التأليف التي يرأسها، اسمه عباس أفندي، ووظيفته أن يقوم بأى عمل خارج المألوف يطلبه منه أى عضو من أعضاء اللجنة، ناهيك عن رئيسها، وميزته أنه ناصح ويجيد المساومة في البيع والشراء، وطلب منه أن يعثر لى على كمنجة مستعمدة فجاء بهذه التي لم تكلف أبى أكثر من جنيه واحد.

كان أبى يخشى بالطبع أن تضاعف موهبة فنية كامنة وراء كل هذه الدندنة والغناء، ومن ثم رأى من الحكمة أن يغامر بهذا الجنيه من أجل اكتشاف ما إذا كانت هناك فعلا موهبة دفينة. وقد رتب بالفعل الدروس مع المدرس الإيطالي دون حماس كبير، وتحمل أبى بالطبع نفقاتها عن طيب خاطر. ولكن سرعان ما سمعتها وتوقفت عن الذهاب، بعد شهرين أو ثلاثة، ولم أعد للمحاولة إلا مرة واحدة أخرى مع مدرس إيطالي آخر بعد أن بلغت العشرين، ولكن هذه المحاولة لم تستمر بدورها أكثر من أسبوع أو أسبوعين. ومع ذلك فإن هذه الدروس القليلة لم تضع هباء. فقد تعلمت كيف أمسك بالكمان بيدي وذقني، وكيف أمسك بالقوس وكيف أضبط الأوتار، والعلاقة بين كل وتر وبقية الأوتار، وقد مكنت ذلك من التجربة وإعادة التجربة شهورا وسنوات حتى أصبحت قادرا على عزف أى قطعة موسيقية أستطيع أن أغنيها بصوتي، وكانت النتيجة مسارة دائما بالنسبة لى وإن كانت نادرا ما تكون مسارة لأى شخص آخر.

كان غرامى في ذلك الوقت، أى فيما بين سن العاشرة والعشرين، منصبا على أغاني أم كلثوم، بل وكاد أن يكون قاصرا على أغاني رياض السنباطي الجديدة في ذلك الوقت، مثل: «غلبت أوصالح في روعي» و«سوا قلبي» و«نهج البردة» و«جددت حيث ليه» و«يا ظالمني».. إلخ. كنت أحفظها كلها، كلاما ولحنا، عن ظهر قلب، وكانت كلها تجلب لى منومة فائقة. كنت إذا سمعت عن قرب ظهور أغنية جديدة لأم كلثوم أترقب سماعها بفارغ الصبر، وأتخذ كل ما يلزم من

استعدادات للإنصات إليها في حفلاتها الشهيرة في الخميس الأول من كل شهر، الذي أصبح لهذا السبب يوما مهما في حياة المصريين . وكانت الأغنية الجديدة لأم كلثوم معناها في ذلك الوقت، أي في أواخر الأربعينات وطوال الخمسينات ، أغنية من تلحين السنباطي ، إذ كان زكريا أحمد ، ذلك الملحن الآخر الفذ ، في خصام شديد مع أم كلثوم ، وكان محمد القصبجي ذلك الملحن العبقري بدوره ، قد توقف لسبب أو آخر عن التلحين لها . أدى هذا وذلك إلى حرماني من الاستمتاع لمدة طويلة بأعمال زكريا أحمد والقصبجي . كانت أم كلثوم تغني أحيانا ، حتى أثناء خصمها مع زكريا ، أغنية مما لحنه لها قبل الخصام ، ولكن في الوصلة الأخيرة من حفلاتها الشهيرة . وكانت هذه الوصلة تبدأ عادة بعد الساعة الثانية صباحا ، وكان يستحيل على أن أقاوم النوم حتى ذلك الوقت ، مهما حاولت . ولكن ربما كانت سنى آنذاك ، على أي حال ، أصغر من أن تسمع لى بتقييم زكريا والقصبجي التقييم الصحيح ، فكانت تؤثر في نفسي أكثر من اللازم «القنلات» (الهايات) الدرامية للسنباطي ، لكل مقطع من الأغنية ، وكنت أقل قدرة على تقدير التناقض البديع في ألحان زكريا أحمد ، والقدرة المستمرة على الابتكار عند القصبجي . تجرأت مرتين فذهبت بمفردي إلى حفلة أم كلثوم الشهيرة ، مرة في مسرح الأزيكية ومرة في سينما راديو بوسط البلد ، ولم تكن تجربتين ناجحتين تمامًا . لا أذكر من الحفلة الأولى إلا رجلا سميا قصيرا واقفا وحده في مقصورة ملاصقة لخشب المسرح التي تقف عليها أم كلثوم ، لم يجلس قط طوال الحفلة ، وظل يلح عليها في نهاية كل مقطع بأن تعيده مرة أخرى مناديا إياها دائما بـ «يا ست» . وأذكر من الحفلة الثانية اضطرابي للجلوس في أعلى الصالة الواسعة جدًا ، صالة سينما راديو ، بسبب ارتفاع أسعار التذاكر الأخرى ، فإذا بي أجد نفسي بعيدا جدًا عن أم كلثوم ويحيط بي مجموعة من أولاد البلد من أصحاب المزاج ، ربما فيما يتعلق بالحشيش أكثر مما يتعلق بأم كلثوم ، ومن ثم لم يكن يهمهم كثيرا مسار اللحن أو الأغنية ، وكثيرا ما كانوا يبدؤون بالهتاف طالين إعادة المقطع قبل انتهائه تمامًا ، فضلا عن باتنعي الشاي والقهوة الساخنة باستمرار من الصفوف يادون على بضاعتهم ويوزعون الطبات أثناء

الغناء . كانت النتيجة أنى بمجرد انتهاء الوصلة الأولى أسرع بالخروج ، ولا أزال أذكر كيف جريت بأقصى سرعة فى ميدان التحرير لكن أركب الأتوبيس الذى يعود بى إلى البيت ، حتى أصل قبل بداية الوصلة الثانية فأواصل الاستماع فى هدوء .

كانت هذه هى الفترة التى بلغت فيها أم كلثوم قمة شهرتها وتألقها ، وأصبحت المصدر المتجدد دائماً لسورنا . بما علق بذمى من هذه الفترة ، وربما كان ذلك فى أواخر الأربعينات ، أن سمعنا عن مرض أم كلثوم مرضاً خطيراً يهدد بامتناعها إلى الأبد عن الغناء . وأصيب الشعب المصرى كله بالقلق البالغ وهو يتابع أخبار رحلتها إلى أوروبا لاستشارة الأطباء ، ثم جاءنا الخبر المفرح بأن الأطباء نصحوه بأن أفضل شئ يمكن أن تفعله هو أن تستمر فى الغناء ، كما كنت تفعل بالضبط . وأقيم لها عند عودتها احتفال كبير خطب فيه الأدباء والشعراء ، ولم نحتفظ ذاكرتى من هذا الاحتفال إلا بالرجل الظريف الذى ألقاه الرجل الموهوب بديع خيرى والذي يبدأ بقرنه «مين حوة كلثوم ده يا بخته . اللي أنت اسمأ تبقى أمه . واللى أنت فعلا ولا أمه . ولا بنت خاله ولا عمه» . وانتهى إلى أن كلثوم هذا لابد أن يكون كرواً مخبئاً فى حنجرتها . كان هناك بالطبع محمد عبد الوهاب أيضاً ، ولكن عبد الوهاب لم يستول على قلبى قط . كانت أغانيه التى لحنها فى هذه الفترة ، أى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، قد اتخذت منحى جديداً يقوم على الإيمان فى الاقتباس من مختلف الألحان الغربية . ورغم أن النتيجة كانت دائماً جذابة وتبقى عابقة بالذهن ، إلا أنها لم تكن تحرك القلب (أو على الأقل لم تحرك قلبى أنا) .



ثم حدث فى أواخر الأربعينات أن خطر لأبى ، فى لحظة نادرة ، أن يسير الحياة الحديثة فجاء إلى البيت بجهاز ضخيم ، أقرب فى حجمه إلى دولاب الملابس ، وقال لنا إنه جهاز راديو جديد يمكن الاستماع من خلاله إلى أكثر من محطة بوضوح ، فضلاً عن احتوائه على فونوغراف ، أى حمال أسطوانات ، يعمل أتوماتيكياً ، فلا يحتاج إلى شحنه باليد بالقوة اللازمة لى تدور الأسطوانة . قال إن علينا استخدامه بعناية ولطف لأنه كلفه ستين حنيتها . استقر هذا الجهاز الرائع فى وسط الصالة لما له

من منظر جذاب بخشب الناعم اللامع ، ولكن نحن المراهقين من أفراد الأسرة لم يكن من الممكن أن يطيب لنا الاستماع إلى ما نريد الاستماع إليه مع وجود أبي أو أمي أو إخوتنا الكبار إلى جوارنا . كنا أحياناً نحاول نقل الجهاز إلى الحجرة التي نستقبل فيها أصدقاءنا ، فكانت توء بحمله من فرط ثقله ، فضلاً عن الخوف من إغضب أبي إذ كان يرى في ذلك «دلعاً» أكثر من اللازم ، ولا يتفق مع الحرص الواجب في استعمال جهاز بهذا الثمن . ولكن ما هذا الذي كنا نريد الاستماع إليه على أي حال ؟

كانت قد وصلت إلينا في أعقاب الحرب العالمية الثانية موسيقى راقصة ، جديدة تماماً على أسماعنا ، ولكن بالغة الجاذبية لشباب مراهق مثلاً ، وتحمل أسماء مثل التانجو والسamba والروب . هذا هو ما كان أصدقاؤنا يريدون الاستماع إليه ، ونحن أيضاً . كنا كلنا صبياناً بالطبع ، ولكن الخيال كان يعوض عن غياب البنات . بدأنا نسمع أيضاً عن شيء آخر قيل إنه مهم ، بل وعنصر أساسي في تثقيف المرء نفسه ، وهو ما يسمى بالموسيقى الكلاسيكية . كان وصول كلا النوعين من الموسيقى إلينا جزءاً من حركة التغريب الجديدة التي ظلت في حدود ضيقة للغاية في العشرينات والثلاثينات ، ثم تسارعت بشدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية مع وصول المنتجات الأمريكية : الأفلام والصحف والملابس والسيارات والمأكولات والمشروبات التي ابتدعتها أمريكا ، وكذلك أجهزة الراديو والفونوغرافات والأسطوانات الحديثة .

في تلك الفترة قرأنا أيضاً يشغف كتاب توفيق الحكيم «زهرة العمر» الذي يصف بالتفصيل طريقة حياته في فرنسا قبل الحرب ، وفيه وصفه البالغ الحماص لحفلات الموسيقى التي كان يحرض على الذهاب إليها ، ومشاعره عندما كان يجلس في أعلى المسرح (قللة ما معه من نقود) ليستمع إلى سيمفونية بيتهوفن الخامسة . كان الحكيم يصف هذا باعتباره شرطاً ضرورياً لأن يصبح المرء مثقفاً ، وحيث إننا كنا مهمومين بهذا الأمر في تلك السن ، فقد اعتبرنا الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية مسألة حياة أو موت ، وتستحق حتى المغامرة بإغضاب أبي لنقلنا الجهاز الجديد من مكان إلى مكان .

هكذا أحرزنا تقدماً لا بأس به في التعرف على موسيقى بيتوفن ونشايكوفسكي وشوبان ورحمانوف ورمسكي كورساكوف . . إلخ ، وكان يسرنا أن نعرف أن سيمفونية بيتوفن الثالثة كانت أصلاً مهداة لنابليون ثم غير بيتوفن إهداءه غضباً من هجوم نابليون على ألمانيا واكتفى بتسمية السيمفونية «البطولة» ، وظننا أن من المهم أن نعرف تشبيه افتتاحية سيمفونيته الخامسة «بذقات القدر على الأبواب» ، وكان هذا يشكل جزءاً مهماً ، أو أي جزء على الإطلاق ، من المعرفة بالسيمفونية . . إلخ . .

لقد ذكرت هذه الأسماء بالذات لأنه قيل لنا بحق أن موسيقى هؤلاء الموسيقيين بالذات أسهل في فهمها وتدوقها من موسيقى غيرهم كفاجنر مثلاً أو برامز ، فحرصنا على الحصول على أسطوانات هؤلاء واستمعنا بها . وأذكر أنه في شارع قصر النيل بوسط القاهرة ، كان يقوم بجوار مقهى جروبي متحف الفن الحديث قبل أن ينقل إلى المعجزة . وكان يحتوى على قسم للموسيقى يتاح فيه للزائر استمعة الأسطوانات يل وأن يستمع إلى بعض المؤلفات الكلاسيكية الغربية قبل أن يقرر استمعة بعضها . كانت مصر ، كما ترى ، مكرسة كلها لخدمة شريحة صغيرة جداً من السكان هم الذين كانوا يستمعون بكل خيراتها : جامعاتها ومدارسها ونواديها ومصايفها ، وكذلك متاحفها التي كانت تستطيع حيث ، بالنظر إلى قلة عدد زوارها من أبناء الطبقتين العليا والوسطى ، من ذوي الدخل المرتفع والسلوك المهذب ، أن تقدم لهم هذه الخدمة الممتازة : الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية واستمعة أسطواناتها .

أتاح لنا إذن قدوم هذه الأجهزة والاختراعات الجديدة فرصة التعرف على موسيقى الغرب الكلاسيكية والراقصة . ولكن حيث إن الطبقة التي كانت لديها القدرة الشرائية اللازمة للحصول على أجهزة الجرامافون والأسطوانات الحديثة ، كانت قد فقدت الكثير من ثقافتها بالموسيقى العربية القدية والغناء القديم وتقديرها لهما ، لم يشع إنتاج أسطواناتها فظلت الموسيقى العربية القديمة والغناء العربي القديم مسجونين في حيز ضيق للغاية من برامج الإذاعة التي قد لا تبدأ في إذاعتها إلا بعد

أن بنام الجميع . ومن ثم ظلت الأغاني العربية القديمة (أو ما يمكن أن تسمى أيضاً بالكلاسيكية) لا تحظى بأى اهتمام يذكر من جيلى من المصريين ، بل وظلت معرفتنا بها ضئيلة للغاية . كان الراديو يذيع أحياناً ألحاناً لمحمد عثمان أو داود حسنى بصوت مطربين أكثر حداثة كصالح عبد الحى أو عزيز عثمان ، ولكننا كنا وقتها قليلى الاستجابة لهذه الألحان ، بل كانت تبعث فى نفوسنا الملل (المقترن أحياناً بالسخرية) ، إذ ظننا أن من المستحيل مقارنتها بأعمال بيتهوفن وشايكوفسكى . وأما أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب القديمة ، والتي تعود إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن ، فكانت تنفر من رناتها وبطئها وقلة اعتمادها على الإيقاع ، فما أسرع ما كنا نغلق المذياع إذا بدأت إذاعتها . كان الأمر يحتاج إلى مرور سنوات طويلة قبل أن نكتشف أن من الممكن جداً المقارنة بين موسيقى حميدة لمحمد عثمان أو زكريا أحمد وموسيقى جميلة أيضاً لبيتهوفن أو باخ ، وأن نحصل على نفس القدر من المتعة الخالصة من الانسجام إلى كلا النوعين من الموسيقى .

-٦-

كنت فى الثالثة عشرة من عمري وكانت هى أصغر منى سنة . كانت البنت الكبرى لأشهر مهتمين معمارى فى مصر ، وكانت أسرتها وثيقة الصلة بأسرة صديق لى كنت أقضى معه معظم أيام العطلة الصيفية ، حيث كانت العائلات الثلاث تقضى شهرين أو أكثر من شهور الصيف فى الإسكندرية ، ومن ثم كان لا بد أن أراها كل صيف حيث كانت هى وأخوها لا يكادون يفسرون عن صديقى وأخته . كانت فتاة جميلة رقيقة ، ناضجة الجسم بالنسبة لسنها ، وذات أنوثة طاغية ، أو هكذا كنت أنصور فى تلك الأيام ، فى بداية سن المراهقة . خفف لها قلبى باخب فى هذه السن المبكرة دون أن ألاحظ أى صدى لهذا الشعور لديها ، على الرغم من أنها كانت تعلم به وتلاحظ آثاره المتكررة على سلوكى . كانت خالية البال تماماً ، تلاحظ إعجابنا بكتابتها ، وربما سرها ما كانت تراه من دلائل هيامى الشنيد واضطرابى المفاجئ لدى ظهورها ، دون أن يظهر لهذا أى أثر فى سلوكها . لم

يكن هناك شيء غريب في هذا كله، لا في هيأى بها ولا في خلوتها بها، وإنما المدهش حقاً كان استمرار شعورى نحوها سنة بعد أخرى حتى قابوت التخرج من الجامعة. إن الصفحات التى دونتها فى تلك السنوات فيما كنت أسميه «مذكراتى» يمكن أن غلا كتاباً كاملاً، ولكنى أشك فى أن فيها جملة واحدة تستحق النشر، بما فى ذلك فصائد الشعر التى ألفتها فى وصف هذا الشعر، والخطابات الحياتية التى كنت أكتبها لها دون أن أرسلها. وامتد هذا الشعور القوى من جنبى إلى عائلتها كلها، فكنْتُ اضطرب أيضاً عند رؤية أبيها أو أمها، وأعتبرهما سعيدي الحظ لمجرد أنها ابنتهم، يستطيعان لمسها بل واحتضانها متى شاءا. وكذلك كنت أعتبر أخويها الصغيرين شخصيتين مهمتين للغاية، وسعيدى الحظ أيضاً، إذ كثيراً ما كنت أراها تحفف جسميهما لدى خروجهما من البحر أو تنثر ثيابهما فى الشمس.

من نافذة القول إن علاقتي بها ودرجة اقترابى منها لم تتجاوزاً مصافحتها باليد، ولكن هذه المصافحة كانت كافية لإثارة مشاعر لا أظن أن من الممكن أن تمرى الإنسان فى أى سن آخر، كما لا يمكن أن يتكرر ذلك النوع من الفرح إذا حدث أن صدرت عنها عبارة مجاملة صغيرة، ولا ذلك النوع من العذاب إذا صدر منها ما يوحى بالجفاء أو الإهمال.

أخذت هذه المشاعر تضعف شيئاً فشيئاً. بطبيعة الحال، حتى يجوز القول بأننى شفيت تماماً من الحب فى سن التاسعة عشرة أو العشرين، أى أن هذا الحب الأول قد استمر معى نحو ستة أو سبعة أعوام. بل إننى حتى بعد شفايتى منه بستين أو ثلاث، صدر منى ما يدل على أن مثل هذا الحب الأول لا يتقضى بسهولة. فعندما فكر أخى حافظ فى الزواج، وكان يبحث عن فتاة مناسبة ليتقدم لخطبتها بالطريقة التقليدية، حتى وإن لم يكن له بها أى معرفة سابقة، تجرأت ورشحت له حبيبتي القديمة، وأخذت أثنى عليها هى وأسرتها حتى اقتنع حافظ واتصل بوالدها يطلب مواعداً لمقابلة. لم يوفق حافظ فى مسعاه، إذ بعد أن قام الوالد المؤدب بدعوته لتناول الشاي معه ومع ابنته، على أساس أن الرأى هو بالطبع رأيتها، اعتذر له بعد بضعة أيام بأى عذر لا يحرّج شعوره، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

ظلت أخبارها تأتي على فترات متباعدة عن طريق صديقي الذي عرفتها عن طريقه، فسمعت عن زواجها من شاب وسيم شديد الجاذبية، ثم طلاقها، ثم عن زواجها من جديد. ولكن كانت عمر أحيانا سنوات طويلة دون أن أسمع عنها شيئا، ودون أن تمر بخاطري، إلى أن جاء يوم كنت أدرس فيه في الجامعة الأمريكية وجاءت طالبة جميلة من تلميذاتي بعد انتهاء المحاضرة، وانتظرت حتى انصرف بقية الطلبة وقالت لي بخجل إن والدتها طلبت منها أن تبغني سلاهما. وسألتها عن تكون والدتها فإذا بها محبوبتي القديمة. كان سروري عظيما، وأخذت أبحث في وجه الطالبة الجميلة عن وجه حبيبتي الجميل، فوجدت نفس العينين الرائعتين، كانت هي ابنتها من زوجها الأول، فلا شك أنها جمعت إلى جانب جمال أمها وسامة والدها. سألتها عن الأم فإذا بها تخبرني أنها تعمل في نفس الجامعة التي أدرس بها.

ذهبت بالطبع لزيارتها مدفوعا بحب الاستطلاع أكثر من أي دافع آخر، إذ كنت أريد أن أرى ماذا فعل الزمن بها، وعما يمكن أن يكون قد فعل بشعوري نحوها. كان قد مضى على آخر مرة رأيتها فيها ما يقرب من ثلاثين عاما، ومع ذلك هـي بنفس الجمال ونفس الأنوثة، أو هكذا خيل إليّ، وهـي نفس نبرة الصوت التي كانت يوما ما تقلب كياني رأسا على عقب. لم يكن يعيها الآن ولا شيء واحد، ولكنه مهم. فهي الآن امرأة من دم ولحم وليست رمزا للأنوثة بأمرها كما كانت في نظري منذ نحو أربعين عاما. قابلتني بلطف بالطبع، وعبرت عن سرورها بأن أكون أستاذًا لابنتها، ولكن أدهشني أن يتضمن كلامها بعض العبارات التقليدية والمألوفة وهي تعبر عن سرورها أو شكرها، وكأنني كنت أتوقع أن تستخدم في الحديث لغة تختلف عن لغة بقية الناس. عبرت لها عن رغبتي في أن ادعوها هي وزوجها لزيارتنا في منزلي فتتعرف على زوجتي وأتعرف على زوجها، فرحبت بذلك. وتمت الزيارة. كسا قاما بدورهما بدعوتي أنا وزوجتي وأولادى لقضاء يوم في مزرعة صغيرة يملكها بالهرم، فذهبت مسرورا لمجرد أن أراها وأسمع صوتها من جديد، ولكني سرعان ما اكتشفت أن هناك القليل من الأشياء المشتركة التي يهتمها ويهمني الحديث فيها.

(٨)

الجامعة

عندما أذكر السنوات الأربع (٥١ - ١٩٥٥) التي قضيتها طالبا في كلية الحقوق، بجامعة القاهرة، يستولى على العجب من درجة الحرمان الذي تعرضنا له نحن الطلبة المصريين من أى حياة جامعية على الإطلاق. والمدهش أكثر من هذا أنه لم يكن بدور بخاطرنا حينئذ أننا نتعرض لأى حرمان بالمرة، إذ لم تكن ندرى شيئا عما كان يجب أو يمكن أن يكون.

نعم، كانت كلية الحقوق مبنى ضخما جميلا، لا يزال طرازه المعماري يلفت نظري بجماله كلما مررت به حتى اليوم. ولكن كان هذا هو كل شيء. فالمبنى يتكون من مدرجين بالغى الضخامة، يشع كل منهما لنحو ألف طالب، وهناك بهو متسع بينهما، يحيط به فى الدور الأرضى والعلوى مجموعة من حجرات الأساتذة وبعض الحجرات للإداريين، وحجرة العميد، وهذا هو كل ما نراه أو نعرفه فى هذا المبنى. كان كل المطلوب من الطلبة أن يدخلوا المدرج ويستمعوا إلى محاضرة بعد أخرى يلقيها أستاذ بعد آخر من خلال ميكروفون. ثم يتصرفوا إلى منازلهم حتى يحين موعد الامتحان. لا أذكر أنى جلست فى هذه الكنية على مقعد وثير، بل على أى مقعد على الإطلاق، عدا المقاعد الخشبية فى المدرج، ولا أنى تناولت مشروبا فيها أو طعاما، فليس هناك مكان للطعام يمكن أن يجلس فيه التلاميذ قبل المحاضرة أو بعدها. وليس هناك حجرة يمكن أن تجتمع فيها أعضاء جمعية ثقافية أو موسيقية أو سياسية، إذ لم تكن هناك أى جمعية على الإطلاق. بل لا أذكر أنى حتى دخلت حجرة من حجرات الأساتذة باستثناء مرة واحدة أو مرتين. وأنا طالب فى الدراسات العليا، كانت إحداهما لتأدية امتحان شغوى، والأخرى لأطلب خطابا

للتوصية لتقديده جامعة إنجليزية قبل سفرى فى البعثة . لهذا كانت رؤيتنا لوجه أحد الأساتذة عن قرب وهو سائر فى بهو الكلية ، أشبه برؤيتنا لوجه شخص مثل رئيس الجمهورية ، أو ممثل سينمائى أو مسرحى مشهور ، ممن لا نراهم عادة إلا فى الصور ، إذ لم نكن نرى الأستاذ إلا من مسافة طويلة ، نحن فى أعلى المدرج ، وهو جالس إلى المنصة يخطف فى الميكروفون . فلا نرى ملامح وجهه بوضوح ، بل ولا يبدو لنا شخصا حقيقيا من لحم ودم .

ولكن الأفظع من ذلك ، كانت علاقتنا بالطالبات . أو بعبارة أدق ، عدم وجود أى علاقة بالمرأة بيننا وبين الطالبات . كنا نحو ثمانمائة تلميذة ، فى السنة الدراسية الواحدة ، بينهم ما لا يزيد على عشر طالبات . لم يكن يبدو عليهن أنهن أقل بؤسا منا ، ولكنهن كن على الأقل يتمتعن بميزة الندرة ، أما نحن فما أكثرنا وسا أقل قيمتنا . لا عجب أن الطالبات كن يسرن دائما فى مجموعات ، فيندرن أن نجد واحدة تمشى بمفردها ، ولا حتى اثنتين . كن يسرن فى العادة فى مجموعات من أربع أو خمس ، وقد التصقت كل منهن بالأخرى خوفا من أن يصيبهن منا مكروه ، كأن نلتهمهن التهاما ، وهو ما لا بد أن كان واضحا من نوع نظراتنا إليهن .

وهن يدخلن خائفات إلى المدرج قبيل دخول الأستاذ بلحظات ، وكأنهن يعتمدن على حمايته ، فيجلسن فى الصف الأول أو الصفين الأولين ، ثم يختفين تماما بمجرد انتهاء المحاضرات . لم يكن فيهن ، على أى حال ، جمال واضح يأسر القلب بمجرد رؤيته ، إذ الأرجح أن من كانت جميلة حقا فى تلك السن ، يحجزها أبوها فى البيت ويتمتعانها من الخروج إلى الجامعة حتى يأتيها العريس المناسب . كانت هناك بعض الاستثناءات ، ولكن معظم هذه الاستثناءات ، لسبب لم يكن واضحا ، كن يلتحقن بكلية الآداب . هل كانت مقررات كلية الآداب تعتبر مثلا أكثر رقة ومن ثم أنسب للنساء ؟ هل كان الأدب الإنجليزي أو الأدب الفرنسى مثلا يعتبر مقررا أجمل من القانون المدنى أو الجنائى ، ومن ثم أكثر ملاءمة للإناث ؟ فماذا عن قسم الفلسفة أو الآثار ؟ كان هذا هو الوضع على أى حال . كانت الطالبات أبعد منا لا منا حتى بالمقارنة بالأساتذة ، وقد انعكس ذلك بالطبع فيما كان يخيم على كلية الحقوق من الوجوم وثقل الظل .

عندما ذهبت إلى كلية لندن للاقتصاد بعد تخرجى بستين تين لى بوضوح ما كنا فيه من بؤس فى جامعة القاهرة. لم يكن مبنى الكلية فى لندن (التي كانت تسمى مدرسة) به أى جمال أو يشير أى يهجة إذا نظرت إليه من الخارج، فهو مبنى حديث من ستة أدوار فى شارع ضيق، تحيط به مبان شاهقة تحجب عنه ضوء الشمس (التي كانت نادراً ما تطلع على أى حال). ولكنك متى دخلت المبنى وجدته يتبض بالحياة والفرح والنشاط. الفقهات تصدر عالية من أفواه الأولاد، والابتسامات الرائعة ترتسم على وجوه الطالبات الجميلات. والأساتذة رائجون غادون، قد تصادفهم فى المطعم أو فى الكافيتريا، ومن الممكن أن تفتح مع أحدهم موضوعاً للمناقشة إذا صادفته يتناول القهوة بين المحاضرات، أو حتى وهو نازل على السلم. فى أعلى المبنى، فى الدور السادس، صالة رائعة لا يمكن نسيانها، كانت من الأساطيع بحيث يمكن أن تستوعب مئات المقاعد، ولكنها فرشت على نحو يجعلها لا تستوعب إلا لحوالي ثلاثين أو أربعين، فأثاثها تتكون من مقاعد ضخمة وثيرة أو أرائك مريحة، وقد اصطفت على طول حوائطها المتراصة رفوف تلو الرفوف من الكتب، كانت الكتب مختارة بعناية ومن النوع الذى يلائم جو هذه الحجرة الرائعة: كتب فى الموسيقى أو الأدب أو التاريخ أو التراجم أو الفلسفة مما قد يظلمه القارئ المثقف فى غير تخصصه. فى كل صباح تأتى الفتاة المشرفة على الحجرة لوضع أزهار جديدة فى الزهوريات المنتشرة فى أركان الحجرة، وفى الأيام الباردة تضيف كمية من الفحم إلى المدفأة الصخمة التى تعلوها صورة زيتية كبيرة تظهر فيها سيدنى وبياتريس، الاشتراكيان الشهيران اللذان كانا من مؤسسى الكلية فى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت الحجرة نفسها تحمل اسم شخص كبير آخر من مؤسسيها هو جورج برناردشو.

كان فى مدرسة لندن للاقتصاد مدرج واحد يتسع لنحو ثلاثمائة تلميذ. ولا ندخله إلا للاستماع إلى أستاذ زائر كبير من جامعة أخرى، أو إلى محاضرة عامة لسياسى شهير، عدا المحاضرات التى تلقى فى بعض المقررات الأساسية فى مبادئ الاقتصاد. وفى كل يوم يوضع فى مدخل المدرسة جدول محاضرات به بيان بكل

سيليقي خلال اليوم من محاضرات دون تمييز بين مقررات السنة الأولى ومقررات السنة الثانية . . إلخ . فالهم هو موضوع المحاضرة وشخصية ملقيها ، ولك الحق في الاختيار من بينها كما تشاء . وعلى الحوائط في كل دور من الأدوار الستة لوحات إخبارية لا نهاية لها تخبرك عما تقوم به الجمعيات المختلفة من نشاط ، جمعية للمحافظين وأخرى للعمال ، وثالثة للاشتراكيين ، واحدة للجمعية المسيحية وأخرى للبوذية ، واحدة للجمعية التي كونها الطلبة ، لأتون من أمريكا اللاتينية تخبرك بمحاضرة عن الحالة الاقتصادية في البرازيل ، وأخرى للجمعية المسرحية تخبرك بأن مخرجاً مسرحياً شهيراً سيأتى إلى المدرسة ليتكلم عن تشيكوف . . إلخ .

كانت كلية الحقوق بجامعة القاهرة برتبة من كل هذا ، ولكننا لم نكن ندرى شيئاً عما كان ينقصنا . لم يكن أحد قد أخبرنا عما يمكن أن تكون عليه الجامعة ، ومن ثم ظننا أن الجامعة هي دخول أحد هذين المدرجين الكبيرين ثم الخروج منه . لا عجب أن السنوات الأربع قد مرت دون أن تترك في أى أثر يستحق الذكر باستثناء ما تركه في نفسه عدد جد قليل من الأساتذة . كان هناك بلا شك من أساتذة الحقوق ثلاثة أو أربعة عن تركوا في نفوسنا أثراً طيباً ، ولكن العدد الأكبر منهم كانوا من نوع منسجم تماماً مع هذا المناخ الكتيب الذي وصفته . كان معظمهم يدخل المدرج ليلقي محاضرة باللغة العربية الفصحى ، دون حماس أو حتى إحساس بما يقول ، وبصوت يبعث في النفس الملل والرغبة في النوم ، ولا يتركنا إلا جثة هامدة ، ولكن بعضهم كان أسوأ من هذا بكثير .

كان من هؤلاء من لا يكاد يدرى حتى ما يريد أن يقوله ، وينظر بين لحظة وأخرى إلى بعض الصفحات التي انترعها من كتاب المطبوع والمقرر علينا ، فيقرأ علينا منه جملة بعد أخرى ، مع أننا اشترينا الكتاب بالفعل ، وبسعر باهظ ، ويمكننا بذلك الاستغناء عن محاضرات هؤلاء الأساتذة استغناء تاماً . كان يحلو لبعض الطلبة أن يحضروا إلى المحاضرة ومعهم الكتاب فيتابعون الأستاذ فقرة بعد فقرة ، ويتسهم بعضهم لبعض مشيرين بأصابعهم إلى بداية الفقرة التالية التي سوف ينطق بها الأستاذ قبل أن ينطق بها بالفعل .

كان منهم أيضاً أستاذ غريب، ذو سمعة علمية طيبة، ولكنه كان عاجزاً تماماً عن مواجهة هذا الحشد الضخم من الطلاب. كان يدخل إلى المدرج مقطب الوجه فيجلس على مقعده وراء المنصة ويفتح ملف المحاضرة، وينظر إلينا باحتقار بالغ وكراهية، منتظراً أن يسود الصمت المدرج قبل أن يبدأ في الكلام. وكان من الطبيعي مع هذا العدد الغفير من الطلبة أن يسرى في المدرج صوت خفيف من الهمسات التي تصدر عن التلاميذ قبل أن يصمتوا صمتاً تاماً لمدة ساعة. وكان كل ما يتطلبه الأمر أن يبدأ المحاضر بالنطق بجملته واحدة فيسود الصمت التام. ولكن هذا الأستاذ كان مصرّاً على أن يسود الصمت التام قبل أن ينطق بجملته واحدة. ولكن هيهات، فكلما طال الانتظار لحظة واحدة أكثر من اللازم زاد الهمس وارتفع صوت التلاميذ، فإذا استمر الانتظار لأطول من ذلك زاد ارتفاع الصوت واختلط ببعض الضحكات المكتومة، ثم تحول الضحكات المكتومة إلى ضحكات عالية، ثم يسود الهرج والمرج فيشتد الغضب بالأستاذ، ويغلق ملفه وينصرف من المدرج دون كلمة واحدة، وسط مرور غامر ومرج فائق من جانب التلاميذ.

حضرت لهذا الأستاذ محاضرتين أو ثلاثاً من هذا النوع، ثم امتنعت عن الذهاب إلى محاضراته امتناعاً تاماً، ولا أدري ماذا جرى له مع الطلبة بعد ذلك. ولم يمنعني هذا بالطبع من الحصول على درجة عالية في هذا المقرر، إذ كان يكفى مع هذا الأستاذ، كما يكفى مع كثيرين غيره، قراءة الكتاب قراءة جيدة.

كان هناك نوع آخر من الأساتذة أخف ظلاً بالطبع. كان من هؤلاء أستاذ درّس لنا في أول سنة في الكلية، وكانت محاضراته لا تخلو من تشويق، ولكن انتشرت بين الطلبة إشاعة لم أثبت قط مدى صحتها وتدور حول غرامه بالحسابات من الطالبات (إذا حدثت ووجدت حياءً يتهنئ) إلى حد استعداده لتزويدهن بأسئلة الامتحان مقدماً، إذا لزم الأمر. كان الأمر من الصعب تصديقه، خاصة في ذلك الوقت، وفي كلية الحقوق بالذات، عندما كان الأساتذة لا يزالون يمتنعون بهيبة شديدة تفوق بدرجة بعيدة ما لهم منها الآن. كنا أميل إذن إلى استبعاد مثل هذه الإشاعات على أنها من خلق الخيال. ولكن حدث شيء رهيب في يوم الامتحان

النهائى ، فى المادة التى كان يدرسها لنا هذا الأستاذ ، وكان امتحانا مهما تترعد له فرائصنا ارتعاداً . فقد لاحظنا عند وصولنا إلى الكلية فى حوالى الساعة صباحاً ، وكان الامتحان يبدأ فى الثامنة بالضبط ، هرجا ومرجا غير معهودين . موظفو الكلية رائحون غادون بسرعة غير عادية ، وجمهور من الطلبة متجمعون فى اهتمام ووجوم شديد حول واحد منهم وقف بينهم ممسكا بجريدة ، وكان من الواضح أنه يقرأ لهم منها كلمة بكلمة . واتجهنا جميعا نحو هؤلاء الطلبة المتجمهرين فإذا بالطالب يقرأ لهم من جريدة «المصرى» ، (وهى جريدة وفدية كانت من أكثر الجرائد انتشارا، قبل أن تغلقها الثورة فى ١٩٥٤) خيرا مؤداه أن أستاذا بكلية الحقوق قام بتسليم صورة من امتحان مادته لإحدى التلميذات قبل الامتحان بمدة أيام ، وأن موعد الامتحان هو صباح اليوم ، وأن جريدة المصرى تنشر اليوم نص الامتحان ، كلمة بكلمة ، وتحدى الأستاذ أن يفعل شيئا من شأنه أن ينفي هذا الخبر .

نظرنا إلى الامتحان المنشور فوجدناه بالفعل فى المادة التى ننتظر الامتحان فيها بعد نصف ساعة ، والأئلة كلها من النوع المتوقع مثله من هذا الأستاذ ، فى هذه المادة . جربنا بالطبع إلى الكتاب لنحاول التحقق من أننا نستطيع الإجابة على الامتحان فى حالة ما إذا جاء فعلا مطابقا للنص المنشور بالجريدة .

بعد لحظات رأينا الأستاذ نفسه يجرى كالمجنون من حجرة إلى أخرى من حجرات الكلية ، والعاملون بالسكرتارية والطباعة على الآلة الكاتبة يجرؤون وراءه أو أمامه . وانتهى الأمر بأن بدأ الامتحان متأخرا عن موعده بنحو ثلاثة أرباع ساعة ، ووزع علينا امتحان مختلف تماما عن الامتحان المنشور ، ولكننا كنا قد أيقنا كل اليقين أن الإشاعة كانت صحيحة تماما .



نعم مر بنا خلال تلك السنوات الأربع بعض الأساتذة العظام ولكنهم كانوا حفنة صغيرة وسط عدد كبير من الأساتذة ، كما أنى لست واثقا تماما من أننا نحن الطلبة الصغار قد أفدنا فائدة كبيرة من علمهم الواسع .

من الممكن مثلا أن يقال إن من حسن حظنا أننا درست على أيدي ثلاثة من أعظم

أساتذة الشريعة الإسلامية الذين عرفتهم مصر في تاريخها الحديث، والذين من الصعب أن نتصور أن يأتي مثلهم في المستقبل: الشيخ على الحفيف، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ عبد الوهاب خلاف. ولكن من الصعب على أن أقرر أننا أفدنا منهم بمقدار قدرتهم على العطاء. كان هناك أولاً ذلك النظام الغريب في التدريس الذي وصفته والذي تكاد تقتصر فيه علاقة الأستاذ بالطلبة بجلوس الأستاذ إلى مائدة عليها ميكروفون في المحاضرة، ثم ينصرف دون مناقشة بينه وبين التلاميذ لا في هذا المدرج الواسع ولا في خارجه. ضاعف من حجم هذه الفجوة بيننا وبين أساتذة الشريعة، ما كان يشعر به هؤلاء الأساتذة من غربة في كلية لا تحتل فيها الشريعة الإسلامية المكانة التي هي جديرة بها. فانعميد ومعظم الأساتذة من «العلمانيين» الذين كانوا ينظرون إلى الشريعة الإسلامية نظرة الثرى إلى أقاربه الفقراء، أو كأنها زائدة في الجسم، لها أصل تاريخي معروف ولكنها لم تعد تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع، ومصيرها إلى الزوال تدريجياً. كانوا يريدون الجية والقططان وسط أساتذة وتلاميذ يرتدون جميعاً الزي الأوروبي. والوظائف التي يطمح إليها التلاميذ تعتمد الغالبية منها على تطبيق قوانين مستمدة من القوانين الفرنسية. بل إن اللغة نفسها التي ينطق بها هؤلاء الأساتذة العظام كانت تبدو للتلاميذ وكأنها لغة بالية إذ هي تعتمد على أساليب الفقهاء القدامى التي بدأت تعرض، صراحة أو خفية، لشيء من السخرية في وسائل الإعلام. كان الانسجام النسبي الذي كان سائداً بين نوعي الثقافة في مصر في فترة ما بين الحربين، قد بدأ يتعرض لاهتزاز واضح في مطلع الخمسينات، عندما بدأت حياتي الجامعية. لاشك أن قيام الثورة في ١٩٥٢ قد ساعد على ذلك، إذ كان رجال الثورة ذوى ميل واضح إلى العلمانية والشغريب، وقد ظهر هذا ليس فقط في بعض الإجراءات التي اتخذوها في أوائل الثورة كإلغاء المحاكم الشرعية والوقف الأهلئ، بل وفي شعاراتهم التي تخلت من أي صبغة دينية، بل وفي لغة وأسلوب خطبهم التي طهر فيها الإحمال التام والملا بمبالاة بقواعد اللغة العربية.

طبعاً كان لدى أساتذة الشريعة الثلاثة الثقة الكافية بأنفسهم وبدينتهم وبشريعتهم، ولكن هذا المناخ العام لابد أنه أثر في نظرة تلاميذهم وزملائهم إليهم، وكان لابد أن

يتعكس هذا في ميلهم إلى الانطواء على النفس واليخل بعلمهم على من لا يبدو عليهم أنهم يستحقونه .

من بين أساتذة الشريعة كان يحظى بإجلالنا واحترامنا ، بوجه خاص ، الشيخ عبد الوهاب خلاف . كان يدخل المدرج وقد هذه الحزن على وفاة بنته ثم أبته في مقتبل اشباب ، فيحاضرنا بصوت بالغ العذوبة وأسلوب رائع في فصاحته وبلاغته . كان المقرر الذي يحاضر فيه . نظام الوقف . قد فقد الكثير من أهميته ؛ بسبب قيام الثورة بإلغاء الوقف لأهلى ، وكنت وقتها صغر من أن أدرك خطأ هذا الإلغاء ، وأن هذا النظام كان من الممكن ، لو أحسن تطبيقه ، أن يساهم بدور فعال فى التنمية والنهوض بمستوى التعليم والصحة ومختلف المرافق الاجتماعية . كان سحر الشيخ خلاف إذن ، فى نظر تلاميذ صغار مثلاً ، مستمدا فقط من شخصيته المهية ، ورفى لغته وفصاحته .

كانت شخصية الشيخ محمد أبو زهرة مخلقة تماماً . كان عالماً مرموقاً ومؤلفاً شهيراً فى الفقه الإسلامى ، ولكن ما كان من الممكن أن يخمن أحد منذ ذلك من مجرد حضور محاضراته والاستماع إليه . كان ضخم الجسم ، طويلًا عريضاً ، عالى الصوت ، محباً للدعابة . لا يأنف من إثارة الضحك قبيل وأثناء المحاضرة حتى حول أمور حساسة تتعلق بالعلاقة بين الجنسين ، إذ كان يدرّس لنا - عدا أحكام المواريث - القواعد الشرعية فى الزواج والطلاق ، مما يصعب الكلام فيه فى وقار نام مع شباب مراهق مثلاً . كان يصبر قبل أن يبدأ المحاضرة على التحقق من أن كل النّات قد جلسن فى الصفين الأولين ، فإذا وجد طالسة تجلس فى وسط المدرج ، وبين بعض الطلبة الذكور ، أمرها بأن تخرج من بينهم فى الحال وأن تتقدم إلى الصفوف الأولى . كن هذا وحده جديراً بإثارة بعض الهرج من الطلبة والطالبات على سواء . أما إذا رأى طالباً يجلس بين الفتيات فى الصفوف الأولى ، فالتوبيخ يصبح أعنف والهرج أشد .

على الطرف الآخر من أساتذة الشريعة كان أساتذة الاقتصاد ، فقد كانوا ، أو بدوا لنا على الأقل ، أكثر الأساتذة عصرية وتعدياً . وقد كان علم الاقتصاد منذ

أواخر الأربعينات قد بدأ يحظى باهتمام واحترام متزايدين مع زيادة الاهتمام بمشكلة الفقر وتوزيع الدخل، بينما كان «القانون» يتمتع بهذه المكانة العالية عندما كانت مشكلة الاستقلال والمفاوضات مع الإنجليز وهدف احترام الدستور وإرساء أسس الديمقراطية هي أكثر ما يشغل الناس. ومع قيام ثورة ١٩٥٢ رادت مكانة الاقتصاد ارتفاعاً بينما مالت منزلة القانون إلى الانخفاض، إذ إن أولئك الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة كانوا يستهدفون في الأساس إحداث التنمية الاقتصادية وإعادة توزيع الدخل، حتى ولو تطلب ذلك خرق القوانين المستقرة أو تبديل القوانين بين يوم وآخر، بما في ذلك الدستور نفسه.

كان بكلية الحقوق أيام تلمذتي بها، ستة من أساتذة الاقتصاد أكبرهم سناً عبد الحكيم الرفاعي وأصغرهم رفعت المحجوب. وكانت مشاعرهم نحو ثورة ١٩٥٢ متفاوتة أشد التفاوت، بحسب اختلاف أمزجتهم والبيئة الاجتماعية التي تشكل كل منهم فيها، ومن ثم فقد اتخذوا مواقف مختلفة منها، وعاملتهم حكومة الثورة بدورها معاملات مختلفة.

كان الدكتور الرفاعي رجلاً رقيق المآعر، أرسنراطي المزاج، لم يعجبه ما صدر من رجال الثورة من مواقف يتسم بعضها بالغرغاية والفسوة والتطرف، فابتعد بنفسه عنهم دون أن يعاديهم علناً، فاستعانوا به لفترة قصيرة ثم استغنوا تماماً عن خدماته دون التنكيل به.

أما الدكتور سعيد النجار فكان أكثر استعداداً لإدخال الإجراءات الإصلاحية والتغيير، ولكنه كان يؤمن إيماناً لا يداخه أي شك بالنظام الفردي والحرية الاقتصادية. وكان يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة رأي آدم سميث في أن المصلحة الفردية تتفق دائماً مع مصلحة المجتمع إلا باستثناءات بسيطة للغاية، فالأفضل إذن أن يبقى التدخل الحكومي عند الحد الأدنى. ولكن عبد الناصر من ناحية أخرى كان يسخر في مجالسه الخاصة من هؤلاء الأساتذة الذين لا يزالون يرددون كلمات آدم سميث وكأنها هي الحقيقة الخالدة. سرعان ما تبين إذن لسعيد النجار استحالة تعاونه

مع الثورة، ومن ثم كان ينتهز أى فرصة للسفر للخارج للعمل بضع سنوات، ثم يعود للتدريس فى مصر وشما تظهر فرصة أخرى للسفر.

كان الدكتور حسين خلاف، وظل حتى وفاته، من أحب أساتذة الحقوق إلى. كان رجلا جماً الأديب، مع الكبير والصغير على السواء، عالماً يحب العلم ويحترمه ويقدمه على أى اعتبار آخر. وكان بسيطاً غاية البساطة فى ملبسه، تأثر تلقائياً فى حديثه وحركاته، وهو صاحب نكتة فى المدرج وخارجة، ولكن نكتته دائماً ذات مغزى. يعبر بها، فى أكثر الأحيان، عن التناقضات الصارخة فى المجتمع المصرى أو عن حماقات السياسة الاقتصادية، ويلقيها بطريقة ابن البلد العفوية فتزيد جاذبيتها. يحكى لنا مثلاً عن مصلحة السكك الحديدية التى استوردت قطارات من دولة أوروبية لا تعرف الفرق بين الدرجة الأولى والثانية. وإذ تصير مصلحة السكك الحديدية المصرية على تقسيم القطار إلى درجات لا تجد وسيلة لذلك أفضل من أن تشوه بعض الدواوين وتزيل منها بعض وسائل الراحة حتى تصبح أكثر ملاءمة للدوى الداخل المنخفض!

أمام عينيه منظر غليظ يكاد يستحيل أن تصور منظارا أكثر منه سمكا، ولا أدرى ما إذا كان ضعف بصره موروثاً أم من كثرة القراءة، ولكنه كان يجعله مع طبيته وتواضعه، إذا سار فى ردهات الكلية وفنائها، لا يكف عن رفع يده بالتحية لكل من يصادفه؟ خوفاً من أن يقابل من يعرفه فلا يتبين شخصيته من فرط ضعف بصره.

قصدته مرة فى منتصف الخمسينات، وكنت قد تقدمت بطلب التعيين فى وظيفة معيد فى كلية الحقوق، وكان وقتها رئيس لقسم الاقتصاد بالكلية، وكنت أطمع فى تأييده لطلبي، فسألنى عن ترتيبى فى التخرج فقلت له: إبنى الرابع، فصمت برهة ثم قال: كل ما أستطيع أن أعطيك به هو أنى لن أسمح بأن يعين الخامس بدلاً منك، ثم أردف، هل تفهم ما أقول؟ قلت: نعم. قال: بارك الله فيك.

كان إذا كتب، نادراً ما يكتب كتباً مدرسية، وهى كتب كبيرة العائد المادى وإن كانت لا تحوى إلا تريداً، لما كتبه الآخرون، تكتب لتتنسى بمجرد أن يتوقف الأستاذ عن تدريسه. وإنما يطرق موضوعات جديدة لا تكاد تدر دخلاً ولكنها تعيش بعد

وفاة صاحبها . فيكتب كتابا من أفضل ما كتب بالعربية عن التاريخ الاقتصادي المصري ، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق (بالإضافة إلى كتب الدكتور الجريتلي) ، أو عن تطور الميزانية والإيرادات العامة ، أو عن ضريبة الشركات والتشريعات الضريبية في مصر . وهو في كتبه ومحاضراته يكشف عن احترام بالغ للغة العربية وشغف شديد بها ، ويأنف من حشر المصطلحات الأجنبية بين العبارات العربية ، ولا يتصور أن تكون اللغة العربية عاجزة عن تأدية المعنى الذي يريده بنفس كفاءة اللغات الأخرى .

كان حين خلاف ذا مزاج مختلف عن مزاج الدكتور الرفاعي ومزاج الدكتور النجار . كان يُبدى في محاضراته نغاطفاً قوياً مع الفقراء ، يعود للظهور في محاضرة بعد أخرى ، وكان مخلصاً تمام الإخلاص في كراهيته لتلك الازدواجية المفرطة في حياتك الاجتماعية والاقتصادية . ظهر ذلك في محاضراته عن مبادئ المالية العامة ، ثم ظهر بوضوح أكبر عندما قرأنا له كتابا كاملا عن ضريبة الشركات . كان إذن على استعداد كامل للتعاون مع الثورة في تطبيق سياستها لصالح الفقراء ، ولكنه كان صعبا معتزا برأيه لا يتصور أن يملى عليه ضابط أو غيره الأوامر والنواهي . ومن ثم فإنه ظل يقدم النصيحة عن بعد ، كلما طلب منه ذلك ، فلما وثق عبد الناصر به ثقة تامة جعله وزيرا لوزارة جديدة اسمها وزارة العلاقات الثقافية الخارجية . ولكن هذا كان في قمة نشاط الثورة المصرية في إفريقيا في منتصف الستينات ، عندما كان عبد الناصر يتصرف في إفريقيا كما لو كانت مصر دولة كبرى تعقد التحالفات وتفتح المعونات . ولم يدم هذا طويلا ، مع تدهور حال الجيش المصري في اليمن ، وتراكم الصعوبات الاقتصادية مع قطع المعونة الأمريكية عن مصر قبل حرب ١٩٦٧ ، فألغيت وزارة حسين خلاف بالسرعة التي أنشئت بها ، كما لا بد أن ظهر لعبد الناصر أن حسين خلاف ، على الرغم من تعاطفه القوي مع الثورة ، ليس هو اخدام المطيع في جميع الأحوال وفي كل الظروف ، فاكتفى بأن حقق له طلبه أن يسافر إلى جنيف ليعمل رئيسا لم وفد مصر في مكتب الأمم المتحدة هناك .

لم يكن الدكتور زكي الشافعي أرسقراطى النزعة مثل الرفاعي ، ولا مؤمنا

متعصبا بنظام الحرية الفردية كسعيد النجار ، ولا صميديا عنيدا مثل حسين حلاف ، كما أنه لم يكن أقل من الضباط الأحرار تعاطفا مع الفقراء ورغبة في إصلاح أحوالهم . هذا على الأقل هو ما كان يبدو من ملاحظاته العابرة عن التناقضات الطبقيّة وتوزيع الدخل . وإن كان الذي منعه من الاقتراب من الثورة شيئا مختلفا تماما ، هو في رأي مجرد الخوف من الخطأ . عندما أستعيد الآن في ذهني مواقفه السياسيّة أو الفكريّة . سواء ما بدا منها في كتبه أو محاضراته أو محادثاته العابرة معنا في فترة الدراسة العليا ، أجد أنه كان يبدو دائما وكأنه يخشى الوقوع في الخطأ أو أن يسيء ، التماس الظن به . وكان هذا الخوف يحكم الكثير مما عرفنا من تصرفاته . ولهذا السبب حظي في حياته برضا الجميع ، فلا أذكر أنني سمعت كلمة سوء تصدر عنه . كان يوصف دائما بأنه أستاذ جيد وعميد جيد ، كما يوصف أحيانا بأنه مؤسس كلية الاقتصاد (إذ كان أول عميد لها) . كما وصفه أصدقاؤه بأنه صديق مخلص وتلاميذه بأنه أب رحيم ، كما شهد له الجميع بالنزاهة وطهارة اليد ، وحزن عليه الجميع عند وفاته . ولكن سرعان ما كف الناس عن الكلام عنه بعد وفاته ، وما أقل ما كُتب عنه وما قيل في تحليل أفكاره . كان كتبه الذي ظل يدرس ثلاثين عاما أو أكثر (النقد والبنوك) كتابا جيدا بدوره ، كُتب بأناء وبلغة عربية راقية ، ولكنه كان كتاب مدرسي ، ولا أذكر له كتابا آخر أو مقالا اتخذ فيه موقفا خاصا به يختلف عن الآراء المستقرة أو المذاهب السائدة .

من الطبيعي أن رجلا بهذه الصفات لا يبذل أي جهد للتقرب من السلطة ، كما لا تبذل السلطة أي جهد لإغرائه بالاقتراب منها . ومن ثم ظل بعيدا عن أي منصب كبير في الحكومة ، رغم أنه لم يكن أقل كفاءة من غيره ممن تولوا هذه المناصب . وأظن أن هذا الأمر قد ساء عندما طان أكثر من اللازم ، وعندما أصبح شاعلو المنصب الاقتصاديّة الكبيرة في الحكومة ، بما في ذلك بعض الوزراء ، من النكرات أو ممن لا يحظون منه وما بأي تقدير . ثم حدث فجأة أن عرض عليه منصب الوزارة في منتصف السبعينات ، ففرحتنا له ولابدا أنه قد سره هو أيضا أن يرد اعتباره أخيرا . ولكنه لم يظل وزيرا لمدة طويلة ، وهو ما كان متوقعا ، ولم يترك في الوزارة أثرا يزيد عما تركه من سبقه .

أما قصة الأستاذين الآخرين، مع الثورة، فهي قصة مثيرة حقا وإن كانت قد انتهت نهاية محزنة في حالة أحدهما، ونهاية مأساوية بمعنى الكلمة في حالة الآخر. عاد الصديقان لييب شقير ورفعت المحجوب، من فرنسا بشهادة الدكتوراه في وقت واحد تقريبا، وكانا لا يكادان يفرقان، رغم الاختلاف الهائل بينهما في الميول ودرجة الذكاء والظرف. ربما كان الشيء الوحيد الذي يجمعهما هو الطموح الشديد، مع تقارب حجم العرص المتاحة لهما لتحقيق هذا الطموح. لم يكن قد مر على رجوعهما من فرنسا إلا شهور قليلة عندما قامت الثورة، وكان من الواضح للجميع أن أى أستاذ جامعى يحمل شهادة الدكتوراه فى الاقتصاد، إذا أحسن التصرف ولعب اللعبة كما ينبغي، لديه فرصة كبيرة جدا لاعتلاء كرسى الوزارة. وكان هذا واضحا بالطبع لهذين الأستاذين الشابين. فيما عدا هذا لم يكن هناك، فيما بدا لى على الأقل، أى صفة مشتركة بينهما. لييب شقير مرح، ظريف، وذكى، ونشط، ورفعت المحجوب متجهج الوجه دائما، خاصة مع تلاميذه، ثقل الظل. بطىء الحركة، يتظاهر بالعمق وسعة الثقافة، دون أن يكون هناك أى دليل حقيقى على هذا أو تلك.

درس لى لييب شقير مقررا فى التجارة الدولية فى السنة الثانية فى كلية الحقوق فكان محاضرا جذابا، واسع الثقافة، يحثك على القراءة فى خداج الاقتصاد، ولكنه أيضا يحبك فى علم الاقتصاد الذى يتحول على يديه إلى علم وثيق الصلة بالحياة. ثم درس لى رفعت المحجوب أثناء دراستى لدبلوم الدراسات العليا فى الاقتصاد، فيما يسمى «قاعة بحث»، كان المفروض فيها أن يكون الاعتماد على البحث والمناقشة أكثر من المحاضرة والامتحان، ولكنى لا أذكر أننا اجتمعنا قط لمناقشة أى شيء، ولا أذكر أنى سمعت منه رأيا ذا شأن فى هذه المشكلة الاقتصادية أو تلك. نعم كتبت له بحث عن «المادبة الجدلية والمادية التاريخية»، أقر موضوعه عندما عرضته عليه، ولكن لم يصدر منه أى قول يدل على أنه كلف نفسه عناء قراءته بعد انتهائى منه، والعبارة الوحيدة التى سمعتها منه فى التعليق على هذا البحث هو أن طباعته على الآلة الكاتبة لا بد أن تكون قد كلفتنى مبلغا طائلا. سأنته مرة عما إذا كان النقد الموجه إلى ماركس فى إحدى جوانب نظريته فى القيمة

والاستغلال نفذا صحيحا، فكان كل ما قاله هو أن ماركس أخطأ في كل شيء . وعندما سأله عما إذا كان ينصحى بقراءة كتاب كينز نفسه دون الاكتفاء بالشروح المكتوبة عنه، وكانت رسالته هو للدكتوراه عن أحد جوانب النظرية الكينزية، فقال بتعال وتكبر مقيتين: «إن كينز أعلى بكثير من مستوى عقليتنا». كان هذان الأستاذان من بين من عرض على رجال الثورة الاستعانة بهم في تسيير شئون البلد الاقتصادية، فكان من الطبيعي أن يجذبهم الأول وينقرهم الثاني . وسرعان ما سمعنا خبر اختيار لبیب شقير وزير للاقتصاد، في أوائل الستينات، ولعله كان أصغر وزير يتولى شئون الاقتصاد أو المالية في مصر .

أثبت لبیب شقير نجاحا كبيرا كوزير وسياسي قربته أكثر فأكثر من دوائر السلطة الحقيقية في داخل حكومة الثورة، حتى عهد إليه برئاسة مجلس الشعب وظل من الرجا المقيرين لما سمي فيما بعد «مراكز القوة»، بينما ظل الثاني يكتب كتباً في الاشتراكية ويلقى المحاضرات في مزاياها على أمل أن تلتفت إليه السلطة كما انتفتت إلى زميله فلم ينجح . ظل يُستعان به في أعمال نافهة، لا تتطلب أكثر من القدرة على الخطابة، وكان يتمتع بها بالفعل، ولكنها لا تحتاج إلى أي مستوى غير عادي من الذكاء أو المهارة السياسية أو حسن التصرف . وظل الأمر كذلك حتى وقعت كارثة ١٩٦٧، وأصيب نظام الحكم بتصدع خطير، كما أصاب جميعا .

أذكر بوضوح تام ذلك اليوم الرهيب الذي أخبرونا فيه بحجم المصيبة التي حلت بمصر . كان هذا يوم الجمعة ٩ يونيو، وكنت وقتها مدرسا في كلية الحقوق بجامعة عين شمس، وإذا بى أتدلم عن طريق التليفون دعوة . تسلم مثلها كل مدرسى وأساتذة الجامعات المصرية في القاهرة . لحضور اجتماع مهم في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة في السادسة مساء، حيث نستمع إلى بيان سياسي مهم . وذهبنا في وجوم وتوجس بعد أن كنا قد سمعنا طوال الأيام الأربعة السابقة عن إشاعات رهيبة عما حدث للجيش المصري، وللطيران بوجه خاص، وعن هزيمة ساحقة أصيب بها الجيش، وعن انسحاب سريع من سيناء . . إلخ . كان الهدف الأساسي من هذه الدعوة . كما تبين لى فيما بعد، هو إعطاء رجال السلطة فرصة لالتقاط الأنفاس

خوفا من أن يقلت الأمر تماماً من أيديهم، وإيهام الناس بأن المعركة لا تزال مستمرة .
ولابد أن هذا الاجتماع الذى دعى إليه أساتذة الجامعات، قد دعى إلى مثله رجال
الثقافات المختلفة وسائر التكتلات الشعبية التى يمكن أن يكون لها أثر مهم على
الرأى العام . لا أدرى ما إذا كانت هذه الاجتماعات قد أفادت رجال السلطة
بشئ، ولكنهم تصوروا على أى حال أن جمعنا للاستماع لحديث الرئيس الموجه
إلى الشعب عن طريق التلفزيون، والذى يشرح فيه ما حدث للجيش المصرى، قد
يزيد من قدرة النظام على السيطرة على الموقف والتحكم فى مجرى الأمور .

جلسنا نستمع إلى الرئيس عبد الناصر ونحن نرى صورته على شاشة
التلفزيون، وهو يشرح لنا كيف أنه كان يتوقع أن تأتى الطائرات الإسرائيلية من
الغرب فجاءت من الشرق، وأشياء كثيرة أخرى من هذا النوع، مما أثار غيظى
الشديد وغضبى وحزنى، كما أثار غضب وحزن بقية المصريين . ولم يفلح فى
التخفيف من هذا الغضب إعلان الرئيس رغبته فى التنحى عن السلطة وتعيين زكريا
محسى الدين، إذ لم أصدق قط، لا وقتها ولا فيما بعد، أنه كان يقصد التنحى
بالفعل . الذى يعينى الآن هو ما حدث ونحن جالسون فى تلك القاعة الفسيحة
الرائعة، قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، وهى ممتلئة بأساتذة الجامعات المختلفة،
جاءوا تلبية لدعوة الحكومة، دون أن يدروا أى شئ عن سبب الدعوة وعما يمكن
أن يقال لهم فى هذا الاجتماع . بدأ الاجتماع يظهر هذا الرجل الغريب، رفعت
المحجوب، على المنصة وهو يرتدى زيا أغرب، يتكون من قميص وبنطلون من
قماش الكاكي الذى يرتديه جنود الجيش أو الضباط، وكأنه قدم لتوة من معركة
عسكرية . كان منظره جديرا بإثارة الضحك والاستهزاء الشديد لولا الموقف
المأساوى الذى كنا فيه . وزاد الموقف مأساوية وإثارة للسخرية فى نفس الوقت أنه لم
ينبس بأكثر من جملة أو جملتين قبل أن يجهش بالبكاء تأثرا . ولكن هذا البكاء لم
يمنعه من أن يضمّن كلامه بضع عبارات فى مدح الرئيس والإشادة بعظمته وأبوهة
لشعب المصرى . . إلخ . أكد لى هذا الموقف، من هذا الرجل الذى لم أشعر نحوه
قط بأى حب أو احترام، ضائلة حجمه الحقيقى، ونوع الدور الذى يمكن أن يعهد
إليه بأدائه، ولا يمكن أن يتجاوزه .

تلا ذلك استماعنا لخطاب الرئيس ، وخرجنا من القاعة إلى منازلنا ونحن نشعر بالضيق التام والذهول ، قبل أن نسمع عن قيام مظاهرات خلال الليل وفي صباح اليوم التالي ، تهتف بالتمسك بالرئيس وضرورة بقائه رئيسا ، مما فسرته في وقته ، ولا أزال ، بأنه ، في الجزء الأكبر منه على الأقل ، إن لم يكن كله ، من صنع الحكومة نفسها ، حتى ولو كان قد انضم إلى بعض المظاهرات بعض الأفراد الذين شعروا بضرورة بقاء عبد الناصر رئيسا ، أو الذين أنهلتهم أخبار الهزيمة فهاضوا على وجوههم في الشوارع لا يدرون ما يصنعون ، وشعروا بدرجة أكبر من الطمأنينة بين جموع الناس التي سارت تهتف في الشوارع ، فانضموا إليهم في السر والعلف .

عندما قام أنور السادات بانقلابه في ١٥ مايو ١٩٧١ بعد وفاة عبد الناصر بعام ونصف ، وهو ما سماه بـ « ثورة التصحيح » ، وكان بداية لتحويل جوهري في السياسة المصرية في اتجاه التصالح مع الولايات المتحدة وإسرائيل ، والتكوص عن الإجراءات الاشتراكية ، قام السادات باعتقال أهم رجال « العهد القديم » ، بمن أسماهم « مراكز القوة » ، وكان من بين هؤلاء أستاذي القديم لبيب شقير . ولكن التحقيقات لم تسفر عن قيامه بأى عمل يمكن أن يودع من أجله السجن ، (عما يشهد له مرة أخرى بالذكاء والفضة) فلم يطل اعتقاله وسرعان ما وجد نفسه حراً طليقاً ولكن بلا عمل ، بعد أن كان في أعلى مراتب السلطة والنفوذ . أدرك الدكتور لبيب أن العصر لم يعد عصره ، وأنه لم يعد له دور في هذه المرحلة الجديدة من مراحل النظام السياسى في مصر ، الأمر الذى يدل مرة أخرى على فطنته ، فانتهاز الفرصة ، بعد أن عمل بضعة شهور بالمحاماة ، للسفر إلى الخارج فشغل وظيفة استشارية كاتقصادى في إحدى المؤسسات المالية في أبو ظبى ، لا تنأى بالطبع مع خبراته وكفاءاته المتعددة ، ولكنها منحه فرصة البعد عن أهواء السياسة المصرية وأن يتعمق بالهدوء الذى حرم منه طوال الخمسة عشر عاما السابقة . وقد استطاع أن يؤلف خلال إقامته في أبو ظبى كتابا جيدا عن الاقتصاد العربى ، يضاف إلى كتبه الجيدة الأخرى . وكان يأتي كل عام لقضاء إجازة الصيف في مصر فيجلس على شاطئ البحر بالمنتزه ليقرا بعض القصص والروايات . ولكن الأمر لم يطل به ، ففي بداية إحدى إجازاته الصيفية ، وكان يستعد للسفر في اليوم التالى إلى مصر ، أصابته نوبة

قلبية ومات على الفور . ولم تطل الصحف المصرية فى نعيه ولا أذكر أن كتب عنه أحد مقالاً فى جريدة أو مجلة ، إذ جاءت وفاته فى وقت سيطر فيه على أجهزة الإعلام رجال يتنمون إلى مرحلة سياسية مختلفة تماماً .

أما الدكتور رفعت فلم يمنعه شيء من الاستمرار فيما كان فيه ، هزيمة كان أم انتصاراً ، وأسمالية كان أم اشتراكية . فعلى الرغم من تحول انظم تحولاً جذرياً من سياسة إلى نقيضها ، فى مختلف مجالات السياسة الداخلية أو الخارجية ، ظل الدكتور رفعت يخطب بفصاحة فى حدود ما تسمح به الظروف السائدة . ظل يذكر العدالة الاجتماعية فى كلامه ، ولكن دون أن يتجاوز الحدود المسموح بها . وقد فوجئنا جميعاً ، فى منتصف الثمانينات ، أى بعد أن تحول النظام الاقتصادى والسياسى تحولاً تاماً عن سياسات عبد الناصر ، باختيار رفعت المحجوب رئيساً لمجلس الشعب . فى وقت كان هذا المنصب النبأى المهم خاضعاً تماماً لقرار من السلطة . كان الدكتور رفعت قد أثب خلال الخمسة عشر عاماً السابقة أنه لا خطر منه فى الحقيقة على النظام ، وأن من الممكن الإنفاذ من مهاراته الخطابة وجلده وصبره على العمل السياسى الذى لا يجلب أى منفعة إلا للقائم به وللدجالس على قمة السلطة . ومع ذلك فقد ظل البعض يعتبرونه من رجال النظام القديم ، يصفون آراءه ومعتقداته على أنها تميل إلى الاشتراكية وإعادة توزيع الدخل . والحقيقة ، كما أعرفها عنه منذ كان مدرسا مبتدئاً فى كلية الحقوق ، أنه لا آراء ثابتة له فى أى شيء ولا معتقدات قوية . كذلك ترجس منه بعض رجال الحكم خشية من أن ينحى بهم بعض الضرر من جراء آرائه التى اعتبروها اشتراكية . وهو يحتل هذا المنصب النبأى الكبير والذى اكتسب معه بعض النفوذ ، ولكن الحقيقة هى أن الخطر الذى كان يهددهم من ورائه ، لم يكن يتعلق بأرائه ومعتقداته بل كان مصدره ما يمكن أن يرتكبه من أخطاء بسبب قلة حظه من الذكاء والفطنة . وهذا هو ما حدث بالفعل . فقد صدرت منه مرة ، بدون أى داع ، جملة وردت بها عبارة «القطط السمان» ، مشيراً بذلك إلى الأثرياء الذين جمعوا ثرواتهم فى فترة قصيرة دون جدارة حقيقية أو من مصادر غير مشروعة . لابد أن العبارة قد جاءت على لسانه دون تروكف من

جانبه، إذ ربما أعجبه ما فيها من فصاحة أو جمال التشبيه، دون وعي بما يمكن أن يترتب على الشفوه بها من آثار سيامية. لابد أنه ارتكب أخطاء كثيرة مشابهة أوقعته في عداوات شخصية مع بعض الرجال المهمين الذين كان من الأحوط له ألا يعاديه. وكانت نهاية كل ذلك أن استيقظنا في صباح أحد الأيام لنسمع عن رصاصات أطلقت عليه وهو في سيارة محصنة بأشد أنواع الحصانة والحماية من الشرطة، أثناء عودته من مجلس الشعب، وفي شارع من أشد شوارع العاصمة ارد حاما. أودت الرصاصات بحيته وحياة الضابط الجالس بجوار السائق والذي كان مكلفا بحمايته. ونُسب الحادث وقتها إلى بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة. ولم أتابع ما ذكر في التحقيقات أو ما قيل في الصحف عن شخصية الجاني أو دوافعه، إذ إنني كنت مقتنعا تماما، أيًا كان ما ينشر في الصحف، بأن السبب الحقيقي وراء هذه النهاية المأساوية للدكتور المحجوب، لم يكن «أراؤه ومعتقداته». وما إذا كانت تتفق أو لا تتفق مع آراء ومعتقدات الجماعات الإسلامية، بل كان السبب الحقيقي قلة حظه من الخنكة السياسية ومن الفهم لطبيعة المرحلة التي كان يقدم نفسه لخدمتها. لقد منعت إغراءات بسيطة للغاية، كالخصول مثلا على فيللا فخمة في الصنف الأول من الفيللات المقامة على شاطئ مارينا، من أن يرى الأمور على حقيقتها.

وقد كانت هذه، فيما أعتقد، شيمته دائما منذ عرفته، ومن ثم كان رأيي أنه عومل في حياته المعاملة التي يستحقها. أخذ من احبة ما كان يطمح فيه بالضبط، وانتهت حياته نهاية فيها بعض سمات المأساة وبعض سمات المهزلة، مما يذكرني بمنظره وهو يخطب فينا في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، عندما كان يتظاهر بالبكاء وهو يحاول أن يتملق رجال السلطة، في نفس الوقت الذي يتألم فيه الجميع من هزيمة عسكرية شنيعة.



انقطعت صلتى بمجرد تخرجي في كلية الحقوق، بكل أسانئتها انقطاعا تامًا، فيما عدا اللقاءات سريعة لا أهمية لها ببعضهم في ندوة أو اجتماع باستثناء وحيد

هو علاقة ممتدة مع الدكتور سعيد النجار الذي لعب دوراً مهماً في حياتي، وشغل تفكيري لفترات طويلة من الزمن، واتسمت علاقتي به بالثقب العنيف من شعور إلى نقيضه مما يستحق أن يروى. كانت بداية معرفتي بالدكتور سعيد النجار عندما التحقت بكلية الحقوق في سنة ١٩٥١، وكان هو مدرس الاقتصاد في السنة الأولى. قُنتت به افتتاناً عظيماً بل وقعنا نحن التلاميذ في حبه وظل هو أستاذنا المفضل حتى تخرجنا من الكلية، بالرغم أنه لم يدرس لنا خلال هذه السنوات إلا هذا المقرر الوحيد في السنة الأولى. لم يكن هذا المقرر في ذاته مشوقاً، ولا له أهمية عملية على الإطلاق، فقد كان يدور حول أشياء مثل: المنفعة الحدية، وقانون تناقص العلة، وإن كنت أذكر أنه أضاف بضع صفحات قليلة في آخر المقرر تتعلق بمصر واقتصادها، وهو ما كان نادراً ولا يزال نادراً في أي مقرر عن هذا الجزء من النظرية الاقتصادية. لم يكن لمضمون المقرر على أي حال أي علاقة بشعورنا نحوه، وإنما كان مصدر هذا الشعور صفاته الشخصية. كان مدرساً ممتازاً: واضح العارة، منطقي التفكير إلى أبعد مدى، ويحب علمه وموضوعه، فلا يمكن أن يشيع فينا الملل. وكان يتكلم على سجيته ودون اصطناع، ومن ثم كان يطلق ضحكة عالية من حين لآخر تنصل لنا من خلال الميكروفون وكان لها ذبلاً غريباً يشير ضحكنا من جديد. كان وانقا تمام الثقة بنفسه وبما يقول، ومن ثم لم يكن ليدور بخله أن من الممكن أن يخلّ أحدنا بالنظام، أو يأتي أحد بعمل فيه أي شبهة قلة أدب، وبالتالي لم يكن ليدور بخله أحدنا شيء من هذا. فإذا أضفنا إلى كل ذلك أنه كان وسيماً وأنيقاً، كان من السهل أن نعرف لماذا فضلناه على أي أستاذ آخر.

كنا نحو ثمانية تلميذ نجس في صرح واحد في السنة الأولى، ليس من بيتنا كما سبق أن ذكرت، إلا ثمانية أو عشر فتيات كن يجلسن دائماً في الصف الأول أو الثاني. كانت هذه الفتيات المشعر وسط هذا الجمع الحاشد من الذكور المنحرومين من أي علاقة جنسية، كالفاكهة المحرمة، تتمناها كل النفوس ولكن لا يجرؤ أحد على لمسها. وبسبب ما كنا ما نشعر به إزاء هذا الأستاذ، وإزاء هذه الفتيات، كن حيالنا يصور لنا أن كل فتاة منهن لابد أن يكون حلمها الوحيد أن تتزوج منه، وأن لهذا

السبب وحده تزيين الفتيات وتجميلن، وأنهن لا يجلسن في الصف الأول والثاني إلا بهدف لفت نظره. ولكن الرجل بعد شهور قليلة من بدء الدراسة تزوج من فتاة، من خارج الجامعة كلها، وتصادف أنها كانت البنت الوحيدة لصديق حميم لأبي (هو الدكتور عبد الرزاق السهنوري). وقال لنا أبي إن هذا الصديق سأله عن رأيه فيما إذا كان من الصواب أن يقبل هذا الأستاذ زوجا لابنته، ووصفه بأنه رجل لا يعيبه أي شيء على الإطلاق إلا الفارق بين سنّه وسنّ ابنته. كانت سنّها أقل من العشرين بسنتين أو ثلاث، وهو قد تجاوز الثلاثين. ولكن تم الزواج في النهاية وأصبحت فتيات الكلية بصدمة عنيفة، أو هكذا تصورنا، عندما دخل يوما إلى المدرج وحول أصبعه خاتم الخطوبة.

ظللت أشيد بعظمته وكماله في كل مناسبة يذكر فيها اسمه. فلما درّس لي مقررا آخر في الدراسات العليا لم يتغير رأيي فيه قيد أنملة. وظل هو أستاذي المفضل. تبينت فيما بعد أنه يؤمن بالنظام الرأسمالي إيمانا لا ينزعزع، ويكره الاشتراكية، وكنت أنا على العكس قد أصبحت مع مرور الوقت اشتراكية متحمسا، بل وفي بعض السنوات متحمسا للماركسية. ولكن هذا لم يؤثر قيد أنملة في شعوري نحوه أو رأيي فيه، حتى إنني عندما ذهبت للعمل في الكويت، بعد ذلك بسنوات كثيرة، وسمعت أنه سيترك وظيفته في سويسرا ويعود إلى مصر، أسرعرت باقتراح اسمه على رئيسي الكويتي دون أن يطلب أحد مني ذلك، ليعرض عليه العمل معنا في نفس المؤسسة، بل وفي نفس القسم الذي أعمل فيه، ففعل هذا وقبل الأستاذ المجيء، وقضى معنا في الكويت سنتين قبل أن يسافر مرة أخرى للعمل في واشنطن.

خلال هاتين السنتين اللتين قضيناهما في الكويت حدث ما بدأ يجعلني أعيد النظر في رأيي فيه وتقييمي له. كانت حجرة مكتبه ملاصقة لحجرتي، وكنا كثيرا ما نشترك في عمل واحد أو تعهد إلينا المسؤولية عن مهمة واحدة. من هذه المسؤوليات كانت مسؤولية تنظيم مؤتمر كبير ترعاه المؤسسة التي نعمل بها (وهي الصندوق الكويتي للتنمية)، عن موضوع كان حديث الجميع في تلك الأيام (١٩٧٦) هو ما كان يسمى بـ«النظام الاقتصادي العالمي الجديد» وأثره في العالم العربي. وجلست

مع أستاذي القديم الذي أصبح الآن زميلاً، نضع قائمة بأسماء من يمكن دعوتهم للاشتراك في هذا المؤتمر بتقديم بحث أو مجرد المناقشة. واقترحت أنا بعض الأسماء من أصحابها من كانت له نزعة يسارية معروفة، ولكن كان منها أيضاً أسماء بعض الأساتذة والكتّاب من غير الاشتراكيين، ولكن لا شك في جدبتهم وإخلاصهم ومكانتهم العلمية. وكانت المفاجأة أن وجدت أستاذي القديم يقترح بعض أسماء لا أحمل نحو أصحابها أى تقدير ولم يعرفوا بيتنا إلا بالانتهازية والحفّة، وإن كان بعضهم يحتل مناصب مرموقة في الصحافة أو الحكومة. وعبرت عن دهشتي ونفوري من هذه الأسماء التي اقترحها، ولكني رضختم لرغبة كارها، فهو لا يزال أستاذي المعبود القديم. نجح المؤتمر نجاحاً استثنائياً، وأشاد به الجميع، ولكن حدث خلاله ما أكد لي صحة رأيي، إذ رأينا جميعاً هؤلاء الذين اقترحهم الأستاذ الزميل تقتصر ساهمتهم خلال أيام المؤتمر على الهجوم على موائد الطعام، وخاصة أكثر الأطباق ندرة في مصر، كالخميري وسمك السالمون المدخن، ثم لا تراهم في جلسات المؤتمر، ولكنك تراهم عائدتين إلى فندقهم من السوق وفي يد كل منهم كل ما ثقل وزنه وارتفع ثمنه مما يندر أيضاً وجوده في مصر من مأكولات.

في بعض الجلسات الحثامية أصابني الدهشة من جديد من بعض مواقف الأستاذ. لم يكن تأييده المستمر للمواقف اليمينية المحافظة مصدر هذه الدهشة، فقد كنت أعرف هذا عنه ولم يكن غريباً عليّ، ولم أجد فيه ما يشينه بالضرورة. ولكن الدهشة جاءت عندما رأيته يعطي تأييده وبذلي بصوته، عندما جاء وقت اختيار اللجنة المسئولة عن صياغة التوصيات النهائية للمؤتمر، لأشخاص لا يحظون مني أيضاً بأى تقدير، لمجرد أنه توقع منهم أن يميلوا بالتوصيات إلى الناحية التي يميل إليها قلبه.

ثم مرت سنوات، وعدت إلى مصر من الكويت، وعاد هو من واشنطن، وتكرر اشتراكه في الندوات التي كثر عقدها، تحت شعار «الإصلاح الاقتصادي في مصر»، وكانت تذكور في الأسامح حول «بيع القطاع العام». كان هذا البيع في نظري خطأ لا يغتفر. من الممكن أن تكون رأسماليّ النزعة ولا يكون هناك غبار

على ذلك، ولكنى كنت أعتبر بيع القطاع العام شيئاً مختلفاً عن مجرد تفضيل القطاع الخاص. فلتشجع الرأسماليين الوطنيين كما تشاء، ولتفضل قيام هؤلاء بالاستثمارات على قيام الحكومة بها، ولكن أن تباع مشروعات عامة ناجحة، بل ولا تجد غضاصة في بيعها لأجانب يسيل لعابهم على ما يمكن تحقيقه من ورائها من أرباح، مع أنه قد يكون من أسهل الأمور إصلاح ما قد يكون في هذه المشروعات العامة من خلل في الإدارة أو نظام التوظيف والتسعير، هذا هو ما بدا لي أمراً لا يطلق ولا يمكن السكوت عليه. حرصت لهذا السبب على أن أحضر بعض الندوات التي شارك فيها الأستاذ ودافع فيها بكل فصاحة وكفاءة عن بيع القطاع العام، ولكنى كنت أترك الندوة دائماً وفي نفسى مرارة تختلط بالدهشة والأسف. أهذا إذن هو حال أستاذي القديم؟ أهو إذن مستعد إلى الذهاب إلى هذا المدى وبكل هذا الحماس للدفاع عن قضية باطلة إلى هذا الحد؟

وقفت أعترض عليه في كل ندوة اشترك فيها وهاجم فيها القطاع العام، وأتبع في حضرته. ولكنى كنت دائماً ألتزم الأدب ولا أسمح لنفسي، وأنا أurd عليه، بما أسمح به لنفسي في انتقاد غيره من مخزية وقسوة. كما كتبت مقالاً صغيراً للرد على بعض هجرته على القطاع العام نُشر في إحدى المجلات اليسارية، وظنت أيضاً أنني لم أتجاوز فيه حدود الأدب والتهذيب، ولكن زميلة تعرفني وتعرفه اتصلت بي لتخبرني بمدى غضبه وتأثره من هذا المقال، فلما أبدت لها استغرابي من هذا، والمقال بهذه الدرجة من الهدوء والأدب، قالت إن ما أغضبه بوجه خاص أنني استخدمت في المقال لفظ «مغالطة» في وصف إحدى حججه بدلاً من اللفظ الأكثر حياداً «غلطة أو خطأ» إذ إن لفظ «مغالطة» يوحي بأنه يعرف خطأه ويصر عليه.

ولكن الطامة الكبرى وقعت بعد هذا بقليل، وقضت على أي أمل لدىّ أن تعود إلى علاقتي المودة القديمة، بل وأحلت محل تقديرى القديم له، الذي لم أحمل مثله لأحد، مرارة وحزناً وخيبة أمل. فقد خرج علينا أحد الوزراء فجأة ودون مقدمات بمقال طويل في صحيفة الأهرام، في أوائل التسعينات، يشيد فيها بمزايا اسماء النظام الشرق أوسطى الجديد، وكان له معنى واحد لا شك فيه وهو مزايا

التعاون الاقتصادي مع إسرائيل . كان شيمون بيريز رئيس الوزراء الاقتصادي حينئذ قد نشر قبل ذلك بوقت قصير كتابا كبيرا بنفس العنوان . وما إن أبدت الحكومة أنها ترحب بالترويج لهذه الفكرة حتى بدأ الكتاب المستعدون دائم لوضع خدماتهم تحت تصرف الحكومة ، وللترويج لما تريد الحكومة الترويج له ، يكتبون في تأييد «النظام الشرق أوسطى الجديد» بدرجات متفاوتة من الحذر ، على حسب درجة الجرأة التي يتمتع بها الكاتب ومدى تعجله لكسب رضا السلطة . وكان هؤلاء هم أنفسهم الذين كتبوا لتأييد زيارة السادات المفاجئة للقدس في ١٩٧٧ ، والذين كانوا يتنهزون فرصة بعد أخرى للإشادة بمزايا السلام ، والأثار الطيبة التي تترتب على مشاعر احب إزاء الآخرين ويقصدون بذلك الإسرائيليين ، ومحاولة تفهم «الأخر» ، وغيوب الحقد والكراهية . . إلخ .

لم يكن أستاذي القديم من هذا النوع من الناس . كلا بالطبع . فهو لم يتملق السلطة قط ، ولا دافع عن فكرة لا يعتقد بصحتها . ولكنه فاجأنا بست مقالات طويلة في جريدة الأهرام يدافع فيها عن الشرق أوسطية . فكيف يمكن لي أن أفسر ذلك ؟ لماذا لا أقبل التفسير البسيط وهو أنه يعتقد فعلا بمزايا التعاون الاقتصادي مع إسرائيل ؟ ولكن كيف لرجل مثله ألا يرى أن الاستعداد للقول بهذا الرأي ، وقبول المشاركة في مختلف المؤتمرات التي تباركها إسرائيل بل وتحث على عقدها ، وتعتقد سنويا للترويج لهذا التعاون ، معناه التنازل عن الورقة الوحيدة التي بقيت في يد العرب في محاولتهم المستميتة لاستعادة بعض حقوقهم الضائعة ؟ كيف لا يرى هذا الأستاذ هذا الأمر ؟ نعم لابد أنه يعتقد بصحة ما يكتبه ، ولابد أن الأمر ليس إلا خطأ في التقدير ، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يغتفر الخطأ لمجرد أن صاحبه ينصور أنه صواب ؟ كتبت مقالا طويلا في الرد عليه ونشر في إحدى الجرائد المعارضة . كان المقال لا يخرج قط على حدود الأدب والتعذيب ولا يكاد يتضمن أي سخرية أو عبارة جارحة . وكانت أقسى عبارة فيه ، في نظري ، العبارة التي وردت في مطلع الكلام والتي أشرت فيها إلى دهشة الشديدة من اشتراك الأستاذ في هذا العدد اللانهائي من الندوات والمؤتمرات التي تعقد للترويج لفكرة السلام مع إسرائيل ، فلا تكاد تخلو ندوة أو مؤتمر من اسمه كأحد المتحدثين ، وقلت : «إن الله وحده هو

الذى يعلم سبب ذلك». أى أنى سمحت لنفسى أن أعبر عن حيرتى وشكى فى أن يكون هناك أسباب أخرى لتكرار اشتراكه فى الترويج للتعاون مع إسرائيل غير مجرد اعتقاده بصحة هذا الموقف .

كان هذا كافياً بالطبع لقطع حبال الود بينى وبينه، وهو ما استمر يبعث الحزن فى نفسى كلما تذكرته، وظللت أشعر بالأسف والحزن كلما تذكرت ما فعلت مع هذا الأستاذ العزيز القديم، ولكن دون أن يكون لدى أى شك، مع هذا، فى أنه كان على خطأ وأنى على صواب. وظللت من حين لآخر أستعيد الجملة التى بدأت بها مقالى ضد «الله وحده هو الذى يعلم سبب اشتراكه المتكرر فى كل ندوة تعقد لترويج فكرة السلام مع إسرائيل؟»، وأقول لنفسى: هل كان من الضرورى أن أكتب هذه العبارة بالذات؟ ألم يكن من الممكن أن أكتب المقال كله وأعبر عن كل حجبى، باستثناء هذه العبارة؟

ثم انتهزت فرصة لأتصل به تلفونياً لأهنته بقدوم عام جديد، وكم كانت فرحتى أن وجدته متقبلاً تماماً لهذه الخطوة منى، ويرحب بكاملتى، ويتفق معى تماماً عندما قلت إن ما حدث بيننا كان «كلاماً فارغاً لا أهمية له». ولكن فرحتى كانت مضاعفة عندما وحدثه، بعد مرور بضع سنوات أخرى، يرجع عن موقفه السابق المؤيد لمشروع الشرق الأوسطية ويشجع فى مهاجمته بعنف وبلا هوادة، ولم أجد أى سبب للشك فى أن الرجل قد اكتشف خطئه وكان من التزامه والشجاعة بحيث أعلن على الملأ ما يعتقد الآن أنه الصواب. لم أحاول فقط أن أستدرجه إلى الاعتراف بخطئه القديم، ولكن كان واضحاً لكل منا أنه هو الذى تغير فى هذا الأمر، وأنه تبين أن الحق كان معى. عندما تأكد كل منا من ذلك عادت علاقتنا إلى صفائها القديم، بل وأصبحت لعدة شهور أقوى مما كانت فى أى يوم من الأيام، إذ أضيف إليها الآن شعور كل منا بأن الكمال مستحيل، وأن كلاً منا به من أوجه الضعف ما يفرض عليه أن يكون أكثر صبراً مع صاحبه. على أن هذا لم يستمر طويلاً، إذ مرض الرجل فجأة مرضاً بسيطاً تحول بسرعة إلى مرض خطير، وكان عمره قد قارب الخامسة والثمانين، وإذا بنا نغفده فجأة، وكان قبل ذلك بأيام قليلة ملء السمع والبصر.

(٩)

البحث

تعرفت خلال سنوات الجامعة، لأول مرة، على فكرة «العروبة والوحدة العربية». حدث هذا عن طريق تعرفي على مجموعة من الطلبة العرب، من الأردنيين والسوريين واللبنانيين، الذين كانوا يدرسون في كلية أو أخرى من كليات جامعة القاهرة، وشديدي الحماس للقومية العربية والوحدة العربية، من الخنيج إلى المحيط. كان معظمهم أعضاء في حزب نشأ في سوريا، وقالوا لنا: إن اسمه «حزب البعث العربي الاشتراكي». ولكن حتى من لم يكن منهم بعثيا، كان يؤمن بالقومية أكثر من أي مصري كنت أعرفه في ذلك الحين. وقد أثار هذا لدى بعض الدهشة في بداية الأمر: أن يكون حماس اللبناني أو السوري أو الأردني لتكوين أي نوع من الوحدة مع مصر أقوى بكثير من حماس أي مصري لذلك. وقد أدى تعرفي على هؤلاء الطلبة العرب وما دار بيننا من أحاديث إلى ابتداء قراءتي في تاريخ القومية العربية، ومزايا الوحدة الاقتصادية، وكتابات ساطع الحصري وغيرها في الدفاع عنها، وإلى اقتناعي بسلامة الفكرة، وخطأ المشككين فيها. ولكن هذا الاقتناع اكتسب شكلا جديدا تماما بعد أن سافرت إلى لبنان وسوريا في سنتي ٥٣ و ١٩٥٤، وتكونت لدى مشاعر نحو العروبة والقومية العربية تكاد أن تكون جديدة علىّ تماما. ثم تدعمت نفس المشاعر بزياراتي المتتالية لبلاد عربية أخرى في المغرب والشرق. يجب أن أعترف بأن إقامتي بالكويت، رغم أنها كانت أطول منها في أي بلد عربي آخر، وكذلك زياراتي لأبو ظبي، لم تزد مشاعري العربية قوة، وإن لم تضعفها، إذ كان الكويتيون مكثفين بأنفسهم إلى حد كبير ولا يميلون إلى أي نوع من التآلف مع الوافدين العرب إلى بلادهم، وفي أبي ظبي لم أقابل من أهل البلاد من

لمست فيه حماساً للعروبة . ولكن هذين البلدين كانا هما الاستثناء ، وكانت كل زيارة لى لآى بلد عربى آخر تدعّم شعورى بالانتماء العربى وتقويه . هذا الشعور الذى أثارت زيارتى الأولى للبنان وسوريا ، لم يفارقتى حتى الآن ، رغم كل ما مر بالعرب من أحداث مريرة طوال الخمسين عاماً التى انقضت على رؤيتى لأول بلد عربى خارج مصر .

ما الذى رأيته فى لبنان وسوريا فى ذلك الوقت مما غرس فى هذا الشعور القوى بالانتماء العربى؟ إنه لم يكن مجرد حماس الناس هناك للعروبة بكثير مما لمسته فى أى وقت فى مصر ، ولا نظرتهم الخاصة والتميزة جداً إلى مصر والمصريين ، ولا حبهم واحترامهم العميق لأدباء مصر وكتّابها وزعمائها الوطنيين ، ولا معرفتهم الوثيقة بتاريخ مصر وولائهم العميق للغة العربية والأدب العربى . لقد لمست كل هذا حقاً ، ولكنى فوق ذلك لمست بوضوح تام أن ما يجمع بيننا أهم وأقوى بكثير مما يفرقنا : لغتنا وثقافتنا وموسيقانا وطريقة استجابتنا للأحداث ، وقيمنا الأخلاقية ونمط علاقاتنا الاجتماعية . إلخ . وهذا الذى لمسته أولاً فى لبنان وسوريا عدت فلمسته المرة بعد الأخرى فى البلاد العربية الأخرى . أثر فى نفسى تغلغل جذور الثقافة العربية فى العراقيين ، وإجادة اللغة العربية لدى الأردنيين ، بل وحتى لدى ملكهم وأمرائهم ، وحب المتعلمين المغاربة لمصر وعرفانهم بجميل مصر وأدائها ، وبفضل الأزهر على من جاء منهم إلى مصر ليدرس فيه ، وعشق التونسيين وتذوقهم العميق للموسيقى العربية ، وتعلقهم الشديد بالمغنين والملحنين المصريين ، وكذلك حب اليمنيين لمصر وعرفانهم لجميلها بمساعدتها لهم فى ثورة ١٩٦٢ والحرب التى تلتها ، ومتابعة المثقفين اليمنيين لكل ما ينتجه مثقفو مصر وأدباؤها وصحفيوها ، وقرب روح الفكاهة عند اليمنيين منها عند المصريين . أوقف رجل يبنى لا أعرفه سيارته إلى جانبى وأنا أسير فى أحد شوارع صنعاء ، عندما رأى من ملامح وجهى أنى مصرى ، وجاء يحيينى ، وإذا به يشكرنى على ما فعلته مصر من أجل اليمن . وكان بعض الأطفال اليمنيين الصغار يستوقفوننى أيضاً فى الطريق ليعرضوا على ما يحملون من كراريس وهم عائدون من المدرسة مفتخرين بما تعلموه ، وهم يتوقعون منى ، أنا المصرى ، أن أفرح بدورى بما حققوه . وكان أغرب

المدرسين في اليمن في ذلك الوقت (أوائل الثمانينات) لا يزالون من المصريين الذين جاء بعضهم ليقضى شهور السنة الدراسية في بعض القرى اليمنية النائية في أعلى الجبل، من دون أى وسيلة من وسائل الراحة والترفيه المتاحة في مصر أو في العاصمة اليمنية. في الكويت لم أُلْس مثل هذه المشاعر نحو مصر والمصريين إلا عند بعض كبار السن، ولم أُلْس مثلها قط عند شباب الكويتيين. قال لي أحد المسؤولين الكويتيين مرة معبراً عن أسفه لجهل معظم الشباب الكويتي بفضل مصر على الكويت: «إنه يرجع أنه لو فتح كويتي أدراج المكاتب الحكومية بالكويت لوجد في بعضها أقلاماً وكراس مکتوب عليها (هدية من المملكة المصرية)» ، ترجع إلى أيام الملكية في مصر عندما كانت الكويت فقيرة لدرجة اضطرابها إلى الاعتماد على كرم الحكومة المصرية وسخائها في إرسال المدرسين وبعض المواد التعليمية إلى الكويت دون مقابل^٩.

في أول زيارة لي لبسروت في ١٩٥٣ قال لي بعض الأصدقاء اللبنانيين إنهم درسوا في كتاب المطالعة وهم تلاميذ صغار بعض القطع الثرية من تأليف أبي أحمد أمين. وعندما سمعت إشارات متكررة إلى أحمد أمين هناك استقر في ذهني أن أحمد أمين معروف في لبنان أكثر منه في مصر. وتكرر ذلك في بلاد عربية أخرى خاصة العراق واليمن، حيث قال لي أحد المثقفين اليمنيين: إن نسختين من مجلة الثقافة التي كان أبي يرأس تحريرها، كانتا تصلان إلى صنعاء في كل أسبوع خلال الثلاثينات والأربعينات، ثم لا تلبث النسختان أن تدور بمدن اليمن الرئيسية حتى لا ينتهي الأسبوع ويأتي العدد الجديد حتى تكون النسختان قد أصبحتا مهلهلتين لكثرة الأيدي التي تداولتهما.

وفي جلسة من جلسات اللقاءات في صنعاء، ضمت بعضاً من كبار المسؤولين اليمنيين، أخذ شاعر يمني كبير يحكي لنا، وهو يعلمني في نفس الوقت كيف أمير بين الورقة الطيبة من اللقاءات وغيرها، كيف قرأ مؤخراً عن شجار عنيف نشب بين صحفي مصري وقانوني مصري كان وقتها يشغل منصب خطير يدعى «المدعي الاشتراكي»، واتخذ موقفاً مخالفاً للقانون والضمير إرضاء للحكومة، وكيف أضحك الصحفي مصر كلها على هذا القانوني، فإذا باليمنيين الحاضرين كلهم

ينتصتون بشغف إلى هذه القصة العارضة في الحياة السياسية المصرية وكأنها تمس شأننا خطيراً من شئون اليمن .

أما متقنوا البحرين فلا يتحدثون كثيراً عن فضل مصر على الثقافة المصرية لأنهم، كبارهم وصغارهم، يعتبرون هذا من قبيل تحصيل الحاصل . وقد قابلت وزير التعليم البحراني، وكان أيضاً رئيساً لنادي عريق في البحرين (نادي العروبة) فوجدته يعرف من تفاصيل حياة الملحنين المصريين الكبار، كالقصبجي وذكربا أحمد، وترتيب ظهور أغني أم كلثوم وعبد الوهاب القديمة ما لم أكن أعرفه . وعندما زرت لبنان في التسعينات وتعرفت على أسرة سحاب الفضة، التي أنتجت «سليم» قائد الفرقة القومية للموسيقى العربية بالقاهرة، و«فيكتور» المؤرخ وأستاذ السياسة بالجامعة اللبنانية، ولكنه أيضاً مؤرخ عظيم للموسيقى العربية، و«إلياس» أكبر الإخوة الثلاثة، والكاتب السياسي المتميز بدوره، ذكرت لفيكتور كيف بدأت معرفتي به بقراءتي لمقال مدهش نشره في جريدة الحياة بمناسبة وفاة المطرب المصري «كارم محمود» وهو - أي كارم محمود - وإن كان قد حقق درجة لا بأس بها من الشهرة، لم يكن قطعاً في الصف الأول ولا الثاني من المطربين المصريين، فإذا به أجد فيكتور سحاب وقد كتب عنه مقالاً يحصى فيه كافة أغانيه وأفلامه وتواريقها، ويحلل بدقة سزايا صوته، ويحدد بالضبط دوره في تاريخ الأغنية المصرية . وجلست أفرج على الإخوة الثلاثة، إلياس وسليم وفيكتور، يتذكرون ويشامرون بتذكير بعضهم البعض بأهمية الأداء الذي قامت به أسهمان، المطربة اللبنانية التي حققت شهرتها في مصر، لإحدى أغنياتها القديمة، وسجله له أحد المهاجرين في الثلاثينات دون أن يداع قط على الملأ، وكيف يختلف هذا الأداء عن أدائها لنفس الأغنية في سنة أخرى . . الخ .

بعد ذلك بيضع سنوات كنت أحضر مؤتمراً في تونس فأخذ أحد الاقتصاديين التونسيين من المشاركين في المؤتمر يحدثني عن مدى تعلق التونسيين بأم كلثوم حتى إنه عندما جاءت أم كلثوم لتقديم حفلة غنائية في تونس باع أحد معارفه بعض أثاث منزله ليشرى بشمته بضع تذاكر للحفلة . كم أزر السودان قط للأسف، ولكني عرفت كثيرين من السودانيين عن قرب، ولمست فيهم نفس الدفء في المشاعر الذي

لمسته لدى بقية العرب، وسهولة التفاهم الروحي بينهم وبين المصريين، وقدرتهم على فهم النكتة المصرية بنفس المعنى بالضبط الذى يفهمها به المصرى .

لم أصادف أى شىء يشبه هذا الولاء والحب والاعتراف بالجميل نحو مصر والمصريين فى أى بلد من البلاد الإفريقية التى زرتها، لا فى غرب أفريقيا ولا شرقها . ربما عَبر بعض الإفريقيين عن احترامهم لجمال عبد الناصر ولكن هذا شىء مختلف تماماً . كذلك لم أشعر بذلك التقارب والاتفاق فى المشاعر والمشارب للذين شعرت بهما فى كل البلاد العربية التى زرتها، عندما زرت إستانبول، مما جعلنى أشعر بغلبة رابطة اللغة والثقافة على رابطة الدين . بل قابلت أمثلة كثيرة جعلتني ألاحظ كم يعنى نفس الدين أشياء مختلفة جداً عند الشعوب المختلفة، فالإسلام فى تركيبه له طابعه المميز جداً وملامحه الخاصة جداً إذا قورن به فى البلاد العربية . نعم إن له ملامحه الخاصة أيضاً التى تختلف بين بلد عربى وآخر، ولكنى لم أشعر بأننى أسمع شيئاً غريباً على عندما سمعت الأذان لصلاة الفجر فى صنعاء، بل ترك فى نفسى أثراً أقوى مما كان للأذان فى مصر، ربما لجمال صوت المؤذن وحسن أدائه .



أعود إلى هؤلاء الأصدقاء من الطلبة العرب الذين تعرفت عليهم فى سنوات دراستى الجامعية، وكان معظمهم من الأردنيين والسوريين واللبنانيين، وأكثرهم أعضاء فى حزب «البعث العربى الاشتراكي» . قالوا لنا: إن مؤسس الحزب أستاذ سورى اسمه ميشيل عفلق، وأهم أنصاره: صلاح البيطار، الذى أسس مع الأستاذ ميشيل حزب البعث فى سنة ١٩٤٢، ثم انضم إلى هذا الحزب أكرم الحوراني، زعيم الحزب الاشتراكي فى سوريا أيضاً، وتكوّن من الحزبين «حزب البعث العربى الاشتراكي» . كانوا مجموعة من الشبان الناضجين الودودين، بهم درجة من الجدية والاهتمام بالسياسة والقضايا العامة تفوق بكثير ما كان شائعاً بين الطلبة المصريين، فأنجذبنا إليهم، وكان من الواضح أنهم حريصون على أن ننضم إلى حزبهم ومن ثم يؤسس للحزب لأول مرة فرع فى مصر، ونقلوا إلينا قول ميشيل عفلق: إن الحزب لا مستقبل له إن لم يدخه مصريون . كان أول من التحق بالحزب من المصريين على

مختار، الذي كان صديقاً لي منذ كنا في الثانية عشرة من عمرنا، وكان طالباً في كلية الطب عندما تعرفنا على الطلبة البعثيين، وكنت أنا في السنة الثالثة في كلية الحقوق. كنت العضو التالي من المصريين، ومن ثم تكون من على مختار ومنى أول «خليفة» من خلايا حزب البعث في مصر في ١٩٥٤، وسرنا بالطبع أن نسمع أن ميشيل عفلق غير عن فرحه بهذا الخبر.

لم يمض وقت طويل حتى انضم إلى الحزب مصريون آخرون، ولكن لا أظن أن العدد تجاوز المائتين في أي وقت من الأوقات. وعندما تخرجت في كلية الحقوق في ١٩٥٥، جاءنا عضو قديم في الحزب أكبر منا بعدة سنوات وأكثر تجربة (حسن اللوظائف) وأخبرنا أن قيادة الحزب في دمشق قررت تعييني أنا مستولاً عن الحزب في مصر مع أنني لست بالضرورة أكثر الأعضاء المصريين جذارة بذلك (وكان يقصد دون شك أن على مختار أجدر وأكفاً)، ولكن السبب في اختياري هو أنني أنهيت دراستي وأصبحت لدى وقت أكبر يمكن تخصيصه للحزب (لأن لم يكن مختار قد تخرج بعد في كلية الطب). وعلى الرغم من أنني قبلت ذلك وأصبحت مستولاً عن فرع مصر من حزب البعث، فقد ظل على مختار هو الدينامو المحرك لنشاطه والتزامه اللذين لم يفارقاه قط.

لم يكن من الصعب علينا أن نقنع بمبادئ حزب البعث، فهي تتلخص في شعارات ثلاثة بدت لنا بديهية، الحرية والوحدة والاشتراكية. إذ من الذي يمكنه الاعتراض على الحرية، بمعنى التحرر من الاحتلال الأجنبي وتطبيق الديمقراطية السياسية؟ وأما الاشتراكية فكان قد بدأ تعاطفياً معها منذ سمعت عنها لأول مرة. وأما الوحدة العربية فهي وإن لم تكن في أي يوم من الأيام تشغل حماس المصريين مثلما تفعل بشعوب المشرق العربي، فقد اقتنعت بوجاهتها منذ أن زرت بيروت ودمشق في ١٩٥٣، ورأيت بعيني كيف تثير فكرة الوحدة العربية عواطف الشباب اللبناني والسوري، وأن ما يوحد بيننا أهم بكثير مما يفرقنا. وقد قوى هذا الشعور ما أخذت أفراه عن مزايا الوحدة الاقتصادية والسياسية وعن تاريخ الحركة القومية العربية بتأثير أصدقائي الجدد.

كانت هذه هي أول تجربة لي، وآخر تجربة أيضاً، في الانضمام لحزب سياسي،

وهي تجربة تكاد تكون صيانية أكثر منها تجربة جادة في العمل السياسي، إذ لم أكن قد بلغت العشرين عندما انضمت لحزب البعث، وتركته وأنا في الثالثة والعشرين. والراجح أن السبب الأساسي لدخولي في هذه التجربة كان سببا اجتماعيا ونفسيا أكثر من أى شيء آخر. وأقصد بالسبب «الاجتماعي والنفسى» الميل الطبيعي في مثل سننى إلى الاشتراك في عمل جماعى مع شباب فى نفس السن يعبر فيها كل منا عن شخصيته التى بدأت فى التكوّن، ويأمل كل منا فى أن يحصل من خلاله من الآخرين على قدر من المودة والتقدير يدعم به ثقته بنفسه.

ولكن لا بد أن أذكر الأثر الذى تركته فى نفسى شخصية ميشيل عفلق. كانت آخر مرة رأيت فيها ميشيل عفلق وجهه لوجه فى نوفمبر أو ديسمبر ١٩٥٧ أى منذ ما يقرب من خمسين عاما، وربما كان وقتها قد تجاوز الأربعين بقليل وكنت أنا فى الثانية والعشرين. وقد ظلت أخبره تأتى بين الحين والآخر، خلال هذه الفترة وحتى وفاته فى مطلع التسعينات. كان من بين هذه الأخبار ما يؤكد فكرتى الطيبة عنه ولكن كان فيها أيضا، لو كان صحيحا، ما كان جديرا بتغيير موقفى منه وإساءة الظن به. ولكنى ظلت دائما، وحتى الآن، لا أميل إلى قبول أى تقديروجه إليه مما يطمئن فى صدقه أو إخلاصه أو نزاهته، وأميل إلى الاعتقاد بأن رجلا مثله لا يمكن أن يكون له يد فيما ارتكبه حزب البعث، وما ارتكب باسم البعث، من جرائم وأخطاء، بل أرجح أن اسمه قد استخدم فى تبرير هذه الجرائم والأخطاء، فى سوريا نارة وفى العراق نارة أخرى. كما أميل إلى الاعتقاد بأن إقامة ميشيل عفلق فى العراق خلال حكم صدام حسين كانت من قبيل الإقامة الجبرية، استخدم خلالها اسمه دون أن يسمح له هو نفسه بأن يفعل أو يقول ما يريد. أما ما أعنته حزب البعث العراقى بعد موت ميشيل عفلق من أنه اعتنق الإسلام قبيل وفاته فلا أصدقه أيضا، وأرجح أن صدام حسين وجد فى نشر هذه الإشاعة ما قد يفيد به شخصيا لسبب أو آخر.

إنى أتذكر ميشيل عفلق رجلا وسيما، على وجهه دائما ابتسامة مشرقة وصادقة تعكس نفسا صافية وكريمة. كانت روحه أقرب إلى روح الشاعر منها إلى روح

الزعيم السياسى . بل إنى كنت كثيراً ما أتعجب كيف يصمد رجل كهذا لأعاصير السياسة ومؤامراتها وهو هذا الرجل الرقيق الذى يبدو وأنه تجرّحه النعمة العابرة . لا بد أننا نحن الشباب المصريين المنضمين حديثاً للبعث قد جلسنا مع ميشيل عقلق عشر مرات أو أكثر فى النصف الثانى من الخمسينات ، فى مجموعات صغيرة كثيراً ما لا يزيد عدد أفرادها عن اثنين أو ثلاثة بالإضافة إليه هو . كان يستقبلنا فى شقة مفروشة فى إحدى العمارات الضخمة بشارع قصر النيل ، اعتاد أن يستأجرها كلما جاء إلى القاهرة ، ويصحبنا إلى مكان قريب كقهوة «لاباس» فى نفس الشارع أو صالة أو شرفة فندق سميراميس القديم المطل على النيل ، فنجلس إليه ليتكلم ونكتب ، ثم نعد ما يكتبه للنشر بعد عودتنا إلى بيوتنا . كان يقول إنه لا يجب (بل ربما قال إنه لا يستطيع) أن يسك بالقلم لتدوين أفكاره على الورق ، بل يفضل أن يتكلم ونحن نكتب . وكنا إذا انصرفنا عنه نستعرق أحيانا فى الضحك ونحن نقلد طريقته فى الكلام ، إذ كان يبدو لنا وكأن ساعات طويلة تنقضى بين كل كلمة تصدر من فمه والكلمة التالية ، ونستغرب أنه لا يزال يتذكر المبتدأ الذى لا يأتى خبره إلا بعد انقضاء هذا الوقت الطويل . ولكن الكلام كان يبدو لنا فى النهاية جميلاً جداً ومقنناً ، وأظن أنه كان كذلك بالفعل . أحيانا لم تكن الجلسة تسمح بالكتابة فكنّت أصغى إليه بكل حواسى ثم أعود إلى البيت فأعبر عن المعانى التى فهمتها منه واحداً بعد الآخر ، ثم نتدارس هذه الأحاديث فى اجتماعاتنا الحزبية .

ربما أتذكر وجهه أحيانا وهو مقطب أو مستغرق فى التفكير ، ولكنى لا أتذكره قط غاضباً . بل كان دائماً ، كلما ذكر أمامه اسم واحد من مخالفيه فى الرأى أو نقل إليه نقد ، مهما كان قاسياً ، ترسم على وجهه نفس الابتسامة الصافية ويقول ما معناه أنه يفهم تماماً الدوافع التى دفعت متقده إلى قول مثل هذا الكلام . وقد كان يبدو دائماً فرحاً بنا نحن البعثيين المصريين الجدد ، وكبير الأمل فيما يمكن أن نصنعه ، ولم يصل إلينا قط ما يدل على غضبه منا إلا عندما نشرنا بعض أحداثه التى ألقاها فى القاهرة فى كتيب صغير دون أن نضع على كل حديث منها التاريخ الذى قيل فيه ، إذ اعتبر تأريخ هذه الأحداث مهما للغاية . ولكنى أذكر غضب أكرم الحوراني

الشديد منا عندما وزعنا منشوراً خلال أزمة تأميم قناة السويس، بعد وقوع التأميم وقبل الهجوم العسكـرى على مصر، وذلك لأننا ذكرنا في المنشور اسم الولايات المتحدة الأمريكية كواحدة من الدول المعادية لأهدافنا القومية (وكنـت أنا المسئول عن ذلك) وقال لنا: « بل إننا نعوّل على أن تتدخل الولايات المتحدة لمصلحتنا ونقف إلى جانبنا».



استمر لقائى المتكرر بميشيل عفلق لمدة سنتين أو ثلاث (١٩٥٧، ٥٥)، لم يضعف خلالها ولاؤنا وحبنا واحترامنا له، مع تحفظ بسيط يتعلق بتطورنا الفكرى. كنا قد بدأنا نقرأ، فى أواخر هذه الفترة، بعض الكتابات الماركسية التى تتعارض منطلقاتها وروحها العامة مع منطلقات ميشيل عفلق وطريقة تفكيره. وكان من السهل، فيما أظن، أن تسلب الماركسية لبنا، ونحن فى هذه السن الصغيرة، وأن نرى فيها صلاحة وقوه وحسما لم تكن نجدّه فى أفكار البعث. كانت ميثاقيزيقية وروحانية ميشيل عفلق أبعد كثيرا، بالمقارنة بالماركسية، عن متناول شباب فى العشرين من عمرهم، يريدون أفكارا كاملة الصنع وجاهزة للتطبيق، وصارمة فى تمييزها بين الأبيض والأسود، التقدمى والرجعى، الوطنى والخائن. وكان التفسير المبدى والاقتصادى للأمور أقرب إلى حذب شباب فى هذه السن من أقوال ميشيل عفلق التى من نوع القول «إن القومية حب» مثلا، والتى كانت كثيرا ما تُذكر من جانب أعداء البعث على سبيل السخرية من إغراق ميشيل عفلق فى المثالية.

أذكر مرة أننى قررت، أنا وعلى مختار، أن نواجه ميشيل عفلق بشكرنا بصراحة، وأن نحاول أن نستخرج منه تعبيراً واضحاً وكاملاً عن موقفه من بعض الأفكار الأساسية فى الماركسية. ذهبنا إليه، وكان اللقاء فى صالة فندق سميراميس الجميلة والواسعة. وأذكر أننا كنا نوجه إليه هذه الأسئلة الحاسمة أثناء قيام عازف البيانو فى الصالة بعزف بعض المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية. سألناه أولاً عن موقف البعث من المادية الديالكتيكية، ولا أدري ما الذى كنا نريده منه بالضبط. هل كنا نتصور أن أى حزب سياسى لابد له، لكن يستحق هذا الاسم، أن يكون له

موقف فلسفى من علاقة المادة بالفكر، ومن مبدأ التناقض، وبما إذا كان التغيير الكمى يتقلب فجأة إلى تغيير كىفى؟ يبدو أن هذا هو ما كنا نظنه، ولهذا لم نسترح وقتها بالمرّة لإجابة ميشيل عفلق على هذا السؤال. لقد ابتسم الرجل ابتسامة عريضة عندما سمع سؤالنا، ولا بد أنه كان يشعر ببعض الإشفاق علينا، أو لعنا كما نذكره بصباه وشبابه. قال إن هذه الموضوعات كانت تشغله فى وقت مبكر من حياته أثناء دراسته فى باريس، وأنه حسم رأيه فيها حينئذ (وأذكر أنه قال إن فلسفة هنرى برجسون كانت أشد جاذبية له بكثير من الماركسية) وأنه لم يقرأ أو يفكر فى هذه الأمور منذ وقت طويل، وأن علينا، إذا أردنا إجابة شافية على مثل هذه الأسئلة، أن نجلس مع منيف الرزاز (أحد الأعضاء البارزين فى حزب البعث) فهو كفىل بالرد عليها.

لم يشجع هذا الرد غليلنا بل ربما شعرنا بأنه رد ضعيف، أو حتى ظننا أنه يتهرب من الإجابة. وكذلك لم يعجبني رده على نقدنا لتعريف القومية المنسوب إليه فى قوله إن «القومية حب». ولا أدرى أيضاً سبب سخطنا الشديد على هذا القول. ربما كان السبب أننا سمعت بعض الماركسيين يسخرون منه؛ لأنه لا يفسر القومية تفسيراً اقتصادياً كما يفعلون هم، فباعتبرونها مجرد مرحلة تاريخية لا بد أن يجرى تجاوزها بتغيير الظروف. قال الأستاذ ميشيل إنه قال هذا فى حديث مع تلاميذ صغار فى إحدى المدارس عندما سأله أحدهم عن القومية، وأراد أن يعطيه إجابة يستطيع التلميذ الصغير فهمها واستيعابها. إني الآن أعتبرها إجابة جيدة وقرينة جداً من الحقيقة، سواء كان السائل طفلاً أو بالغا رشيداً، ولكننا لم نتفتح بها فى ذلك الوقت، واعتبرنا أن منتقدى الحزب على حق إذ يتهمونهم بالغيبية والعاطفية المفرطة.

ذكرت أن آخر مرة قابلت فيها الأستاذ ميشيل كانت فى أواخر سنة ١٩٥٧، قبيل سفرى فى البعثة إلى إنجلترا. جاءنا الأستاذ ميشيل وقتها مبتهجا ومتهللاً، فكان قد عاد لتوه من مقابلة جمال عبد الناصر، وقال إنه سعيد تماماً لأن الرئيس عبد الناصر وافق أخيراً على دخول مصر فى وحدة مع سوريا، إذ استطاعوا فى النهاية إقناعه، وأنهم قبلوا الشرط الذى وضعه عبد الناصر بحلّ حزب البعث، واعتبروا أن تحقيق

هذه الخطوة الراجعة نحو إنجاز الوحدة العربية الشاملة يستحق أن يدفع من أجله هذا الثمن، وهو حل الحزب.

وقع علينا خبر حلّ الحزب وقع الصاعقة، واعتبرناه خطأ سياسياً كبيراً. ولكني الآن أعتبر أن ميشيل عفلق ورفاقه اتخذوا الموقف الصائب في هذا الأمر أيضاً، وإن كانت الظروف قد أظهرت بعد ذلك عكس ما كان يبدو لهم وقتها.

المهم أن كل شيء في ذلك الوقت كان يدغمني بعيداً عن حزب البعث: بدء مرحلة جديدة تماماً من حياتي بسفرى إلى إنجلترا لعدة سنوات، وشعوري بضرورة توجيه كل همى للدراسة، وانتهارى المتزايد بالأفكار الماركسية. وها هو الحزب على أى حال يحل نفسه بنفسه. فلما وصلت إلى لندن وقابلت بعض الطلبة البعثيين العراقيين، الذين كانوا يقضون معظم وقتهم فى مقاهى لندن فى مناقشات عميقة أو فى إصدار الأحكام على هذا الحاكم العربى أو ذاك، ويختلفون ويتشاجرون فى عصبية شديدة حول ما إذا كان وصف الخيانة ينطبق على هذا أكثر مما ينطبق على ذاك، عندما رأيت ذلك لم أتردد فى إعطاء أحدهم خطاباً لتسليمه لبعض المسؤولين عن الحزب فى العراق أو دمشق، ويتضمن استقالتي من الحزب. كان هذا بعد شهور قليلة من وصولي إلى لندن فى فبراير ١٩٥٨، وانقطعت بذلك كل علاقة لى بحزب البعث إلى الأبد، وإن كانت تلك الفترة القصيرة التى قضيتها عضواً فى الحزب (١٩٥٤-١٩٥٨) قد سببت لى متاعب كبيرة لعدة سنوات كثيرة بعد ذلك، مع حكومة بعد أخرى من حكومات الثورة فى مصر. ولكن هذا ينتمى إلى مرحلة مختلفة من حياتي.

البعثة

-١-

بعد تخرجى بعامين حصلت على بعثة حكومية للدراسة فى إنجلترا للحصول على الدكتوراه فى الاقتصاد، وأسفر الأمر عن قضائى ست سنوات (١٩٦٤-٥٨) فى إنجلترا كان لها، كما توقعت، بالغ الأثر على من كل النواحي.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها إنجلترا، فقد قضيت فيها شهراً قبل ذلك بسبع سنوات (١٩٥١) فى زيارة لأخى عبد الحميد، الذى كان يحضر للدكتوراه فى جامعة لندن، ولأختى فاطمة، إذ كان زوجها يعمل وقتئذ وكيلاً لمكتب البعثات هناك. كان الفضل فى هذه الزيارة المبكرة، وأنا لا أزال فى السادسة عشرة من عمري، يرجع إلى أبى، بل لعله كان هو صاحب الفكرة أصلاً. كان يسيطر على أبى الاعتقاد بأهمية تعلم لغة أجنبية فى سن مبكرة، إذ لم يستطع أن ينسى معاناته فى تعلم الإنجليزية على كبر، واضطراره إلى أن يعلم نفسه الإنجليزية وهو بقترب من الثلاثين، فكان يكشف عن معنى أبسط الكلمات فى القاموس، وتمنى دائماً لو كان قد بلغ مستوى أعلى مما بلغه فى إجادةها. كان يقول إنه قبل تعلم الإنجليزية كان كمن له عين واحدة فأصبح له بعد تعلمها عينان. لم يترك أبى إذن فرصة تتاح لأى من أبنائه أو بناته لإجادة لغة أجنبية إلا واتهمزها. فى سنة ١٩٥٠، أرسل أبى أخى حسين لقضاء عطلة الصيف فى لندن، ثم أرسلنى فى العام التالى فى رحلة مماثلة، وكنت قد أتممت لتوى امتحانات الثانوية العامة، فرحبت بالفكرة وركبت الباخرة من بورسعيد لمدة ثمانية أيام حتى وصلنا إلى ميناء ساوث هامتون بإنجلترا.

كنت في ذلك الوقت صبيًا مرهقًا خجولًا إلى درجة المرض، مهموما باستمرار
بالأفكار التي تنور حول قصوري في هذا الأمر أو ذلك، مع خوف مستطير من أن
يكون الناس انطباعًا سيئًا عني. لم تكن مثل هذه الحالة مما يجعل رحلتى إلى إنجلترا
رحلة ممتعة على أى وجه. وكم أخجل من نفسى حتى الآن عندما أتذكر الجهد
والتعب اللذين سببتهما لأصدقاء أخى عبد الحميد الذين ضيعوا وقتهم في أخذى
من مكان لأخو لكى أتعرف على معالم لندن. ما كان أضيع وقتهم في اصطحابى
لرؤية برج لندن حيث أعدمت هذه الملكة أو تلك، وكنيسة وستمنستر حيث دفن
عظماء الإنجليز، ومبنى البرلمان والمتحف الوطنى فى ميدان الطرف الأغر، الذى
يحتوى على أجمل رسوم الفنتين الأوروبيين عبر العصور. ومتحف انشع الشهير
باسم منشته (مدام تومسو) . الخ .

لا بد أنهم اعتبروا هذا الوقت ضائعًا، لا لئلى لم أستفد منه كثيرًا، ولكن لأن
استحسنى لما رأيته ولم كانوا يقولونه عنه كانت ضعيفة جدا ومخية للامان. حققت
الرحلة بالطبع أهم ما كان يهدف إليه أبى: تحبين لغتى الإنجليزية وتعرفى على نحو
ما على العالم المتقدم. ولا شك أن بعض الأشياء المهمة قد دخلت عقلى لأول مرة
واستقرت هناك إلى الأبد، ولكنى أيضاً تبينت، مع مرور السنين، أن هذه الرحلة
كانت مجرد مثال واحد من أمثلة كثيرة صادفتها فى حياتى لقيام المرء بسبب حماقته
بإفساد فرصة ذهبية للبهجة والامتناخ بالحياة، إذ يشغل بأفكار ممعة فى السخافة
تدور حول نفسه، ونفسه فقط.

لم يمتحنى أبى بعد عودتى فيما رأيته وما الذى استفدته منه. فهكذا كان أبى
دائما، تحطرب بباله أفكار منديدة فيما يتعلق بتربيتنا ويضفى بالان اللازم لتنفيذها
دون تردد، ولكن وقته كان دائما أثمن من أن يتفقه فى تبادل الحديث معنا أو فى
محاولة اكتشاف ما يدور برؤوسنا من أفكار.

هأنذا أعود الآن إلى إنجلترا بعد سبع سنوات، لا يزال بى بعض الخجل القديم
ولكنى كدت أشفى عما منى. كنت مع هذا لأزال فتى جهاها بكل شىء إلا بما
قرأت عنه فى بعض الكتب، التى لم تكن على أى حال أهم الكتب أو أفضلها،

قليل الخبرة بالناس وعديم الخبرة بالنساء . لم تكن لدى مينة المقارنة بمن في مثل سنى من المصريين إلا أنى كنت متفوقا فى دراستى ، وأفهم الإنجليزية إذا قرأتها بدرجة لا بأس بها ، وإن كنت لا أجيد التعبير عن نفسى بها فى الحديث . فإذا بى الآن أسافر وحدى لأمضى عدة سنوات بعيدا عن الحماية التى كانت أسرتى توفرها لى دائما ، وكأن أحدا قد رمى بى فى بحر متلاطم الأمواج على أن أصارعها بقوتى المجردة إذا أردت البقاء على قيد الحياة .

لم أكن الآن ذاهبا فى فسحة قصيرة ، بل ظافرا منتصرا فى بعثة حكومية إلى كلية إنجليزية لها شهرة طيبة الأفاق ، وهى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، قال لى أستاذى الدكتور سعيد التجار عندما علم بأنى ذاهب للدراسة بها : « إنى سائر بقدمى إلى عرين الأسد » ، وحذرنى الدكتور زكى شافعى من أن أعود منها دكتورا فى الاقتصاد ولكن « أميا » فى كل شىء آخر . لا أظن أنى خيبت أمل هذا الأستاذ من أساتذة الاقتصاد أو ذاك ، ولكن لاشك أن خاب أملى أنا فى علم الاقتصاد برمته .

- ٢ -

كان الأستاذ المشرف على دراستى منذ جئت إلى إنجلترا ، وحتى انتهيت من الماجستير هو ليونيل روبنز (Lionel Robbins) ، وروبنز أستاذ مشهور بين الاقتصاديين ، وكان من أهم أساتذة كلية لندن للاقتصاد ومن أكبرهم نفوذا . كان موضوع تخصصه الأساسى هو تاريخ الفكر الاقتصادى ، وإن كان السبب الأساسى لشهرته كتابا نشره فى أوائل الثلاثينات عن تعريف علم الاقتصاد ، ظل ، ولا يزال ، من المراجع الأساسية فى تعريف هذا العلم وتحديد طبيعته ورسم الحدود انفاصلة بينه وبين غيره من العلوم . وكان الرجل نشيطا له دور مرموق فى الحياة الثقافية والسياسية فى بريطانيا ، فهو عضو فى مجالس إدارة بعض المؤسسات والمتاحف الفنية الكبيرة ، وعُيِّن عضوا فى مجلس اللوردات من بين من يعينون فيه بسبب إنجازاتهم الشخصية وليس عن طريق الوراثة ، كما عهدهت إليه رئاسة لجنة لتطوير

النظام الجامعى أصدرت تقريراً مشهوراً عن حالة التعليم فى بريطانيا ومستقبله،
عُرف باسمه . (The Robbins Report)

كنت أعتبر إذن محظوظاً إذ يكون روبنز هو المشرف على دراستى ، وقد كنت
بالفعل محظوظاً ، إذ أحسن الرجل معاملتى ، وأظهر لى عطف ، وأعطانى من وقته
أكثر مما كان يعطيه لتلاميذهم أساتذة آخرون أقل انشغالا منه . وكان دائم التشجيع
لى ، فكثيراً ما يودعنى ، وأنا خارج من غرفته ، بعبارة رقيقة كنت أطير بها فرحاً
لبعدة أيام ، ليس فقط لما تنطوى عليه من رضا عن عملى ولكن لصدورها من
شخص له أهمية روبنز . كان مشهوراً بأدبه وعذوبته وحسن معاملته لطلابه ، وقد
وجدته كذلك بالفعل ، فكان أسمى ما صدر منه مثلاً ، فى تقييمه لعمل قمت به ، إذ
لم تعجبه كثيراً ورقة كتبتهما عن الاقتصادى البريطانى «مالش» ، قوله «إنى لم
أحول الطين إلى كرسنال» (you have not turned the mud into crystal) يقصد
أننى فشلت فى «فك طلاسم مالش التى هى معقدة على أى حال» . وعندما انتهيت
من الماجستير ، واحتجت أن أحصل منه على تقرير يكتبه لإدارة البعثات المصرية
يقيم فيه عملى ، كتب تقريراً فيه الكثير من الإطراء ظننت أن إدارة البعثات أو كلية
الحقوق سوف تستقبلنى بسببه استقبالا رائعا عندما عدت فى إجازة إلى مصر ،
فتفرش لى المساجيد الحمراء وتعزف من أجلى الموسيقى . ولكنى لم أجد شخصاً
واحد فى مصر ، لا فى إدارة البعثات ولا فى غيرها ، قد قرأ هذا الخطاب ، وإنما
وُضع فى ملف دون أن يطلع عليه أحد .

كانت جامعة لندن التى التحقت بها قد قررت ، فيما يتعلق بالطلبة المصريين
الذين لم يشكل علم الاقتصاد موضوع دراستهم الأساسية فى مصر (كما هى الحال
معى حيث كانت دراستى الأساسية فى القانون) أن تعقد لنا امتحان تأهيل أو معادلة
(Qualifying Examination) بعد عشرة أشهر من التحاق بالجامعة ، للتحقق من أننا
بلغنا مستوى فى دراسة الاقتصاد يقارب مستوى خريجي الاقتصاد من طلبتهم ، أو
على الأقل يسمح لنا ببدء الدراسة لشهادة عليا ، كالماجستير ثم الدكتوراه . كانت
عشرة أشهر مهمة للغاية ، إذ كنا فى الحقيقة نبدأ مما يقرب من الصفر ، وكان مستوى

معرفتنا بعلم الاقتصاد أكثر تدنيًا بكثير مما كان يدور بخلد المسؤولين بجامعة لندن . كان كل ما درسته في علم الاقتصاد في مصر لا يزيد على خمسة أو ستة كتب مبسطة للغاية ، مكتوبة باللغة العربية ، في مبادئ النظرية الاقتصادية ، وفي النقود والبنوك ، وفي التجارة الخارجية ، وفي المالية العامة والضرائب ، فضلا عن مقرر قصير بالفرنسية في تاريخ الفكر الاقتصادي درسه في دبلوم الاقتصاد ، وكان الغرض منه التقوية في اللغة الفرنسية أكثر منه فهم ما حدث لعلم الاقتصاد ، وراح أكثر جهدنا فيه في البحث عن معاني الكلمات .

يكفى للتدليل على ضعف مستوانا في الاقتصاد عندما وصلنا إلى لندن أن نظرية رجل شهير ومهم مثل جون مينارد كينز ، لم يكن بمقدورنا أن نكتب عنها أكثر من فقرة قصيرة ، إذ إننا سمعنا اسمه أكثر من مرة أثناء هذا المقرر أو ذاك ، ثم يطلب منا دراسته بأى عمق في الجزء الخاص بنظريته الذي ورد في كتاب النقود والبنوك ، والذي جاء في آخر عشرين صفحة من الكتاب ، واضطر الأستاذ تحت إلحاح الطلبة إلى حذفها من المقرر لتخفيف عبء الامتحان عليهم .

هكذا كن حاسي عندما قابلت الأستاذ روبنز الذي عينته كلية لندن للاقتصاد مشرفا علىّ ، لأول مرة بعد وصولي من القاهرة . كان جهلي حينئذ بمقدار جهلي ، أمرا مفيدا للغاية ، إذ لو كنت أعرف قدر هذا الجهل وأعرف في نفس الوقت أهمية هذا الرجل الذي عين مشرفا علىّ ، لو عرفت ذلك لما استطعت أن أفتح فمي بكلمة واحدة في تلك المقابلة .

سألني عما أقرأ الآن فلما قلت له اسم الكتاب ، ارتسم على وجهه مزيج من الدهشة وخيبة الأمل . كان الكتاب ك. بولدينج : التحليل الاقتصادي (K. Boulding Economic Analysis) وهو كتاب جيد فعلا ، ويمكنني الآن أن أنصح بقرآته أى طالب في مستقبل دراسته للاقتصاد ، ولكنه كان كتابا مدرسيا يدرس طلبة جامعة لندن أمشاله في السنة الأولى أو الثانية من دراستهم . ولابد أن الأستاذ روبنز كان يتوقع أننى قد تجاوزت هذه المرحلة منذ مدة طويلة . أضف إلى ذلك أنه كتب أمريكي لا أظن أن الأساتذة الإنجليز كانوا يرشحون مثله لطلبتهم . لم ييأس الأستاذ

روبنز لحسن الحظ وقال لى إن هناك خمسة كتب على أن أبداً بقراءتها . ويبدو أن هذه القائمة هى ما كان يتصح بقراءته أى طالب يبدأ فى دراسة الاقتصاد ، لاعتقاده أنها تساعد على تكوين قاعدة سليمة وصلبة لفهم طريقة التفكير الاقتصادى . كنت هذه الكتب هى : ألفرد مارشال : «مبادئ الاقتصاد» ، وفيكسل «محاضرات فى النظرية الاقتصادية» ، وفرانك نايت «المخاطرة وعدم اليقين والربح» و«باتنكين النظرية النقدية» ، بالإضافة إلى مجلد نشرته الجمعية الاقتصادية الأمريكية يضم أهم المقالات المتعلقة بنظرية الشئس والتي قدمت مساهمات مبتكرة فى هذه النظرية خلال العشرين أو الثلاثين عاما الأخيرة . أعطانى روبنز أيضاً نسخاً من بعض الامتحانات القديمة ، وطلب منى أن أجيب عنها وأعرض عليه الإجابة . وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب قراءات أخرى غير تلك الكتب الخمسة .

كانت هذه الفترة . على قصرها . من أخصب فترات تكوينى العقلى . لقد أدخلتنى فى عالم جديد تماماً على ، وهو عالم ساحر وجذاب تعرفت فيه على عادات جديدة فى التفكير والكتابة ، اقتنعت بها ، ثم اعتدت على ممارستها منذ ذلك الحين . أقصد بذلك عادات التفكير العلمى والتعبير عن الأفكار بأقصر وأوضح طريق ، دون الاعتماد على المبالغة ، أو اللعب بالألفاظ ، أو إثارة العواطف من أجل الإقناع ، ومحاولة منع التحيز المسبق من التأثير فى سير الجدل وتقديم الحجج ، فإذا بالثأثير النهائى للكتاب أو المقال العلمى لا يقل عن تأثير العمل الفنى ، وإذا بالعواطف تتأثر بسلاسة المنطق ودقته وكأن المرء قد قرأ قصة ممتعة ، أو استمع إلى قطعة من الموسيقى الجميلة . لم يكن كل ما قرأته فى تلك الفترة ، بالطبع ، من هذا النوع الراقى . ولكنى قرأت خلاله ما يكفى لأن يجعلنى قادراً على التمييز بين النوع الراقى وغير الراقى من الكتابة فى علم اجتماع كعلم الاقتصاد .

يجب أن أعترف مع ذلك بأن ما يكاد يعادل عما كملته من الأعوام الستة التى قضيتها فى إنجلترا فى فترة البعثة ذهب فى القراءة عن الماركسية . ذلك أنى بعد نجاحى فى امتحان المعادلة ، عهدت الكلية للأستاذ روبنز بأن يكون المشرف على فى فترة دراسى للماجستير أيضاً . فلما قابلته للمرة الأولى بعد انتهائى من امتحان

المعادلة حاول أن يتبين نوع تفكيرى واتجاهه، فوجدنى أفتح معه على النور موضوع الاستعمار البريطانى لمصر ودوره فى تعطيل قيام نهضة صناعية فى مصر، كما اكتشف فى ميولا اشتراكية وماركسية، وكنت قد دخلت هذه المرحلة من التفكير فى السنة السابقة على سفرى من مصر. قرّر الرجل بينه وبين نفسه، فيما يظهر، أن أفضل سياسة يتبعها معى أن يتركنى عدة شهور أقرأ فى أى اتجاه أحب، على أن يقترح على من حين لأخر قراءة كتاب يعتقد أنه قد يصلح من مسار تفكيرى.

وهذا هو الذى حدث بالفعل. أخذت أقرأ كما يحلو لى وكأننى لست مطالباً بعمل أى شئ معين أو الحصول على أى شهادة، فإذا بكتاب عن الماركسية يقودنى إلى كتاب آخر عنها أيضاً، وإذا بنقد مشهور للماركسية يقودنى إلى رد أحد الماركسيين دافعاً عنها. أثناء ذلك كان روبرت يوصينى بقراءة كتاب بعد آخر، ككتاب «المجتمع المفتوح وأعداؤه» لكارل بوبر، أو كتاب شومبيتر عن «الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية»، وأمثالهما. وكنت عندما أناقشه فى إحدى الحجج التى قرأتها ضد الماركسية وأحاول الرد عليها، يرد على بلطف قائلاً: «لا تظن أن باستطاعتك إثباتى عن رأى، فقد استثمرت الكثير من وقتى وجهدى خلال حياتى الطويلة لصالح الرأى المعارض لرأيك»، ولم يبد منه قط أى ضيق أو غضب من جرأتى الزائدة أحياناً، وظهورى بمظهر من يظن أنه يعرف الحقيقة كاملة. ولكن رأى كان يتغير بالتدرج ودون شعور واع منى. ليس بالضبط بسبب قراءتى لكتاب يعادون الماركسية، بل لتعودى خلال هذه الفترة على قراءة الرأى ونقضه، ومن ثم اكتشافى أن المسألة لا يمكن أن تكون بالبساطة التى كنت أظنها فى البداية، وأن الأمر يحتاج إلى تأمل وروية أكبر. على أثنى، رغم فتور حماسى للماركسية شيئاً فشيئاً سبب هذه القراءات، لم أعتبر قط أن الوقت الذى أنفقته فى إنجلترا على «تقراءة» فى الماركسية كان وقتاً ضائعاً. لقد كانت فترة نشاط ذهنى وحماسة فى القراءة، ولم يكن وراء قراءتى خلال هذه الفترة أى هدف غير الوصول إلى الرأى الصحيح فى هذه القضية أو تلك.



ثم جاءت أربع سنوات أخرى من القراءة فى الاقتصاد بهدف الحصول على شهادة الماجستير ثم الدكتوراه . وعندما أستعيد فى ذهنى ما قرأته فى هذه السنوات الخمس لا يدهشنى كثرة ما قرأته من كتب ومقالات فى الاقتصاد . فخمس سنوات من الانقطاع للدراسة ، وفى مكان مثل جامعة لندن ، ليست بالفترة القصيرة . وإنما الذى يدهشنى قلة ما أحرزته فيها من تقدم «عقلى» حقيقى نتيجة هذه القراءات فى الاقتصاد . نعم لابد أن النفع الذى حققته فى السنة الأولى قد تم تدعيمه وترسيخه فى السنوات الخمس التالية ، ولكن «الاكتشاف» الحقيقى كان قد تم بالفعل فى تلك السنة الأولى . لاشك أيضاً أنى قد أحرزت بعض التقدم العقلى فى سنوات الماجستير والدكتوراه ، ولكنه لم يكن بسبب قراءاتى فى الاقتصاد بل بسبب قراءات ومشاهدات أخرى . بل إنى لا أعتقد أنى أبعد كثيراً عن الحقيقة إذا قلت إن أغلب قراءاتى فى تلك السنوات الخمس كانت قراءات «عقيمة» ، اللهم إلا من حيث إنها أدت إلى الحصول على هاتين الشهادتين .

نعم قرأت بعض الكتب والمقالات البديعة فى الاقتصاد ، خلال هذه الفترة ، ولكن أكثر ما قرأته كان قليل الفائدة إلا من حيث تمكينى من الحصول على الشهادة المطلوبة . ولو أنى استقبلت من امرى ما استديرت ، وكانت لى الحرية المطلقة فى تحديد ما أقرأ وما لا أقرأ ، دون دافع الحصول على شهادة فى هذا العلم أو ذلك ، لوضعت لنفسى برنامجاً مختلفاً تماماً ، ربما تضمن بعض الكتب القليلة فى الاقتصاد ، ولكن الأرجح أنه كان سيكون أساماً من قراءة بعض الكتب الكلاسيكية الأساسية فى الأدب والفلسفة والتاريخ ، مما لم يتح لى قراءة أكثرها حتى الآن . كانت الفائدة التى يمكن أن أحصل عليها أكبر بكثير لو كنت قد قرأت فى ذلك الوقت كتاب الأمير «ماك فيللى» مثلاً ، أو كتاب جون ستوارت ميل عن الحرية . وهما ما قرأته بعد ذلك ، ولكن من المؤكد أيضاً ، فيما يبدو لى الآن ، أن كان من الأفيد لى أن أقرأ حينئذ كتاب جيون عن سقوط الإمبراطورية الرومانية مثلاً ، أو بعض كتب دافيد هيوم فى الفلسفة مما لم أقرأه حتى الآن ، ولا أظن أنه قد بقى من الوقت ما يسمح لى بذلك ، بالمقارنة بعشرات الكتب والمقالات السخيفة

فى علم الاقتصاد، مما قرأته بالفعل فى تلك الفترة، ولم تترك فى نفسى أو عقلى أثراً يذكر .



أعلنت كلية لندن للاقتصاد أنها نظمت سلسلة من عشر محاضرات، يمكن لأى طالب بالكلية حضوره، ويلقيها أستاذ متخصص، لتدريب الطلبة على زيادة سرعتهم فى القراءة. اهتممت بالأمر إذ كان يضابقنى ما لاحظته من بطئ فى القراءة بالمقارنة بكتيبرين غيرى، ولم يقنعنى قط الرأى القائل بأن سرعة القراءة تتعارض مع عمق التفكير، إذ لاحظت أن بطئ فى القراءة كثيراً ما يعود إلى قلة التركيز مع شروء الذهن إلى أشياء قد لا تكون لها أى صلة بالموضوع الذى أقرأ فيه . وهو ما أكدته فى ما قرأته فى سيرة برتراند رسل الذاتية وهو يتكلم عن الاقتصادى الشهير كينز، إذ قال إنه كان يظن فى البداية أن كينز، وإن كان أسرع بديهته منه فإنه أقل منه عمقا، ثم تبين له أنه كان مخطئا، وأن كينز ليس فقط أسرع فهما بل وكذلك أعمق فكراً . ذهبت لحضور الدروس فأكد الأستاذ المحاضر لنا نفس المعنى، أى أننا يجب ألا نظن أننا سنخسر شيئاً بزيادة سرعتنا فى القراءة، وأن البطء كثيراً ما لا يكون له أى مبرر أو نفع على الإطلاق . ثم بدأ يعرضنا للتمرينات، منها أن يعوض على الشاشة أمامنا باستخدام الفانوس السحري، صفحة بعد أخرى من كتاب ما، وفى كل صفحة يقع الضوء على السطر الأول بينما تبقى بقية الصفحة مظلمة، ثم يتحرك الضوء فيقع على السطر الثانى وحده ويصبح من المستحيل أن نقرأ غيره . وهكذا يتحرك الضوء إلى أسفل، من سطر إلى سطر . ويطلب منا الرجل أن نحاول أن نستوعب من الصفحة التى تضاء سطورها تبعاً على هذا النحو، أكبر قدر من المعلومات يمكننا استيعابه . وبعد هذا تزيد سرعة تحرك الضوء، فلا يبقى مسلطاً على سطرين إلا مدة قصيرة ثم تزداد قصراً، ثم يوزع علينا بعض الأسئلة ليختبر كمية المعلومات التى حصلناها . من التمرينات الأخرى أن يعرض علينا على الشاشة أيضاً صفحة تحتوى على نقد لكتاب أو فيلم، ولا تبقى الصفحة على الشاشة إلا مدة قصيرة للغاية، ثم يطلب منا أن نقول ما إذا كان هذا النقد فى صالح الكتاب أو

الفيلم أو في غير صالحه . كانت الفائدة الوحيدة التي حصلت لها من هذه الدروس اقتناعى برأى المحاضر وزيادة اقتناعى بفائدة الإسراع فى القراءة ، ولكنى لم أستفد منها كثيراً فى زيادة سرعتى فى القراءة بالإنجليزية . الأمر الذى أحرزت تقدماً فيه ، ليس بسبب هذه السلسلة من المحاضرات بل بسبب شدة حاجتى ، أثناء دراستى بالإنجلترا ، لتحقيق هذا التقدم ، هو القدرة على تكوين رأى بسرعة فيما إذا كان كتاب ما ، أو فصل فيه ، أو مقال ، يستحق أن أستمع فى قراءته أم لا . وهو أمر قد لا يقل أهمية عن سرعة القراءة نفسها . أذكر أننى فى إحدى مقابلاتى مع أستاذى روبنز ذكر لى أن على قراءة كتاب شومبيتر فى تاريخ التحليل الاقتصادى . وهو كتاب مشهور ، ويتمتع بتقدير الجميع ، ولكنه يحتوى على نحو ١٢٠٠ صفحة من الحجم الكبير والبنط الصغير . فلما سألته بدهشة : « كل الكتاب ؟ » أجابنى بإجابة ظلت عالقة فى ذهنى رهى : « يجب أن تعلم كيف تقفز فى القراءة ! » (You have to learn how to skip) وأظن أنه كان على صواب تماماً ، فقد اكتشفت ، بعد أن تعلمت هذا القفز ، حجم الفائدة التى يجنيها القارئ من وراءه ، وكيف أنى أضعت وقتاً كثيراً فى كتب سخيفة كان من الواجب على تركها فى وقت مبكر .

يدهنى الآن أيضاً حول الوقت الذى احتجت إليه لكى أتعلم كيف أن على أن أضع نقى لا فى الكتاب ، مهما بدا جذاباً باسمه أو موضوعه ، بل فى مؤلفه . وأن أدرك أن هناك بعض الكُتّاب الذين يمكن أن يشعر معهم القارئ بالأمان ، فيستطيع أن يطمئن إلى أن أى شئ يصدر عنهم سوف يكون على الأرجح جديراً بالقراءة ، وأن عدد هذا النوع من الكُتّاب فى أى فرع من فروع المعرفة ، أقل بكثير مما نظن ، وأن نسبتهم إلى المجموع تميل إلى التضاؤل مع ازدياد عدد من يكتبون الكتب دون أن تكون لديهم فى الحقيقة الموهبة اللازمة ، بل ولا حتى الأفكار التى تبرر قيامهم بتأليف الكتب أصلاً ، ومع ازدياد عدد الحاصلين على الشهادات أو من يقومون بالتدريس ، وكذلك مع ازدياد قوة دافع الربح فى نشر الكتب وتقدم أساليب الدعاية والترويج لها .



عندما شرعت فى اختيار موضوع رسالة الماجستير، كنت قد بدأت أفقد حماسى للاقتصاد الماركسى، وللماركسية بوجه عام، الذى كان قد استمر معى منذ بدأت أقرأ عن المادية الجدلية والتاريخية قبل سفرى من مصر. أصبحت الآن أرى الماركسية كحلقة فى سلسلة طويلة من تطور الفكر الاقتصادى، قد تكون أفضل من الحلقات الأخرى فى أشياء ولكنها أسوأ فى أشياء أخرى. وراق لى أن يكون موضوع الرسالة المقارنة بين النظريات المختلفة فى موضوع الربح. وذكرت هذا الموضوع للأستاذ روبنز على أنه الموضوع الذى أريد كتابة الرسالة فيه، فإذا به ينظر إلى من فوق نظارته وقد رفع حاجبيه عالياً، كان يريد أن يتحقق من أننى بالفعل لا أفصل أن تكون الرسالة كلها عن جانب من جوانب الماركسية، إذ كان ميلى للماركسية قد اتضح له فى جلسات كثيرة سابقة. قال لى ما معناه: إننى يجب ألا أستبعد موضوعاً من الكتابة فيه لمجرد أنه لا يشاركى رأى فيه، وإننى إذا أحببت أن أكتب فى الماركسية فإنه لن يرفض. ولكنى أكدت له أن هذا الموضوع هو ما أفضل بالفعل الكتابة فيه، فقبل وتم الأمر على هذا النحو.

عندما بدأت أقرأ استعداداً لامتحانات الماجستير فى توزيع الدخل ولكتابة الرسالة عن نظرية الربح، أصبت بشيء من خيبة الأمل. كنت أظن أننى بدراسة نظريات توزيع الدخل سوف أفهم العوامل التى تفسر انقسام المجتمع إلى طبقات، وتجعل توزيع الدخل أقرب إلى المساواة فى بعض الظروف منه فى غيرها. ولكنى وجدت الحقيقة تكاد أن تكون عكس هذا بالضبط. فعندما بدأ الاقتصاديون مناقشة موضوع توزيع الدخل بشكل علمى لأول مرة، وكان هذا على يد الاقتصاديين التقيديين فى بريطانيا، طرحوا الموضوع على أنه فى الأساس سؤال عن العوامل التى تحدد أجر العامل فى الساعة أو اليوم، ودخل مالك الأرض من الغدان الواحد، ودخل رب العمل كنسبة من رأس المال. ولم يهتموا كثيراً بشرح العوامل التى تحدد توزيع الدخل بين طبقات المجتمع ككل، ومن ثم لم ينطرقوا إلى مناقشة العوامل التى تحدد توزيع الملكية ابتداءً، سواء ملكية الأرض أو رأس المال، ربما على اعتبار أن مناقشة مثل هذا هى مناقشة لـ «المؤسسات الاجتماعية» أو «النظام المؤسسى» وهو ما اعتبروه خارج نطاق تخصصهم. وعندما جاءت النظرية التقليدية الحديثة ابتداءً

من ١٨٧٠ ، استقر هذا الاتجاه ولم يعد توزيع الدخل يعنى إلا هذه القضايا الجزئية الأقرب إلى نظرية الثمن منها إلى قضايا الاقتصاد السياسى .

هكذا وجدت نفسى مرة أخرى ، من أجل ضمان اجتياز الامتحان ، أقرأ إجابات عن أسئلة لم تكن تهمنى أصلا ، ولا كانت قط الدافع لى لدراسة علم الاقتصاد . وقد بدأت أتبين منذ ذلك الحين أن علم الاقتصاد وحده ، بحالته التى وصل إليها ، بل وربما منذ نشأته كعلم مستقل ، لم يعد يكفى لتقديم الحلول الصحيحة لمشاكل مهمة ، ولا حتى فهم القضايا المهمة التى يشوقنا فهمها . ولكن ضرورات الامتحان والبيئة والوظيفة . . إلخ ، لا تسمح « بنضيج الوقت » فى فهم المشاكل الحقيقية ، وإنما يسمح الوقت المتاح فقط بالإجابة إجابات صحيحة عن أسئلة تافهة .

بدأت أتبين بالتدريج أن هذا الذى أدرسه فى لندن ليس هو فى الواقع ما كنت أريد دراسته ، ولكنى ، لحسن الحظ ، لم أكن حينئذ قد بلغت السن أو حققت من النضج ما يجعلنى أثبتس كثيرا لهذا الاكتشاف . كان المهمل فى نظرى حينئذ هو « النجاح » طبقا للمعايير الجارية ، وقد « تمحنت » بالفعل طبقا لهذه المعايير .

- ٢ -

عندما حصلت على الماجستير كان المطلوب منى ، طبقا لنظام البعثات المصرى أن أنتقل مباشرة إلى التحضير للدكتوراه ، إذ كان الغرض من البعثة أن يتم إعدادى للتدريس فى الجامعة ، ولا يتصور مدرسم بالجامعة إلا إذا كان حاصلا على الدكتوراه . لم يكن الأستاذ روبرت يعرف ذلك ، ومن ثم قال لى بعد حصولى على الماجستير : «إنهم فى إنجلترا يفضلون ألا ينتقل الطالب من الماجستير إلى الدكتوراه مباشرة بل أن يقضى فترة بعد الماجستير يقوم فيها بعمل ما غير الدراسة ، ولو كان هذا العمل هو التدريس ، إذ إن هذا يتيح له فرصة أن يكتشف ما الذى يريد أن يعرفه بالضبط ، فلا يختار أى موضوع للدكتوراه لمجرد الحصول على الشهادة ، بل يختار موضوعا يشوقه بالفعل ويهمه أن يدرسه » . عندما قلت لروبرت إن نظام

البعثات المصري لا يسمح بذلك لم يسمعه إلا أن يقول لى أسفا : «ليكن إذن ما تريد ، وما عليك الآن إلا اختيار الموضوع» .

عندما عدت إلى روبرت بعد بضعة أيام بعدة موضوعات كلها تتعلق بالنمجة الاقتصادية في مصر ، قال إن علىّ إذن العمل تحت إشراف أسناذ آخر إذ إن هذه الموضوعات لا تدخل في اختصاصه ، ثم أخذ يمدح أستاذة أمريكية اسمها « إيديث بنروز » (Edith Penrose) ، انضمت حديثا لهيئة التدريس بالكلية ، وأخذ يعدد مزاياها . فهي فضلا عن معرفتها الواسعة باقتصاديات الشرق الأوسط وكتاباتها الجيدة عن اقتصاديات البنروز ، تحيد اللغة العربية . لم أكن قد سمعت شيئا بعد عن هذه الأستاذة الأمريكية ، ومن ثم لم يكن لدى سبب للاعتراض ، وهكذا بدأت العمل معها .

حَدَّثت بنروز (Penrose) أن يكون موضوع رسالتي جانبيا من جوانب الضرائب الزراعية في مصر على أساس أهميتها في نظرها في تحويل التنمية الاقتصادية ، وبدأت بالفعل أقرأ في الموضوع وكتبت فصلا أو فصلين عنه فيما بين يناير ويوليو ١٩٦١ . ثم صدرت في مصر قوانين التأمينات الشهيرة فرجح لدى أن الضرائب بصفة عامة سوف تفقد أهميتها في مصر كمصدر من مصادر تعبئة رأس المال ، وأن الملكية العامة سوف تحل محلها ، فضلا عن أنى لم أجد في موضوع الضرائب الزراعية ما يثير اهتمامى ، ومن ثم أخبرت بنروز أنى سأغير الموضوع وأبحث عن موضوع آخر . وظللت أبحث وأفكر حتى اهتديت إلى موضوع مشكلة الغذاء في مصر وعلاقته بالتنمية . فوافقت هى عليه دون حساس .

والحقيقة أنى أنا بدورى لم أكن متحمم لهذا الموضوع الجديد . والذى أرجحه الآن هو أنى لم أكن لأتحمس لأى موضوع على الإطلاق يصلح كموضوع لرسالة دكتوراه في الاقتصاد . فالشروط التى كان يجب توافرها لمثل هذه الرسالة كانت كافية لو أدا أى حماس لدى . أول هذه الشروط بالطبع أن تكون في الاقتصاد ، وكانت قد بدأت تضح لى حالة هذا العلم . رب كان علىّ أن أقرأ بتمعن أكبر ما كتبه الاقتصاديون التقليديون عن أهمية توافر الغذاء الرخيص لاستمرار النمو ؛ لإضفاء

الطابع النظري على جزء على الأقل من الرسالة، حتى ولو كان قليل الفائدة من الناحية العملية. وربما كان على أيضاً شرح المعادلة الرياضية التي تشتمل على العوامل المؤثرة في الطلب على الغذاء، (وهي السكان والدخل ومرونة الطلب الداخلية على الغذاء). إذ رغم أن دور هذه العوامل في تحديد الطلب على الغذاء يبدو بديهياً ولا يكاد يحتاج إلى ذكر. فإن رسالة للدكتوراه بدون بعض المعادلات الرياضية قد لا تكتسب أى احترام. ربما كان على أيضاً أن أقارن بين زراعة القطن وزراعة بعض المحاصيل الغذائية كالقمح، وأحدد أيهما أجدى لمصر من الناحية الاقتصادية، وأن أستخدم فى ذلك الأسلوب الحديث نسبياً والمعروف باسم تحليل «التنفعات والمنافع» (cost/benefit analysis). إذ إن هذا سوف يضيف أيضاً بعض الهيبة على الرسالة، وإن كنت جاهلاً جهلاً تاماً بالجوانب الفنية فى الزراعة المصرية، ولا أكاد أستطيع أن أميز بين حقل مزروع بالقطن وآخر مزروع بالقمح، ولا أعرف شيئاً عن العوامل المتعلقة بالتربة والرى التي يعرفها أى مهندس زراعى، وقد تكون أهم بكثير من أى عامل اقتصادى، فى تحديد قرار المزارع فيما إذا كان سيزرع هذا المحصول أو ذاك. ولكن كل هذه المسائل المهمة من الناحية العملية لا تهتم إذا كان الغرض الحصول على الدكتوراه. ومن المؤكد أن الأستاذة الأمريكية المشرفة لا تعرف بدورها الكثير عن هذه الأمور. سوف يكون بإمكانها اكتشاف خطأ منطقي هنا أو هناك، أو خطأ فى صياغة المعادلة المتعلقة بالطلب على الغذاء (وإن كانت، حتى فى هذه المسألة الأخيرة نصحتنى باللجوء إلى أحد الأساتذة المختصين بالاقتصاد القياسى للتحقق من أنى لم أرتكب خطأ فى شرح أو تطبيق هذه المعادلة). أما النتائج العملية للرسالة، وما إذا كان لها أى قيمة حقيقية فى رسم السياسة الاقتصادية فى مصر، زراعة أو غير زراعية، فلم تحظ منى ولا من الأستاذة المشرفة بدقة واحدة من التفكير.

خطر لى أيضاً أن أكتب فصلاً فى الرسالة عن أثر تكوين السوق الأوروبية المشتركة على صادرات مصر من الغذاء. كانت هذه السوق قد تكونت منذ سنوات قليلة (١٩٥٨) والكلام عنها لا يتوقف، والكتب الجديدة تصدر عنها فى كل يوم،

ومن ثم كانت كتابة فصل عن هذا الموضوع دليلا على متابعة آخر موضوعات الكتابة الاقتصادية، شأنها في ذلك شأن كتابة فصل عن تحليل «التفقات والمنافع». ولكن كانت القيمة العملية لهذا الفصل، بدوره، قليلة للغاية، فصادرات مصر من المحاصيل الغذائية في ذلك الوقت كانت تافهة جدا، بالمقارنة بصادراتها من القطن. ولكن الموضوع كان «موضة شائعة»، كما كانت هناك بعض المحاذية من الناحية التحليلية لبيان أثر اتساع السوق الأوروبي على بعض صادرات دولة من دول العالم الثالث، بالإضافة إلى أن مجرد إيراد أرقام حديثة عن السوق الأوروبية كان من شأنه أن يضيف جاذبية إضافية على الرسالة. لم أجد كل الأرقام التي أحتاجها في مكتبة الكلية فذهبت إلى مكتبة حديثة أنشأها السوق الأوروبية في لندن، وجلست فيها بضعة أيام أنقل منها بعض الأرقام. فلما رآني أحد موظفيها سألني عما إذا كنت أحب أن أזור مقر السوق في بروكسل وأقابل بعض المسئولين هناك، فرحبت بذلك رغم أني كنت قد حصلت على كل ما أحتاج إليه من أرقام من مكتبة السوق في لندن، إذ بدت لي «رحلة إلى بروكسل، تصف إليها بضعة أيام في باريس، مع خطيبي الإنجليزية، على نفقة السوق الأوروبية المشتركة، شيء لا يمكن رفضه، فضلا عن أن الأمر يبدو فخما في عين كل من لا يعرف حقيقة «الذهاب إلى بروكسل في مهمة علمية على نفقة السوق الأوروبية المشتركة»!

ذهبت إذن إلى بروكسل وباريس في رحلة مبهجة، وجمعت بعض الأرقام الجديدة، وسألت بعض المسئولين هناك بعض الأسئلة التي لم يكن لها أي ضرورة. وكتبت الفصل الخاص بصادرات مصر إلى السوق الأوروبية، وكان هذا الفصل رغم انعدام قيمته العملية وضآلة قيمته الفكرية، يحتوي بالطبع على شيء «مبتكر»، مما تطله رسالة للدكتوراه. وهذا هو المهم: أن يكون هناك شيء مبتكر، أي شيء لم يفعله أحد من قبل، مهما كان هذا الشيء المبتكر تافه القيمة. قرأت بعد ذلك ببضع سنوات مقالا لجراهام والاس، أستاذ العلوم السياسية الشهير في بريطانيا، كتبه في العقد الثاني أو الثالث من القرن العشرين عن حالة التعقيم في الجامعات البريطانية، شكاه فيه من تهاة الموضوعات التي يكتب فيها الطلبة

رسائلهم الجامعية ، وكان مما قاله إن أرسطو ، بكل عظمته ، لو تقدم الآن بكتبه فى علم السياسة إلى جامعة بريطانية فلربما اعتبروها «أقل ابتكارا» مما يشترطونه الآن فى رسائل الدكتوراه ، ومن ثم فلربما رفضوا منحه هذه الدرجة ، ومع هذا فإن نفس الجامعة ربما منحت الدكتوراه لشخص موضوع بحثه هو ما إذا كان أرسطو يقطن فى المنزل رقم ٨ ، مثلا ، أم رقم ١٠ ؟ إذ ربما كان هذا سؤالاً لم يخطر لأحد من قبل أن يبحث عن إجابته !



لم يكن إتمام رسالة الدكتوراه أمراً صعباً إذن ، ما دام مثل هذا هو المطلوب ، وأنا على أى حال لا أجد التعبير بالكتابة عما يخطر بذهنى ، مهمة صعبة مثلما كان يجده بعض زملائى فى البعث . ولكن لأشك عندي فى أن هذه الدكتوراه قد استغرقت زمت أطول مما تستحق . نعم ، كان لهذه السنوات الثلاث التى قضيتها للحصول على هذه الدرجة بعض الفائدة فى القيام بالمزيد من التمارين العقلية ، وإن كانت فترة الماجستير أكثر فائدة من هذه الناحية . كما كان لمجرد الوجود فى لندن هذه المدة الطويلة فائدة أكبر . لما أتاحة لى من قراءات فى غير الاقتصاد ، ومن مشاهدة مجموعة من المسرحيات والأفلام وحضور بعض المحاضرات العامة وقراءة صحف ومجلات جيدة . . إلخ ، مما ساهم بلا شك فى تقدمى ذهنى . ولكن كل هذا شيء وكتابة كتاب عمل عن «مشكل الغذاء وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية فى مصر» شيء آخر تماماً .

ومع هذا فقد أعجبت الأستاذة بنروز بالرسالة ، وكذلك الممتحنة الخارجية التى أنت من أكسفورد . ليس هذا فحسب بل لقد طلبت منى بنروز أن أعود بعد انتهاء الامتحان الشاقوى ، الذى هناونى فى نهايته بالدكتوراه ، بساعة أو ساعتين ، لأقابل أحد الناشرين الإنجليز (فرانك كاس Frank Cass) لكى أتفق معه على المطلوب لنشر الرسالة فى كتاب . كان هذا فى حد ذاته يعتبر بالنسبة لشاب مثلى ، نجاحاً كبيراً ، إذ كان من النادر قبل ذلك أن تنشر رسالة دكتوراه لطالب مصرى فى صورة كتاب ، فى بريطانيا أو غيرها من الدول الأوروبية . وسررت سروراً عظيماً بالطبع ،

وقابلت الرجل واتفقت معه على إنهاء إعداد الرسالة للنشر خلال بضعة أسابيع ،
 وكان من طلباته القليلة تقليل عدد الجداول لارتفاع تكاليف طبعتها . وقد أتممت
 هذا بسرعة ، ربما في أقل من أسبوعين . واستغرقت الأستاذة بترور بشدة عندما
 أخطرتها بانتهائها من إعداد الرسالة للنشر في هذه المدة القصيرة ، وأذكر أنها قالت
 لى : « لماذا هذا الاستعجال في إعداد أول كتاب يصدر لك على الإطلاق؟ » ولكن
 الحقيقة أنى كنت قد سئمت النظر إلى هذه الرسالة التى شغنتنى كل هذا الوقت ،
 كما أنها لم تكن تعبر عما فى نفسى ، بأى شكل من الأشكال : لا عن أفكار أعتبرها
 أفكارى ، ولا عن مشاعر ملكت على نفسى فجلبست أعبر عنها . نعم ، لقد ظهر
 الكتاب وعليه اسمى بخط واضح ، ومجلداً مجليداً جيداً ، وفيه كل المطلوب من
 كتاب كهذا ، من الجداول والرسوم البيانية ، إلى الإهداء وأسماء الأشخاص الذين
 لولاهم ما تمت كتابة هذا الكتاب ، بما فيها اسم خطيبتى من باب التودد إليها . وقد
 أرسلت نسخة من الكتاب كهدية إلى كل من كان يهمنى أن يعرف أن رسالتى
 للدكتوراه قد نشرت فى كتاب فى لندن . ولكنى لا أذكر أنى شعرت قط فى أى
 وقت خلال السنوات الكثيرة التى مضت منذ صدوره ، بأى رغبة فى النظر إليه أو
 إعادة قراءة أى جزء من أجزائه . وسيظل هذا الكتاب فى نظرى رمزا باقيا لثلاث
 سنوات من عمرى كان من الأجدى بلا شك أن تنفق على شيء آخر .

كانت فترة الاستعداد لامتحان المعادلة وللماجستير أكثر فائدة بلا شك من فترة
 الدكتوراه من مختلف النواحي ، كما كنت خلالها أسعد حظا فيما يتعلق بالأستاذ
 المشرف على . لقد كان الأستاذ روبنز ينتمى إلى جيل عظيم من الأساتذة البريطانيين
 الذين وصفهم هو نفسه فى إحدى محاضراته بأنهم « ربما كانوا آخر جيل من
 أساتذة الاقتصاد الذين لديهم بعض المعرفة ببعض الأشياء الأخرى فى خارج
 مجال تخصصهم » ، بعكس الأستاذة إيديث بترور التى أشرفت علىّ خلال فترة
 الدكتوراه ، فقد كانت متواضعة القدر ، سواء فيما يتعلق بمدى اتساع العلم ، أو
 الجاذبية الشخصية . وعلى أى حال فخلال السنوات الست التى استغرقتها البعثة
 كانت ثقتى بالاقتصاد كعلم تضعف شيئاً فشيئاً ، على الرغم من أنى لم أغير رأيى

قط الذي أتيت به معي من مصر ، في أن الدوافع الاقتصادية تكاد تكون هي أهم عامل من العوامل المحركة للسلوك الإنساني .

قبل أن أترك كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية نهائياً ، بأبيع تلبية ، أعلن عن محاضرة عامة يلقيها أستاذ مرموق من أستاذة الكلية ، وكان حديث العهد بالترقية إلى درجة الأستاذية ، وفي سن صغيرة نسبياً ، وأنهى لثمه من تأليف كتاب في مبادئ الاقتصاد ، قُدر له بعد ذلك درجة كبيرة من النجاح ، وانتشر استخدامه ككتاب مدرسي في مختلف أنحاء العالم . وكان موضوع المحاضرة هو تجربته في تأليف هذا الكتاب . ذهبت للاستماع للأستاذ ريتشارد ليبسي (Richard Lipsey) ، وخلال المناقشة التي أعقبت المحاضرة ، سأله أحد الطلبة سؤالاً ظلت إجابة الأستاذ عليه عالقة بذهني وظللت أفتظنها من حين لآخر لتلاميذي . كان السؤال : «إذا قُدر لك أن تعود إلى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة عندما كنت على وشك دخول الجامعة ، فهل تختار علم الاقتصاد موضوعاً لتخصصك كما فعلت من قبل ؟ » وكانت الإجابة بالنفي ، مل وبالفن القاطع ، وقال إنه كان يختار دراسة التاريخ بدلاً من الاقتصاد . وعندما سئل عن السبب قال : «سأروى لكم قصة حدثت لي وتوضح سبب خيبة أمني في علم الاقتصاد» . قال إنه كان منذ وقت قصير يعدّ محاضرة طلبتها منه الجمعية الملكية لتقديم العلوم ، وكان الموضوع يتطلب إعداد جدول إحصائي يبين تطور الأسعار عبر فترة زمنية ما ، ولكن ١٩٣٠ - ١٩٦٠ مثلاً . وأعدّ الرجل المحاضرة وأعطاه لسكرتيرته لتكتبها على الآلة الكاتبة ، فأخطأت السكرتيرة وكتبت الأرقام الدالة على الأسعار مقلوبة ، فجاء الرقم الخاص بسنة ١٩٦٠ مثلاً وكأنه الرقم الخاص بسنة ١٩٣٠ وهكذا . وعندما قرأ الأستاذ الجدول مكتوباً على هذا النحو لم يفتن لأول وهلة للخطأ الذي حدث ، ووجد أن من الممكن أن يفسر الأرقام ، وهي مقلوبة على هذا النحو ، بنفس النظرية التي استخدمها لتفسير الأرقام وهي مرتبة الترتيب الصحيح ، ربما مع تعديلات طفيفة أو تحفظات بسيطة في التفسير لا تؤثر كثيراً على النتيجة التي وصل إليها في نهاية المحاضرة . عندما اكتشف الأستاذ الخطأ الذي حدث هاله أن تكون هذه هي حالة

علم الاقتصاد ، أو حالته الراهنة على الأقل . وتعجب من هذا العلم الذى يمكن
لنظرياته أن تفسر الشيء وتقيضه بنفس الدرجة من اليقين . هذا . على حد قوله . هو
ما يجعله يعتقد أنه لو عاد إلى صباه لاختار علما آخر يتخصص فيه غير الاقتصاد .

- ٤ -

فى الوقت الذى كنت أستعد فيه لأول امتحان لى فى لندن (امتحان المعادلة) كان
أخى أحمد يقضى بضعة شهور للتدريب فى شركة سموندس فى مدينة نورنبرج
الشهيرة بمحاكمة مجرمى الحرب . كانت ألمانيا قد قسمت إلى قسمين ، شيوعى
يخضع للنفوذ السوفيتى فى الشرق ، ورأسمالى يخضع للنفوذ الأمريكى فى
الغرب . وكانت برلين وإن كانت تقع بأكملها فى داخل ألمانيا الشرقية ، قد قسمت
بدورها إلى قسمين شيوعى ورأسمالى ، ولكن كان لا يزال من المسموح به فى تلك
السنة (١٩٥٨) التنقل بين برلين الغربية والشرقية .

ذهبت لزيارة أخى أحمد فى نورنبرج ووجدتها فرصة ذهبية لقضاء بضعة أيام فى
برلين للمقارنة بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى عن طريق المقارنة بين برلين
الغربية والشرقية . كنت فى ذلك الوقت أكثر تعاطفا بكثير مع الماركسية ، مما
أصبحت عليه فيما بعد ، ومستعدا للدفاع عن أشياء فيها تين لى فيما بعد أنه لا
يمكن الدفاع عنها . ومع ذلك لم يسعنى ، حتى فى ذلك الوقت ، إلا أن أعترف
ببعض أوجه النقص فيه رأيت فى برلين الشرقية . ففى خطاب طويل أرسلته من
برلين إلى العائلة فى القاهرة أقارن فيه بين قسمى المدينة ، كتبت ما يلى :

برلين فى ١٩ / ١٢ / ١٩٥٨

والدنى العزيزة ، عزيزى حافظ وحسين

أكتب لكم من برلين وقد قضيت فيها حتى الآن خمسة أيام ، ولا أظن أن هناك
مكانا هاما فى برلين الشرقية أو الغربية لم أشاهده . وعلى هذا فأنا مؤهل الآن لأن
أحدثكم عن ألمانيا وعلى الأخص عن الفرق بين شرق برلين وغربها .

عندم وصلت إلى نورنبرج لم يكن يخطر ببالي أن بإمكانى رؤية برلين، وعلى الأخص، أن أتمكن من دخول برلين الشرقية. ولكن تبين لى أن الأمر سهل، وأن دخول ألمانيا الشرقية - فيما عدا برلين - هو المستحيل. قطار واحد يغادر نورنبرج إلى برلين يقطع رحلته فى تسع ساعات، والرحلة كلها تقع خلال الليل، وربما كان هذا مقصودا لعدم إتاحة الفرصة لمشاهدة أى شىء من ألمانيا الشرقية، فبرلين، كما لا يخفى عليكم، تقع فى المنطقة السوفيتية.

فى أثناء مرور القطار بالمنطقة الشرقية سعد بعض رجال البوليس الشرقى وفحصوا جواز سفرى ومنحونى تأشيرة لبضعة أيام فى برلين. وكان هذا أول شىء أراه من العالم الشيوعى: وجوه مرهقة بالعمل ولكن معاملتهم طيبة. فى القطار نادلت الحديث مع امرأة ألمانية - هى الوحيدة التى كنت تعرف الإنجليزية فى الغربة التى كنت بها. وهى تعمل فى نورنبرج ولكن أمها تقيم فى المنطقة الروسية. وقد سألتها كيف سمحوا لها - وهى من الغرب - بالذهاب إلى أمها فى شرق ألمانيا فى بلدة غير برلين، فقالت إنها تحاول الحصول على إذن منذ أكثر من عشرة أشهر، وإنها كانت توى زيارة أمها فى الصيف فلم تتمكن، وأخيرا سمحوا لها بزيارتها فى الكريسماس. حينما سألتها عما إذا كانت تفضل الشرق أم الغرب ابتسمت وقالت: «لماذا أقسم إذن فى الغرب؟ هذا هو أقصى ما يمكننى الدبلوماسية من أن أقوله لك». . . . كنت على كل حال مهينا نفسيا لتقبل هوارق ضخمة بين الشرق والغرب، ولكن جاء الواقع لا يقل فى تأثيره عما تخيلته. فالمقارنة فعلا شيقة.

برلين تشبه فى نظرى رجلا يلبس بنطلون بدلة ردينجوت وجاكete قديمة مهلهلة. والجاكete المهلهلة تشير بلا شك إلى شرق برلين. وأنا متمسك بتشبيه شرق برلين بالجاكete القديمة المهلهلة أكثر من تمسكى بالجزء الآخر من التشبيه. فى شرق برلين - دون غربها - تجد صبية بين السادسة عشرة والعشرين يبدو عليهم إرهاق العمل، يرتدون ملابس رخيصة، لا يعابون بهندامهم، ويشربون السجائر والبيرة بكثرة، مما لا يتفق وعمرهم، ولكنهم مؤدبون ومخلصون وتحس أنهم ناضجون قبل الأوان (مثال لأديهم أنهم أسرعوا بإحضار كرسي لى فى مقهى بمجرد إدراكهم أنى أجنبى،

وأوسعوا لى مكانا فى مائدتهم). هذا الوصف ينطبق على البت كما ينطبق على الأولاد.

كذلك المحلات فى برلين الشرقية قريبة الشبه جدا بالمحلات الصغيرة التى نجدها فى مكان كـ «الظاهر» بالقاهرة. الذوق فى التنسيق محط جداً، التراب يعلو المعروضات، الفاترينات كثيرا ما يترك جزء كبير منها نخويا، كما أن أصناف البضاعة من نوع ردىء أو متوسط غالبا. كذلك، جزء كبير من الملابس التى يرتدونها هى من نوع الملابس الرخيصة المعروضة عندنا فى العتبة أو شارع عبد العزيز.

إن جزءاً كبيراً من برلين الشرقية يجعلك تحس كأن الحرب لم تنته إلا منذ أيام قليلة لا منذ ثلاثة عشر عاما، فلبنى المهدمة والأراضى الخاوية لا نهاية لها.

شارع واحد جميل جدا وبذلت فيه كل عناية، هو طريق ستالين، وهو شارع يبلغ طوله حوالى طول شارع فؤاد، صفت المباني الضخمة على حائبيه، وكلها بناها الروس على طراز واحد جميل، والمحلات التجارية فى هذا الشارع رائعة التنسيق. وفى منتصف الشارع تمثال لستالين، وبجواره مكتبة ضخمة اسمها مكتبة كارل ماركس، تحوى بالطبع كل كتب ماركس وإنجلز ولينين بالألمانية ولكنها لا تحتوى من الأدب الروسى غير كتب جوركى. جميع المحلات بهذا الشارع تحمل على أبوابها وفاتريناتها الحرفين: HO وهما اختصار لكلمتين ألمانيتين بمعنى مؤسسة تجارية وكلها ملك الدولة، بدون استثناء، من مطاعم إلى مراقص إلى مكتبات إلى أكشاك لبيع الجرائد. هناك بعض المحلات الصغيرة فى برلين الشرقية متروكة للأفراد مع فرض ضرائب مرتفعة جداً، ولكن حتى هذا قليل.

فى برلين الشرقية أيضا حديقة رائعة الجمال أقامها الروس تخليدا للذكرى الجنود السوفيت الذين ماتوا فى الحرب. فى هذه الحديقة رأيت أشد ما رأيته من التماثيل تأثيرا فى النفس: وهو تأثير مستمد من ضخامتها ومن الأفكار التى تعبر عنها. من هذه التماثيل تمثال للوطن الأم تبنى أبناءها الذين ماتوا فى الحرب، وتمثالان لجنديين روسيين راكعين تحية للذكرى الجنود، وتمثال ضخيم فى الوسط لجندي روسى

يحمل طفلا في يده اليسرى وسيفا بيده اليمنى . فى أرض الحديقة دفن سبعة آلاف جندى سوفيتى . على أن الأثر الطيب الذى تركته الحديقة فى نفسى ضعُف جدا عندما قال لى شاب ألمانى عند خروجه إن هذه الحديقة سَحَّرَ الألمان فى بنائها ليلا ونهارا خلال عامين كان الألمان يقاسون فيها الجوع .

من الأشياء الطريفة فى برلين الشرقية خلوها من الإعلانات من النوع الذى تعرفه فى الدول الرأسمالية . فى محطات مترو الأنفاق مثلا مساحات من الجدران مخصصة للإعلان ولكن لا إعلان فيها . كل ما تجده من إعلانات هو من النوع الإجبارى : بخصوص سيرك روسى مثلا ، أو مباراة كرة قدم ، أو معرض ، أو بيان بالرايات الموجودة بالمسارح المختلفة ، أو بعض الدعاية للشيوعة بمناسبة مرور أربعين عام على الثورة . ونظراً إلى أن ترك الجدران بلا إعلانات أو أوراق ملونة يجعلها كثيبة المنظر ، فقد عمدوا أحيانا إلى لصق عدة نسخ من الإعلان الواحد جملة فى مكان واحد وبلا مبرر .

راعى فى البداية أن أجد البائعات فى المحلات لهن وجوه تخلو من أى جمال ، وأكثرهن مقدمات فى السن ، وذكرنى منظرهن بوجوه النساء اللاتى رأيتهن مرة فى حديقة الأورمان بالقاهرة يوم شم النسيم واللاتى جئن إلى الحديقة بالأرواب وبوابير الجاز . وطبعاً لا مجال لمقارنة هؤلاء بالوجوه الصبغة النظرة التى تصادفك فى أى محل رأسمالى . ولكن أليس هذا مما يُحمد للنظام الاشتراكى ؟ أليس من هؤلاء النساء من تشتغل بالدعارة فى النظام الرأسمالى لعدم وجود عمل ؟ وهل الفتاة الجسيمة هى وحدها التى يحق لها أن تحصل على عمل شريف ؟ لهذا تعودت بعد الصدمة الأولى أن أمر لرؤية هذه الوجوه فى المحلات الشرقية .

حينما تدخل محلا لا يقابلتك بطبيعة الحال التملق الكريه المصنوع فى المحلات الرأسمالية ولا محاولة لخداعك ، فلا يمكن إذن أن تنتهى الصفقة بأن تشتري خذاه واسماً أو قماساً يتبين لك فيما بعد أنه لو كانت لديك فرصة التروى ما اشتريته ، فالبائعة بالطبع لا مصلحة لها فى ترويح البضاعة وهى تكتفى بوصفها لك . ومع هذا فلم ألحظ من البائعين أى تكاسل . اشتريت من هناك مفكرة ونتيجة للحائط فما

راعى إلا أن البضاعة سلمت إلى ملفوفة فى ورق من النوع الذى نسميه فى مصر «ورق لحمة». طبعاً، فما هو الداعى إلى أن يلقوها لك فى ورق مزركش أو يربطوها بشريط من حرير؟! الحكومة على ما يبدو ليست حريصة على أن تعود إلى الشراء منها! أما الفكرة، فهي مملوءة بعبارات مكتوبة بالخط الأحمر فى أسفل كل صفحة عن توارينج ميلاد كارل ماركس وإنجلز ولينين (ولكن ليس ستالين). وبهذه النسبة فإن كارل ماركس وإنجلز حظيا فى ألمانيا الشرقية، باعتبارهما ألمانيين أيضاً، بتمجيد لا أظنهما كانا يحلمان به. هناك مثلاً مقاطعة كاملة باسم ماركس، ومبدآن باسم ماركس وإنجلز، وكتبتهما عملاً فترينات المكتبات. . . أرادت ألمانيا الغربية أن تظهر تسامحها فأطلقت هى الأخرى اسم كارل ماركس على أحد شوارعها. وأظن أن هذا ما كان يحدث لو لا المنافسة مع الشرق. وعلى أى حال فشارع كارل ماركس فى الغرب لا يقارن من حيث الطول والأهمية بالشارع المسمى باسم الفيلسوف «كانت»، وهذا كاف للتدليل على سوء النية!

لا داعى بالطبع لأن أتكلم عن التسهيلات الاجتماعية فى ألمانيا الشرقية فهي معروفة: التعليم مجانى، الطب مجانى، السكن رخيص جداً، المطالب معنى به من كافة النواحي. كذلك المسارح وقاعات الموسيقى كثيرة. وأسواق إليكم بعض أمثلة للأسعار نقلتها من الفترينات وتدل على العموم على أن مستوى المعيشة معقول جداً:

فون بوتاجاز بموقدين ٧ جنيهات، فائلة صوف ٦٠ قرشا، كرافته ٣٠ قرشا، بيجامة صوف ٣ جنيهات، شراب نابولون للسيدات ٧٠ قرشا، قماش بدلة صوف (التر) ٣ جنيهات، حذاء وجيه جنيهان، قميص شيك ٣ جنيهات، بلوزة دانتلا جميلة جيه واحد، بالظو نسائي جميل ١٥ جنيه، آلة تسجيل ٦٠ جنيه. . الخ.

كذلك، تناولت غذائى هناك مرة، وكان يتكون من قطعة كبيرة من الكفتة مع بطاطس بالمايونيز، بما يعادل ثمانية قروش.

سؤال أخير هام: هل الشعب سعيد هناك؟ لم أوفق حتى الآن فى الدخول فى حديث محترم مع ألماني، والسبب هو جهلى بالألمانية وجهلهم بأى لغة أجنبية.

على أن الذى أسمعه دائماً من له مدة طويلة هنا أن الشعب غير سعيد بالحياة فى الشرق . ومن ملاحظتى البسيطة أن الصبغة العمال الذين أشرت إليهم من قبل تنهصوا على السجاير التى عزمت بها عليهم ؛ لأنها من السجاير المصنوعة فى الغرب ، وأنتى حينما استخدمت الكلمات الألمانية المكسرة التى أعرفها وبلاستعانة بيديّ للقول بأن برلين الشرقية أحسن من الغربية ، لمجرد جسّ نبضهم ، أبدوا استغرابهم من قولى ولكن بمجرد التعبير بالوجه دون أن يتكلموا ، ولا أدرى هل هذا بسبب الخوف أو لعدم معرفتهم لغتى .

ليس هناك أى حاجز يمنع المرور بين برلين الشرقية والغربية ، فالتزام ومترو الأنفاق يمران بدون توقف بين القسمين . على أن هناك عقبات اقتصادية . فنظراً إلى أن الحكومة فى ألمانيا الشرقية تدعم الكثير من السلع فقد عمدت هذه الحكومة إلى منع بيع أى شئ فى برلين الشرقية ما لم يقدم المشتري ما يثبت حصوله على إذن بالإقامة فيها ، وهذا الإذن هو غير الإذن بدخول برلين بصفة عامة . فهو لم يعط لى مثلاً رغم أنى أستطيع دخول برلين الشرقية والغربية . وعلى هذا فأنا مثلاً لا أستطيع قانوناً شراء أى شئ من برلين الشرقية ، ولا حتى تناول الشاى فى مطعم ولا دخول سينما . على أن الذى يحدث أنهم يتساهلون مع الأجانب أمثالى ، إذ إن الإجراء موجه أساساً إلى الألمان المقيمين فى الغرب . والذى يفعله الطلبة العرب هنا أنهم يستبدلون بالمارك الغربى أربعة ماركات شرقية ويذهبون إلى برلين الشرقية فيشترون حاجيات الأسبوع ويعودون ، وبهذا يكونون فى الواقع قد دفعوا ربح التكليف العادية .

أما برلين الغربية فهى مدينة من ذهب ، الأعضاء تتلألاً طول الليل ، المباني عالية وفاخرة ، والمحلات رائعة التنسيق . . إلخ . والواقع أن الأمريكان بصفة خاصة لم يذخروا وسعاً فى محاولة تجميلها . فبرلين ليست إلا مكاناً لتنافس الشرق والغرب ، كل ما هنالك أن الغرب متهور ووطنش يتفق بلا حساب ، والشرق عاقل أو قليل الموارد . فى أثناء مروورى بجولة ببرلين الغربية كان المرشد يقول لك كل حين وأخر : «هذا البنى الجميل هو هدبة من الحكومة الأمريكية ، هذه المكتبة هدبة من أمريكا ،

هذه الجامعة بناها فورد . . الخ . والمساعدات الأمريكية هي العذر الذي يقدمه الروس للتبرير تأخر مستوى المعيشة في شرق برلين عن غوبها .

خادمة باللوكاندة قالت لي اليوم إنها هربت من شرق برلين منذ عام تاركة عائلتها ، وإنها لا تستطيع العودة الآن وإلا حبسوها ، ولا تستطيع ترك برلين إلا بالظنرة لأنها لا تستطيع المرور بأراضي ألمانيا الشرقية وإلا حبسوها . وإنها إذا استولى الروس على كل برلين سترحل إلى إنجلترا أو كندا . اليوم في قهوة جلست بجوار عامل ألماني يجيد الإنجليزية لحسن حظي . هو عامل منجم وملابسه قذرة للغاية . سألته أيهما يفضل الشرق أم الغرب ؟ فقال الغرب ، ولكنه لم يبد أسبابا مفهومة . وفي النهاية قال وهو يضحك : إنهم في الشرق ليس لديهم ووح (have no souls) ولكني لم أأخذ جملته بشكل جدى لأنى أشك في أنه يعرف معنى ما يقوله .

لا أستطيع بسهولة أن أستخلص حكما نهائيا ، ولكني أظن أنى مددتكم بعناصر تساعد على تكوين هذا الحكم . وعلى كل حال فالإنصاف يستلزم إتقانا للغة الألمانية والبقاء مدة أطول بكثير والتغلغل في الحياة الاجتماعية . أما عنى أنا فقد تمتعت بالرحلة ، واستفدت منها أكثر . حضرت فرقة برلين السيمفونية ثلاث مرات ، وفرقة أوبرا برلين مرتين ، وسأذهب إليها غدا مرة أخرى لقضاء رأس السنة . رأيت فيها «حكايات هوفمان» و«عطيل» وسأرى غدا «حلاق أشبيلية» . ورأيت متحف برلين الفسخم ، ورأيت فيه «رأس نفرتيتى» وحجرتين مملوءتين بالأكثار المصرية والسوية .

كنت في حفلة فرقة برلين السيمفونية اليوم ، ولأول مرة استطعت أن أقدر دور المايسترو . كان المايسترو اليوم رجلا غير عادى اسمه «هيرت فون كارايان» كان التفرج عليه متعة في حد ذاته ، فحركات يديه كانت كرقص الباليه ، وكأنه بعصاه يعزف جميع الآلات في الأوركسترا . وقد ظل الجمهور يصفق له أكثر من خمس دقائق . وعند انتهاء العزف قفزت فتاة جالسة أمامى لأنها لم تستطع تمالك نفسها من السرور . وقد عرف أفراد الأوركسترا أن التقدير موجه للمايسترو ، فانسحبوا بعد منتصف التصفيق وتركوه يلقى الباقى وحده . وقد تضمن البرنامج قائمة بالأسطوانات التى سجلتها شركة «كولومبيا» بقيادة هذا المايسترو .

ملحوظة: أخبرني أحمد أن والدتي دخلت المستشفى مرة أخرى بعد سفرى. وقد أفقنتى هذا كثيراً خصوصاً وأنى عرفت من هذا أنكم لا تكونون إلى بكل أخباركم. على العموم، أنا راجع فى الصيف لأعرف الحق من الباطل!

-5-

كانت فترة البعثة هى فترة وقوعى فى الحب الحقيقى لأول مرة ورواجى من أحب. ففى يوم من أيام ١٩٦٢، تعرفت على فتاة إنجليزية جميلة كانت صديقة لطالبة عراقية تدرس الاقتصاد فى نفس كليتى، بينما كانت هى (جان) تدرس علم الاجتماع فى كلية بدفورد (Bedford)، بلندن أيضاً، وتأتى من حين لآخر إلى كليتنا لنقرأ فى مكتبتنا الأكثر غنى، أو لحضور إحدى المحاضرات العامة المتاحة للجميع. عرفتنى عليها صديقتنا العراقية فجذب انتباهى جمالها ووداعتها وإخلاصها فى التعبير عما تعتقده أو تشعر به. دعوتها إلى مصاحبى للعشاء ثم للسبينا فقبلت ولكنها اعتذرت عن الخروج معى بعد ذلك لقرب الامتحانات وحاجتها إلى توجيه كل وقتها للاستعداد لها. كان هذا الاعتذار سبباً كافياً تماماً لأن أنصوّر أننى لم أعجبها، فامتنت فوراً عن ملاحظتها. وقد قالت لى فيما بعد: إنها استغربت هذا التصرف منى واستاءت منه، أما أنا فكم كان استغرابى وفرحى عندما التقينا مصادفة فى حفلة أقامتها نفس الصديقة العراقية بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، ووجدت (جان) تقابلنى بفرح حقيقى وكأنها عثرت على حبيب مفقود. ومنذ ذلك اليوم لم نفرق يوماً واحداً لعدة شهور أو ربما لعدة سنوات. وعندما غررت فى أحد أيام سنة ١٩٦٣، أن أعرض الزواج عليها، ولم يكن قد مر أكثر من ستة شهور على أول لقاء لنا، اتخذ هذا العرض بالزواج صورة طبيعية للغاية، وكأنه يتعلق بأمر من أمور الحياة اليومية. كان السبب واضحاً لى تمام الوضوح ولا يدع مجالاً للتردد. كان قد مر على التفات الحاسم الذى لم نفرق بعده، ثلاثة أو أربعة أشهر لم أشعر قط قبلها يمثل ما شعرت به خلالها من سعادة، وعندما سألت نفسى عما إذا كان من الممكن أن أنصوّر نفسى وأنا أشعر بسعادة أكبر مما أشعر به الآن، كانت الإجابة قاطعة

بالنفي، فلم أر سبباً للتردد في أن أعرض عليها الزواج. جاء عرضي هذا بالزواج بدوره بشكل بسيط وتلقائي وكأنه لا يتطوى على أى خطر أو أهمية إذ سألتها: «هل تأتين معي إلى مصر عندما أنتهي من الدكتوراه؟» سألتني بدعشة وسرور عما أعنيه، فلما أوضحت لها ما أعنيه كان عرضاً بالزواج، وقبلته هي بلا تردد. تلت هذا فترة قصيرة من التفكير من جانبي، ولكنه لم يكن تردداً ولا نكوصاً. فقد بدأت أفكر فيما إذا كان لما فعلته بعض الآثار السلبية التي يجدر بي أن أتروى بشأنها: هل من الحكمة أن أتزوج من إنجليزية؟ هل أضحي بسبب ذلك ببعض المزايا فيما يتعلق بمستقبلي المهني وسعادتي؟ هل ستيغ هي الحياة في مصر؟ هل ستؤثر العلاقات السياسية بين مصر وإنجلترا على علاقتنا؟ ما أثر مثل هذا الزواج المختلط على الأولاد؟ المدهش أن كل هذه الأسئلة وأمثالها لم تخطر ببالي قط بعد أن تم زواجي بالفعل، بل ولم تستغرق مني وقتاً طويلاً حتى قبل الزواج. ولا أظن أنها شغلت نالها هي، قبل الزواج أو بعده.

كانت هناك بالطبع المشكلة التي تواجه أى زوجين وهي ما يترتب على الزواج من تضيق شديد للدائرة الحرة المتاحة لكلا الطرفين. كان الزواج من أجنبية يحمل في طياته مزايا لا يستهان بها في هذا الأمر، ولكنه كان أيضاً يجلب أعباء إضافية. فالزوجة الأوروبية، خاصة إذا كانت متعلمة، هي في أغلب الأحوال أكثر استقلالاً واكتفاء بنفسها من الزوجة المصرية، وأكثر قدرة على الاستغراق في أشياء تجلب لها السرور بمعزل عن الرجل، ولكنها من ناحية أخرى، بحكم وجودها في بلد غير بلدها، وبعبء عن أهلها، أكثر اعتماداً على رجلها الذي تركت كل شيء من أجله. فإذا أضفنا إلى هذا ما قد يقضى من سنوات قبل أن تحبب الزوجة الأجنبية الكلام باللغة العربية وفهمها، وبدرجة تسمح لها بالتصرف بالكفاءة اللازمة، أصبح العبء الملقى على الزوج، خاصة في السنوات الأولى، عبئاً مضاعفاً.

لا أنسى مثلاً يوم ذهبنا إلى محل شركة إيديان في وسط القاهرة، في الأيام الأولى التالية لوصولنا إلى مصر بعد الزواج، لشراء الدوايب اللازمة لتأثيث المطبخ، فأخذ الموظف المسئول يعرض علينا كل الاحتمالات الممكنة بالأحجام

والأشكال والألوان المختلفة لاختار من بينها ما يناسب ذوقنا ومقاسمات الحواظ .
إلخ . لم يكن لدى أى اهتمام حقيقى بالأمر ولم أكن لأبالى على الإطلاق بما إذا
كان اللون أبيض أو أسود ، والدواليب مرتفعة أم منخفضة ، ولكن المهمة يجب أن
تتم ، ولا يجب أن أبدى مشاعرى الحقيقية بأن الأمر كله لا يهمنى ، كما أن زوجتى
لم تكن تستطيع ، حتى لو تركت الأمر كله لها ، أن تفهمهم مع العاملين بالمحل ، إذ
لم تكن معرفتها باللغة العربية بالدرجة التى تمكنها لا من التعبير عما تريده ولا من
فهم ما يقال لها . سرعان ما وجدت نفسى فى موقف لا أحسد عليه على الإطلاق ،
إذ تحولت خلال دقائق إلى مجرد مترجم ينقل المعانى المطلوب نقلها ، من الزوجة
إلى الموظف ، ومن لموظف إلى الزوجة ، ونسيت خلال قيامى بهذه المهمة الصعبة ،
وما أصابنى بسببها من إعياء ، أن من الممكن جداً أن أدلى أنا برأى فى الموضوع
وأنتى ستكون أحد المستفيدين من المطبخ فى نهاية الأمر .

كان لابد أن أتولى فى هذه المواقف بدرجة عالية من الصبر ، كما كان يجب عليها
هى أن تتحلى بدرجة أكبر من الصبر ، ليس فى مثل هذه المواقف وحدها ، بل وفى
التقلم على الحياة المصرية التى تجعلها ، فى كل خطوة تخطوها ، تواجه أنواعاً من
السلوك مختلفة تماماً عما اعتادته فى بلادها . فى كل هذه الأمور أعتبر نفسى زوجاً
معيد الحظ ، إذ ظهر أن لزوجتى درجة من الصبر والحكمة تفوق ما يمكن لأى امرئ
أن يتوقعه ، وتفوق بكثير ما رأيته من معظم الزوجات الأجنبية اللاتى جئن مع
أزواجهن المصريين للعيش فى مصر . فقد أحببت زوجتى مصر والمصريين حباً
حقيقاً ، وفهمت مزاياهم وصبرت على عيوبهم ، وتعاطفت تعاطفاً حقيقياً وعميقاً
مع فقراء المصريين ، يزيد عن تعاطفى معهم ، وأظهرت كرمنا نادر المثال فى الإنفاق
عليهم ومحاولة حل مشاكلهم . ظهر منها هذا الكرم أيضاً وطية القلب فى معاملتها
لأفراد أسرتى فأكسبت حبيهم جميعاً ، وفى معاملتها لأبيها ولأولادها وأحفادها ،
بكانت هى الابنة المفضلة لأبيها وأُمها ، ومصدراً مستمرا للسرور والبهجة لهما
ولأولاد والأحفاد كما كانت لى .

إنى أكتب هذا بعد مرور أكثر من أربعين سنة على زواجنا . وهو أمر لا يمكن

الاستهانة به : أن يعيش رجل مع نفس المرأة مدة أربعين عاماً ، كما أنه أمر يستحق عليه كل من الرجل والمرأة التهنة : أن يصير كل منهما على الآخر طوال هذا الزمن . لا يقل عن هذا أهمية ، فيما أظن ، أنه لم يخطر ببالى قط ، خلال هذه المدة كلها ، أن كان من الأفضل ألا يستمر هذا الزواج ، ولا خطر لى قط أن كان من الأفضل لى أن أتزوج بغيرها أو ألا أتزوج على الإطلاق . أما زوجتى فلا أستطيع بالطبع أن أقطع بها إذا كان قد طاف بذهنها مثل هذا الخاطر . إنها كثيراً ما كتبت لى بضع كلمات فى مناسبة الاحتفال بهذه الذكرى أو تلك ، من ذكريات زواجنا ، فقالت إنها تعتبر نفسها سعيدة الحظ جداً بهذا الزواج . ولكنى أكثر ثقة بحسن حظى بهذا الزواج منى بحسن حظها هى .

ثورة يوليوس

لم يكن أبى بطبعه يحب السياسة وحديثها، وكان يميل إلى الاعتقاد بأن من يشغل بالسياسة لابد أن يكون لديه، بصفة عامة، ميل طبيعي للخداع والكذب. لا أتذكره قط وهو يتكلم عن سعد زغلول أو مصطفى النحاس، اللذين ملكا قلوب كثيرين من المصريين، وشغل الحديث عنهما الكثير من الأسر المصرية لعدة أجيال. ولا أتذكره قط وهو مشغول بتخمين من سيشكل الوزارة الجديدة، فاجمع في نظره سواء، أو الفروق بينهم أنه من أن تستحق أن يشغل بها. كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو محمود فهمى النقراشى الذى تولى رئاسة حزب السعديين وجاء رئيساً للوزراء فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقُتل على يد أحد الإخوان المسلمين. كان أبى يحب النقراشى ويثنى عليه لخلقته لسياسته. ولا أزال أذكر كم كان حزنه شديداً عندما سمع بمقتله.

أتذكر أيضاً أنه عبّر عن رضاه التام بقيام ثورة ١٩٥٢، مثل الفاليلية العظمى من المصريين الذين لم بأسف منهم عدد يذكر على ذهاب الملك فاروق. ولكن صحة أبى كانت قد تدهورت، ونظرة قد ضعف لدرجة أضعفت من حماسه للثورة، وجعلته يصرف الباقى من همته إلى محاولة إتمام الجزء الأخير من سلسلة كتبه عن الإسلام قبل أن يصبح عاجزاً تماماً عن ذلك.

غنى عن البيان أن أمى لم تكن تهتمها أمور السياسة فى قليل أو كثير، فلا هى تتابع أخبارها فى الراديو أو الصحف، ولا هى تسمع من زوجها ما يشير اهتمامها بهذه الأمور. الأمر الذى قد يكون أكثر مدعاة للدهشة أنه، من بين ثمانية من

الأولاد والبنات ، لم يُظهر ولد واحد أو بنت واحدة اهتماما كبيرا بالسياسة باستثناء أصغرهم جميعاً وهو أنا .

بدأ هذا الاهتمام بالسياسة من جانبى فى سن مبكرة للغاية ، كما يبدو من مذكراتى التى بدأت أكتبها وأنا فى الثانية عشرة من عمري ، وكنت أقسم ما أكتبه فيها فى كل يوم إلى قسمين : قسم شخصى وعائلى وآخر يحمل عنوان «أحداث سياسية» . واستمر هذا الاهتمام بالسياسة بشكل أو آخر حتى الآن ، كما يظهر مما أكتبه من مقالات بين الحين والآخر فى بعض صحف المعارضة . وقد حاولت أن أفسر هذه الحالة الاستثنائية فى عائلتنا (أقصد حالتى) ، فخطر لى أنه قد يكون التفسير هو نفس تفسير طموحي منذ سن صغيرة إلى أن أصبح كاتباً كبيراً ، وهو أنني كنت أصغر الأولاد فى أسرة كبيرة العدد . وأقصد بهذا التفسير أنى قد أكون ، بسبب ضالة مركزي فى الأسرة ، قد كرهت الأمر الواقع الذى يجعلنى دائماً فى آخر الصف ، ويعطى للآخرين امتيازات لا أقتنع بها لأنى أصغرهم جميعاً ، فتولد لدى إحساس دفين بالظلم ومن ثم استعداد للشمر والاحتجاج ، وجد عدة منافذ له كان منها منفذ المعارضة السياسية . ومع هذا ربما كان فى هذا بعض الظلم لنفسى ، وأن المسألة قد لا تكون بهذه الباطة ، والدافع قد يكون أنبل من ذلك . فأنا أتذكر كيف كنت فى سن مبكرة أكثر اهتماماً بحال الفقراء من بقية إخوتى ، وأكثر استعداداً للإتفاق عليهم من مالى من بقية أفراد أسرتى باستثناء أبى . وأنى كنت أدافع عن خدام أو خادمة عموماً بقسوة ، أو ظننت أنهما عموماً بقسوة ، أكثر مما كان يفعل أى أخ أو أخت لى . ومن ثم قد يكون مصدر اهتمامى بالسياسة هو هذا الاستعداد للتعاطف مع المظلوم أكثر من مجرد كراهيتى لتعرضى أنا شخصياً للظلم من بقية إخوتى . ولكن من الممكن جداً أيضاً أن يكون هذا التعاطف مع المظلومين سببه شعورى المستمر بأنى واحد منهم .

على أى حال ، فعلى الرغم من أنى بدأت كتابة مذكرات عن الأحداث السياسية وأنا فى الثانية عشرة فإن عمري السياسى الحقيقى هو عمر ثورة يوليو ١٩٥٢ . لقد حدث حتى قبل ١٩٥٢ من الأحداث السياسية ما ترك بعض الأثر فى نفسى ،

ولكنها كانت آثارا عابرة قصيرة العمر بحكم صغر سنى وانشغالى بأمور أكثر ملاءمة من السياسة لصى فى بداية سن المراهقة. لقد تعلمت كراهية إسرائيل منذ قيام حرب فلسطين فى ١٩٤٨. وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى. واهتفت مع زملائى فى المدرسة فى نفس السن، مطالبين بجللاء الإنجليز ووحدة وادى النيل. وفرحت فرحا حقيقيا وأنا فى الخامسة عشرة عندما فاز مصطفى النحاس وحزب الوفد فى ١٩٥٠ فى أول انتخابات نزيهة عرفتها مصر لفترة طويلة من الزمن، واشتركت فى مظاهرة (وكنت طالبا فى المدرسة السعيدية التى لم يكن طلبتها يكفون عن الخروج فى مظاهرات) احتفالا بهذا الفوز، واهتفت «يحيا الشعب وصوت الشعب» لبرد على من حولى، فنهني أحد المتظاهرين الأكبر سنا إلى أن هذا الهتاف خطر، لأنه سوف يصمى على الفور بالشيوعية. كنا نقرأ فى ذلك الوقت مقالات فتحى رضوان وأحمد حسين النارية فى صحف اشتراكية تهاجم الملك بصراحة، وتدعو إلى تحديد الملكية الزراعية بخمسين فدان. وقد اعتقدت فى ذلك الوقت أن هذه الدعوة معقولة تماما وأن العدل أن تكون الأرض «لمن يزرعها». وعبرت عن هذا رأى مرة أمام مستأجر أرض زراعية كان أبى يملكها فى محافظة المنوفية، فابتسم المستأجر ساخرا، ولابد أنه تمنى فى داخل نفسه أن أظل على هذا رأى حتى بعد أن نرت الأرض عن والدى. لا عجب إذن أن كان سرورنا غامرا بقيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكنت حينئذ فى السابعة عشرة من عمرى، وأن تبادلنا التهاني مع أصدقائى بفرح حقيقى، عندما شاهدنا سيارات الجيش تسير ببطء شديد على كورنيش الإسكندرية، وقد وقف عليها بعض الجنود المخوريين بأنفسهم، وهم يلوحون بأيديهم للناس المصطفين على جانبي الطريق وهم يصفقون ويهتفون لهم.



أصبحت بآول خيبة أمل فى الثورة عندما سمعنا فى مارس ١٩٥٤ بنشوب خلاف بين رجال الثورة وعزلهم لمحمد نجيب من رئاسة الجمهورية. كنا نعتشق محمد نجيب عشقا، ففضلا عن ارتباط اسمه بالثورة منذ أول ساعة، كان للرجل صفات شخصية شديدة الجاذبية، إذ بدا عليه الإخلاص التام والنزاهة والتواضع الحقيقى،

مع ميل واضح للفكاهة دون أن يفقد احترام الناس له . لم تكن نعرف لأى عضو آخر فى قيادة الثورة أى دور مهم فيها، وكان اسم جمال عبد الناصر لا يزال اسما مغمورا لا أهمية له . كنت وقتها فى السنة الثالثة فى كلية الحقوق، وهاجت الجامعة هياجا شديدا غضبا على عزل محمد نجيب، وكان قادة هذا الهياج من الإخوان المسلمين الذين كانوا يقفون إلى جانب نجيب . ولا أزال أذكر خطبة ألقاها حسن دوح، وكان من قادة الإخوان فى الجامعة، وخطيبا موهوبا، دعا فيها إلى رفض الرأسمالية والاشتراكية والتمسك بالإسلام . وبلغ حماس الطلبة متهاها عندما اقتطف آية قرآنية وهو يصف دعوته قائلا إنها «لا شرقية ولا غربية»، «زيتونة مباركة» . وقد ظل هذا الاقتطف من القرآن الكريم عالقا بذهنى أذكره كلما لاحظت مدى قوة تأثير الدين فى المصريين، وكيف أن نفس الفكرة التى يمكن أن يقابلها الناس ببرود، يمكن أن تثير حماسهم بشدة إذا عبر عنها تعبيرا دينيا .

وقد انضمت إلى اعتصام قام به الطلبة فى داخل قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة مصممين على عدم ترك مكانهم حتى يعود محمد نجيب إلى منصبه . وقد أرسل قادة الثورة إلينا من يحاول أن يثبينا عن عزمتنا فلم نقبل، وفرضت حراسة قوية حول أبواب الجامعة تمنع أى شخص من الانضمام إلى المعتصمين، ولكن ترحب بخروج أى طالب إلى غير رجعة . وكنت أنوى قضاء الليلة معهم لولا أن جاءنى من يقول إن سيدة تسأل عنك على سلم قاعة الاحتفالات، فخرجت إليها فإذا بها والدتى، رأيتها واقفة على سلم قاعة الاحتفالات بشبها وطرحتها السوداء، وقد راعها أن تسمح بانضمامي للطلبة الثائرين فقررت أن تأتى على الفور لإخراجي . كانت أمى تنزع دائما بشدة من أى إضراب فى الجامعة، وتخاف خوفا حقيقيا من أن تصيب أحد منارصاصة أو ضربة بالعصا على رأسه . وكان لها حيلة دأبت على استخدامها منذ سنين طويلة، كلما سمعت بحدوث إضراب، وهى أن تأخذ من حذاء كل ابن من أبنائها فردة واحدة وتضعها كلها فى دولاب وتغلقه بالمفتاح . كانت هذه طريقة سهلة ولكنها فعالة جدا لمنع اشتراكنا فى الإضراب، إذ كيف يخرج أحدنا بفردة حذاء واحدة؟ ولكن هذا الاعتصام فاجأها دون استعداد

فخرجت على عجل دون أن تعنى حتى باستبدال شبشبها بحذاء ، واستقلت أول تاكسى تراه إلى جامعة القاهرة .

عندما أوقفها الضابط الواقف على باب الجامعة وسألها عما تريد قالت : «إنكم تضربون أولادنا فى الداخل» ، فقال لها بأدب : إنهم لا يضربون أحدا ، وإنهم يرحبون بأى محاولة من جانبها لإخراجنا إن استطاعت . فاستمرت فى سيرها حتى قاعة الاحتفالات ، وكان ذهولى لرؤيتها بهذه الحالة ، وخجلى من زملائى المتعصمين كافيين لأن أترك الاعتصام وأن أعود معها صاغرا إلى البيت .

لم يستمر الاعتصام طويلا . بل ربما لم يستمر أكثر من بضع ساعات أخرى ، إذ أعلن قادة الثورة عودة محمد نجيب . بناء على قرار ماركز ، كما تبين لنا فيما بعد ، بالانحناء للعاصفة حتى يهدأ الناس ، على أن يعزلوه فيما بعد عندما يأخذون للأمر عدته ويحسبون الاستعداد له . كان من بين ما رتب للتخلص من محمد نجيب نهائيا ، إخراج مظاهرات بهتف ضد الدكتور السنهورى الفقيه الكبير ، الذى كان وقتها رئيسا لمجلس الدولة ومن المناصرين لمحمد نجيب . وخرج العمال المدفوعون بالطبع من رجال الثورة المنشقين على نجيب ، يهتفون «يسقط السنهورى الجاهل» ، واقتحموا عليه مبنى مجلس الدولة فى الجزيرة واعتدوا عليه وشجوا رأسه بلوح الزجاج الذى كان يغطى مكتبه . كان تأثرى ، أنا وزملائى فى كلية الحقوق ، شديدا بما حدث للسنهورى ، فضلا عن أنه كان أقرب أصدقاء أبى إلى قلبه ، كان يتمتع بمكانة عالية لدى طلبة الحقوق ، فقررنا أن نذهب لزيارته فى المستشفى ومعنا باقة ورد تحمل إهداء من طلبة كلية الحقوق ، وقتنا بذلك بالفعل بما يدل على أن الدولة البوليسية لم تكن قد اشتد عودها بعد فى مصر ، إذ لم يكن مثل هذا العمل ليمر بسهولة لو كان قد حدث بعد سنوات قليلة .

كانت صحة أبى وقتها قد تدهورت بشدة ، فنهت علينا أمى بالأ نخبره بما حدث للسنهورى خشية المزيد من التدهور . ومع ذلك فكان السر أكبر من قدرتها على كتمانها فسرعان ما أخبرته بنفسها بما حدث . وقد مات أبى بعد هذا الحادث شهرين (٣٠ مايو) ولكن السنهورى كان قد خرج من المستشفى ، ولا أعرف بالضبط لماذا لم

تسل دموعي على أبي، إلا عندما رأيت مدى حزن السنهوري عليه وهو يسير في جنازته.

نشأ لدى في ذلك الوقت شعور قوى بكرامية جمال عبد الناصر. ولم يكن هذا وقتئذ غريباً بالمرّة. لقد اقترن بدء اسمه بانقلاب الثورة على نفسها، وبتوجيه انتقادات غير مقنعة وغير مفهومة لرجل كنا نحبه كل هذا الحب، وهو محمد نجيب. وقد سمعنا أن عبد الناصر كان له الدور الأكبر في ترتيب الاعتداء على السنهوري، وأنه ذهب مع ذلك لزيارته في المستشفى فرفض السنهوري مقابلته.

كان ذلك البيان غير المقنع وغير المبهوم الذي أذيع علينا لتبرير خروج محمد نجيب من منصبه مجرد بداية لسلسلة لم تنته من استخدام حجج وشعارات ملتوية، وتسمية الأشياء بغير اسمائها الحقيقية، من تسمية الهزيمة العسكرية بـ «النكسة» إلى تسمية انقلاب صاحب سلطة على صاحب سلطة آخر بـ «ثورة التصحيح». إلخ، مما لم يكن معهوداً في عصر ما قبل ١٩٥٢. ثم لم يتقض وقت طويل على الانقلاب على محمد نجيب حتى جرى توقيع اتفاقية الجلاء في ١٩٥٤، التي كرهناها أيضاً كرهاً عميقاً، إذ كانت تنص على حق الإنجليز في العودة إلى احتلال قناة السويس لدى حدوث أي اعتداء أو تهديد بالاعتداء على أي دولة من الدول العربية أو على تركيا، وكان مثل هذا النص هو الذي أثار المصريين ضد مشروع صدقي-بيفين (١٩٤٦) وأدى إلى سقوط إسماعيل صدقي من الحكم. بدت لنا إذن اتفاقية الجلاء نكوصاً مشيناً عن الآمال القومية، وثار شكوك قوية في وطنية عبد الناصر، ولهذا لم أشعر بأى تعاطف معه عندما حدثت محاولة الاعتداء عليه في ميدان المنشية بالإسكندرية في ١٩٥٤، وكنت أكثر ميلاً إلى تفسير الحادث بأنه مذبذب من الحكومة نفسها لتبرير القبض على بعض خصومها. وشعرت بالامتناع الشديد عندما سمعت ما قاله عبد الناصر للناس بعد إطلاق النار عليه مباشرة، إذ كان تعبيره عن تعجبه من أن يطلق أحد النار عليه هو «أنا الذي علمتكم العزة والكرامة»، فقد وجدت في هذه العبارة ما لا يطاق من الغرور من ناحية، وإهانة للمصريين من ناحية أخرى. كما أنني استبعدت أن تتوافر لأي شخص البديهة الحاضرة لهذه

الدرجة بعد إطلاق النار عليه مباشرة، إلا إذا كان يعرف بإطلاق النار مقدما. في أعقاب هذا الحادث مباشرة خرجت أم كلثوم بأغنية جديدة مطلعها «يا جمك يا مثاك الوطنية، أحمل أعيادنا القومية، دى نجناك يوم المنشية»، فلم أصبر على سماعها، وكنت أغلق الراديو بمجرد أن تبدأ، مع أنى كنت أيامها مغرما بأغانيها وأنتظر أى أغنية جديدة لها بفارغ الصبر.

لم أكن وحدي أشعر بهذا الشعور المعادى لعبد الناصر فى ١٩٥٤، بل كان يشاركنى فى ذلك الكثيرون، خاصة بعد أن سمعنا بفصل كثير من أساتذة الجامعة من اليساريين والإخوان المسلمين، والقبض عليهم لمجرد إبدائهم لأراء، أو الشك فى أن لديهم آراء معادية للنظام. ولكن حدث فى العام التالى مباشرة ما بدأ يشيع مناخا جديدا، وبدأت لاحظ فى بعض المجلات المتعاطفة مع اليسار نغمة جديدة فيها تعاطف مع عبد الناصر. كان السبب فى ذلك مؤتمر باندونج، حيث بدأ ظهور شعارات الحياء الإيجابى وعدم الانحياز، وبدأ من حكومة الثورة أنها سوف تسير فى نفس الاتجاه الذى رفع شعاره نهرو وسوكراتو وتيتو. ولكن التغير الكامل فى موقفنا ومشاعرنا تجاه عبد الناصر جاء فى ١٩٥٦، بإعلانه المفاجئ تأميم قناة السويس. لم نصدق أذاننا ونحن نسمع الخبر، وكانت فرحتنا واعتزازنا بأنفسنا ومصريتنا أكبر مما يمكن وصفه.



كانت السنوات الست (١٩٦٤-٥٨) التى قضيتها فى البعثة فى إنجلترا، سنوات حافلة بالأحداث الحاسمة فى تاريخ مصر السياسى والاقتصادى، وتشكل فى الحقيقة «الحقبة الناصرية» بالمعنى الدقيق، إذ كانت السلطة التى يتمتع بها عبد الناصر والسمات الأساسية لسياسته، أضعف بكثير قبل هذه الفترة وبعدها. كانت وحدة مصر وسوريا قد أعلنت وأنا فى الباخرة فى طريقى إلى البعثة (فبراير ١٩٥٨)، ثم سمعنا بعد ذلك بشهور قليلة بقيام الثورة العراقية (يوليو ١٩٥٨)، ثم بتطورات ماثرة فى الأردن ولبنان كانت تؤذن كلها بنهضة قريبة للعرب، أو هكذا كنا نظن، وبدت الوحدة العربية الشاملة قاب قوسين أو أدنى. فلما أعلن عبد الناصر قرأتين

التأميم في ١٩٦١ بلغ حماسى ذروته وظننت، مثل كثيرين غيرى، أن آمالنا الكبرى على وشك أن تتحقق.

كان الجميع يتكلمون عن العرب، والصحف البريطانية لا تكف عن الكلام عما يفعله العرب، والكتب الجديدة تصدر كل يوم عن مغزى الثورة المصرية أو العراقية، أو عن القومية العربية ومستقبلها، وعن تاريخ العرب وطريقة تفكيرهم، ناهيك عن جمال عبد الناصر ودوافعه الظاهرة والخفية، ومختلف العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته وآرائه. . إلخ. لم تكن المشاعر التى تحيط بنا فى إنجلترا مشاعر ودية فى الغالب، إذ كان الإنجليز لا يزالون يذكرون أننا السبب فيما تعرضوا له من إهانة ومذلة خلال الأثمة التى خلفها تأميم عبد الناصر لفنائه السويس، والتى بدت وكأنها بداية الانحدار المستمر للإمبراطورية البريطانية. ولكن هذا الشعور العدائى لم يكن يظهر بصراحة إلا من جانب الطلبة اليهود، الذين كانوا ينتهزون أى فرصة للانتصار لإسرائيل والإساءة للسعة العرب. عندما حلت ذكرى إنشاء دولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٦١، خطر لمجموعة من الطلبة العرب فى كلية لندن للاقتصاد، كنت أنا من بينهم، أن نكتب منشورا من صفحة واحدة تلخص الحجج العربية فى قضية فلسطين، ونوزعه على الطلبة. وقد كتبت أنا هذا المنشور فى عشر نقاط، لا يزيد كل منها على سطر أو سطرين، ووقفنا أمام باب الكلية منذ الصباح نعطى نسخة لكل طالب أو أستاذ يجتاز الباب. وجن جنون الطلبة اليهود، ولم تمض ساعة أو ساعتان حتى رأيتهم يوزعون منشورا مضادا يردون فيه على كل نقطة من نقاطنا العشر، وينزعون من الحواظ ما كنا قد ألصقناه بها من نسخ منشورنا.

لم يستمر حماسنا وتفاؤلنا طويلا، فلم تمض عدة شهور على صدور القوانين الاشتراكية فى مصر حتى حدث انفصال مصر وسوريا (سبتمبر ١٩٦١)، ولم يفلح قيام ثورة فى اليمن بعد شهور قليلة من التخفيف من شعورنا بالإحباط لفشل الوحدة. ثم تتابعت الأحداث والانقلابات فى العراق وسوريا مما جعل حلم إنعام الوحدة العربية أبعد فأبعد عن التحقيق. ثم حدث (فى ١٩٦٣) أن نسلت الحكم فى سوريا والعراق فى نفس الوقت، حكومتان بعثيتان، كلتاهما من أتباع ميشيل

عقل، وجاء وفدان من الدولتين إلى مصر للتحايط في إقامة وحدة جديدة تمحو آثار الانفصال بين مصر وسوريا وتضيف إليهما العراق. ساورنا بعض الأمل وقتها ولكنه سرعان ما تبدد عندما سمعنا بتشدد عبد الناصر في رفض الخضوع لإرادة حزب البعث، وتشدد الحكومتين البعثيتين في رفض أى وضع يمكن أن تكرر فيه أخطاء الوحدة السابقة. وقد سمعت أثناء هذه المباحثات خطبة لجمال عبد الناصر وردت فيها سخرية جارحة من ميشيل عفلق، ومن تلغيمه وتردده في الكلام، وقد ألتنى هذه الحملة بشدة، إذ فضلا عن حبي القديم لعفلق وتقديرى له، لم أجد أى مبرر لاستخدام سلاح الإهانة الشخصية لكسب معركة سياسية. لقد جنب على هذا الغضب الذى شعرت به بسبب هذه الخطبة، آثارا وخيمة استمرت ثلاثين عدة سنوات، ولعلها لم تنته إلا بعد وفاة عبد الناصر وقيام أنور السادات بإحراق الملفات التى كانت تحتوى على تقارير المخابرات والمباحث عن كل من تفوق بكلمة ضد النظام المصرى. وكنت أنا من بين الآلاف التى كتبت عنهم مثل هذه التقارير، وربما كان ملفى قد بدأ فتحه بمناسبة ما قلته تعليقا عما دار فى هذه المباحثات بين عبد الناصر وزعماء البعث.

ذلك أنه فى تلك السنة (١٩٦٣) التى دارت فيها المباحثات بين عبد الناصر وقادة حزب البعث، تصادف أن كنت فى مصعد كلية لندن للاقتصاد ورأيت معى فى نفس المصعد شابا طويلا عريضا له ملامح مصرية واضحة، كنت أراه حيثنأ لأول مرة. سألته عما إذا كان مصرية فأجاب بالإيجاب، وقال: إنه وصل حديثا من مصر والتحق بنفس كليتنا كطالب ماجستير فى العلوم السياسية. تبين أيضا من الحديث أنه يجد صعوبة فى العثور على سكن ملائم، فانفقنا على اللقاء بعد انصرافنا من الكلية لمساعدته فى حل هذه المشكلة. وهو ما حدث بالفعل. لم يكن ليخطر ببالي قط أن نظام المباحث والمخابرات المصرى قد وصل إلى هذه الدرجة من النشاط والانتشار، أو أن مصر قد أصبحت دولة بوليسية إلى هذه الدرجة. كنت قد تركت مصر منذ أكثر من خمس سنوات. وقد وقعت خلال هذه الفترة أحداث التأميم، وانفصال سوريا عن مصر، واشتداد الخلاف بين النظام المصرى ونظم عربية أخرى، وهى أحداث جعلت النظام المصرى يشغل أكثر فأكثر بحماية نفسه وتبع الأعداء

والخصوم الحقيقيين والمحتملين بدرجة لا بد أنها زادت عن اللازم، وخلقت أجهزة وهئات يستفيد أصحابها استفادة شخصية من غو هذه الطبيعة البوليسية للدولة، بصرف النظر عما إذا كانت الدولة فى حاجة حقيقية إليها أو لم تكن. لقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل الطويل العريض الذى قابلته فى مصعد كلية لندن للاقتصاد لم يكن إلا مبعوثاً من أحد أجهزة المباحث المصرية للتجسس على الطلبة المصريين فى لندن، وكتابة التقارير عنا وإرسالها أولاً بأول إلى القاهرة. وقد وجد الرجل بغيته وكتب عنى تقريراً سيئاً للغاية حفظ فى ملفى، أو فتح به ملفى بالمخابرات المصرية. فما الذى دفعه إلى هذا بالضبط؟

كانت جمعية الطلبة العرب بإنجلترا قد قررت تنظيم مؤتمر لمناقشة الأوضاع العربية، وطلبت منى أن ألقى محاضرة فيه ففعلت. وكنت قد سمعت قبل إلقاء المحاضرة ببضعة أيام عما دار بين عبد الناصر والبعثيين، وهجومه العنيف على شخصية ميشيل عفلق. وقد أدى ذلك بى إلى تضمين محاضرتى نقداً لما دار فى مباحثات الوحدة، وثناء على بعض أفكار البعث، بن وبعض السخرية من بعض عبارات «الميثاق» الذى كان قد أصدره عبد الناصر فى أعقاب الانفصال، ولم أكن أعرف مدى التبجيل والاحترام الذى فرضه النظام على الناس لهذا الميثاق. لا أكاد أذكر شيئاً أكثر من هذا عن محتوى كلمتى، ولكنى أذكر، وربما كان هو السبب الأساسى لمحتوى، أنه أثناء النقاش الذى أعقب المحاضرة، قام ذلك الشاب المبعوث من المباحث المصرية فقال شيئاً فى الرد علىّ، فصدرت منى عبارة قاسية تسخر منه هو شخصياً. وربما كان هذا هو ما اعتراه الرجل غير مغتفر ولا يمكن السكوت عليه. وليس ما وجهته من نقد للنظام المصرى أو ثناء على البعث.

لم أعلق أهمية كبيرة وقتها على ما حدث، وانصرفت لإتمام رسالة الدكتوراه التى كانت قد أوشكت على الانتهاء، ولكنى فوجئت بعد نحو شهر بمدير البعثات المصرى (محمد فتحى) يستدعنى لمقابلته فى مكتبه. فى هذه المقابلة اتفصحت لى خطورة ما صنعت، إذ كان الرجل مشغولاً انشغالا غير مبهود بى قتلته وما لم أقله فى المحاضرة، واستخدم كل الوسائل الممكنة لكى يجعلنى أطمئنه له النص المكتوب

للمحاضرة فرفضت ، وقلت له إنى أعتبر من حقى أن أقول ما أشاء وأن أرفض ، إذا أردت ، أن أذكر له بالضبط ما قلته . عدت إلى مسكنى دون أى شعور بالخوف بل ربما كنت فخورا بنفسى . كان من بين ما قاله لى مدير البعثات إن لديهم طرقا لإجبارى على تسليم المحاضرة ، فسألته عن كنه هذه الطرق فلم يجب . وقد استبعدت جدا أن يصدر قرار بإنهاء بعثتى وإعدتى إلى مصر قبل إنهاء الدكتوراه . وبالفعل ، ثبت أن النظام المصرى لم يكن يمثل هذه القسرة أو الحماقة . فقد كتب مدير البعثات تقريرا للقاهرة (كما أخبرنى هو نفسه بعد مرور هذه الواقعة بسنوات عديدة) يقول فيه إنه ليس هناك مصلحة فى اتخاذ أى إجراء ضدى وأنا فى إنجلترا ، وأنه يتوقع «أن يجرفنى التيار» عندما أعود إلى القاهرة فأكف عن العناد والتمرد . نعم ، لم يكن النظام البوليسى فى مصر من القسوة بحيث يفسد على الشهور الباقية لى فى إنجلترا أو يحرمى من إتمام دراستى ، ولكنه كان من الشدة بحيث سبب لى فيما بعد من المتاعب والمخاوف والألام ما لم تكن هناك أدنى حاجة إليه .

من ذلك ما حدث عندما وطئت قدمى لأول مرة أرض مصر بعد انتهاء بعثتى ، بل وحتى قبل أن تطأ قدمى أرض مصر . كنت فى طريق عودتى النهائية إلى مصر بعد انتهاء بعثتى ، ومعى زوجتى الإنجليزية التى تزوجتها بمجرد حصولى على الدكتوراه فى إبريل ١٩٦٤ . وكانت تأتى إلى مصر لأول مرة ، وكل سنا فى غاية السعادة والاستبشار ببدء حياة جديدة فى مصر التى كنت أفقدها بشدة . كان سفرنا بالباخرة ، وكانت بالخرة «مصرية اسمها» الجزائر» تسير بين مينائى البندقية والإسكندرية . قضينا على الباخرة ثلاثة أو أربعة أيام كنت خلالها أكاد أظير فرحا وحماسا كلما سمعت أغنى مصرية ، وكان مطلع أغنية (قلنا حابنى وآدى إحتابنينا السد العالى) من أوليات الكلمات العربية التى تعلمتها زوجتى . فلما وقفت الباخرة فى ميناء الإسكندرية وظننا أن ما علينا الآن إلا النزول إلى أرض مصر ، فوجئنا بأن المسألة ليست بهذه البساطة ، فقد رأينا طابورا من الضباط يصعدون إلينا فى الباخرة وعلى وجوههم سمات غاية فى الصرامة والتحجم ، فتعد لهم مائدة طويلة فى إحدى صالات الباخرة ، ويصطف المسافرون أمامهم لكى يقدموا للضباط أوراقيهم وجوازاتهم . لم يخطر ببالى قط أن أكون أنا واحدا من يتربصون

وصوله . كنت قد حذّرت زوجتى بأنها قد تصادف مشكلة بسيطة عند وصولها إلى مصر بسبب أزمة جديدة بين مصر وبريطانيا كانت قد نشأت مؤخراً عن الدعم الذى كان يرسله عبد الناصر لكثرتين ضد بريطانيا فى عدن ، ولكنى طمأنتها بأنه حتى لو سألوها بعض الأسئلة فإنها لن تكون مشكلة كبيرة . كان الذى حدث هو العكس بالضبط ، إذ ما إن جاء دور زوجتى وتبين الضابط أنها بريطانية حتى هشوا لها ، وأخذوا يجربون معرفتهم بالإنجليزية فى عبارات الترحيب بها فى مصر ، ولكن ما إن اطلعوا على اسمى ونظروا فى بعض القوائم التى يحملونها حتى أظلمت وجوههم ، وظهر عليها ما يدل على أنى رجل أخطر بكثير مما كنت أظن ، ولوح أحدهم لى بذراعه ، وأمرنى بغلظة بأن أقف جانبا حتى يفرغ من سائر المسافرين ثم سوف يكون له شأن معى . عندما فرغ بالفعل من سائر المسافرين انصرف بكل انتباهه إلى . وأمطرنى بالأسنة التى لم يوجهها لأحد غيرى ، وهو يكتب إجاباتى باهتمام ، وعندما عرف كل شئ عنى أطلق يده فى احتقار ، بمعنى أنه يمكننى الآن أن أنصرف .

لم يكن هذا هو بالضبط الاستقبال المطلوب لى عودتى لوطنى بعد بعثة ست سنوات حصلت فيها على الدكتوراه . ولكن هذا الاستقبال المهيّن لم يكن بأية حال أسوأ مما تعرضت له بسبب تلك المحاضرة الملعونة التى ألقيتها فى لندن ، وعجالة السخرية التى خرجت منى دون تفكير وأغضبت مبعوث المباحث المصرية . فبعد وصولى إلى مصر بأسابيع قليلة ذهبت أنا وزوجتى إلى الإسكندرية لاستلام ما سبق لنا شحنة من متاع ، وأثناء سيرنا على الكورنيش إذا بى أرى شخصا يقفز من أحد الأتوبيسات ويجرى ورائى مناديا اسمى . فلما تفحصته وجدته الطبيب المصرى الطبيب الذى كان يرافقنا فى رحلة الباخرة من البندقية إلى الإسكندرية ، وهو طبيب الباخرة التى يسافر معها جيشة وذهابا . وكان قد رأتى وهو راكب فى الأتوبيس قفز منه لأن لديه شيئا مهمسا يريد أن يقوله لى . عندما بلغنى سألنى وهو فى غاية الاندهاش : «ما الذى فعلته بالضبط ؟» فلما استوضحته ما يقصد قال إنه فهم من الضباط الذين صعدوا إلى الباخرة عند وصولك إلى الإسكندرية أننى فعلت شيئا

خطيرا استوجب وضعي تحت المراقبة ، وحذرتني من أن أقوم بأي عمل يثير الشكوك لأبي بالفعل مراقب .

حدث بعد هذا أن أستاذة بكلية حقوق عين شمس التي التحقت بها مدرسا للاقتصاد بمجرد عودتي من البعثة (وهو ما كان مقررا منذ الإعلان عن هذه البعثة) أخبرني بأن هناك شخصا مهما يريدني أن أقابله . كان هذا الشخص المهم (هو الدكتور حسين كامل بهاء الدين الذي صار وزيرا للتعليم بعد هذا بسنين كثيرة وفي مناخ سياسي مختلف تماما) مسئولاً في ذلك الوقت عن منظمة الشباب التي كان النظام قد أنشأها حديثا لتكوين كرادر ثورية ومؤمنة بأهداف ثورة يوليو . وكان هذا المسئول قد طلب من زميلي بكلية الحقوق تعريفه على من يتوسم فيه الخير من أساتذة الكلية الشبان ، ويعتقد أن أفكارهم متفقة مع أهداف النظام . وقال لي هذا الزميل إنه ذكر اسمي للمسئول الخطير فحدد لي موعدا للمقابلة .

ذهبت لمقابلاته ودار بيننا حديث عن الاشتراكية والرأسمالية ، اعتقدت أنه لا بد أن يكون قد ترك أثرا طيبا لديه ، بدليل أنه أصر على توصيلي بسيارته من مكتبه بجاردن سيتي إلى مسكني بالمعادي . صحيح أنه طوال هذه الرحلة لم ينس بيت شقة لسبب لم أفهمه حتى الآن ، إلا أنه لم يبدئ أن هناك أي سبب لأن يرفض أن يعهد إلي بمسئولية ما في منظمته . ثم فاجأني زميلي بالكلية بإخباري بأن المسئول الكبير قال له إنني لا أصلح للعمل معهم «لأن لي تاريخا» ، وإنهم يريدون «أشخاصا بلا تاريخ»! وقد أكد لي أن هذا هو الذي يريدونه بالفعل . إن كثيرين ممن استعانوا بهم في تلك الأيام والأيام التالية كانوا من النوع الذي لا يؤمن بشيء على الإطلاق ، ألفروا محاضرات على الشباب في الاشتراكية في ذلك الوقت ، أي في منتصف الستينيات ، ثم ألفروا محاضرات وكتبوا مقالات في التنديد بالاشتراكية في السبعينيات ، وأصبحوا وزراء في الثمانينات أو التسعينات .



على أن الذي أصابني بالام نفسية مبرحة ، لم يكن هذا الحادث أو ذلك ، بل ما حدث في ١٩٦٦ ، أي بعد مرور سنتين على عودتي من إنجلترا ، عندما تلقيت دعوة

من جامعة لندن لحضور مؤتمر بعنوان «مصر منذ ١٩٥٢»، إذ طلب مني أن أكتب بحثاً عن تطور الاقتصاد المصري منذ الثورة. كان فرحى بهذه الدعوة عظيماً لأكثر من سبب. فمن ناحية كانت هذه أول مرة أدعى فيها للاشتراك في ندوة أو مؤتمر علمي باعتباري «أستاذ» لا «تلميذ». والدعوة تجنبتني من جامعة لندن التي درست فيها، فهأتد، إذن أعمل من هذه الجامعة كأستاذ لا كتلميذ. والمؤتمر قد دعيت إليه أيضاً شخصيات مهمة علمياً أو سياسياً، فهناك الأستاذ السويدي هانسن، وأستاذة آخرون في الاقتصاد من أكسفورد ولندن، والذي دعى إلى الكلام عن تطور الثقافة في مصر هو الدكتور لويس عوض، وعن التطور السياسي مالكولم كير من جامعة كاليفورنيا، وخالد محيي الدين من مصر. أضف إلى هذا أن المؤتمر يعقد في لندن التي عشت فيها ست سنوات ولم أرها منذ ستين، حتى بدأت أشك في أن تلك السنوات الست لم تكن حقيقية بل كانت حلماً. لقد مررت خلال هذه السنوات الست بتجارب عميقة الأثر في نفسي، عاطفية وجنسية وفكرية، وعدت بعدها شخصاً كنت أشعر أحياناً بأنه شخص مختلف تماماً عن ذلك الذي ذهب إلى لندن في ١٩٥٨. فما أروع أن أرى تلك الشوارع من جديد وأركب قطار الأنفاق من جديد، وأشم رائحته مرة أخرى، وأطوف سحجرات كلية لندن للاقتصاد التي شعرت وأنا جالس فيها بأشد المشاعر قوة، من متهى الفرح إلى متهى اليأس.

كان هذا هو معنى أن أذهب إلى لندن لحضور ذلك المؤتمر في ١٩٦٦، وكان من الطبيعي أن تذهب معي زوجتي الإنجليزية فتزور أبويها، ولكن يصحبة زوجها الأستاذ المدعو من جامعة الإنجليزية، وليس زوجها التلميذ الذي لا يرى أحداً ما الذي يمكن أن يكون عليه مستقبله.

كان السفر من مصر في ذلك الوقت أمراً صعباً ويستلزم إجراءات لا نهاية لها، بل إن جواز السفر نفسه لم يكن من السهل أبداً الظفر به. وإذا حدث وظفر المؤء به فإن الدول التي كان يسمح لصاحب الجواز بالسفر إليها قليلة جداً ومذكورة على سبيل الحصر، فتضاف الدولة المطلوبة عندما يثبت عدم وجود مانع سياسي من الذهاب إليها، وتكاد أن تكون كل الدول مما يوجد معها «مانع سياسي» لسبب أو آخر. لا بد أيضاً إذا كنت أستاذاً بالجامعة أو ذا وظيفة لها أى شأن على الإطلاق، أن

تحصل على موافقة مكتب الأمن . و« مكتب الأمن » كان بالنسبة لنا اسما مخفيا لمكان غامض ، مملوء بالملفات والتسجيلات التي تسجل فيها أى بادرة أو هموة أو فكرة قد تكون قد خطرت ببالك ، ويشتمل منها بعض الخطورة على النظام .

كنت أعرف كل هذا ، وكان من التوارد المنتشرة فى مصر فى ذلك الوقت أن نمثال أبى الهول عندما عبر له جمال عبد الناصر عن إعجابه الشديد به وسمح له أن يطلب أى شئ ، قد يرغب فيه ، طلب أبو الهول « تأشيرة خروج » . وشاع أيضاً وقتها تحوير لعبارة مصطفى كامل الشهيرة فأصبحت : « لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً بالخارج ! » . كنت أعرف كل هذا ومع ذلك ، وعلى الرغم مما كنت قد صادفته حتى الآن من متاعب بسبب « تقرير لندن » ، لم أكن أتصور أن تصمم جهات الأمن إلى هذه الدرجة على معي من السفر . ظننت نحو ثلاثة أشهر أخرى وراء استمارة الأمن ، فيقال لى « تعال بعد أسبوع » ثم بعد أسبوع آخر ، ثم يقال لى إن الباحث هى المعترضة ، ثم يقال بل المحابرات العامة . . إلخ حتى اضطرت وأنا فى حزن شديد أن أرسل بوقية اعتذار عن حضور المؤتمر ، وسافرت روجتى بدونى وكل ما يشعر بالأسى الشديد إذ نفترق ، لأول مرة منذ زواجنا ، بسبب اعتراض المحابرات العامة على سفوى . عندما سمع خالد محيى الدين بما حدث لى ، وكان رغم خروجه منذ عشر سنوات من مجلس قيادة الثورة ، لا يزال على علاقة قوية بالكثيرين من رجال الثورة والمسكين بالسلطة ، وكنت أنا صديقاً لشقيقه عمرو محيى الدين ، طُيب خاطرى وطمأننى بأنه سيحل لى المشكلة .

ومرت أيام أخرى طويلة دون أن يظهر أن خالد محيى الدين قد صادف أى نجاح ، وقال لى مستغرباً : « إن موضوعك كالولادة المتعسرة » ثم أضاف إنه لا حل إلا أن يأخذنى من يدى ويذهب لمقابلة شعراوى جمعة شخصياً ، وكان وقتها وزيراً للداخلية ومن أهم المسؤولين عن الأمن فى مصر . ذهبتا لمقابلته فى مبنى فخم فى مصر الجديدة كان يسمى وقتها « بمقر الحكومة المركزية » ، ورأيت شعراوى جمعة بمجرد أن دخل عليه خالد محيى الدين يحتضنه فى مودة بالغة ، فاستبشرت خيراً ، وظننت أن مشكلتى على وشك الانتهاء . ولكن مرعان ما خاب ظننى إذ ما إن فتحت

خالد محبى الدين موضوعى حتى بدأ شعراوى جمعة يقدم له ميرات الإجراءات المتخذة ضدى . كان أول ما قاله هو أنى بعنى ، فأثار هذا دهشتى الشديدة وانفعالى . وقلت لشعراوى جمعة ما معناه : «هل مما يلوث سمعة شخص فى نظركم أنه عندما كان فى التاسعة عشرة من عمره تحمّس للاشتراكية والوحدة العربية والحرية؟ وهى أشياء لم يكتشف النظام المصرى محاسنها إلا بعد ذلك بخمسن سنوات أو أكثر ، واتحدت مع سوريا على أساسها ، وكان البعثيون حلفاءكم وأنصاركم؟» لم يرد شعراوى جمعة على هذا ، ولكنه أضاف «إن هناك أيضا ما يدل على أنك فى إحدى محاضراتك فى كلية الاقتصاد (فى سنة ١٩٦٥ ، عندما كنت أدرس مقررا فى تاريخ الفكر الاقتصادى) قلت شيئا يسيء إلى النظام . لم أرد على هذا الاتهام لأنى لم أستبعد أن يكون قد صدر منى فى ذلك الوقت نقد لجانب أو آخر من سياسة النظام ، ولكن أذهلنى أن أسمع ما معناه أن هناك من يقدم تقارير للمباحث العامة حتى عما يقوله أستاذ فى الجامعة لا فى محاضرة عامة أو مؤتمر سياسى بل فى مقرر عن «تاريخ الفكر الاقتصادى» .

انتهت المقابلة دون أى وعد بشيء . ورجعت إلى بيتى حزينا ، وأبرقت إلى زوجتى بأنه ليس هناك أمل فى حضورى إلى إنجلترا . لهذا كان استغرابى شديدا والمفاجأة سارة للغاية عندما تلقيت مكالمة تليفونية من خالد محبى الدين بعد هذه المقابلة بنحو أسبوع يخبرنى فيها أن مشكلتى قد حلت ، وأن بإمكانى الذهاب إلى مكتب الأمن لاسلام الموافقة على طلبى للسفر . وكان هذا هو ما حدث بالفعل ، وحصلت فعلا على تأشيرة الخروج وأصبح السفر ممكنا فجأة ، وأبرت من جديد إلى منظمى المؤتمر فى لندن وإلى زوجتى بأنتى سأحضر .

لم يكن من السهل أن تعود إلى الطمأنينة الكاملة بعد كل ما مررت به من عذاب وإثارة للأمال ثم إحباطها . وأذكر أننى عندما حكيت القصة لصحفى كبير ومناضل قديم (محمد عودة) حذرنى بظرفه المعهود من المبالغة فى التفاؤل . قال إنه حتى بفرض أنى ركب الطائرة الموجهة إلى لندن ، وصعدت الطائرة فى الهواء ، فإنهم قادرون على إعادتها إلى مطار القاهرة وإخراجى من الطائرة . قال : إننى لا يمكن أن

أطمئن تماماً إلى خروجي من مصر إلا عندما تتجاوز الطائرة الأميال البحرية الأربعة عشرة التي تدخل في دائرة السيادة المصرية . بعد هذه الأميال لا تستطيع السلطات المصرية إرجاع الطائرة الأجنبية إلى أراضيها . وقد حكى له كنيان لنظرت ما حدث لصالح جاهين ، الشاعر الشهير ، بعد ركوبه الطائرة ، ولم تكن الطائرة قد عبرت بعد هذه الأميال ، فأعادت السلطات المصرية الطائرة إلى مطار القاهرة . وإذا بصالح جاهين يسمع اسمه ينادي في ميكروفون الطائرة ويطلب منه النزول ، وما إن نزل منها حتى طارت الطائرة من جديد . ولما ذهب إلى سلطات الأمن التي أمرت بعودته ، اكتشف أنه حدث خطأ في الاسم ، إذ كان الشخص المطلوب القبض عليه شخصاً آخر باسم صلاح محمود جاهين ، تاجر حشيش ، وهو غير الشاعر صلاح جاهين . ولكن سافرت وعبرت الأميال البحرية ولم يحدث شيء .



كانت هذه مجرد حادثة واحدة من سلسلة الأحداث التي قضت شينا فنيئا على شعوري بالتعاطف مع نظام عبد الناصر . هذا التعاطف الذي بدأ مع تأميم القناة في ١٩٥٦ ، وبلغ أوجه مع تأميمات ١٩٦١ ، ثم أصابه أول شرخ في ١٩٦٣ لما سمعته عن موقف عبد الناصر من ميشيل عفلق .

كنت عند عودتي من البعثة في ١٩٦٤ متحمساً لاشتراكية عبد الناصر . ومن ثم فإني عندما طلب إلى أن أدرُس مقراً بعنوان «الاشتراكية العربية» في كلية حقوق عين شمس ، كأحد واجباتي في التدريس ، رحبت بشدة ووجدتها فرصة لكتابة كتيب صغير في الاشتراكية أعبر فيه عن موقفي منها ومن الماركسية . لم أكن متحمساً لتسمية ما يطبق في مصر «الاشتراكية العربية» ، إذ لم أكن مقتنعاً بأن هناك مثل هذا التنوع بين الاشتراكيات مما يسمح بتسمية أحدها بالعربية وأخرى بالإنجليزية وثالثة بالهندية . . . الخ ، خاصة أن درجة الابتكار النظري في التجربة المصرية ، فيما يتعلق بالاشتراكية ، بدا لي ، وقتها على الأقل ، شبه منعدم . بهذا صممت عندما عرض عليّ زميل في حقوق القاهرة أن نكتب كتاباً مشتركاً في الاشتراكية ، على تسمية الكتاب بالاشتراكية وليس الاشتراكية العربية . وجازاني هذا الزميل سنة

واحدة، ثم نصحه البعض بعدم الاشتراك معي في السنة التالية، ونهيه إلى أن الجزء الذي كتبته أن في الكتاب المشترك، وإن كان قد احتوى على نقد للماركسية، فإنه يبدى تعاطفاً معها أكثر من اللازم، وأن من دواعي الحيلة على أية حال أن يعتبر التجربة المصرية متميزة عن غيرها، وقد يكون المسئولون في الحكومة أكثر تعاطفاً مع اعتبار اشتراكيتهم عربية من اعتبارها نسخة من الماركسية. انفصل عني إذن هذا الزميل وكتب كتاباً وحده في الاشتراكية العربية وكتب أنا كتاباً مستقلاً بعنوان «مقدمة إلى الاشتراكية» درسته لعامين تالين حتى وقعت حرب ١٩٦٧.

قبل وقوع هذه الحرب استدعاني مدير الجامعة مرة ليحاول إقناعي بحذف الجزء الذي انتقد فيه اعتبار اشتراكيته متميزة عن اشتراكية غيرنا، فرفضت ذلك. ولكن كتابي لم يعجب أيضاً الماركسيين؛ بسبب نقدي الشديد للمادة الجدلية ونظرية القيمة الماركسية. ورأوا أن من واجبه أن يرسلوا إلى ماركسيا من الضليعين في الاقتصاد ليقنعني بأن نظرية العمل في القيمة أفضل من نظرية العرض والطلب في تفسير الثمن، وكنت قد قلت في كتابي إن نظرية العمل في القيمة، التي تبنّاها ماركس، قد تكون أفضل من غيرها من حيث إثبات الاستغلال ولاعبارات أخلاقية وسياسية، ولكنها ليست أفضل من نظرية العرض والطلب في شرح محددات الثمن. فلم ينجح هذا الماركسي في إقناعي وظل هذا الجزء كما هو في الكتاب.

على أي حال أدى قيام حرب ١٩٦٧ إلى إراحة الجميع من مثل هذه المشاكل. فقد أرسلت إلى عميد كليتي (إسماعيل غانم) اعتذاراً عن تدريس مقرر الاشتراكية، وكان قد أصبح من الواضح لي الآن أن مشكلتنا الآن ليست هي الاختيار بين الاشتراكية والرأسمالية، بل هي مشكلة الديكتاتورية والديمقراطية، وأننا لسنا في حاجة إلى المزيد من الاشتراكية بل إلى المزيد من الحرية.

كنت وثيق الصلة بهذا العميد وشديد الإعجاب به، ومن ثم ساءني ما لاحظت عليه من استياء لاعتذارى عن تدريس الاشتراكية، وإن كنت أعتقد في تعاطفه مع موقفى الذي لم يمنعه من التعبير عنه إلا ما يشعر به من حرج أمام المسئولين الكبار في

الجامعة والحكومة . أبدى بعض زملائي في الكلية استغرابهم الشديد من هذا الاعتذار ، إذ كان تدريس الاشتراكية وغيرها من المقررات المسماة بـ «القوموية» ، كالتعاون والنجتمع العربي ، فرصة ذهبية لتكوين ثروة لا بأس بها ، وذلك إذا استطاع الأستاذ أن يدرسها في أكثر من كلية ، وعلى الأخص في الكليات ذات الأعداد الغفيرة من الطلاب . وكنت أعرف فعلاً أستاذاً كتب مجلداً ضخماً سماه «الاشتراكية العربية» باعه بثمن مرتفع في الكليات الثلاث أو الأربع التي كان يدرسه فيها عما سمح له بشراء سيارة مرسيدس حمراء كان ينتقل بها من كلية إلى أخرى . وقد رآه أحد التلاميذ يركب السيارة بعد أن أنهى محاضرة في الاشتراكية العربية ، فسأله ساخراً : «طيب . . هذه هي العربية يا دكتور ، فأين الاشتراكية؟»



عندما قامت الثورة في يوليو ١٩٥٢ كنت أصغر من أن يشور في ذهنى أى تساؤل عن وجود أى علاقة محتملة بين هذه الثورة والسياسة الأمريكية في المنطقة ، كما كان فرحتنا بقيام الثورة شديداً للدرجة كان من شأنها وحدها أن تمنع من أن تنصرف أذهاننا إلى تفسيرها بأى عامل آخر غير الشعور بالواجب الوطني لدى الضباط الذين قاموا بها .

كان من الممكن جداً ، لولا هذين العاملين ، أن يشور في أذهاننا بعض الشكوك في سنة ١٩٥٢ حول علاقة الثورة بالولايات المتحدة . كانت كل الدلائل تشير إلى أنه لولا تأييد الولايات المتحدة لحركة الجيش في ٢٣ يوليو ما كللت هذه الحركة بالنجاح ، خاصة مع وجود القوات البريطانية على طول قناة السويس . كان من المعروف لنا أيضاً ، حتى في ذلك الوقت ، أن أول عمل قام به الملك فاروق عندما طلب منه الضباط المصريون توقيع وثيقة التنازل عن العرش في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، كان اتصاله التليفوني بالسفير الأمريكى ليعرف موقفه ، فإذا بالسفير ينصحه بالتنازل . ثم كان من أوائل أعمال الثورة إعدام عاملين (الخميس والقرى) بشبهة الشيوعية . وفي ١٩٥٤ كان من المعقول أن يشور في أذهاننا بعض الشك في أن تكون الاتفاقية التي وقعتها الإنجليز مع قادة الثورة بالجلاء عن مصر قد تمت بدعم

من الولايات المتحدة لمصر وضغط أمريكى على الإنجليز . وأذكر أننى بعد هذه الاتفاقية بقليل عبرت فى نقاش مع أحد البعثيين الأردنيين (حسن الوظائفى) عن رأى فى أن ثورة ١٩٥٢ هى حركة مدعومة دعماً تاماً من الأمريكين ، فرفض الرجل هذه النظرة رفضاً تاماً واستخفها . ولكنى اعتقد الآن أننى كنت على صواب . بل إنى لا أستبعد أيضاً أن فكرة تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ كانت بدورها بتأييد أمريكى بل وربما أيضاً ببيعاز أمريكى . أذكر أننى قرأت فى كتاب «دورة كاملة» (Full Circle) ، وهو السيرة الذاتية لآنتونى إيدن ، رئيس وزراء بريطانيا خلال أزمة السويس ، ما أوحى لى بهذا المعنى . من المفيد أيضاً أن نتذكر أن المعونات الغذائية التى بدأت تدفق على مصر ابتداء من ١٩٥٨ ، كانت عاملاً مهماً فى تسهيل برنامج التنمية الطموح فى مصر حتى منتصف الستينات ، إلى جانب المساعدات السوفيتية ، وأن هذه المعونات الأمريكية لم تتوقف إلا فى ١٩٦٥ .

فى مذكرات أحد قادة الثورة المصرية (العلء عبد اللطيف بغدادى) قرأت أيضاً أنه فى اجتماع لقيادة الثورة فى أواخر ١٩٥٧ ، عندما عُرِضت للمناقشة فكرة الاتحاد مع سوريا ، دافع عبد الناصر عن الفكرة ، فلما اعترض أحد الحاضرين عليها ، وكان معروفًا بعلاقته الطيبة مع الأمريكين ، قال له عبد الناصر ساخراً : «طيب ، روح اسأل أصحابك الأمريكان!»

ولكن العلاقة مع الأمريكين لم تكن على ما يرام فى ١٩٦٤ . ففي تلك السنة بدأ عبد الناصر يشير إلى تهديدات الولايات المتحدة له بقطع المعونة إن لم يكف عن استخدام مواقف معينة فى سياسته الخارجية لا ترضى عنها الولايات المتحدة . وبدأ يستخدم عبارات عنيفة فى مهاجمة الولايات المتحدة مثل قوله المشهور فى إحدى الخطب : «إذا لم يعجب الولايات المتحدة ما نفعله فلتذهب لتشرب من البحر ، فإذا لم يكفها البحر الأبيض فلتشرب من البحر الأحمر» . لابد أن سقوط نيكروما وسوكارنو وبس بللا وغيرهم من القادة الذين كانوا يتبعون سياسة مشابهة لسياسة عبد الناصر ، قد أصاب عبد الناصر بالقلق ، وخاصة عندما أخبرته الولايات المتحدة بالفعل فى ١٩٦٥ بأنها ستوقف معوناتها الغذائية له بسبب عدم رضاها عن مواقفه

فى الكونغرس، وكان عبد الناصر محققا فى هذا القلق بالطبع، كما تبين من الهجوم
الإسرائيى على مصر سنة ١٩٦٧ .

فى هذه الفترة الحرجة (١٩٦٧ - ٦٤) كان من بين ما خطر لعبد الناصر من أفكار
لتجنب المصير الذى تعدّه له أمريكا تكوين قاعدة جديدة له من المثقفين، ينظّمون
فيما يشبه الحزب السرى خارج نطاق الحزب الحاكم، أى خارج نطاق الاتحاد
الاشتراكى، بحيث يسهل الاتصال بهم وتكليفهم بأعمال لحماية النظام ودعمه،
بدلا من الاعتماد على أشخاص قد يكونون أسهل قيادا، ولكنهم لا يؤمنون حقا
بمبادئ النظام، وإنما يخدمونه مدفوعين بمصالح شخصية بحثة، ومن ثم لا يمكن
الاعتماد عليهم إذا واجه النظام أزمة حقيقة مع قوة خارجية .

أعتقد الآن أن مثل هذا الدافع كان وراء ذلك التنظيم الذى دعائى خالد محبى
الدين، ذات يوم فى ١٩٦٥، للانضمام إليه، والذى لا أدري حتى الآن ما إذا كان
جزءا مما يسمى بـ «التنظيم الطليعى» أو كان شيئا آخر موازيا له . كان المطلوب هو
حضور اجتماعات دورية برئاسة خالد محبى الدين، يحضرها نحو ثمانية أو عشرة
أشخاص، لتبادل الرأى فى الأحوال السياسية، وقراءة بعض البيانات التى ترسل
إلينا من حين لآخر من «قيادة التنظيم»، ولكن لم يحدث قط أن كلّفنا بأى عمل آخر
غير هذا . فرحت فى البداية بأن أدعى للاشتراك فى هذا التنظيم «الخطير»، والقريب
إلى هذا الحد من السلطة . كما كان من الشائق الامتماع لخالد محبى الدين فى بداية
كل اجتماع وهو يحكى لنا بعض الأسرار السياسية التى يسمعاها إما من عبد الناصر
مباشرة أو من أشخاص قريبين جدًا منه . ولكنى سرعانا ما مللت الأمر برمته . فمن
ناحية لم يقل لى أحد قط، على أى نحو مقنع، ما الغرض الحقيقى من هذه
الاجتماعات الدورية؟ ومن ناحية أخرى، لم يكن أحد من الحاضرين، باستثناء
خالد محبى الدين، ممن يشوقنى للقاء بهم على هذا النحو المنتظم وعلى فترات جد
قصيرة . كان معظمهم من الماركسيين القدامى الذين اعتقلوا لفترة أو أخرى أيام
غضب عبد الناصر على الشيوعيين، وكان حمسهم وثورتهم أقوى بكثير من
قدرتهم على التحليل والإقناع . ومع مرور شهر بعد آخر بدأ البعض، وكنت

أحدهم، يعيرون عن بعض الانتقادات للنظام بسبب قلة ما يتيح من حرية التعبير عن الرأي . فما إن تكرر هذا النقد مرتين أو ثلاثاً حتى أعطينا بأن هذه الاجتماعات سوف توقف لفترة ما وسيعاد بعدها الاتصال ببيعنا، ولكن علينا جميعاً أن نقدم بعض الأسماء والعناوين لأشخاص نرى فيهم الصلاحية والكفاءة للانضمام لمثل هذا التنظيم . فحددت الله على انتهاء الأمر ، ولم أجد أى مبرر لأن أذكر لهم أسماء أشخاص أعتمد فعلاً في صلاحيتهم وكفاءتهم، إذ خطر لى أن هذا الطلب قد يكون مجرد طريقة لجمع أسماء كل من يمكن أن تكون لديه اعتراضات أو انتقادات للنظام ممن يريد النظام تنبهم أو مراقبتهم . ذكرت لهم فقط اسمين أو ثلاثة كنت أعرف أن أصحابها ممن كانوا يحضرون بالفعل اجتماعات مشابهة، ومن ثم لا يمكن أن يصيبهم من السوء أكثر مما أصابهم . بعد انقضاء نحو أربعين عام على هذه التجربة ، تصادف أن قابلت فى إحدى الندوات ، شاباً اتجه إلىّ وعرفني بنفسه قائلاً : إنه يحضر للدكتوراه فى العلوم السياسية فى إحدى الجامعات الإقليمية فى مصر ، وسألني : عما إذا كان يستطيع أن يوجه إلىّ بعض الأسئلة تتعلق برسائه . كان موضوع الرسالة هو «التنظيم الطليعى» ، ولكن أكثر ما أدهشنى هو قوله إنه يعرف أننى كنت «مرشحاً» للعضوية فى هذا التنظيم، ولكنه لا يعرف ما إذا كنت قد حصلت على العضوية الشامة بالفعل . سألته : كيف عرف هذا، إذ إنى لا أعرف أنا شخصاً ما إذا كان هذا التنظيم الذى كنت أحضر اجتماعاته مع خالد محيى الدين هو ما يعرف باسم «التنظيم الطليعى» . وقلت له : إننى أسمع منه الآن، ولأول مرة، أننى كنت فقط «مرشحاً» للعضوية . قال : إنه عرف ذلك من بعض الوثائق التى كانت فى حوزة شعراوى جمعة وأمثله وأفرج عنها فى عصر السادات، وأنه قام بتصوير بعض هذه الوثائق، وأنه وجد اسمى فى بعض الأوراق وقد كتب بجواره عبارة (مرشح خالد محيى الدين) . وتبادل الحديث مع هذا الشاب توصلت إلى استنتاج أن خالد محيى الدين كان قد رشحتى، ولكنى لم أفر بالعضوية بسبب ما كان يُقبل عني من حديث يتطوى على انتقادات للنظام، مما جعل المسئولين يستنجون أنى لست من أفضل العناصر التى يمكن الإعتماد عليها «لحماية النظام» فى حالة تعرضه للتهديد، من الخارج أو الداخل . كما خطر لى أن من الممكن جداً

أن يكون ما كتب عني من تقارير بناء على هذه الاجتماعات كانت من بين أسباب منعي من السفر إلى الخارج في ١٩٦٦ لحضور مؤتمر جامعة لندن .



في نفس هذه الفترة الكئيبة (٦٤ - ١٩٦٧) حدثت بعض الأحداث شديدة السخافة لبعض الأشخاص القريبين جدائي . فقد اعتقل فجأة صديقي على مختار ووضع في سجن القلعة لمدة أسبوعين دون أي سبب واضح . كان مختار يعاون شخصاً مهماً في الاتحاد الاشتراكي من المسؤولين عن الشئون العربية (فتحي الديب) والأرجح أن سبب اعتقاله لم يكن إلا خلافاً شخصياً بين هذا الشخص المهم وبين شخص آخر أهم منه ، فأراد الثاني أن ينكل ببعض رجال الأول . وقد حاولت أن أستعين بخالد محيي الدين لإطلاق سراحه فأخبرني بأنه لا يملك في مثل هذه الأمور شيئاً .

وبعد هذا يشهور قليلة ، كان أخى الأكبر محمد ، الذى كان وقتها رئيساً للمجلس إدارة شركة صناعية كبرى هي إيدىال ، يحتسى القهوة فى الصباح قبل أن يذهب إلى مكتبه ، فإذا به يقرأ فى جريدة الأهرام خبر إحالته على النعاش (وكان فى التاسعة والأربعين من عمره) . وعرف فيما بعد أن السبب هو شكوى تقدم بها أحد العمال المهيمن فى اللجنة النقابية بالاتحاد الاشتراكي . ويمثل الشركة التى يرأسها أخى ، وقال فيها إن أخى لا يؤمن بالاشتراكية إيماناً كافياً ويعامل العمال بغلظة .

حدث أيضاً فى نفس هذه الفترة (١٩٦٤) ، أن ذهب أخى عبد الحميد مرة إلى المركز القومى للبحوث ، حيث كان يقوم بتجارب علمية مهمة يقود فيها مجموعة من الطلبة النابهين ، إلى جانب عمله كأستاذ فى كلية الهندسة بجامعة عين شمس ، فلم يجد أى أثر لكل الأجهزة التى كان يستخدمها فى بحثه ، وقيل له إنها نُقلت فى اليوم السابق ، دون إذن منه ، إلى مركز الطاقة الذرية فى أنشاص لأن مسئولاً كبيراً سوف يفتتح هذا المركز بعد يوم أو يومين . فامتنع أخى عبد الحميد منذ ذلك اليوم عن الذهاب إلى مركز البحوث وإلى كلية الهندسة ، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره ، وظل فى بيته بلا عمل حتى اليوم .



كان النظم يضيق الخناق على الناس أكثر فأكثر كل يوم. وأظن الآن أن السبب الأساسي لذلك ربما كان ازدياد شعور عبد الناصر بأن الولايات المتحدة تعمل على الإيقاع به وتدبر له فخا للوقوع فيه، فاشتد شعوره بالشك في الناس وازدادت إجراءات الأمن قسوة. كان المرء منا يخاف أن يتكلم في السياسة في حضور أى شخص غريب، في سيارة تاكسي أو أمام زميل جديد في الجامعة لم يتحقق بعد من ميوته السياسية، أو حتى أمام فراش الكلية التي يحضر له القهوة والشاي، خشية أن يكون ممن استوظفتهم المخابرات أو المباحث العامة. أما التليفون فكانا واثقين من أنه مراقب، ومن ثم كان من دواعي الخيبة عدم التفوه في التليفون بالتعليق على أى شخصية سياسية مهمة أو إجراء مهم اتخذته الحكومة. وأما الخطابات فكانا بعضها يأتي وقد تم فتحه وقرأته وأعيد لصقه بورقة كتب عليها «فتح بمعرفة الرقيب».

حدث مثلاً لأخى عبد الحميد، وكان قد بدأ يفكر في الهجرة من مصر بعد حادث نقل أجهزته دون إذنه إلى أنشاص، وأخذ يرسل بعض الجامعات الأمريكية بحثاً عن وظيفة فيها، أن تلقى مكالمة تليفونية تستدعيه لمقابلة وزير التعليم (كمال الدين حسين). فلما ذهب استقبله الوزير بلطف وترحيب، ثم سأله بعتاب عن السبب الذي يجعله يريد أن يترك جامعته في مصر ويهاجر إلى أمريكا، ونين من الحديث أنه اطلع على كل مراسلاته مع الجامعات الأمريكية، ثم قال لأخى عبد الحميد ملاطفاً: «هوه إحتا عندنا كم واحد زيك يا دككوو عبد الجليل؟».

وحدث أيضاً (في ١٩٦٨ أو ١٩٦٩) أن كنت في حجرتي في كلية الحقوق عندما دخل على أحد الزملاء الحديثي العهد بالعودة من فرنسا، هدنجاً وغاضباً إذ إنه كان قد سمع لثوته بخبر اعتقال أحد أساتذة كلية الآداب لأنه قال شيئاً في محاضرة له لم يعجب الحكومة. وسألني وهو في غاية الاضطراب: «ما الذي يمكن لنا عمله من أجل الإفراج عنه؟» وأثناء حديثنا دخل فرأش من فرائش الكلية يحمل لنا القهوة، وسمع طرفاً من الحديث وخرج. كان هذا في نحو الواحدة أو الثانية بعد الظهر، وكنت قد دعوت إلى العشاء مدير الجامعة (د. إسماعيل غانم) وزوجته، إذ كانت علاقتي قد قويت به أثناء عمادته لكلية الحقوق. ووصل المدير وزوجته إلى بيتي في

نحو الثامنة مساءً فإذا به بمجرد وصوله يقول : «ما الذى جرى بينك اليوم وبين الدكتور . . ؟» . يقصد المحادثة التى جرت منذ بضع ساعات فى مكتبى مع هذا الزميل الجديد . وأضاف قائلاً : إن جهات الأمن اتصلت به لكى تعرف المزيد عن هذا الزميل الجديد ، أما أنا فلإنها تعرف كل شئ عني . وكان معنى هذا أنه خلال ساعات قليلة وصل إلى جهات الأمن مضمون محادثة لى مع زميل لى . جرت فى غرفة مغلقة إلا لدقيقة واحدة أو دقيقتين فُتح خلالهما الباب لاستلام القهوة ، وقامت هذه الجهات بتحليل الموضوع واتخاذ قرار بشأنه ، ثم تم إبلاغ مدير الجامعة به وطلبوا منه اتخاذ اللازم .



كان أثر هزيمة ١٩٦٧ علينا أشبه بتعرضنا لصدمة قوية ومفاجئة من سيارة مرعة أثناء عبورنا الطريق . وأصبنا بنهول نام استمر أياماً وأسبوع قبل أن نستطيع التفكير فى الحادث بشأن ونستخلص منه أى مغزى أو عبرة . كن أحد ردود الفعل لهذه الصدمة ، الاستغراق الهستيرى فى ترويد التكت الجديدة التى اخترعت فجأةً للتعليق على ما حدث . ذلك أن مواجهة هذه الكارثة الكبيرة بانتقاد الحكومة سرا أو علنا لم يكن كافياً بالمرة للتعبير عما فى صدورنا ، ونحن على أى حال لم نكن قادرين على تحديد مدى مسئولية الحكومة عما حدث بالمقارنة بمسئولية القوى الخارجية . والمعلومات التفصيلية عما حدث لم تكن متوافرة ، وما كنا نسمعه منها كان متضارباً ويؤدى إلى تفسيرات متناقضة .

كان الحزن عميقاً ولكن الذهول كان أكبر ، وخيبة الأمل أعظم وأخطر . هل كان إذن كل هذا الكلام الذى ظللنا نسمعه خلال السنوات العشر السابقة عن بناء جيش قوى ، وعن كل هذه الصواريخ التى منى بعضها بالقاهر والظافر ، وعن قدرتنا على استعادة حقوق الفلسطينيين . . إلخ ، هل كان هذا الكلام كله كذباً وعمويها؟ وماذا إذن كان كل هذا التقييد للحرريات والتدخل فى حياة الناس اليومية؟ هل كان هذا فقط لصالح النظام وليس لصالح القضايا الوطنية؟ لم تنجح بالطبع أى محاولة من جانب النظام فى كسب تعاطف الناس من جديد . كان الكسر أعمق من أن

يحتمل أى رأب أو إصلاح . حاولت الحكومة التظاهر بأنها ستعطى الناس حريات أكبر، وصدر بيان ٣٠ مارس فى ١٩٦٨ واعدأ الناس ببعض الإصلاحات، ولكن الناس فهمت المقصود من ذلك . سمحت الحكومة بالفعل بهامش أوسع قليلا من حرية النقد وبتمثيل مسرحيات (مثل «أنت الذى قتلت الوحش» لعلى سالم) تتضمن نقدا مباشرا للحكومة، على أساس أن السماح ببعض التنقيص عما تضيق به الصدور قد يمنع انفجاراً أكثر تهديداً للنظام . ولكن هذا التساهل ظل فى دائرة ضيقة للغاية، وما أسرع ما كانت الحكومة تعود إلى تخذير الناس من تجاوز حدود الأدب . أذكر أن يوسف إدريس كتب مقالا قصيرا فى هذه الفترة فى جريدة الأهرام، فى أعقاب خطبة ألقاها جمال عبد الناصر على العمال، وعرف فيها الحرية بأنها حرية الحصول على رغيف الخبز، فاعترض يوسف إدريس على هذا التعريف القاصر للحرية وقال : إن الحرية أكثر من ذلك . فمُنح يوسف إدريس من الكتابة فى الأهرام بسبب هذا المقال لفترة طويلة .

حاول جمال عبد الناصر، فى سبيل تهدئة مشاعر الناس، أن يعين بعض الوزراء بمن يتمتعون بسمعة طيبة بين الناس فى استقلال الرأى والنزاهة والجرأة فى الحق، مثل الدكتور حلمى مراد . ولكن عبد الناصر لم يحتمله مدة طويلة إذ وجده أكثر جرأة فى الحق من اللازم وأحرجه من الوزارة . أثناء ذلك كانت مقالات محمد حسين هيكى الأسبوعية فى الأهرام، والتى كانت تحمل عنوان «بصراحة» تثير أعصابنا، إذ بدلا من التعبير عما تظطرم به صدور الناس وتقديم إجابات صريحة على ما لديهم من أسئلة، كانت تثير قضايا مفتعلة أو تقدم إجابات ملتوية للتغطية على ما حدث من فشل، أو لتبرير إجراءات لا تتمتع بأى شعبية . كنا مع ذلك نواظب على قراءة هذه المقالات، لا أملا فى أن نحصل منها على تفسير لما حدث، بل لمجرد أن نعرف، ولو عن طريق التخمين وفك الألغاز، ما يدور فى ذهن الحكومة أو ما نوى أن تصنعه .

بعكس ذلك بالضبط كانت أشعار أحمد فؤاد نجم التى غناها الشيخ إمام وسمعتها لأول مرة فى تلك الفترة، تعبر بالضبط عما كنا نشعر به من سخرية مريرة

من النظام وشعاراته ، ومن حزن عميق وإحباط إزاء ما حدث للوطن . كان انفعالنا شديداً إذ نرصدنا كاملاً على سخريه نجم وإمام المرأة مما حدث في ٥ يونيو :

« الحمد لله خَيطُنَا نَحْمَتِ بِطَاطُنَا

يا ماحلى عودة ضباطنا من خط النار

يا أهل مصر . لمحمية بالحرامية

الفول كثير والطعمية والبر عمار »

كما كدنا نيكى حزننا لدى سماع أغنية نجم وإمام :

« نوح النواح والتواحة على بقرة حاح انتفاحة

والبقرة حلوب تحلب قطار

لكن مسلوب من أهل الدار

• • •

والبقرة تنادى وتقول يا ولادى

وولاد الشوم رايحين فى النوم . . إلخ » .

لا عجب إذن أن تفقّت خير وفاة جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بهدوء شديد ، وبمشاعر فيها من دهشة المفاجأة أكثر مما فيها من حزن . كنت في بيروت في رحلة عمل قصيرة عندما سمعت الخبر ، ولم يكن سماعى به عن طريق الراديو أو التليفزيون أو الصحف ، بل عن طريق أصوات البنادق التي أطلقها اللبنانيون ودخان الحرائق التي أشعلوها في الشوارع للتعبير عن حزنهم . كان جمال عبد الناصر لا يزال يمثل في أعينهم رمزا لأهداف الوحدة العربية ، ومقاومة الاستعمار ، والدفاع عن مصالح الفقراء ، أما بالنسبة لى فقد كانت هذه نظرتى لعبد الناصر في السنوات الخمس أو الست الأولى التالية لتأميم قناة السويس في ١٩٥٦ ، ولكن خلال الخمس أو الست سنوات السابقة على وفاته لم أشاهد أى تقدم نحو تحقيق هذه الأهداف ، بل رأيت انكسارات مهمة في الجبهات الثلاث : فضلاً عن التراجع المعزى في قضية الديمقراطية والحريات الشخصية . كانت مشاعرى نحو عبد الناصر عند وفاته في ١٩٧٠ أقرب إلى مشاعرى نحوه في ١٩٥٤ ، عندما

غضبنا على طريقة معاملته لمحمد نجيب، منها إلى مشاعري نحوه في ١٩٥٦ عندما أم قناتة السويس، أو في ١٩٦١ عندما أصدر القوانين الاشتراكية. ولم تتغير مشاعري نحوه عبد الناصر مرة أخرى إلا في منتصف السبعينات، عندما رأيت حجم التمارلات التي بدأ يقدمها أنور السادات لإسرائيل والولايات المتحدة، وبدأت إنجازات عبد الناصر في مجالات الاقتصاد والسياسة الخارجية والعربية تبدو لي في ضوء مختلف تمامًا، وإيجابي للغاية، بمقارنتها بخطايا السادات في كل هذه المجالات. كما بدأ همش الحرية الذي سمح به السادات بالمقارنة بالقيود التي كان يقرضها عبد الناصر، مكسبًا ضئيلاً، بل وفي كثير من الأحيان شكلياً وقليل الجدوى.



كان أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية عندما مات جمال عبد الناصر فجأة، ومع هذا فقد أصبنا بالدهشة إذ رأينا أنور السادات يصح وتبسمًا للجمهورية. كان الرجل منذ سمعنا اسمه لأول مرة بعد قيام الثورة في ١٩٥٢ يثير السخرية والراء أكثر عما يثير الاحترام أو الحب. وكان كل ما يصل إلينا عما يتعلق بسلوكه أو أقواله أو مواقفه يؤكد صحة هذا الموقف السلبي منه ويقويه. كانت صورته في أذهان الناس صورة رجل غير جاد، مفامر ولكن لمصلحته الخاصة لا من أجل مصلحة أكبر وأهم، كثير المزاج، وقليل الصبر على القراءة أو التفكير أو العمل الجدي، مع إفراط في الحرص على الفخفخة والمظاهر الكاذبة. وكان هناك انطباع عام بأن هذه الصورة التي في أذهاننا للسادات هي نفسها التي توجد في أذهان بقية أعضاء قيادة الثورة عنه، بمن فيهم جمال عبد الناصر، الذي كانت تصلنا قصص عن نوع العلاقة القائمة بينه وبين السادات تنطوي كلها على قليل من الاحترام وكثير من نفاق الصبر من جانب عبد الناصر، وعلى كثير من الرياء والامتداد لإراقة ماء الوجه من جانب أنور السادات. بدأ استلام السادات للسلطة في البداية وكأنه شيء مؤقت لن يدوم طويلاً في مواجهة رجال أشداء من نوع على صبري وشعراوي جمعة، ولكن انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ قضى على هذا الظن وأدى إلى امتلاك السادات للسلطة لمدة عشر سنوات حتى مقتله في ١٩٨١.

لم أكن أعلق أى آمال على استلام السادات للسلطة ، ولكنى أيضاً لم أكن أحمل مشاعر ودية على الإطلاق لمن هزموا فى انقلاب مايو وأودعوا السجن بعد انهزامهم ، إذ كانت أسماؤهم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطابع البوليسى للنظام ، من ناحية ، كما أننى ، من ناحية أخرى ، لم تكن لدى أى ثقة بأن لديهم إخلاصاً حقيقياً للاستشراكية . كان شعورى إذن إزاء انقلاب ١٥ مايو هو فى الأساس شعور بالامبالاة ، وإن كنت أجده تسميته بـ «ثورة التصحيح» تسمية طريفة للغاية ، إذ لم يكن من الواضح لى ما هو الأكثر وما هو الأقل صحة ، ما قبل ١٩٧١ أو ما بعدها ، كما لم يكن واضحاً لى كيف يكون أنور السادات قادراً على تصحيح أى شيء على الإطلاق .

لم يمض عام على هذا الانقلاب حتى بدأ وكأن صبر الناس قد بدأ ينفد ، إذ كانت سيناء لا تزال محتلة ، بعد مرور خمس سنوات على هزيمة ١٩٦٧ ، ولم تسفر حرب الاستنزاف ولا مجيء أو ذهاب المبعوثين الوسيين من الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة أو غيرهم عن أى تقدم فى إجلاء الإسرائيليين . وغير بعض الكتاب والصحفيين الكبار عما نشعر به من تذمر ، وقام الطلبة بمظاهرات عنيفة للاحتجاج فقابلها السادات بشدة أفصححت لأول مرة عن كذب ادعاءاته عن ميوله الديمقراطية ، فعزل الصحفيين المحتجين أو نقلهم إلى وظائف مهينة ، واستخدم ألفاظاً غير لائقة فى وصف بعض كبار الكتاب الذين أبدوا هؤلاء الصحفيين ، كما اعتقل أو فصل من استطاع أن يضع يده عليهم من الطلبة .

ثم حدثت مفاجأة أكتوبر ١٩٧٣ ، إذ وصل إلى أسماعنا فى ٦ أكتوبر ، ودون أية مقدمات ، خبر عبور الجيش المصرى لقناة السويس ونجاحه الباهر فى تحطيم خط بارليف . كان شعورى لدى سماع الخبر ، كما كان شعور الكثيرين ، مزيجاً من الفرح وعدم التصديق ، وكذلك شيئاً من الخوف من أن يكون وراء هذا الحادث المبهج جداً ، أشياء أخرى خفية وأقل مدعاة للبهجة . ولكن كانت لهفتنا إلى أى تغير مفرح ، فى تلك الحالة البائسة التى كنا نعيش فيها ، تدفعنا إلى طرد أى شك من الذهن وإلى الانغماس مع الآخرين فى الفرح والتفاؤل .

على أن هذا الفرع لم يستمر، على الأقل فيما يتعلق بى، لأكثر من أسبوعين، إذ شعرت بأن أشد صخاوى قد بدأت فى التحقق، عندما سمعت أنور السادات لأول مرة بعد عبور الجيش المصرى إلى سيناء فى ٦ أكتوبر، يتكلم عن «السلام» ومزاياء. شعرت وكأن قلبى يسقط فى صدرى عندما سمعته يخطب فى مجلس الشعب ويؤكد أن هدفه هو السلام، وكان قد أصدر أمرا للجيش بالتوقف وعدم الاستمرار فى التقدم نحو الممرات فى سيناء. أذكر أنى بعد الخطبة بساعات قليلة كنت فى سيارة تاكسى فى ميدان التحرير، وإذا بسائق التاكسى يتفجر غاضبا وهو يقول: «سلام إيه وهباب إيه؟ إحنا لسة أخذنا بشار أولادنا انلى ماتوا ولا حتى أخذنا سيناء؟» وكان بهذا القول يعبر عما يدور فى ذهنى بالضبط، وقد تخيلت وقتها هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت، وهو جالس إلى مكتبه فى واشنطن وبرسل إلى السادات أولاً بأول ما يرى أن على السادات أن ينطق به بالضبط، جملة جميلة. أذكر مدى حزنى واكتئابى وأنا جالس إلى مكتبى فى الجامعة الأمريكية وعازف عن تبادل الكلام مع أى شخص، وأفكر فى طبيعة المؤامرة التى لم يكن لدى أى شك فى أنها تُحك لنا.

كنت قد قرأت فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الرواية الشهيرة (١٩٨٤) للكاتب الإنجليزي جورج أورويل، التى يصف فيها عالما مخيفا يعامل فيه الناس كقطع من الأغنام، ويساقون إلى مصير مجهول، تحقيقا لمازب مجهولة لحكام مجهولين، ويتعرضون أثناء ذلك وفى كل يوم لأخبار مزيفة عن حروب لم تنشب، ويسمعون فيها عن انتصارات لم تحرز، تذيبها وزارة تسمى وزارة الحقيقة مع أن موظفيها لا عمل لهم إلا تزيف التاريخ والحاضر والمستقبل. كان ما حدث لمصر منذ الهجوم الإسرائيلى فى ١٩٦٧، وحتى بدأ كلام السادات عن السلام مع إسرائيل، يبدو لى غير مفهوم بالمرة، ولكنه يكاد يقطع بوجود مؤامرة ضد مصر والعرب مرسومة بكل دقة من قبل أن يبدأ تنفيذها، ولكنها لا تتكشف لنا إلا بالتدريج ويجوعات صغيرة للغاية. دفعنى ذلك إلى أن أقرأ رواية أورويل من جديد فوجدتها ملائمة جدا لحالتى النفسية ولنوع ما كان يدور بذهنى من خواطر.



كانت خيبة الأمل التي أحدثتها في نفسى تطورات السياسة المصرية بعد عبور الجيش لقناة السويس في أكتوبر ١٩٧٣ ، أحد الأسباب التي ساعدت على ذهابي للعمل في الكويت في فبراير ١٩٧٤ . وقد ظلت الأخبار تأتينا ، طوال الأربع السنوات التي قضيتها هناك ، نبأ سىء بعد آخر ، أو هكذا بدت هذه الأخبار لى على الأمل . فقد بدا لى أن السادات ، على نحو لا يقبل الشك ، وكأنه لا يفعل أكثر من تنفيذ مخطط أمريكي / إسرائيلي . كان من عناصر هذا المخطط تصالح تدريجى مع إسرائيل ، وهو ما انتهى بعقد معاهدة للصلح المنفرد ومهينة للغاية في ١٩٧٩ ، سميت بـ «معاهدة السلام» ، وذلك في أعقاب مفاجأته المذهلة التي أصابتنى بغم شديد ، بزيارته لإسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧ ، التي سميت بـ «المبادرة» . كان من عناصر هذا المخطط أيضاً فتحه لأبواب الاقتصاد المصرى أمام الواردات ورؤوس الأموال الأجنبية بلا ضابط وعلى حساب الصناعة المصرية ، وهو ما سمي بـ «سياسة الانفتاح الاقتصادي» التي دشنت في ١٩٧٤ ، فضلا عن استعداده الدائم لقبول ما يمليه عليه صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وما تطلبه منه الإدارة الأمريكية بل وإسرائيل ، بما في ذلك استعداده لبيع أراضى هضبة الأهرام بما تحويه من آثار لشركة أجنبية ، واستعداده لتوصيل مياه النيل لإسرائيل ، وعمله على تفكيك أوامر الوحدة العربية ، والتأكيد على المصالح الخاصة لمصر وكأنها تتعارض مع مصالح بقية العرب . اقترن كل هذا بسلوك يومي من جانب السادات لم أجد فيه إلا باعثا على الاحتقار بل والاشمئزاز . فبينما كان يأتى في كل يوم خير جديد بنى بروضه الذليل للرغبات الأمريكية ، وتنفيذ ما يطلب منه لصالح إسرائيل ، كنا نهد صورته وهو يغير ملابسه بحسب المكان الذي يوجد فيه أو المناسبة التي يحتفل بها ، فهو مرة يرتدى زي عسكريا يبدو فيه فخورا بما يزيهه من نياشين وأوسمة ، دون أن نعرف له تاريخا لأداء عسكري يستحق عليه مثل هذه النياشين والأوسمة ، ومرة يرتدى العباءة ويحمل السبحة إذا كان في قرته ميت أبو الكوم خلال شهر رمضان ، متظاهرا بالورع والتقوى ، ومرة أخرى في بدلته الأوروبية الأنيقة التي تجعله يستحق ، في نظر بعض المجلات الأمريكية ، لقب «أشيك» رجل في العالم . وهو يجرى حديثا مع مديعة تيفيزونية يتكلم فيه عن نفسه كلاما يشير النفور الشديد لكثرة

ما يحتويه من فخر لا مبرر له بنفسه وتاريخه . فإذا سئل مرة عن أهم ما قرأه من كتب ذكر كتاب أبي «فيض الخاطر» ، الذى يضم مقالات أبي فى مختلف الموضوعات والى سبق نشرها فى مجلات غير أكاديمية . ويذكر اسم الكتاب خطأ فيسميه «خواطر» ، ويقول أيضاً لكى يدل على سعة اطلاعه ، إنه قرأ المراجع التى ذكرها أبى فى نهاية كتاب «خواطر» ، والكتاب بحكم طبيعته لا يذكر اسم أى مرجع على الإطلاق .



لا عجب أن بدأت صورة جمال عبد الناصر فى ذهنى تكتسب ملامح مختلفة تماماً . بدأ عبد الناصر رجلاً محترماً للغاية بالمقارنة بخليفته ، وبدا أن من الممكن جداً أن نغفر له معظم أخطائه بعد أن رأينا أفعال السادات . تقييد الحريات؟ فما هو نوع تلك الحريات التى منحها لنا أنور السادات؟ نعم ، أصبح من الممكن الكلام فى التلفزيون أو الشاكسى وفى المحاضرات وكتابة الخطابات دون خوف من عملاء المباحث العامة أو الرقيب ، كما أصبح من الممكن السفر إلى أى مكان فى العالم دون تأشيرة خروج ، وهذا كله مما لا يستهان به ، ولكن السادات لا يزال هو الحاكم بأمره الذى لا يلتزم باستشارة أحد ، وهو يصف ديمقراطيته بأن لها «أنبياء» ويهدد معارضيه بـ «الفرم» . . إلخ . وليس فى تاريخ السادات السياسى ولا فى طبيعته الشخصية ما يدل على أنه أقرب فى مزاجه إلى التسمع مع الرأى المخالف ، بل إن غروره الذى لا أساس له ومستوى ذكائه الذى يبدو محدوداً ، إذا قورن بعبد الناصر ، يؤهلانه أكثر من غيره لممارسة حكم ديكتاتورى وللبطش بمعارضيه . لهذا كنت أميل إلى الاعتقاد بأن ما سُمى بـ «ديمقراطية السادات» كان أقرب إلى أن يكون جزءاً من التصور الأمريكى لهذه المرحلة من مراحل تطور مصر ، منه إلى ميول السادات الشخصية وطبيعة مزاجه . كان من المطلوب بالطبع ، فى تلك الفترة ، تشويه سمعة عبد الناصر ، تمهيداً لنقض سياساته المختلفة فى الاقتصاد والعلاقات الخارجية والعربية وعلاقة مصر بإسرائيل . وكان هذا التشويه لسمعة عبد الناصر وعهده يتطلب إتاحة درجة من حرية النقد التى يسهل الرجوع عنها متى تمت المهمة التى جاء السادات من أجلها .

باختصار، كانت كل توجهات أنور السادات، فيما عدا إتاحته مزيداً من الحريات الشخصية، ضد توجهاتى ومعتقداتى من أساسها. فقد كنت ضد الانفتاح الاقتصادى، أو على الأقل ضد هذا النوع من الانفتاح الذى أدخله السادات وسماه أحمد بهاء الدين «انفتاح سداح مداح». وكنت ضد تصالحه مع إسرائيل دون أى تنازل من جانبها لصالح الفلسطينيين، وكنت ضد تنكره للوحدة العربية، وضد خضوعه الدليل لأمريكا والمؤسسات المالية الغربية. وفى كل هذه الأمور بدت مواقف عبد الناصر مشرقة للغاية.

منذ منتصف السبعينات إذن أصبحت على استعداد لنسيان كل ما ارتكبه عبد الناصر من أخطاء، فإذا ذكرت أمامى اعترفت بها على مضض لشعورى بأن القضية الآن أصبحت أخطر بكثير. وأن التضحية ببعض الحريات السياسية والشخصية أهون من كل هذه التضحيات التى يطلبها منا السادات. ولهذا السبب شعرت باستياء شديد عندما قرأت كتاب توفيق الحكيم «عودة الرعى» الذى كان الغرض من كتابته على الأرجح، التقرب من السادات عن طريق تشويه سمعة عبد الناصر. فلما رد عليه محمد عودة بكتاب «الوعى المفقود» تعاطفت تماماً مع سخريه عودة من توفيق الحكيم، شأنى دائماً مع كل ما قرأته لمحمد عودة سواء قبل ذلك أو بعده.

حدثت زيارة السادات للقدس أثناء إقامتى بالكويت، وقد فوجئت بها وسخطت عليها مثلما فوجئ وسخط الكثيرون. وقد أراد أحد السياسيين الكويتيين أن يعقد ندوة فى التليفزيون الكويتى يستضيف فيها ثلاثة أشخاص: أحدهم فلسطينى، والثانى مصرى معارض للزيارة، والثالث مصرى مؤيد لها، أو على الأقل لا يعارضها معارضة تامة. وعرض على أن أكون المصرى المعارض فقبلت، وكان الفلسطينى أستاذاً للعلوم السياسية فى جامعة الكويت، والمصرى الآخر وزيراً مصرياً سابقاً فى إحدى حكومات السادات وذهب بعد خروجه من الوزارة لتدريس فى جامعة الكويت. عندما بدأت المناقشة والتسجيل، بدأ على ابوزير السابق أنه فوجئ بشدة هجومى وهجوم الزميل الفلسطينى على زيارة السادات لإسرائيل، كما فوجئ على الأرجح، بفشله فى تقديم حجج مقنعة لتأييد الزيارة، أو على الأقل فى العثور

على بعض مبررات لها . وفوجئت أما إذ وجدته يدافع عن هذه الزيارة طالما كان الميكروفون مفتوحا والتسجيل جاريا ، بينما يقول لنا إنه يؤيد موقفنا المعارض للزيارة ثم التأييد ، عندما نكون في فترة استراحة ويكون الميكروفون مغلقا . وقد أدهشني هذا التقلب دهشة كبيرة إذ ربما كان هذا أول مثل أصادفه لثل هذا السلوك ، وإن كنت قد رأيت شيئا له ، عدة مرات ، بعد ذلك . ثم زادت دهشتي عندما سمعت أن هذا الوزير السابق ، بمجرد انتهاء التسجيل ، جرى إلى وزير الإعلام الكويتي ، وشرح له ما حدث ، وألح عليه في أن يأمر بمنع إذاعة هذه الندوة في «التلفزيون» لأنها لا بد أن تسيء إلى العلاقة بين مصر والكويت . والارجح أنه تبين بعد انتهاء الندوة كم كان دفاعه عن الزيارة ضعيفا ، ومن ثم فإذاعة الندوة لا بد أن تسيء إلى مركزه في عين «النظام المصري» ، إذ سنتظهره عاجزا عن التصدي لبعض الصبيبة المتطرفين من أمثالي وأمثال زميلي الفلسطيني . كما سمعت أن هذا الوزير السابق جرى أيضا إلى السفير المصري بالكويت ليطلب منه نفس الطلب ، وكانت النتيجة أن منعت إذاعة الندوة ولم يرها أحد من غير المشتركين فيها .

أما الطامة الكبرى ، وهي توقيع السادات لاتفاقية الصلح مع إسرائيل في كانب دافيد في ١٩٧٩ ، فقد حدثت أثناء وجودي بالولايات المتحدة عندما كنت أقوم بالتدريس والبحث كأستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا بلموس أنجلوس . وقد زاد من حزني وغضبي للذين أثارتهم قراءتي لنصوص هذه الاتفاقية البالغة السوء ، ما رأيته بعيني على شاشة التلفزيون عندما صدرت عبارة من بيجين ، الذي كان يوقع على الاتفاقية باسم إسرائيل ، وبصفاقته المعهودة ، عبارة معناها أن «اليهود هم الذين بنوا الأهرام في مصر» ، إذ لم يبد من السادات أي احتجاج أو بدا عليه النصب ، بل بدا عليه فقط الحرص على أن يبقى اجو «ديا» ، وألا يصدر منه ما يغضب بيجين المواقف بجانبه ، أو الرئيس الأمريكي كارتر الذي كان يري الاحتفال .



ليس عجيبا إذن أن كان ابتهاجي شديدا عندما سمعت في ٦ أكتوبر ١٩٨١ مقتل أنور السادات . فضلا عن الارتياح الذي بعث في نفسي اختفاء هذه الشخصية التي

لم تكن تشير ندى إلا لمشاعر الغضب والنفور، بدلى هذا الذى حدث للسادات وكأنه عقاب لائق لما ارتكبه فى حق مصر والعرب من أخطاء.

ولكن حدث فى العام التالى (١٩٨٢) ما زاد من سرورى وتفاؤلى. بدأ الرئيس الجديد حسنى مبارك حكمه بإطلاق سراح السياسيين والمثقفين الذين كان قد اعتقلهم السادات بسبب وبلا سبب فى سبتمبر السابق على وفاته، واستقبلهم حسنى مبارك فى قصره فى إشاوة واضحة إلى أن عهدا جديدا من الحريات سوف يبدأ. وبالفعل، عادت الصحف التى كان قد صادرها السادات إلى الظهور، وأخذت تنشر مختلف الآراء بحرية لم نعهد مثلها منذ قامت ثورة ١٩٥٢. واختفت من الصحف والمجلات مظاهر التملق الكريه التى شاعت فى عصر السادات بما فى ذلك تمجيد سيدة مصر الأولى التى كانت صورها وأخبارها تملأ وسائل الإعلام على نحو لم نعهده مصر فى عهد الملكية. وسمنا أن أوامر صارمة صدرت من رئاسة الجمهورية تمنع نشر صور سيدة مصر الأولى الجديدة إلا بإذن خاص من الرئاسة؛ تجنباً للإشاعة مسخطة مماثل لما شاع فى عهد السادات. وبالفعل أصبح من النادر نشر هذه الصور وقُلت بشدة عبرات المديح والنفاق الموجهة لرئيس الجمهورية.

دفعنى حماسى وسرورى بهذا الذى يحدث إلى الكتابة بكثرة لصحف المعارضة فى مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية. وكنت قد عدت نهائياً من إقامة طويلة بالخارج، أربع سنوات فى الكويت ثم سنة فى الولايات المتحدة، واستشرت خيراً بمستقبل مصر. وبدلى من الملام أن أتناول فى بعض مقالاتى فترة الثلاثين عاما السابقة كلها، وهى الثلاثون عاما التى انقضت على قيام ثورة يوليو، وأقارن بين حكم عبد الناصر وفترة حكم السادات، كما أشير إلى العناصر المشتركة بينهما، والى نأمل فى العهد الجديد، أن نرى نهاية لها. انتقدت نظام الدولة «الحافقة» فى عهد عبد الناصر، والدولة «الرخوة» فى عهد السادات، وبينت أن لا هذه ولا تلك تحقق أهداف الأمة. كما انتقدت الإهمال النسبى للزراعة فى عهد عبد الناصر والإهمال المطلق لها فى عهد السادات. انتقدت أيضا سيطرة «أسميتهم» بدوى

الدم الأزرق» (فى مقال بهذا العنوان) الذين تربعوا على أريكة الحكم فى عهد عبد الناصر، ثم استمروا متربعين عليها فى عهد السادات، دون مزايا خاصة تؤهلهم لذلك، ووجدتهم يشبهون أعضاء الأمر المالكه فى الدول التى تطبق النظام الملكى، إذ يتوارث أفراد أسرة معينة حكم البلاد وكأن «دما أزرق» يسرى فى عروقهم، مختلفا عن الدم الذى يسرى فى عروقنا. نشرت هذه المقالات وأسألها فى مجلة «الأهرام الاقتصادى» التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت اقتصادى وطنى شجاع هو لطفى عبد العظيم، استغل جوراً الحرية المتاحة وقتها فأفصح صفحات مجلته للجميع. أثارت هذه المقالات بالطبع غضب بعض المسئولين من المتحمسين للسادات، والمستفيدين منه، ولكنها أغضبت أيضاً بعض المتحمسين لعبد الناصر. حتى عاتبنى مرة الناصرى العتيد محمد عودة، على ما اعتبره قسوة زائدة فى مقالتي على «ثورة يوليو». على كل حال لم تدم هذه الحال طويلا، فبعد نحو عام من بداية حكم مبارك تبين لنا أن أماننا فى حرية حقيقية للصحافة، كان ميالغا فيها جدآ، وسرعان ما عادت القيود شيئا فشيئا، بما فى ذلك عزل لطفى عبد العظيم من رئاسة تحرير الأهرام الاقتصادى وتعيين شاب آخر مكانه، أكثر تفهما للمطلوب، ولم أنشر فى هذه المجلة أى شيء منذ ذلك التاريخ. ثم ظهر لنا أيضاً شيئا فشيئا بأننا كنا مخطئين فى التفاؤل، ليس فقط فيما يتعلق بالحرريات، بل وبأشياء أخرى كثيرة.

فبعد عشرين عاما من استلام مبارك للسلطة تبين لنا أن نفس أسباب السخط على سياسات السادات استمرت فى عهد مبارك، وأن الفرق الوحيد بين العهدين هو فى أسلوب تطبيق هذه السياسات. كان السادات يطبقها بجرأة قد يحسده البعض عليها، ويعبر عنها بطلاقة لسان وكثيرا ما يطبقها بصنافة، أما فى عهد مبارك فكانت نفس السياسات تطبق دون ضجة ودون تهيج للناس. من التعبيرات الطريفة التى كانت تقال فى وصف طريقة السادات فى التعامل مع تركة عبد الناصر، وتسخر من تكرار السادات للقول بأنه «عاشى على خطى عبد الناصر» أن السادات يمشى فعلا على خطى عبد الناصر، لكن ومع «أستيك» أو «محاة»، أما عن طريقة مبارك فى التعامل مع تركة السادات، فأظن أن من الممكن القول بأنه كان

يشى على خط السادات بالضيظ ولكن دون أن يخبرنا قط بذلك، ودون أن يعترف بذلك صراحة، ولكن أيضا دون أن ينفيه. كان هذا صحيحا فى السياسة الاقتصادية، والسياسة إزاء إسرائيل والعرب، وفى الموقف من الولايات المتحدة، على السواء.

كثبت مرة بعد سنوات قليلة من بداية حكم مبارك مقالا فى جريدة الأهالى المعارضة، بعنوان «ما سر كراهية حسنى مبارك لسياسة الصدمات الكهربائية؟». وكان هذا تعليقا على عبارة صدرت من الرئيس مبارك استخدم فيها تعبير «الصدمات الكهربائية» لوصف أسلوب السادات فى الحكم (وربما أسلوب عبد الناصر أيضا) وقال إن أسلوبه هو مختلف عن ذلك. وقد فسرت هذا الاختلاف بأن الوظيفة التاريخية لعصر السادات، وهى فى الأساس «تصفية تركة عبد الناصر» كانت تتطلب شيئا شبيها بالصدمات الكهربائية، ولكن عندما قتل السادات فى ١٩٨١ كانت هذه الوظيفة قد تم تحقيقها، فلم تعد ثمة حاجة فى العهد الجديد لمثل هذه الصدمات.



فى سنة ٢٠٠٢، كان لابد أن تكثر الندوات والمؤتمرات والاحتفالات بمرور ٥٠ عاما على قيام ثورة يوليو. وقد دعت للكلام فى بعض هذه الندوات، وكانت فرصة جيدة للنظر إلى نصف القرن بأكمله لاستخلاص العظات والعبر. وهذا هو ما حاولت أن أفعله عندما دعت للكلام بهذه المناسبة مرة فى محاضرة فى مركز رامتن (متحف طه حسين)، ومرة فى اتحاد الكتّاب. لم يدر بخاطرى تحويل هذه المناسبة إلى فرصة لتمجيد عبد الناصر ونقد السياسات التى تتخذها الحكومة الحالية، بل رأيت أن التناول الوحيد الملائم هو محاولة تشخيص وتقييم الخمسين عاما بأكملها. فلما نظرت إلى هذه الفترة كلها لم أجد تشخيصا لها أفضل من أنها كانت خمسين عاما مما يمكن أن يسمى بـ «العصر الأمريكى»: عصر بدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية ولا نزال نعيش فى ظله حتى الآن. نعم كانت هناك بالطبع فروق مهمة بين عهد عبد الناصر وعهد السادات ومبارك، ولكن من الخطأ فى

رأى تجاهل أوجه الشبه ، ومن المهم أن نرى كيف انعكست هذه السيادة الأمريكية على الفترة بأسرها بمعهودها المختلفة . بينت في المحاضرتين أن هذه «السيادة الأمريكية» انعكست على طريقة الحكم ونوع الحكم ، وعلى كثير مما اتخذته الثورة المصرية من إجراءات ومواقف سياسية واقتصادية ، وعلى نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية في مصر ، وعلى علاقات مصر العربية وإفريقية ، وعلى فلسفة التنمية . . إلخ .

كنت أعتبر من المسلم به ، أثناء إعدادي للمحاضرتين ، أن ما سأقوله لن يعجب الانفتاحيين والساداتيين ، ولكني كنت قد تعودت على هذا منذ فترة طويلة ، وعلى عدم المبالاة به . ولكن خطر لي أيضاً أثناء إعدادهما أنني سأقول كلاماً لن يسر الناصريين كثيراً . وكان هذا مصدراً لبعض التساؤل من جانبي عما إذا كان من الحكمة أن أفعل هذا في ظروف ترجح فيها بشدة كفة أعداء الناصرية ، وترجع فيها سياسات ناصرية كثيرة مما لا أحب أن أراه يتراجع . فضلاً عن أن الناصريين يعتبرونني من رجالهم وأنصارهم ، وهو تشخيص صحيح في معظمه ، وإن لم يكن صحيحاً صحة كاملة للأسباب التي حاولت أن أبينها في الصفحات السابقة . فهل من مصحح أن أفقد صداقة هؤلاء وتقديرهم لي؟

تشجعت وقلت ما يدور بنفسى كما هو . ولكن حدث أن الأسف والدهشة اللذين أصابا بعض أصدقائي الناصريين مما قنته في المحاضرتين فاقا ما كنت أتوقع ، بل وأصاباني أنا بالدهشة ، إذ لم أكن أظن أن حماسهم لعهد عبد الناصر وتغاضيمهم عن مساوئ ذلك العهد وأخطائه قد وصلا إلى هذا الحد .

دهشت أنا أيضاً وأسفت ، خاصة عندما فوجئت بدهشة وأسف بعض الشباب الناصري من الصحفيين الذين أكنّ تقديرًا قانقاً لهم ، وإعجاباً شديداً بموجهتهم ووطنيتهم واستعدادهم للتضحية . ولكن دهشتني سرعان ما زالت ، عندما تذكرت أعمارهم ، وإن لم يزل أسفى . فهؤلاء لم يتجاوز عمرهم الأربعين ، ومن ثم كانوا أطفالاً صغاراً عندما كنت أنا في الثلاثين ، وكنت قد عدت لشوي من بعثتي في إنجلترا ، وعندما رفضت إجراءات الأمن إعطائي تأشيرة الخروج لأنني كنت في

صباى متحمسا لمبدئ الحرية والوحدة والاشتراكية ، وعندما بدأت أنا وكثيرون من جيلى نسمع ونتعاطف مع أغنية أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام الجميلة :
« ناع النواح والنواحة على بقرة حاحا النطاحة . .
والبقرة تنادى وتقول يا ولادى . .
وولاد الشوم رايحين فى النوم . . إلح » .

كنت قد جاوزت الثلاثين من عمري عندما تعاطفت أنا وغيرى مع هذه الأغنية بسبب سخطنا الشديد على ما حدث فى ١٩٦٧ . أما هؤلاء الصحفيون الشبان ، من الناصريين المتحمسين ، فكانوا حينئذ فى نحو الخامسة من عمرهم .

طاف بخاطرى ، عندما تبنت أثر حديثى على الشباب الناصرى المتحمس ، هذا الحاضر الحزين : « هل هناك أى أمل حقيقى فى أن يتقل أى جيل تجربته للجيل الذى يليه ؟ أم أن من المحتم على كل جيل أن يمر بالتجربة بنفسه ، وأن يستخلص كل جيل نفسه ما يستطيع استخلاصه من تجربته هو ، دون أى أمل فى أن يحصل على أى مساعدة من الأجيال السابقة ؟ » .

عين شمس

فى شهر مايو ١٩٦٤ ، ركبت باخرة مصرية من ميناء البندقية فى إيطاليا ، وبصحبتى زوجتى الإنجليزية ، فى طريق عودتى النهائية إلى مصر . كانت فرحتى بالعودة ، ومعى شهادة الدكتوراه وزوجة أحبها ، يصعب وصفها . كان راديو الباخرة يذيع علينا أغانى مصرية باستمرار ، فتصبنى رعدة من الانفعال والحماس للأغانى العاطفية والوطنية على السواء ، وكانت زوجتى ترى انفعالى وفرحتى فتصيحها عدوى الحماس بدورها .

قضت العشر السنوات التالية ، فيما بين عودتى إلى مصر ، ذهابى للعمل فى الكويت فى أوائل ١٩٧٤ ، مدرسا ثم أستاذا مساعدا فى كلية الحقوق بجامعة عين شمس . وكانت كلية الحقوق هى محور حياتى العامة طوال هذه الفترة .

كنت فى هذه الفترة فى عنفوان شبابى (إذ بدأت التدريس فيها وأنا فى التاسعة والعشرين من عمري وتركته قبل أن أبلغ الأربعين) مليئا بالآمال لنفسى وأسرتى وبلدى ، وتسيطر على بعض المبادئ الأخلاقية والاجتماعية بقوة أكبر منها فى أى وقت قبل ذلك أو بعده . وكانت هذه أول وظيفة لى ، باستثناء الستين اللتين قضيتهما بعد تخرجى مباشرة فى مجلس الدولة . وكنت حينئذ لا أزال صغيرا ساذجا لا يزيد عمري كثيرا على العشرين . ومن ثم فقد كان دخولى جامعة عين شمس مدرسا دخولا للحياة العامة لأول مرة ، بعد فترة طويلة من الخوة ، وهى فترة الدراسة فى إنجلترا التى لم أكن أحمل فيها أى مسئولية إلا القراءة والكتابة للحصول على الدكتوراه .

فوجدت في حقوق عين شمس بدلم غريب تمام ، فيه القليل مما يبهج والكثير مما يجلب الإحباط وخيبة الأمل . كان العميد رجلاً لا غضاصة به على الإطلاق ، قويا صديراً لطيف المعشر مع من لم يرتكب خطأ ، وذا مبادئ لا يحدد عنها ، استمدها من تربية صعيدية ملتزمة ، في أسرة ميسورة لم تعد شظف العيش وتمتع باحترام مجتمع القرية التي نشأ فيها وتولى أبوه عموديتها . وقد أصبحت بمجرد عودتي عضواً في قسم الاقتصاد . وكان القسم يتكون من أستاذين يكبراني بأكثر من عشر سنوات ، ومدرسين في مثل سني عاذا مؤخراً من بعثيهما في الخارج ، أحدهما من فرنسا والآخر من الولايات المتحدة .

كان رئيس القسم (الدكتور حلمي مراد) رجلاً فذا بكل معاني الكلمة ، يندر أن يصادف المرء مثيلاً له . شعرت نحوه بالمودّة والاحترام منذ أول يوم عرفته فيه ، وظلت هذه المودة وهذا الاحترام ينموان مع الوقت ، إذ لم أشهد منه أي موقف يضعف من هذه المشاعر ، حتى وفاته في منتصف التسعينات وهو يشرف على الثمانين . لم أشعر بمثل هذه العواطف نحو الأستاذ الآخر في القسم الذي كان رجلاً غزير العلم نظيف اليد ، ولكنه كان مكتفياً بنفسه أكثر من اللازم ، لا رغبة لديه في أن ينشئ أي علاقات قوية مع أي شخص خارج أسرته الصغيرة ، فظل قليل الأصدقاء والمعارف ، يؤدي عمله ويؤلف بعض الكتب إرضاء لنفسه ، حتى مات وحيداً في باريس ، ولم أر رثاء له في أي جريدة أو مجلة مصرية أو عربية رغم كثرة تلاميذه وكتبه .

أما زميلي العائد من فرنسا والذي التحق بنفس الكلية وفي نفس السنة التي التحقت بها فيها ، فكان أيضاً رجلاً مكتفياً بنفسه ولكنه كان ودوداً ، لطيف المعشر ، ذا شهامة ، وعلى استعداد كامل للمساعدة طالما أن هذا لا يتطلب منه جهداً زائداً أو عناء . كان يؤمن بإيمانا قويا بقاعدة : «عش وارك الآخرين يعيشون» . لديه من الموارد الذاتية النفسية والعقلية ما يكفل له حياة هانئة ، ولا يحتاج إلى شيء يتوقف الحصول عليه على إرادة الآخرين ، فهو يشعر بأنه قادر دائماً على الاستغناء عنهم . ولكنه لا يحمل أي حقد أو غيرة من الآخرين ، إذ إنه لا يتمنى لنفسه شيئاً مما يتوافر لهم ، ولا يستطيع أن يورفه نفسه دون مساعدتهم .

كان من الواضح أنه وضع لنفسه هدفاً محدداً وواضحاً في عينيه تمام الوضوح ،
وال المطلوب هو فقط السعى إليه دون انحراف والوصول إليه بأقل نفقة ممكنة . إنه إذن
«الاقتصادي» بامتياز ، لا يضيع وقته في كلام لا فائدة فيه ، أو ماله فيما لا يجلب له
نفعاً مؤكداً . لا يهتم رأى الناس في قليل أو كثير ، إذ ما أهمية رأيهم وهو واثق عما
ما يريد ومن صحة الطريق الذى يسلكه؟ وهم على أى حال لا يملكون الإضرار به
إذ إن لديه من الذكاء ما يمكنه من كشف الضرر قبل وقوعه ، ولديه من الهمة
والنشاط ما يمكنه من الخيلولة دون وقوعه .

كان يعرف قدر المال جيداً ولكنه كان قادراً أيضاً على الاستمتاع بحياة : بالأكمل
الطيب ، والمشروب الجيد ، والبيت الجميل ، والجو المعتدل ، بالإضافة إلى الوجه
الحسن . تزوج من فتاة ألمانية لطيفة ووديمة ، هبأت له بيتاً مريحاً ، وتركته يسعى
لتحقيق أهدافه دون منغصات وأنجبت له ولدين ذكيين . وقد ساعدها كونها ألمانية ،
فيما أظن ، على أن تقدر كفاءة زوجها حق قدره ، إذ كانت هى نفسها تقدر الكفاءة
فى كل شيء مثل تقديره .

أما زميلى المدرس الآخر العائد حديثاً من الولايات المتحدة فكان من نوع
مختلف تماماً . رجل صغير الحجم ليس لجسمه معالم محددة ، وكان مثل كثيرين ممن
عرفت يعتمد فى حديثه على ابتكاشيات من أمثال : «حمداً لله على السلامة» أو
«كل سنة وأنت طيب» أو «ربن يجعل العواقب سليمة» وهكذا . وإذا حدث وقُتِح
موضوع يبدو أنه يهتم الكلام فيه حقاً ، وعبر فيه عن مشاعره بتلقائية ، وهو أمر نادر
الحدوث ، فالأغلب أن يتعلق الموضوع بكسب مادى يأمل فى تحقيقه أو يشكو من
ضياحه منه بدون وجه حق .

ثم مرت السنوات وحصل زميلى هذا على إعرارة إلى إحدى الدول العربية وعاد
منها بسيارة مرسيدس فاخرة ، كان منظره وهو يقودها إلى داخل جامعة عين شمس
يلفت النظر بسبب المفارقة بين ضلّالة حجمه - حتى ليكاد لا يستطيع النظر من
الزجاج الأمامى - وحجم السيارة وفخامتها . ولكنى كنت ألاحظ أيضاً أنه ، إذا
تصدف أن وصل إلى باب الجامعة فى ميارته المرسيدس وأنا وراءه فى سيارتى

الصغيرة والقديمة . هبَّ بواب الجامعة واقفاً لتحتيته وفتح له الباب على مصراعيه ، ثم يجلس مباشرة غير عابئ بى وأنا أمر من نفس البوابة . ولا يكلف نفسه عناء رفع يده لتحيتى . وكنت أنسر هذا الفارق الواضح فى المعاملة بالفارق الواضح جداً بين السيارتين .

لم يكن هذا الاهتمام الزائد بكعب المال ظاهرة استثنائية ، إذ سرعان ما اكتشفت أن الظاهرة عامة ، وأن الاستثناءات وإن كانت موجودة فهي قليلة . وهنا لابد أن أعترف بأن واحداً من تميزاتى القوية والثابتة فى ذهنى منذ زمن طويل وتأتى أن تفارقنى ، هو هذه الفكرة : أن الحرمان المادى فى الصغر أمر خطير للغاية إذ يترتب عليه فى الغالب مادية مفرطة فى الكبر . هكذا كنت أميل دائماً ، كلما رأيت شخصاً يسيطر عليه حب المال ، إلى البحث عن سبب ذلك فى ظروف نشأته ، وكلما وجدت شخصاً كريماً سخياً ومشتعلاً للتضحية بالكعب المادى من أجل فكرة أو مبدأ افترضت على الفور أنه لم يصادف حرماناً فى صباه . والحقيقة أنى لم أصادف فى حياتى أمثلة كثيرة تدحض نظريتى هذه ، وصادفت الكثير جداً مما يؤيدها ، ولكنى على استعداد بالطبع للاعتراف بأن هناك حالات غير عادية تعجز هذه الفكرة البالغة البسيط عن تفسيرها .

كانت الغالبية العظمى من أساتذة ومدرسى كليتى فى عين شمس ذوى أصول ريفية واضحة ، لا تزال تظهر ، حتى لدى كبار السن منهم ، فى طريقة حديثهم وضحكهم وإشاراتهم بالأيدي واختيارهم للملابسهم . . . إلخ . كما أنى كنت أعرف عن بعضهم أنهم صعدوا إلى مراكزهم الاجتماعية الحالية من بدايات اجتماعية متواضعة . كنت غالبية من كان منهم فى سنى أو أصغر ، ممن استفادوا من مجانية التعليم التى أدخلها طه حسين فى ١٩٥٠ ، ثم عمسها جمال عبد الناصر بعد ذلك بسنوات قليلة ، وما كان يتصور أن يتموا تعليمهم الجامعى لولا هذه المجانية . إذن فقد كانت نظريتى تنطبق على هؤلاء ، ولكن أسترعى انتباهى أن كثيرين ممن كانوا أكبر سناً منى بكثير كانت لديهم نفس الحصلة ، وهى اعتبار كعب المزيد من المال سبباً كافياً للتضحية بكثير من الأشياء الأخرى .

كان الأمر كله صورة مصغرة لحالة المجتمع المصرى ككل : مجتمع مكتظ بالسكان ، لا ينتج ما يكفى لتوفير حياة لائقة للجميع . فيتنافس الجميع على الكسب المادى ويحاولون دون جدوى إخفاء هذه المنافسة والتظاهر بعكسها . وحدة هذه المنافسة تضعف بشدة من احتمال وجود أى تعاطف حقيقى ، إذ إن الجهد المطلوب لتحقيق الهدف لا يترك بقية للتعاطف الحقيقى مع الآخرين . هذه الأعداد الغفيرة من السكان هى المسؤولة فى النهاية عن هذا التنافس الحاد ، ولكنها هى نفسها التى تخلق فرصا لزيادة الكسب المادى إذا استطاع المرء أن ينتج سلعة تحتاج إليها هذه الأعداد الغفيرة ، كالكتب الجامعية مثلا .

كان التكاليف على تدريس المقررات الدراسية فى الفصول ذات الأعداد الكبيرة من الطلاب يصل أحيانا إلى درجة يصعب على العقل تصديقها . كما كانت المنافسة بين الأساتذة على التدريس فى هذه الفصول تكون المحور الأساسى الذى تدور حوله أحاديثهم . حضرت مرة جلسة من جلسات مجلس الكلية ، بعد ترقية إلى درجة أستاذ مساعد ، حيث طرحت مسألة الخلاف بين قسمين من أقسام الكلية حول من الذى يقوم بتدريس مقرر باللغة الفرنسية أدخل حديث فى الكلية . كان القسمان يتنافسان على الاستقلال بتدريس هذا المقرر ويقدم كل منهما الحجج لتأييد أحقيته به . لم يذكر من بين هذه الحجج ما يدره المقرر من كسب مالى ، مع أن جميع الحاضرين والمناقشتين كانوا يعرفون جيدا أن هذا هو السبب الوحيد لهذه المنافسة الحادة . وبعد أن استمرت المنافسة فترة طويلة دون أن يتنازل أحد القسمين عن موقفه ، تحمرا أستاذ عجوز عن لا يتب إلى هذا القسم أو ذاك ، ومن رأوا عهدها ماضيا من عهود الجامعة فى مصر لم يكن للكسب المادى فيه هذه الأولوية العالية ، بل كان الأساتذة فيه يتنافسون فى الأساس على أشياء أخرى غير المال ، تحمرا هذا الأستاذ العجوز وسأل ببراءة عما إذا كان الأساتذات المتنافسان يجيدان اللغة الفرنسية التى سوف يدرس بها هذا المقرر . فإذا بنا نكتشف أن مستوى كل منهما فى هذه اللغة لا يسمح مطلقا بقيامهما بتدريس هذا المقرر . سألت نفسى عندئذ : « كيف سيكون حال هذه الكلية عندما يتوفى هذا الأستاذ العجوز وأمثاله من لا يزالون يتذكرون ماضيا أقل تعاسة؟ » .

حدث لى حادث أقطع يدور أيضاً حول الكسب المادى . إذ جاءنى طالب من طلاب الدراسات العليا ليقول لى إن مدرسا فى قسم اخر غير قسم الاقتصاد وزّع على الطلبة بعض المذكرات فى الموضوع الذى يدرسه ، واقتضى من الطلاب مقابل ذلك ثمنا ليس هينا ، وأن جزءا من هذه المذكرات ، الذى يصل إلى نحو عشرين صفحة ، والمكتوب عليه اسمه باعتباره مؤلفها ، مأخوذ بالنص من كتابى الذى كنت أدرسه فى النظرية النقدية بعنوان (الاقتصاد القومى) لطلبة السنة الثانية من سنوات الليسنس ، وهو كتاب معد لطلبة مبتدئين فى دراسة الاقتصاد ، ولم أكن أتصور أن يدرّس لطلبة الدراسات العليا ، ماهيك أن يضع شخص آخر اسمه بدلا من اسمى باعتباره مؤلفه ، ولا يشير إلى الكتاب المأخوذ منه ونو فى هامش صغير .

ذهبت أشكو لرئيس القسم ، فاهتم بما أقول وراعه ما حدث مثل ما راعى ، وأحضر كتابى ومذكرات زميلى وقارن بينهما ، واستقر رأيه على أن خطأ جسيما قد ارتكب ، وقال لى إن شكواى فى محلها وأن على أن أطلب منه ما أريد وسيقوم بتنفيذه مهما كانت درجة شدته . عندما وصل الأمر إلى أسمع زميلى مرتكب الجرم جرى لى مستعظفا ومعتذرا وراجيا منى العفو عنه ، وكان أهم ما كان يذكره لى ويكرره أملا فى أن يحظى بهذا العفو هو أنه على استعداد لأن يقسم معى الربيع الذى حققه من توزيع هذه المذكرات بأى نسبة أقوم أنا بتحديددها . وقد صرفت النظر عن الأمر برمته ، ولم أطلب شيئا لا منه ولا من رئيس القسم . وسرعان ما نسيت القصة كلها .

كانت هذه القصة مسقة تماما مع أشياء أخرى تحدث فى الكلية . كن المجلس الأعلى للجامعات يعلن بين حين وآخر عن الشروط التى يجب توافرها فى «الكتاب الجامعى» ، أى الكتاب الذى يؤلفه أستاذ الجامعة لطلبة ويضطر الطلبة لشراؤه سواء أعجبهم الكتاب أو لم يعجبهم ، بما فى ذلك سعر الكتاب بالنسبة إلى حجمه ، وذلك منعا لاستغلال الأساتذة لطلابهم . ومع ذلك كان بعض الأساتذة يتحيلون على هذه القواعد فيزيدون حجم الكتاب كل سنة بلا مبرر إلا زيادة السعر . وكان الناشرون يتسابقون بالطبع على طبع هذه الكتب الجامعية المضمونة التوزيع ، بينما

يحاول بعض الأساتذة أن يحتفظوا لأنفسهم بالربح الذي يعود على الناشر ، بأن يقوموا بتوزيع الكتاب دون الحاجة إلى ناشر ، فيكلفون موظفا بالكلية ببيع الكتب لحسابهم .

وهكذا أصبح تأليف الكتاب الجامعي جزءاً أساسياً من نشاط الأستاذ إذ يشكل ما يحصل عليه من إيراد من ورائه الجزء الأكبر من دخله . ولكن الموضوع المطلوب التأليف فيه قد يكون جديداً تماماً على الأستاذ ، فإذا به لا يشرع في الكتابة إلا بعد بدء التدريس ، ويطيع من الكتاب ملزمة بعد أخرى توزع على التلاميذ منفصلة . أسبوعاً بعد آخر ، قبل أن يعرف الأستاذ ما الذي يمكن أن تحتوى عليه الفصول التالية . ومن ثم شاع بين الطلاب تعبير الذهاب لشراء ملزمة أو ملازم بدلاً من شراء كتاب أو كتب .

كان الملحوظ أيضاً أن إدارة الكلية تتوجس شراً من الطلبة والأساتذة والموظفين على السواء ، فتحيط الامتحانات بعدد من الإجراءات التي تشبه الإجراءات البوليسية خوفاً من ارتكاب أى عمل من أعمال الفش المحتملة وهي كثيرة . فالأستاذ يطلب منه أن يودع نسخة من الامتحان في خزانة حديدية في حجرة العميد ، ولا يسلمها العميد للطباعة إلا فجر يوم الامتحان ؛ فيجلس الأستاذ إلى جانب الكاتب على الآلة الكاتبة لطبع الامتحان قبل موعد الامتحان بساعات قليلة ، وتحاط الحجرة التي تجرى فيها الطباعة بحراسة مشددة ، خوفاً من تسرب الأسئلة إلى أيدي الطلاب قبل بداية الامتحان . والامتحان نفسه يجري في خيمة كبيرة تتسع للآلاف المؤلفة من الطلاب ، يراقبهم مدرسون منتدبون من بعض المدارس الثانوية ويحصلون مقابل هذا على جنبيه أو جنبيهين يضافان إلى مرتباتهم الزهيدة . ولكن إدارة الكلية كما أنها لا تثق بتاتا في الطلبة ، لا تثق أيضاً في هؤلاء المدرسين المنتدبين ، إذ إن ضعف مرتباتهم قد يغريهم بعقد اتفاق مع بعض الطلاب ينطوى على غش البصر عما يرتكبه الطالب من غش ، في مقابل مكافأة يحصل عليها المدرس خارج خيمة الامتحان . ولهذا فإن أساتذة ومدرسي الكلية يتولون مهمة مراقبة الراقبين ، والتحقق من عدم عقد مثل هذه الاتفاقات . والأستاذ

الجامعى يجد المهمة عسيرة للغاية، فالأعداد غفيرة، والظروف التى يجرى فيها الامتحان صعبة، فالجو حار، والأرض متربة، والكراسى التى يمكن لهم الجلوس عليها قليلة وخطرة، إذ لم تدق فيها المسامير بالحرص الكافى، فأصبح الجالس عليها مهدداً بخاطر تمزيق ملابسه. والطلبة شديداً الجراة ومستمتتون فى محاولة الغش بهدف النجاح بأقل جهد يذكر. فهم يتفننون فى مغالطة المراقبين، ومراقبى المراقبين، فلا ينظر أحد المراقبين يساراً إلا ويشرع الطلبة الجالسون فى ناحية اليمين فى تبادل المعلومات بسرعة، وغالبيتهم يعتقدون أن الامتناع عن مساعدة زميل جاهل يتنافى مع مبادئ الشهامة والمروءة. وفى كل سنة يتكرر الطلاب طرق جديدة للغش لم تكن معروفة من قبل. فتبادل علبة سجائر كتب على ظهرها بعض الإجابات تحمل محله الكتابة بخط صغير للغاية على ورقة لا تكاد ترى، يقوم الطالب بإتلاعها بسرعة إذا حدث ورأه المراقب وهو ينقل المعلومات منها إلى ورقة الإجابة. فإذا سئل الطالب فى ذلك أنكر بشدة ارتكابه أى عمل من الأعمال التى رآه المراقب يمارسها، ويحلف بأغلظ الأيمان مؤكداً براءته، ولا يستطيع أحد، فى هذه الحالة، توقيع أى عقوبة عليه، إذ إن لائحة الجامعة تشترط لذلك توفر «الجسم المادى للمجرمة»، أى الورقة التى تم منها النقل، وجسم الجريمة قد أصبح الآن داخل معدة الطالب وليس هناك طريقة لاستخراجه منها إلا بقتله. والطالب قد يذهب إلى المراقب زاعماً أنه فى أمس الحاجة إلى الذهاب فوراً إلى دورة المياه وإلا حدث ما لا تحمد عقباه. فيجبهه المراقب إلى عميد الكلية، إذ ليس من بين سلطات المراقب البت فى مثل هذه الأمور الخطيرة. والعميد قد يقبل أو يرفض بحسب تخمينه عن شخصية الطالب الذى يأتى إليه. فإذا قبل أرسل معه صاعياً من سعاة الكلية الذى تعهد إليه مسئولية مصاحبة الطالب كظله، والدخول معه إلى دورة المياه ثم العودة به دون أن يسمح له بإخراج أى ورقة من جيبه. ولكن سعاة الكلية فى حالة يرثى لها من الفقر، والإغراء الذى يتعرضون له بالسماح لطلالب بأن يفعل ما يشاء فى مقابل رشوة صغيرة، هو إغراء أقوى حتى مما يتعرض له المدرس المتدرب من خارج الكلية. وعميد الكلية رجل حصيف متمرس بالحياة ويعرف جيداً قوة الإغراء الذى يتعرض له الساعى المسكين، فيصّر قبل أن يسمح لطلالب بالانصراف مع الساعى

على أن يفرض جيبوه من كل ما فيها أو أن يبين للعميد أنها خالية من الأصل . ومن ثم كان من المناظر التي اعتدت رؤيتها في هذه الخيمة العظيمة منظر الطالب وقد أخرج البطانة الداخلية لجيبى سرواله ليؤكد للعميد استحالة أن يكون لديه أى نية للغش .

أما الطالبات فكن يعتمدن أحيانا على خجل المراقبين والأساتذة فيقيم بكتابة المعلومات على الجزء العلوى من جواربهن الطويلة أو حتى على «ساق نفسها» الأمر الذى يدهش معه المرء من العناء الذى يبذله من أجل النجاح فى الامتحان ، ويجعله يتساءل عما إذا كان كل هذا العناء الذى يتحملته فى تلخيص الكتاب ، ثم كتابة الملخص على مكان من أجسامهن يصعب على المراقب رؤيته ، هو أقل من عناء قراءة الكتاب وفهمه . فى مثل هذه الحالة تعتمد الكنية على بعض الوظائف العمالات بها إذ نهض إليهن مهمة تفتيش طالبة المشكوك فى أمرها ، أو اصطحابها إلى حجرة خاصة يجرى فيها التأكد عما إذا كان المكتوب فى ورقة الإجابة مطابقا بحذائره للمدون على ساق الطالبة .

حدث مرة وأنا أراقب الطلبة فى أحد هذه الاستحاثات أن لمحت من بعيد طالبة مملئة الجسم يوحى منظرها بأنها تقوم بعمل تخاف من اكتشافه ، إذ تنطلع بين الحين والآخر يسارا ويمينا كالعصفور الخائف ، ولا ترائى وأنا أراقب حركاتها من بعيد . بالاقتراب قليلا من الخلف تأكدت من أنها تنقل الإجابة من ورقة صغيرة ، فدما احس بوجودى فجأة أسرع بإخفاء هذه الورقة الصغيرة تحت ذقنها الممتلئ وضغطت عليها إلى أسفل لكي تبقى الورقة بين ذقنها وصدرها ، دون أن تقع على الأرض فأعثر على «جسم الجريمة» ، ولا يصح بإمكانها إنكار واقعة الغش ، وهو يودى عادة إلى فصلها من الكنية لمدة عام على الأقل وقد يصل إلى الفصل الكامل من الجامعة . واجهتها بما رأيتها تفعله فأنكرت ، فطلبت منها أن ترفع رأسها إلى أعلى فكررت الإنكار وأبت أن تحرك رأسها مع أنها كانت فى وضع مضحك للغاية إذ تصر على إنكار الغش بينما رأسها يضغط على صدرها بشكل غير طبيعى بالمرّة . وأخيرا وقعت الورقة واقتدتها مع ورقتها إلى العميد .

لابد أن أسره الطالبة قد فعلت المستحيل فى ذلك اليوم لمحاولة معرفة اسم أى

شخص يمكن أن يتوسط لدى لإنقاذ الطالبة . فعثرت بعد ساعتين على زميل قديم لى كان يدرس فى جامعة لندن فى نفس الوقت الذى كنت أدرس فيه هناك ، رجائى دون جدوى أن أصفح عن الفتاة ، التى ظهر أنها إحدى قريباته ، وكان من الواضح لى أنه يشعر بدهشة حقيقية من أن أصر هذا الإصرار على معاقبتها .

بعد انتهاء معركة الامتحانات كانت نحل معركة «الكترول» ، ولا أدري سرّاً استقرار هذا اللفظ الأجنبى واستخدامه دون غيره ، حتى من جانب من لا يعرف كلمة أجنبية غيرها من موظفى الكلية ، للإشارة إلى تلك الظاهرة التى يصعب أن تجد مثيلاً لها فى أى دولة أخرى ، على الأقل بالشكل الذى كانت تدرس به فى مصر . فالكترول فى الجامعات المصرية يعنى تجميع وترتيب الآلاف المؤلفة من أوراق الإجابة ، ثم إخفاء أسماء أصحابها وتدوين الأرقام السرية عليها ، ثم توزيع الأوراق على المصححين فى بيوتهم فى ظل حراسة مشددة خوفاً من ضياع أو سرقة إحدى الأوراق فتضطر الكلية ، طبقاً للقانون ، لاعتبار صاحبها ناجحاً . ثم متابعة المصححين حتى ينتهوا من أعمالهم فى الوقت المحدد ، ثم نقل الأوراق من مصصح لآخر ، إذ إن من المتنوع منع باتاً أفراد مصصح واحد بتصحيح الورقة كلها . فإذا انتهى التصحيح أحضرت الأوراق كلها ، تحت حراسة مشددة أيضاً ، إلى غرف تقع فى بدروم الكلية ، وهى ذات أقفال ومفاتيح يستحيل تزيفها ، وذات نوافذ عليها قضبان حديدية . وتخصص غرفة لكل سنة دراسية ، ويجمع ثمانية أو عشرة أساتذة ومدرسين فى كل من هذه الغرف ويحكمون إغلاق الغرفة من الداخل ، ثم يبدأون عملية قاسية قد تستغرق شهراً كاملاً ، وتبدأ فى كل يوم من النائمة صباحاً وقد لا تنتهى إلا فى منتصف الليل . هذه العملية تتكون من الخطوات الآتية :

١ - مراجعة كل ورقة على حدة للتأكد من أن كل إجابة قد تم تصحيحها ولم يغفل المصحح تصحيح سؤال أو قراءة بضعة سطور فى صفحة من صفحات ورقة الإجابة ، إذ يجب على المصحح ، أثناء تصحيحه ، أن يخط بقلمه على كل صفحة بل وكل فقرة ما يدل على أنه اطلع عليها .

٢ - إعادة جمع درجات الإجابة للتأكد من أن المصحح لم يخطئ فى الجمع .

٣- رصد الدرجات في كشوف .

٤ - إذا كانت الدرجة النهائية عشرين ودرجة النجاح عشرة يجرى رفع كل تسع درجات ونصف إلى عشرة رافعة بالطلاب .

٥ - إذا تبين أن الطالب حصل على درجة أقل من ١٠ ولكنها لا تقل عن ٨ ، في مادة واحدة أو مادتين فقط ، ترفع الدرجة إلى عشرة ، رافعة بالطلاب .

٦ - ثم يُصنف الطلاب إلى طلاب ناجحين وطلاب راسمين (عليهم أن يعيدوا السنة الدراسية) وطلاب متخلفين (أى يمكنهم الانتقال إلى السنة التالية ولكن مع إعادة الامتحان في علم أو علمين) ، وطلاب تعرض حالاتهم على لجنة الرافعة ، التي تقر ما إذا كانت درجة أو درجتان هنا أو هناك ، قد تؤدي بهم إلى استحقاق درجة أخرى هنا أو هناك ، مما قد يؤدي بهم في النهاية إلى النجاح .

٧ - تأتي بعد كل هذا بالطبع إعادة الأرقام السرية إلى أصلها ، أى تحويل الأرقام إلى أسماء ، وذلك قبل عرض النتيجة على العميد لاعتمادها .

حدث مرة حينما كنت عضواً من أعضاء «كترول» السنة الثالثة ، أن كان من بين الطالبات في تلك السنة زوجة أستاذ من أمانة الكلية ، قرّرت في سن متأخرة أن تواصل دراستها التي كانت قد انقطعت عنها بالزواج المبكر . كان زوجها يخشى رسوبها فطلب سراً من أحد الأصدقاء المسؤولين عن الكترول أن يحاول معرفة الدرجات التي حصلت عليها . كان هذا ممنوعاً متعباً باتاً ، أن يعرف أحد درجات أحد التلاميذ قبل أن تعلن النتائج رسمياً . ولّى الأستاذ طلب زميله فاكشف هذا أن زوجته حصلت على ٩ درجات في إحدى المواد . وعلى أقل من ذلك في مواد أخرى مما يؤدي حتماً إلى رسوبها . لم يسكت الزوج ، فذهب إلى أستاذ المادة التي حصلت فيها زوجته على ٩ درجات وقال له : «ما ضره لو رفع كل تسعة إلى تسعة ونصف شفقة بالتلاميذ المساكين؟» كان هذا سيؤدي في الواقع إلى إنجّاح عدد كبير من الطلاب في هذه المادة ما دامت «تسعة ونصف» تتحول تلقائياً إلى عشرة . فهم أستاذ المادة مقصده ولّى طلبه ، فرفع درجات كل التلاميذ في هذه المادة لكن تستفيد

الزوجة ويتحول حالها من الرسوب إلى النجاح . ثم هذا العمل المشين في سرية تامة ، ولكن مدرسا صغيرا من المشتركين في أعمال الكنترول ، عرف بما حدث فصعد لثوره للعميد وأخبره بالأمر . ثار العميد ثورة عارمة ، وكان رجلا عقيفا وصارما في نفس الوقت (الدكتور إسماعيل غانم) ، وأمر بإعادة الأمور كما كانت ورضخ الأستاذ الزوج مرغما ، واضطرت الزوجة إلى إعادة السنة الدراسية من جديد .

كنا في هذه الفترة العصية ، فترة الكنترول ، نرسل بأحد المعاة ، إذا حل وقت الغذاء ، ليشتري لنا سندوتشات من الفول والطعمية من محل قريب اسمه (نجف) اشتهر بجودة طعامه ونظافته ، فيدفع كل منا ثمن سندوتشاته ، وإذا أراد المزيد من الرفاهية طلب من الساعي أن يشتري له قطعة أو قطعتين من الببوسة من محل ملاصق له اسمه «الدشيس» أي الدوقة ، اشتهر بدوره بجودة حلوياته . فإذا جنب الساعي هذا كله مع أكواب الشاي سادت السعادة الحجرة لبضع دقائق تبادلنا خلالها بعض النكات ، لنفرج عن أنفسنا من عناء الكنترول . ولكن استأذا بالغ الكرم (هو د . حلمي مراد) كان يتبرع من حين لآخر بشراء كمية من الكباب والكفتة ، لجميع أعضاء الكنترول من ماله الخاص . فكانت سعادتنا تتضاعف ويتكرر خلال تناولنا الطعام تعبيرنا عن شديد استئنا له ولناؤنا على أريحيته .



كان الدكتور حلمي مراد ، من بين كل من عرفتهم في كلية حقوق عين شمس ، أقربهم إلى قلبي ، وقد تأثرت تأثرا شديدا عندما وصلني خبر وفاته وشعرت كما لو كنت فقدت أبا أو أخا . وإلى جانب حلمي مراد أتذكر بإعزاز ومحبة رجلين آخرين ، أحدهما الدكتور إسماعيل غانم الذي شغل منصب العميد لفترة قصيرة أثناء وجودي بالكلية ، ثم صار مديرا للجامعة ثم وزيرا ، ثم عرفته عن قرب من جديد عندما جاء إلى الكويت ، بعد تركه الوزارة ليعمل في نفس المؤسسة التي كنت أعمل فيها ، وهي الصندوق الكويتي للتنمية . ثم اكتشف مرضه بسرطان الرئة وتوفي به قبل أن يبلغ الستين من عمره . والآخر هو عمّ عوض فرائش قسم الاقتصاد .

أما الدكتور حلمى مراد فكان رجلاً وسيماً ذكياً، سليم التقدير للأشخاص والمواقف، وذا ترتيب صحيح فى رأى للأولويات، فلا يبالى بتوافه الأمور ويعطى الأمور المهمة حقها. كان أيضاً لطيف المعشر مجاملاً، لديه كلمة لطيفة يقولها لكل شخص دون أن يشوبها أى نفاق. كان هكذا مع تلاميذه وزملائه وخدمه وفراشى الكلية على السواء. ولكن رأيت أيضاً صارماً وحازماً مع الرؤساء والعظماء، لا يهابهم ولا تغرّه مظاهر مناصبهم. كان يطبق ذلك القول المأثور «كل كلمتك وامض»، إذ كان ما يهمه، فيما لاحظت، أن يقول الحق بصرف النظر عن نتائجه. لا ينتظر الحصول على مكافأة على قوله، ومستعد لتحمل نتائج هذا القول ولو كانت قاسية. ولكنه كان أيضاً عذب القول، يستمتع النكتة اللطيفة ويضحك لها ضحكة قصيرة ولكنها صافية، وكثيراً ما تختلط عبارات المجاملة التى يقولها بخيط رفيع من السخرية التى لا تخرج أحداً.

عرفته لأول مرة عندما كان مدرساً للاقتصاد والمالية بحقوق القاهرة وكنت أنا حينئذ تلميذاً صغيراً فى السنة الأولى أو الثانية، ولكنى لم أكن قط تلميذاً له، ولم أعرفه عن قرب إلا بعد نحو عشر سنوات عندما عدت فى إجازة إلى مصر أثناء بعثتى بإنجلترا وكنت قد حصلت لتوى على درجة الماجستير، وكان هو رئيس قسم الاقتصاد بحقوق عين شمس التى كنت حصلت على بعثتها، ومن ثم كان من المقرر أن أعود للتدريس به بعد انتهاء دراستى بإنجلترا. ذهبت إلى الكلية أثناء هذه الإجازة للتعرف عليها، ولأخبر من لم يعرف بحصولى على الماجستير من جامعة لندن، فخبرنا بنفسى ولا أعرف بعد مدى جهلى وضآلة شأنى. عاملنى حلمى مراد معاملة لطيفة للغاية وكأنه فهم شعور شاب فى السادسة والعشرين ملئاً بالطموح المبالغ فيه، ولا يعرف شيئاً بعد عن حقيقة الجامعة المصرية أو المجتمع المصرى. دعائى للعشاء فى مطعم هادئ فى وسط البلد، كنوع من الاحتفال بحصولى على الماجستير، وصبر على أثناء العشاء إذ رحلت أماله عما إذا كان قد قرأ هذا الكتاب أو ذاك، وأستغرب أنه لم يقرأه. وكان من بين هذه الكتب فيما أذكر، كتاب لباربارا ووتين (Barbara Wootton: Laments for Economies) تنتقد فيه علم الاقتصاد بشدة. لم أدرك أيضاً مدى كرمه معى إذ أعطانى ساعتين أو ثلاث ساعات من وقته

وعاملنى هذه المعاملة اللطيفة، إذا عتبرت مثل هذه الدعوة للثناء عملاً طيباً من رئيس للمقسم لزميل جديد سوف ينضم للقسم بعد سنوات قليلة. ولم أقدّر هذا الكرم منه إلا بعد أن رأيت كثيرين غيره، من أساتذة الجامعة أو غيرهم، وكيف يعاملون زملاءهم الصغار وغيرهم أيضاً.

بعد عودتى من البعثة كثرت مناسبات لقاءاتنا، حتى بعد أن ترك هو حقوق عين شمس إلى مناصب أعلى، وخاصة فى الندوات والمؤتمرات الكثيرة التى تتناول مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، وكذلك فى المجلس الأعلى للعلوم الاجتماعية أو فى جمعية الاقتصاد والتشريع. أذكر مرة أنه قال لى تعليقاً على أحد المؤتمرات التى كانت منعقدة وقتها تحت شعار إصلاح التعليم فى مصر، وسط صخب كثير ودعاية واسعة، وساخر من كل هذا الصخب والإنفاق على مؤتمرات يرى أى داع له: «إنهم لو فتحوا أى درج فى أى مكتب بوزارة التعليم، لا بد أنهم سيحدون تقريراً فيه كل الإجراءات المطلوب عملها لإصلاح التعليم فى مصر، دون أى حاجة لمؤتمر جديد».

كنت ألاحظ عليه، بعكس غيره من الأساتذة، إذا رأته فى كلية الحقوق أو فى جمعية الاقتصاد والتشريع. أنه كثيراً ما يضع يده فى جيبه ليخرج ورقة نقدية ليدسها فى يده هذا الفراش أو ذاك، فيلهج الفراش بالثناء عليه ويدعو له بطول العمر، فإذا جاءه تلميذ يسأله عن كتاب له أعطاه له نسخة كهديّة. وإذا هم بركوب سيارته، يجلس بجوار السائق لا فى المقعد الخلفى. كما كان كتابه المقرر على الطلبة أصغر الكتب الجامعية حجماً، وأقلهم سعراً.

ثم شهادته بترجى نائباً لرئيس جامعة القاهرة، ثم رئيساً لها، ثم وزيراً للتعليم، فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧، عندما شكل عبد الناصر حكومة تضم بعض الرجال الذين يتمتعون بسمعة طيبة لدى الناس، من حيث النزاهة واستقلال الرأى. ثم تبعناه جميعاً وهو يقوم بنشاط غير عادى كوزير ويحاول الإصلاح بالفعل، حيث رضى غيره بترك كل شىء على ما هو عليه، ثم يستقيل، أو بالأحرى يجبر على الاستقالة، عندما يصبح الإصلاح مستحيلاً. ولكنه لمع بوجه خاص عندما بدأ

يكتب تلك المقالات الرائعة في جريدة الشعب منتقداً عيباً بعد آخر في سياسة حكومات السادات المتعاقبة، وبينه إلى ضرورة الإصلاح في مجال بعد آخر من مجالات حياتنا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

كانت تعاودني الدهشة كلما قرأت مقالا جديداً له، من كل هذه الصلابة التي تكسوها أقصى درجات الهدوء، وهذا الأدب الجم. كان يبدأ المقال هادئاً فيناش أكثر الموضوعات سخونة مناقشة العلم الرصين. فيعدد الحجج التي تؤيد رأيه، ولا يبدو غضباً أو ساخطاً، وإنما يبدو فقط وكأنه فكر ملياً في الأمر وانتهى إلى هذا الرأي الذي يطرحه، فإذا بك وقد انتهيت من قراءة حججه قد استبد بك الغضب، وعلى الدم في عروقك، وضربت كفاً بكف متعجباً من أن كل هذه الحجج الواضحة كالشمس لم تفت نظر أولى الأمر. وتعجب أيضاً من أن يؤدي هذا الهدوء النام وهذا التحليل المنطقي الرصين إلى كل هذه المشاعر القياضة لدى القارئ، وكل هذا السخط على ما آل إليه الحال.

كان يبدو وكأن مجموعة من المبادئ الأخلاقية والقانونية استقرت في ذهنه ولا يستطيع أن ينساها. هي في نظره من البديهيات ويدعشه ألا يراها الناس كذلك. من هذه البديهيات مثلاً أن الوزراء جميعاً مسئولون مسئولية تضامنة عما يفعله بقية الوزراء ورئيس الوزراء. ليس هناك شخص أكبر من أن يقال له أخطأت إذا أخطأ. لا فائدة من جمع المال إذا جاء عن طريق غير شريف. حاجة الإنسان إلى المال هي في الحقيقة محدودة، فحاجات الإنسان الحقيقية قليلة. لا يمكن أن يرفع المنصب الكبير شخصاً صغيراً، ولا الخروج من المنصب يجعل الكبير صغيراً. إذا قست بعمل لأن هذا هو ما أملاه عليك ضميرك فلن يزيك شرفاً إشادة الناس بعملك، ولن يقلل من شرفك أن أحداً لم يشد به أو يذكره. لا فائدة من الطنطنة وعلو الصوت في قول الحق، لأن الحق واضح بنفسه، ولا يحتاج إلى مكبر للصوت.

وهكذا كان يفاجئنا الدكتور حلمي مراد، المرة بعد الأخرى، بمقال يذكر فيه الناس بأشياء كانت في الماضي تعامل كبديهيات ثم نسيتها الجميع، مثل: أن الحمامة مكان لتلقى العلم وتوصيله للناس وليس لتحقيق الربح، أو أن القرارات المهمة في

حياة البلد يجب أن تعرض على الناس للمناقشة قبل اتخاذها، أو أن الوزير الذى يُعطى هدية من دولة أجنبية يجب ألا يحتفظ بهذه الهدية لنفسه بل عليه أن يسلمها للدولة لأنه لم يحصل عليها لشخصه بل بحكم منصبه، أو أن الوزير النظيف أفضل من الوزير غير النظيف، أو أن الزعم بالتصدي للفساد يتناقض مع تعقيد حرية الصحافة. . إلى آخر هذه البيهيات التى يراها حلمى مراد واضحة كالثمن ويرفض القول بأنها من مخلفات الماضى وأن عليه أن ينساها.

عُرِضَتْ عليه الوزارة فى وقت عصيب (١٩٦٨) فقبلها لأن تقلد الوزارة فى رأيه خدمة عامة وفرصة للإصلاح لا يمكن أن ترفض، مع أن غيره ممن كان لهم مثل معدنه ومزاجه وزهده رفضوا الوزارة إشارا للهدوء والسلامة. قبل الوزارة وهو يعرف فى قرة نفسه أنه لن يعمّر فيها طويلا. وقبله خرج من الوزارة فتحي رضوان الذى له نفس معدن حلمى مراد ونزاهته وصلابته، لأسباب شبيهة جدا بالأسباب التى أخرجت حلمى مراد من الوزارة. والذى عينه وزيرا كان أقوى رجل فى مصر، لم تشهد مصر فى تاريخها الحديث من كان يثير الرهبة واخوف مثله. فرأى حلمى مراد أحد الوزراء، وهو وزير العدل، يتصرف على نحو لا يرضى حلمى مراد عنه، إذ أخرج الكثير من القضاة من مناصبهم ظلما وتلقا لصاحب السلطة. فاعترض حلمى مراد وهو وزير التعليم، فسأله عبد الناصر باستغراب شديد عما يجره إلى التدخل فيما لا يعنيه، على أساس أنه وزير التعليم وهذا أمر يتعلق بالقضاء ووزارة العدل. سمعنا وقتها أن جمال عبد الناصر. فى هذه المناسبة، أو فى مناسبة أخرى تكلم فيها أيضاً حلمى مراد بما لا يعجبه. أغلق الملف الذى أمامه وخرج من مجلس الوزراء غاضبا. ونسر حلمى مراد هذا الذى حدث، التفسير الصحيح، وهو أنه دليل على أن رئيس السلطة التنفيذية الذى اختاره وزيرا لم يعد راضيا عنه، وأن عليه بناء على ذلك، واحتراما لنفسه أيضاً، أن يقدم استقالته. ولكن المسألة لم تكن بهذه البساطة، فالخروج من الوزارة لم يكن بسهولة الدخول فيها، وانعصر لم يكن عصر استقالات، بل إن من يختلف مع الرئيس لم يكن يسمح له بالاستقالة، بل يجب أن ينتظر حتى يصدر قرار بإقالته، فلا يتمتع بشرف ممارسة حق الاعتراض والاستقالة.

الأكثر مدعاة للإعجاب هو تصرف حلمي مراد بعد ذلك، فإنه لم يحاول قط، طوال العشرين عاما التي تلت هذا الحادث، أن يستغله لصالحه، مع أن هذا كان من أسهل الأمور بعد أن انقلب كل شيء، بعد وفاة عبد الناصر رأسا على عقب. لم يخطر ببال حلمي مراد قط أن يستغل هذا الحادث للتقرب من الحكام الجدد، بل ولا أذكر أنه قال أي شيء يتضمن افتخارا أو زهوا بموقفه وشجاعته. كل ما صنعه أنه كلما حاول أحد أن يصور هذا الحادث على غير حقيقته، رد عليه حلمي مراد بهدوء كامل، وإيجاز شديد يتفق مع نفوره الشديد من أن يفاخر بتصرف بذله بديهيًا وطبيعيا تماما.

كان رجلا مستقيما بأجمل معني هذه الكلمة، وكان ما رأيته من مواقفه من السلطة وحيرة السلطة معه يذكرني بالمثل العامي الجميل «امش دوغري يختار عدوك فيك». ولكن هذه الاستقامة كانت تبدو لي أيضا وكأنها لا تكفه أي جهد، ومن ثم كان يبدو لي دائما سعيدا وراضيا تماما عن نفسه فكيف «لا يختار عدوة فيه؟» إذا الذي كان يمكن تقديمه لحلمي مراد كوسيلة لإغرائه؟ وما الذي كان يمكن أن يصنع لإخافته؟



أما الدكتور إسماعيل غانم فلا أستطيع أن أزعم أن علاقتي به كانت علاقة صداقة حميمة، ومع ذلك فإنه من الأشخاص الذين لا أكف من حين لآخر عن تذكرهم رغم مرور أكثر من ربع قرن على وفاته، ولا أنذكره دون أن أشعر بالأسف لفقدته.

كانت بداية معرفتي به بسبب علاقة رسمية بحتة، فقد كان أستاذا في حقوق عين شمس عندما التحقت بها مدرسا صغيرا. كان يكبرني بنحو اثني عشر عاما، وقد دهشت دهشة عظيمة عندما رأيته لأول مرة. كان اسمه يتردد ذكره في هوامش كتب القانون المدني وأنا تلميذ في كلية الحقوق، فاستقر في ذهني أنه أستاذ قديم عجوز، كما تصور الشخص عادة شخصا مشهورا لا يكف اسمه عن التردد في الصحف والكتب. فإذا بي أبجد أممي «شبابا» في مطلع الأربعينات، وسيمًا نحيفًا وراقيًا، ثم وجدته رجلا عصريا متزوجا من هولندية ومواظبا على قراءة المجلات والصحف

الأجنبية، وشديد الاهتمام بالخلافات الأيديولوجية بين اليسار المصرى واليمين، مما كان لا يتسق مع الصورة التى أحملها فى ذهنى للقانون المدنى الذى كان يشير فى نفسى معنى التزمت بل وثقل الدم.

لم يمض أكثر من عامين أو ثلاثة على التحاقى مدرسا بالكلية حتى عين إسماعيل غانم عميدا لها، فارتاح الجميع لتعيينه، إذ كان إسماعيل غانم يتمتع بالاحترام المختلط بالحب من الجميع، ولم أسمع تلميذا من تلاميذه يتكلم عنه دون أن يشيد بفضله وكفاءته كمحاضر. كنت أشاهده أيضا وهو يراقب التلاميذ فى الامتحان. تلك الحزمة الهائلة التى تضم الآلاف المؤلفة من الطلبة، فلغت نظرى فناد صبره مع من يحاول الغش، إذ يغلى دمه ويروح ويجىء فى عصبية ظاهرة فى محاولة مستميتة لمنع الغش، بينما يميل معظم الأساتذة إلى إراحة أنفسهم بترك مسئولية المراقبة إلى المدرسين العيين من المدارس الثانوية، ويشغلون فى الحديث مع زملائهم أو فى تصحيح بروفات كتبه.

بدأ لى إذن من البداية أنه من نوع مختلف. وقد تأكد لى ذلك على مر الأيام. فممن شغل منصب العمادة حاول أن يرسى بعض انتقاليات الخاصة التى كان يأسف على ضياعها. وحاول أن يبدأ العام الدراسى بإدخال نوع من المراسم تكسب الدراسة الجامعية بعض القداسة المفقودة، بأن يدخل العميد فى صحبة الأستاذ إلى المدرج، فى أول محاضرة لكل أستاذ، وكلاهما يرتدى الروب الجامعى، فيقدم الأستاذ للتلاميذ ويحثهم على الجدية والانضباط.

كان هذا فى ١٩٦٦، وكان عاما كثيبا فى تاريخ السياسة المصرية دشنت فترة طويلة من أكثر فترات التاريخ المصرى كآبة، ولكننا لم نكن ندرك ذلك بعد. كان من أكثر أعوام الناصرية شدة فى النظام البوليسى وتقييد الحريات. وكانت الاشتراكية العربية قد أصبحت مقروا مفروضا على جميع الكليات الجامعية، حتى الطب والهندسة، وكنت أقوم بتدريسها فى كلية الحقوق بمحض اختيارى، حيث كنت أعتبر نفسى اشتراكيا ونسئ ما أقوله فى الأمر. كان إسماعيل غانم بدون شك ذا ميول اشتراكية حقيقية أيضا، وإذا علاقات قوية ببعض اليساريين المصريين دون أن يكون له نشاط

سياسي فعّال أو عضواً في أي من الحركات اليسارية . وكان لا يطبق بعض الأساتذة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم ذوو ميول دينية والذين كان إسماعيل غانم يرى فيهم ، بحق ، نفاق يخفون به نوازع تجارية ومادية بحتة .

ثم حدثت هزيمة ١٩٦٧ ، وكان شعورنا بجهالة الهزيمة شعوراً يمزق النفس ، أساتذة وطلّاباً . ولم تحض بضعة شهور على الهزيمة حتى اشتعلت الحامية بالإضرابات ، فاضطر عبد الناصر إلى إغلاق الجامعات ، وأصدر أثناء هذا الإغلاق بياناً اشتهر باسم « بيان ٣٠ مارس » في محاولة للتهنئة وبعث بعض الأمل في الناس في أن ثمة تغييراً سيحدث في طريقة الحكم . ثم أعلن أن الجامعات سوف تفتح يوم السبت ، ودعت كل كلية أساتذتها للاجتماع قبيل إعادة فتح الجامعات ، بتوجيه من الحكومة ، لتلقن الأساتذة طريقة تعاملهم مع الطلبة وضرورة قيامهم بتهنئة التلاميذ والمحافظة على النظام . كان الأمر يبدو لي داعياً للثرثاء والغضب . فبين ٣٠ مارس بدا لي مجرد حيلة مكشوفة لاستئصال غضب الناس ، وأنه لا يقصد به أي تغيير جدي . كما بدت لي تلك الاجتماعات مع الأساتذة مجرد مثل جديد لمحاولة الحكومة إرهاب الأساتذة وضمان سكوتهم عن الحق .

كان إسماعيل غانم لا يزال عميداً للكلية عندما وصلتني دعوته إلى حضور الاجتماع . فقررت بلا تردد عدم الذهاب . وكان غيابي عن الاجتماع كفيلاً لإثارته على ثورة عظيمة . فدعاني للذهاب من البيت إلى مكتبه على الفور ، وإذا بي أجده يعامني معاملة العميد لواحد من المدرسين وقد نسي كل شيء ، العلاقة الشخصية والظروف السياسية ، ولا يسيطر على ذهنه إلا أمر واحد : مدرس بانكزية تخلف عن حضور اجتماع دعى إليه العميد . كنت بدوري في ثورة على طريقة معاملة إدارة الجامعة للأساتذة ، وبررت غيابي بأنني كنت أعرف بالضبط سبب الاجتماع ، وهو إصدار الأوامر إلينا عن طريقة التعامل المطلوبة مع الطلبة ، وأنني أرفض ذلك ، وأردفت قائلاً : «إننا لم نعد قادرين على النظر إلى طلبتنا وجهاً لوجه» . وفوجئت بردة العفوى الذي يبين إخلاصه وصدقه «هوه أنت لوحذك يا أخى الملى مش قادر تواجه عيون الطلبة ، ما كلنا عندنا نفس الشعور ؟» .

كان فى حجرة العميد شخص آخر يحاول التهدة ، هو الدكتور محمد حافظ غانم . وكان وقتها وكيلاً للكلية . ودق التليفون أثناء المشادة ، فالتقط العميد السماعة وانتهى بى الدكتور حافظ غانم جانباً محاولاً إقناعى بعدم الاسترسال فى مناقشة العميد . وإذا بصوت العميد وهو يتحدث فى التليفون يبدو عليه فجأة الاهتمام الشديد ، ثم يدعو الدكتور حافظ غانم إلى النقاط السماعة إذ إن المكالمة له ، والمتكلم من رئاسة الجمهورية .

كان عبد الناصر وقتها يشكل وزارة جديدة يحاول أن يدخل فيها بعض الأسماء الجديدة التى تتمتع بشعبية وتقدير عام ، ومن المعروفين بالزراعة والاستقامة واستقلال الرأى ، حتى ولو كان فى استقلالهم ما يهدد انفرادهم بالرأى ، فى محاولة منه لتهدة الرأى العام ، وكانت هذه الفكرة هى التى أدت إلى دخول الدكتور حلمى مراد إلى الوزارة لأول مرة . كانت هذه الفكرة أيضاً السبب فى هذه المكالمة التليفونية التى تمت فى مكتب إسماعيل غانم أثناء وجودى به . وقد تناقل الناس بعد ذلك قصة طريفة اعتقد أنها صحيحة ، وهى أن عبد الناصر أثناء اختياره للوزراء الجدد عبر عن رغبته فى أن يدخل الوزارة «غانم بناع الحقوق» ، دون أن يلتفت إلى أن فى كلية الحقوق غانمين وليس غانماً واحداً ، العميد والوكيل . وأغلب الظن أنه كان يقصد إسماعيل غانم ، فهو ، وليس الدكتور حافظ غانم ، المعروف بميله الاشتراكية وباستقلاله فى الرأى . ولكن لسبب ما عرضت الوزارة على الوكيل دون العميد ، وشاهدت الدكتور حافظ غانم يتناول السماعة مرتعش اليد ثم يرتعش صوته وهو يسأل المتكلم عن طريقة الدخول إلى القصر الجمهورى . كان هذا الخطأ ، إذا صححت الرواية ، هو السبب فى وجود الدكتور حافظ غانم لنحو عشرة أعوام فى أعلى مستويات السلطة ، فقد تنقل من وزارة لأخرى ، ومن عهد عبد الناصر إلى عهد السادات ، وانتهى به الأمر إلى أن يصبح المسئول الأول عن الاتحاد الاشتراكي ، دون أن يترك فى الواقع أى أثر على الحياة السياسية للبلاد ، فقد عرفت عنه الطاعة التامة للممسكين الحقيقيين بزمام الحكم .

أما إسماعيل غانم فقد ترقى فى عهد عبد الناصر من عميد للكلية إلى وكيل ثم

مدير لجامعة عين شمس، وكان شعورى وقتها أنه أكبر بكثير من أن يشغل هذه المناصب الإدارية مهما كان شأنها، فى وقت كان يستحيل على شخص يرغب رغبة حقيقية فى الإصلاح، مثل إسماعيل غانم، أن يكون له أثر يذكر فى ظل سيطرة المباحث العامة والمخابرات وقبضة عبد الناصر ورجاله الحديدية. وقد قلت له مثل ذلك عندما ذهبت لتنهشته فى مكتبه عند تعيينه وكيلا للجامعة، فكان رده أنه كان يتوقع بالطبع أنى سأقول مثل هذا الكلام. كان الرجل يعتقد مخلصا أنه أيا كان اعتراضنا على النظام الذى تدار به البلد فإن علينا ألا نرفض أية فرصة تتاح لنا للإصلاح «من الداخل»، وأن عملا واحدا إيجابيا يقوم به فى موقع هام أفضل مائة مرة من الاكتفاء بنقد النظام من خارجه، ثم القول بنشف فيما بعد «ألم أقل لكم؟». وربما كان الرجل على صواب، ولكن من المؤكد أنه هو نفسه اضطر إلى العدول عن رأيه مع تكرار خيبة الأمل، المرة بعد الأخرى.

حدثت وهو وكيل للجامعة حادثة ذات مغزى، إذ تلقى بعض الضوء على طليعة النظام فى السنوات الأخيرة من عهد عبد الناصر، وعلى شخصية إسماعيل غانم. كانت الحكومة لا تزال مصرة على تدريس مقرر الاشتراكية العربية وبقية المقررات التى سميت بـ «القومية»، كالمجتمع العربى والنظام التعاونى. وكنت قد قمت بتدريس الاشتراكية العربية فى كلية الحقوق خلال السنوات الثلاث السابقة على حرب ١٩٦٧. ثم حدثت الهزيمة ولم أعد أتصور أن أدخل إلى المدرج لأحاضر التلاميذ عن مزايا الاشتراكية، فى وقت كان قد استقر شعورى مع عدد غفير من الناس على أنه لا صلاح للبلد إذا استمر نظام عبد الناصر فى ديكتاتوريته. كان إسماعيل غانم عضوا فى اللجنة التى تختار القائمين بتدريس المقررات القومية. وقررت اللجنة أن أقوم بتدريس الاشتراكية فى كليتين آخرين غير كلية الحقوق، ولكنى اعتذرت عن تدريسيها فى الكليات جميعا، بما فى ذلك كليتى. وأذكر أن إسماعيل غانم سألنى وقتها موثقا عن سبب اعتذارى، فقلت «لأسباب أيدىولوجية». ولم تعجبه الإجابة ولكنه لم يحاول إقناعى.

تحولت قصة إسماعيل غانم إلى ما يشبه الكوميديا فى عصر السادات بعد أيام

عبد الناصر الدرامية، وقبل أن تنتهي حياته فجأة نهاية مأساوية في الكويت. قضى سنوات السادات الأولى، التي كان ما زال خلالها يستعين ببعض ذوى الكفاءة والإخلاص، عين إسماعيل غانم وزيرا للثقافة. وقضى الرجل بضعة شهور يدرس شئون الوزارة حتى اكتشف أن حجم الفساد فيها، والأعيب الممثلين والممثلات في تعاملهم مع القطاع العام، أكبر بكثير من قدرته على الإصلاح، فذهب إلى السادات طالبا إعفاءه من الوزارة وإعادته إلى الجامعة. فقبل السادات وعينه مديرا لجامعة عين شمس. وظن إسماعيل غانم أنه بذلك يعود إلى مكان يمكنه فيه أن يمارس بعض الاستقلال، فإذا بزميل قديم له في كلية الحقوق، يتمتع باحتقاره واحتقار غيره، يعين وزيرا للتعليم العالي ويرأس بذلك المجلس الأعلى لجامعات مما يشل إسماعيل غانم وغيره من مديري الجامعات ويضيع أي فرصة لإصلاح الجامعة. فلما عرض على إسماعيل غانم بعد سنوات قليلة أن يشغل هو منصب وزير التعليم العالي لم يتردد في قبوله، إذ رأى، على حد قوله لى، أن من الأهون عليه أن يكون هو الوزير من أن يخضع لرئاسة وزير أهوج لا يحمل له أى احترام. على أن هذه أيضا لم تدم طويلا، إذ سرعان ما تبين له من جديد استحالة تعاونه مع الحكومة، فاستغنت الحكومة عن خدماته وعاد من جديد أستاذًا في كلية الحقوق. سألته مرة عن سبب غضب الحكومة عليه وتركه الوزارة نهائيا فروى لنا عددا من القصص من بينها القصة التالية التي يستحيل على نسيانها

كان يجلس في مكتبه، وزيرا للتعليم العالي، وقد بدأ يحس بعدم ارتياح «الجهات العليا» له بما في ذلك وزير الداخلية الذي كان يساوره الشك في أن إسماعيل غانم يحمل اتجاهات يسارية أكثر من اللازم، وليس صارما بالدرجة اللازمة مع الطلبة الشائرين ضد الحكم. واتصل به تليفونيا وكيه القديم الدكتور حافظ غانم الذي كان قد أصبح مشغولا عن الاتحاد الاشتراكي يخبره عن اجتماع سوف يجرى عقده بين قرينة الرئيس وبين العلماء المصريين في الخارج الذين جاءوا إلى مؤتمر في مصر. وحاول إسماعيل غانم الاعتذار عن حضور الاجتماع فقال حافظ غانم إن هذا مستحيل وهو وزير التعليم. وذهب الوزير على مضض إلى الاجتماع حيث استمع إلى السيدة جيهان السادات تحكى للعلماء المصريين قصة

دارت بينها وبين هنري كيسنجر . كانت تخبرهم بفتخار شديد كيف أنها استطاعت بمهارة الحصول من هنري كيسنجر على تبرع ببضعة ملايين من الدولارات لمؤسسة الوفاء والأمل ، إذ قالت لكيسنجر إن مساعدة أمريكا لإسرائيل خلال حرب ١٩٧٣ قد كلفها الكثير بسبب كثرة عدد المعوقين ، فإذا بكيسنجر يرسل لها ، بمجرد عودته إلى أمريكا ، شيكا ببضعة ملايين من الدولارات . شعر إسماعيل غانم بالاشمئزاز الشديد ، ولكنه لم يستطع أن ينبس بحرف ، بل اكتفى بأن طأطأ رأسه ناظر إلى الأرض . ثم رفع رأسه ليظهر كيف كان وقع القصة على الحاضرين فإذا به يجد الجميع ينسمون ابتسامات عريضة ، يعبرون بها عن إعجابهم الشديد بمهارة السيدة جيهان ووطنيتها . ولكنه لمح أيضاً وجه السيدة جيهان الذى تبين منه أنها لاحظت أنه لم يشعر بنفس الإعجاب الذى يشعر به الباقون . بل زاد الطين بلة أنه ما إن تغير الموضوع وبدأت مناقشة مشكلات العلماء المصريين بالخارج حتى انفجر إسماعيل غانم نائراً على أحد الآراء المطروحة ، مفرجاً بذلك عن شعوره بالغضب عما كانت تقول له زوجة الرئيس منذ لحظات ، وإن ألمه بغضبه انحماها مختلفاً تماماً . ساء ذلك أيضاً قرينة الوثئس إذ تسببت ثورته فى تعكير صفو الاجتماع الذى كانت ترعاه وتشمله بعطفها .

سأله أيضاً صاحكاً عما إذا كان لمنصب الوزارة أية ميزة كانت تكفى لأن يتمسك به . قال إن منصب الوزير ميزتين رحيدتين . الأولى : تتعلق « بالنطاط » . إذ يخص لكل وزير ، عدا السيارة أو السيارتين الحكوميتين ، والسائق الخصوصى ، شخص آخر يعرف بـ « النطاط » ، وهو شخص يجلس إلى جوار السائق وتنحصر مهمته فى القفز من السيارة قبل وقوفها لكى يفتح للوزير الباب . قال إن هذا النطاط مع ذلك سبب له مشكلة . فقد استهجن إسماعيل غانم بشدة أن تكون هذه هى كس مهمة الرجل فقرر أن يستفيد منه على أى نحو آخر . كانت زوجة الوزير دائمة الشكوى من أنها لا تستطيع الحصول على زبد ، فخطر له أن يكلف النطاط بشراته ، فيوفر على زوجته عناء الوقوف فى طابور الجمعية . طلب الوزير إذن من النطاط أن يذهب ليبحث له عن زبد ثم سعد إلى مكتبه . فإذا بالتليفون يدق بعد ساعة فى مكتبه وإذا بالمتحدث مدير مكتب وزير الثموين مستفسراً من وزير التعليم العالى « كم كيلو من الزبد بالضبط يريد ؟ » .

قال إن هناك ميزة أخرى لمنصب الوزير لا يمكن التهوين من أمرها. ذلك إنه بجلوس الوزير في قاعة اجتماعات مجلس الوزراء، وقيل أن يدخل رئيس الوزراء، كثيراً ما يأتي موظف إلى الوزير فينحني هامساً في أذنه ليخبره بأمر ما وصل إلى الجمعية التعاونية من سلع، للوزير الأولوية في الحصول عليها، وكان آخر ما يذكره هو شحنة من البطاطين الصينية كانت قد أرسلت كجزء من معونة صينية لبعض المحتاجين في مصر، فإذا بالموظف يسأله عما إذا كان الوزير يرغب في إرسال بعضها إلى بيته.

لم يتحمل إسماعيل غانم طويلاً العودة كأستاذ في كلية الحقوق، هذا المنصب الرفيع الذي كنا جميعاً نعتبره أسوأ من أي منصب آخر، وهو بالفعل كذلك حتى يمر المرء بتجربة مثل تجربة إسماعيل غانم. لم أمت أنا بمثل هذه التجربة، ولكنني أستطيع أن أتصور شعور رجل وصل إلى أعلى المناصب وأصبح بهذه الدرجة من القرب من مركز اتخاذ القرارات ثم يبتئ عجزه عن القيام بأي إصلاح. بعد هذا قد يبدو أنه الاستمرار في التدريس والبحث من قبيل العبث، إذ أنه يمكن الهدف من التدريس والبحث هو الإصلاح في النهاية؟ فما جدوى هذا كله إذا كانت فرصة الإصلاح غير موجودة أصلاً؟ لقد قايت وزيراً عينا سابقاً مرة بمثل هذه التجربة ثم أدمن الخمر، ولكن الأكثر حدوثاً هو أن يبحث الرجل المصاب بخيبة الأمل عن وظيفة مربحة عالية الدخل وقليلة المسئوليات. هكذا قبل إسماعيل غانم وظيفة مستشار قانوني بالكويت، وهو آخر من كنت أتصور أن يقبل مثل هذه الوظيفة. ولكنني فوجئت يوماً وأنا أعمل مستشاراً اقتصادياً بالصندوق الكويتي بإسماعيل غانم، يأتي لينضم إلينا في عمل لا يتطلب جهداً كبيراً ولا ألمعية زائدة، ولكنه مجزٍ مادياً. كان هذا في نظري، بالنسبة لرجل مثله وفي مثل سنه، عملاً من أعمال الاستسلام وإعلاناً لليأس.

لم تمض ستة أو سبعة شهور على التحاق إسماعيل غانم بالصندوق الكويتي حتى اكتشف أنه مريض بسرطان الرئة، وذهب إلى نيويورك للعلاج ولكنه لم يدم طويلاً. وبلغت في الكويت نبأ وفاته على بعد آلاف الأميال من وطنه الذي بذل كل جهده في أن يفعل شيئاً من أجله فلم يفلح.



الشخص الآخر الذى أحبته حيا جما عن تعرفت عليهم فى كلية الحقوق كان عم
عوض الساعى النوبى فى قسم الاقتصاد . كان يكبرنى بنحو عشرة أعوام ، نحيفا
وذا بشرة حالكة السواد . وكان ييش دائما لرؤيتى بل كان بشوشا على الدوام . لا
أذكر أنى رأيته يوما متجهما ولا أنه شكالى من شىء . كان ككل التوبيين الذين
صادفتهم فى حياتى قنوعا ، لا يسوف لا فى الأكل ولا فى الكلام . إذا وقع حادث
سياسى هاج له طلبة الكلية وماجوا ، لم يكن عم عوض يعلق عليه بأكثر من حملة
صغيرة يعبر بها عن عجبه لما يحدث وقلة فائدته . ولكنى لم أشعر قط ، مثلما كنت
أشعر مع غيره ، بأن امتناعه عن الكلام كان مبيه الخوف ، بل كان مبيه مجرد إدراكه
النام لقلة حيلته ، وقلة حيلتنا جميعا ، واعتقاده الجازم بأنه لا جدوى من كل ما
نصنع أو نقول . اعتاد منى ، كلما جاء إلى بيتى لعمل من أعمال الكلية أن أعطيه
مجموعة من الملابس القديمة ، فكان يقبلها بمرور ولكن دون أن يطيل عبارات
الشكر مثلما كان يفعل غيره . كنت كلما غبت عن الكلية لمدة طويلة ثم أذهب إليها
متشوقا إلى استعادة ذكريات الماضى ، أسأل أول ما أسأل عن عم عوض . فلما قيل
لى مرة «تعيش أنت» ، كما كان لابد أن أتوقع أن يحدث يوما ما ، شعرت بأن ميبا
مهما من الأبواب القليلة للذهابى إلى الكلية قد فُقد .

(١٢)

الكويت

- ١ -

في أوائل سنة ١٩٧٣ دعيت للاشتراك في مؤتمر الاقتصاديين العرب بالكويت ،
والقاء تعليق فيه عن التخطيط في البلاد العربية كتبه الدكتور يوسف صايغ .

كانت هذه هي أول زيارة لى للكويت ، وكانت انكويت في تلك الأيام تتمتع
بحاذية شديدة لبقية العرب ، بمن فيهم المثقفون . ذهب للعمل فيها بعض من كبار
المثقفين العرب . وحقت مجلتها الشهرية «العربي» سمعة طيبة تحت إدارة منقف
مصري كبير كان مديرا سابقا لجامعة القاهرة (الدكتور أحمد زكي) ، وما كان أكثر ما
يعقد في الكويت من مؤتمرات وندوات عن مستقبل العرب وموقفهم من الحضارة
العربية . - إلخ . وإلى جانب هذا كان هناك بالطبع الرخاء الشديد مع انشاء في
الإنفاق .

كان المؤتمر جيد الإعداد ، وكان الإنفاق عليه سخيا أيضاً ، فحضره عدد كبير جدا
من صفوة المثقفين واجامعيين العرب ، وحظى بتغطية إعلامية واسعة تزيد حتى على
ما تحظى به أمثال هذه المؤتمرات في دولة صغيرة كالكويت .

استقبل تعليقي استقبالا طيبا للغاية ، وفاق توقعاتي ، ثم فوجئت بالدكتور زكريا
نصر الذي كان يعمل وقسها في الكويت رئيسا لقسم البحوث في الصندوق
الكويتي ، يبلغني عرضا من رئيس هذا الصندوق ، عبد اللطيف الحمد ، بالمجيء
للعمل بالصندوق .

جاءني هذا العرض في يناير أو فبراير ١٩٧٣ ، في أعقاب حماما وثناء شديدين

استقبلت بهما كلمتى فى مؤتمر الاقتصاديين ، مما ضاعف من تقديرى لنفسى وأثار فى غروراً جعلنى أرفض العرض بإباء وشمم ، رغم إلحاح حامله على بالقبول ، ومحاولة قوية من جانبه لتزيين الحياة فى الكويت فى نظرى . كان هذا الرفض يعتبر مدحاً جلاً لكل من سمعه ، إذ كان المرتب الذى يحصل عليه المرء ، فى مثل هذه الحالة ، أضعاف ما يحصل عليه مثلى فى مصر ، وكان أساتذة الجامعة المصريون يتكالبون على الحصول على أقل منه ، إذ كانت المرتبات التى يدفعها الصندوق الكويتى أكثر بكثير من مرتبات جامعة الكويت ، والعمل فيه تحيطه هالة من التبريل لا يحققها العمل فى معظم المؤسسات الكويتية الأخرى .

لم تمض أكثر من ثمانية أشهر حتى تغير موقفى من هذا العرض تغيراً تاماً . فى أكتوبر قامت الحرب الشهيرة . وعلى الرغم من شدة التهليل الذى صاحبها لما اعتبر انتصاراً عسكرياً ، أصابنى غم شديد بعد أقل من أسبوعين من قيامها ، عندما رأيت موقف السادات وإعلان رغبته فى السلام ، وبدأ لى أن هناك خطة محكمة لدفع مصر دفعا إلى التصالح مع إسرائيل . وهو اعتقاد أكدته فى نظرى الاتفاقيات المتتالية التى عقدتها مصر مع إسرائيل حتى مقتل السادات فى ١٩٨١ .

عندما أتذكر الآن كيف اشتدت رغبى فى الذهاب للعمل بالكويت فى الشهور الأخيرة من ١٩٧٣ ، حتى كنت أرسل البرقية تلو الأخرى أستعجل الصندوق الكويتى فى إرسال تفاصيل العرض الذى يعرضونه على ، وأحثهم على ترتيب إجراءات سفرى إلى الكويت ، عندما أتذكر ذلك لا أستطيع تفسير ما طرأ على موقفى من السفر للعمل فى الكويت إلا بعاملين : زوال ذلك الشعور المؤقت الذى سيطر علىّ خلال أيام مؤتمر الاقتصاديين فى الكويت ، بالمبالغة فى قدر نفسى ، وشعورى بالإحباط الشديد لما طرأ على الموقف السياسى المصرى فيما يتعلق بعلاقة مصر وإسرائيل .

وصلنى العرض المكتوب من الصندوق الكويتى بعد إلحاحى فى استعجاله ، وما أسرع ما أنهيت إجراءات السفر فى مصر واعتذرت عن التدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة خلال النصف الثانى من العام ، حيث كنت قد انتبخت للتدريس

بها في ذلك العام الدراسي ، وأتممت واجباتي على عجل في كلية حقوق عين شمس ، التي كنت أدرس فيها مقررا في التجارة الخارجية بالإنجليزية ، دون حتى أن أخطر العميد أو مدير الجامعة أو أى شخص آخر بنيتي في السفر . كان عزمي قد اتعقد على السفر ، ولم أكن أتوقع بالمرة أن توافق جامعة عين شمس على إعارتي للصندوق الكويتي ، إذ لم تكن شروط هذه الإعارة متوافرة في حالتي في ذلك الوقت . ووطنت نفسي على الاستقالة إذا لزم الأمر . عرضت على الجامعة الأمريكية زيادة مرتبي إذا قررت البقاء ، فأجبت بأن من المستحيل على الجامعة أن تعطيني مرتبا ينافس المرتب الذي سأحصل عليه في الكويت . وسافرت فرحا متفائلا بهذه التجربة الجديدة تماما على ، وانتي كنت متلهفا على تذوقها ومعرفة كنهها ، ورتبت مع زوجتي كيف تلحق بي في الكويت هي وأطفالي الثلاثة ، بعد أن أخبرها بترتيب مكان للإقامة لنا جميعا في الكويت ، وبعد أن أعثر على مكانين لبتي وأكبر الولدين في مدرسة ملائمة .



بعد وصولي إلى الكويت ببضعة أيام قابلت مصريا كان قد أمضى أكثر من عشرين عاما فيها وأوشك على مغادرتها والعودة نهائيا إلى مصر ، فسألته عن رأيه في الحياة في الكويت بعد هذه الإقامة الطويلة فقال ضاحكا : « الدخول إلى الكويت كدخول فأر صغير في زجاجة رأى بها قطعة كبيرة من الجبن ، أسالت لعابه ، وجرى إليها دون أن يفكر فيما إذا كان سيستطيع الخروج من الزجاجة بعد أن يلتهم قطعة الجبن ! » .

وقد شاهدت هذا المنظر بعيني في مصرى بعد آخر من ذهبوا إلى الكويت مدفوعين بالرغبة في « تكوين أنفسهم » ، باستخدام التعبير الشائع في مصر وقتها ، والذي كان يقصد منه توفير الشاب لمبلغ من المال ، لا يستطيع توفيره في مصر ، فيمكنه من الزواج أو شراء شقة أو سيارة ، أو يودعه في البنك ويحصل من ورائه على عائد يكمل به مرتبه البسيط في مصر ، ويلجأ إليه إذا طرأ طارئ . ما أكثر المصريين الذين ذهبوا إلى الكويت بدافع « تكوين النفس » هذا ، ولكنهم لم يستطيعوا

الخروج بعد أن التهموا قطعة الخبز، إذ زاد وزنهم وترهلت نفوسهم وافتحت شهيتهم للمزيد، وما كان يبدو كافياً في البداية لم يعد كافياً، وما كان كمالياً يسهل الاستغناء عنه أصبح ضرورياً لا يمكن العيش بدونه.

وقد استمرت إقامتي في الكويت أربع سنوات ونصفاً، ولم تعد لي بعد تركي لها أي رغبة في العودة إليها إلا لحضور ندوة أو مؤتمر ليرم أو بومين، ولم يستمر سروري بالإقامة بها أكثر من عام واحد بدأت بعده المتخصصات. ولكن كان الخروج من الكويت بعد عام واحد مستحيلاً، فكنت قد أجرت بيتي في مصر لمدة أربع سنوات، وأولادى كانوا قد التحقوا بمدارس جيدة في الكويت، وبدأوا هم وأمههم يعتادون الحياة الجديدة. ولم أكن واثقاً على أي حال من صواب ترك كل هذه المزايا المادية الواضحة بعد عام واحد لأسباب قد أكون أنا المسئول عنها وليس أحد غيبي. ازداد الطين بلة بعد سنة أخرى، وتقدمت باستقالتني، وعزمت على العودة ولو اضطررت لاستئجار شقة أقوم بها حتى أستعيد بيتي من متاعجه. ولكني سحبت الاستقالة عندما أرسل رئيس الصندوق سن يترضي ويحاول استبقائي، فبقيت دون أن تعود إلى راحة البال أو الرضا عن حياتي بالكويت. واستمرت الحال على ذلك حتى تلقيت دعوة لقضاء سنة في أمريكا أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا، فأسكت بهذه الفرصة بكنتا اليبدين وانصرفت من الكويت غير آسف. ولم أندم على هذا قط، بل ظننت ذكرى تلك السنوات الأربع التي قضيتها في الكويت، كلما عادت لي، تثير في الاستغراب أكثر من شيء آخر. فرغم أنها لم تخل من بعض الأيام السعيدة، خاصة في السنة الأولى، فباتي أستغرب كيف انقضت كل تلك الأيام التي قضيتها في الكويت، خاوية تماماً وبلا أي معنى، وبدأ لي الأمر أقرب إلى حال من أعطى حفنة مخدرة تلبد بسببها إحساسه. فقبل أشياء لم يكن من المتصور أن يقبلها لو كان في حاله الطبيعية.



كان التخدير ناتجاً مما يحاط به المرء، بمجرد وصوله، من درجة عالية جداً من «الراحة». ويبدو أن الإنسان لديه استعداد طبيعي للاستجابة التامة لأي شيء يمنحه

الراحة، سواء كان مقعداً مثيراً أو سيارته مكيفة الهواء، أو الحصول على أصناف الطعام التي يحبها دون تعب، أو الترم في مكان بلا ضوضاء، أو السبر في شارع مرصوف رصفاً جيداً، ومضاء إضاءة قوية، فلا يهدك فيه خطر الارتطام بشيء غير متوقع، أو السقوط في حفرة غير مرئية، أو صرف شيك دون انتظار في طابور، أو استخدام تليفون لا تنقطع عنه الحرارة أبداً. إلخ.

كان هذا المستوى الرائع من الراحة هو أول ما يصادفك في الكويت. يفرجوت لذي وصولك على عدد من المساكن الفاخرة للاختيار بينها فتختار أحسنها. كلها مكيف الهواء، وكلها يحتوى على ثلاثة رائحة ومطبخ فسيح وأثاث مريح متورد كله من الخارج. وتعرض عليك السيارات من مختلف الماركات والوارد من مختلف البلاد لتختار الماركة التي كنت تسمع عن مزاياها في مصر ولا تستطيع اقتنائها، واللون الذي يعجبك بالضبط، فإذا بها أمام بابك بعد ساعة. وفواتير الكهرباء، والتليفون والمياه لا تراها أصلاً لأن الصندوق الكويتي يدفع قيمتها نيابة عنك ولا يحاسبك عليها. ورخصة السيارة وأى ورقة رسمية أخرى لا تحتاج من أجل تحديدها إلا أن ترسلها مع فرائض الصندوق للمستول عن الشؤون الإدارية لكي يقوم باللائم ويعيدها إليك وأنت في مكتبك. والعمل المطلوب منك القيام به بسيط للغاية، ولا يحتاج لمجهود يذكر، فيمكن إتمامه في ساعة أو أقل فتبقى لك بقية ساعات النهار لتقرأ أو تكتب كما تشاء، أو تبادل زميلاً لك الحديث في أى موضوع مهم أو غير مهم.

راعى مثلاً بعد بدء عملي في الصندوق بأيام قليلة، أن مرّ على زميلي المصري الذي يحتل احجرة للجاورة حجرتي، وكان اقتصادياً كبيراً إذا مقام كبير في مصر وكنت اعتبره في حكم أستاذ لي بحكم سنه وعلمه، فقال لي بمتتهى الجندية وهو يشير إلى إناء نحاسى كبير موضوع على الأرض بالقرب من المصعد، وفيه نبات أخضر جميل يسقى ويظف بعناية كل صباح، «ألا تعتقد يا جلال أن هذا الإناء يكون من الأفضل كثيراً لو تحرك عشرين أو ثلاثين مستمتر إلى اليمين؟» لم تصدق أذنى أن تصدر هذه العبارة من الأستاذ الكبير، إذ لا بد أن كان لديه من الفراغ

فى الوقت والذهن ، ما يجعله يهتم بشئ كهذا ، بل وأن يترك مكتبه ويأتى إلى لكى يقول لى ذلك . ولكن الأستاذ كان قد انقضى على مجيئه إلى الكويت أربع أو خمس سنوات ، فخطر لى أننا جميعا لابد أن نصبح مثله ، دون أن نشعر ، بعد انقضاء بضعة شهور أخرى .

لقد تبدل الإحساس ووصل مفعول المخدر إلى المخ ، وكان لابد أن نبحث عن شئ نشتغل به بدلا من كل تلك المشاكل اليومية التى كانت تشغلنا فى بلد حقيقى كمصر . أو ليس الكويت بلداً حقيقياً ؟ قال لنا مرة أستاذ مصرى ظريف ممن عاشوا فى الكويت مدة طويلة : إن الكويت تذكره بما كنا نفعله أحيانا ونحن أطفال إذ يقول أحدنا للآخر : « تعال نلعب مدرسة » أو « تعال نلعب دكتور ومريض » هكذا الكويت . فى نظر هذا الأستاذ ، مجموعة من الناس قرروا أن يلعبوا ، أو قرر لهم أحد أن يلعبوا ، فأنشأوا دولة لها علم وسلام وبنى ، وحكومة وبرلمان ، وجامعة ومستشفيات ، ويوليس ومحاكم . . إلخ .

والتشبيه مبالغ فيه بالطبع ، ولكن من الممكن فهم المقصود منه عندما ترى الشوارع الرائعة بالغة الاتساع والمضاءة بإضاءة باهرة لا يمكن أن تجد لها مثيلا فى دولة كمصر ، ولكن دون أن ترى شخصا واحداً يسير فيها ، أو مطاعم ومحلات وفنادق فاخرة فيها كل ما تجده فى مطاعم ومحلات وفنادق باريس أو لندن ، ولكنك تشعر فيها بوحشة شديدة لقلة من فيها من الناس . وأنت حينما ذهبت ، على الأقل طوال السنوات التى قضيتها فى الكويت ، تفتقد بشدة منظر امرأة من أى نوع ، ومن أى جنسية . فكل من تراهم رجال ، وهو أمر مثير للأعصاب ويحث بعد فترة على الاكتئاب ، سواء أدركت السبب أو لم تدركه .

كنا طبعاً نضطجب نساءنا إلى أمسيات العشاء الفاخرة التى كنا نقيمها على التوالى على فترات جد قصيرة ، بلا مناسبة ولا سبب إلا اختلاق وسيلة لتمضية ساعات المساء التى لا نجد فيها ما نعمله ، وتسلية الزوجات اللاتى لا يجدن ما يمكن عمله حتى فى ساعات الصباح ، وخلق فرص لهن لارتداء ثياب غالية ومجوهرات ثمينة ليس هناك أية فرصة أخرى لارتدائها . ولكن اختفاء النساء من الشوارع

والمطاعم والمحلات على هذا النحو كان يطبخ الحياة اليومية في الكويت بطابع ثقيل جداً على النفس لا يمكن أن تعرضه الرفاهية للمادية .

كنا نحاول التعويض عن جلد الحياة في الكويت بعدة أشياء . كان المرتب الكبير يصل بالطبخ في أول كل شهر ، ولكنك لا تستطيع قضاء الشهر كله في التفكير في ضخامة المرتب ، وفي إعادة حساب مدخراتك من جديد . كانت هناك أنواع الطعام الفاخرة التي كنا نفتقدها في مصر : كالجيمبرى ومختلف أنواع المكسرات المستوردة ، كالفستق واللوز ، كما كان بالمحلات كل ما يمكن أن تشتت به من سلع لا تستطيع شراءها في مصر إلا نسبة ضئيلة جداً من الناس ، من الأثاث الاسكتلندي ، إلى الملابس الباريسية ، إلى الكريستال التشيكي ، إلى الأحذية الإيطالية . . الخ . وكان من الممكن بالطبع شغل الأطفال باصطحابهم إلى محلات اللعب البديعة التي تحوى على أضخم الألعاب التي تسير بالكهرباء ، مما لا بد أن يخلب لب أى طفل مهما كان عاقلاً . وهناك أيضاً حمامات السباحة في الفنادق الكثيرة ، التي يمكن لأى شخص دخولها طالما دفع رسم المدخول ، وهو في متناول أيدينا جميعاً . صحيح أن النجيل المحيط بها ليس نجيلاً حقيقياً بل مصنوع من البلاستيك ، وصحيح أن القائمين على خدمتهم رجال يخيم على وجوههم البؤس لافتقارهم لأسرهم التي تركوها في مصر أو سوريا أو لبنان ، ولم يأتوا إلى الكويت إلا لنفس السبب الذي أتى بك أيضاً إليها ، ولكنهم لا يتلقون مرتباً يقارن بمرتبك ، وقد يسكن الثلاثة أو الخمسة منهم في حجرة واحدة ضيقة . كل هذا صحيح فضلاً عن أنك لن ترى امرأة واحدة في حمام السباحة ، ولكنك تضمن على الأقل إذا أخذت أطفالك إليه ، أن تليهم وتستمد بعض البهجة من سماع ضحكاتهم ومن ابتهاج زوجتك لنفس السبب ، مما يصرف عن ذهنك فكرة أنك قد أذنبت في حق أولادك وزوجتك بمجردك إلى الكويت .

الشيء الغريب حقاً ، وهو ما قد يصعب أن يدركه من لم يعيش في مكان كالكويت لفترة طويلة ، هو أن القراءة ، التي كانت تشغل جزءاً كبيراً من وقتنا في القاهرة ، أو حتى الاستماع إلى الموسيقى ، وهما ما قد تظن أنك لا بد أن تمارسهما

بدرجة أكبر في بلد كالكويت ، حيث لديك الوقت الكافي لأن تفعل أى شيء .
سوف تجد نفسك أقل رغبة بكثير في ممارستهما مما كنت من قبل . ليس من السهل تفسير ذلك ، ولكني أظن أن السبب هو أنه كما أنك لا تستطيع القراءة أو الاستماع إلى الموسيقى بسهولة في مكان صاخب يعج بالحركة والضوضاء ، أو إذا كنت معرضاً في أى لحظة للإزعاج بزيارة مفاجئة أو رنين جرس التليفون ، أو إذا لم تكن تشعر بدرجة كافية من الراحة ، كما لو كنت في مكان شديد البرودة أو شديد الحرارة ، أو لا تجد مقعداً مريحاً لتجلس عليه ، إذا كان كل هذا قد يمنع من استغراقك في القراءة أو يضعف من رغبتك في الاستماع إلى الموسيقى ، فإن العكس بالضبط قد يؤدي إلى نفس النتيجة . فالراحة المفرطة وخلو حياتك من أى إثارة أو أى قلق من أى نوع ، ورتابة الحياة وخلوها من أى حادث مهم تطلع إلى حدوده أو تخشى وقوعه ، أو بعبارة أخرى ، خلو الحياة اليومية من أى شيء يمكن أن يزيد من قوة اندفاع الدم في عروقك أو يسبب لك بعض الإثارة ، سواء كانت إثارة محبوبة أو مكروهة ، يضعف ميلك إلى اتخاذ قرار بالجلوس للقراءة أو الاستماع إلى موسيقى . إذ ما هي المشكلة التي تريد أن تجد لها حلاً في الكتب؟ ومن أى نوع من أنواع القلق أو التعب تريد أن تتخلص بالاستماع إلى موسيقى بيانو هادئة؟ وأى غضب تشعر به قد تساعلك على تهدئته سيمفونية من السيمفونيات؟

نعم ، قد تقرأ وقد تسمع بعض الموسيقى ، ولكن حتى القراءة والموسيقى تفقدان في الكويت جزءاً كبيراً من متعتهما لنفس السبب الذي تفقد بسببه أبهتها مصابيح الكهرباء ، الباهرة في الشوارع ، وتفقد بسببه الفنادق والمحلات الفاخرة ، بل وفي كثير من الأحيان أنواع الطعام الفاخرة نفسه ، طعمها ونكهتها التي كانت لها في بلد آخر . كل هذا لم أدركه بوضوح طوال إقامتي بالكويت . لم تكن لدى الرغبة ، على الأرجح ، في الاعتراف به لنفسى أو لغيري ، بل كنا جميعاً نبحث عن المبررات التي تسبغ العقلانية على قرار المجيء إلى الكويت واستمرار الإقامة بها . كما أن الراحة المستمرة ، كما قلت ، تعمل في العقل مثلما يعمل المخدر الذي يجعل المرء يرى كثيراً من الأشياء على غير حقيقتها . لم يتضح لى كل هذا إلا بعد أن تركت الكويت

وعدت إليها في زيارات قصيرة لبضعة أيام . حينئذ فقط كنت أقول لنفسي : «كيف وجدت من الممكن أن أعيش ههنا هذا العدد من السنوات؟» بعد أن أدركت هذا أصبحت كلما جالت بخاطرى فكرة السفر من جديد للعمل في إحدى دول الخليج ، بسبب بعض الصعوبات أو المنغصات التي أقابلها في مصر ، أو بسبب عرض جديد يقدم إلى للعمل في إحدى هذه الدول ، أصرف الفكرة عن ذهني بسرعة وسهولة وأعتبر الأمر مستبعداً تماماً ومفروغاً منه .

-٢-

كنت هناك منفصتاً من نوع آخر تتعلق بطبيعة العمل الذي كنت أقوم به في الصندوق الكويتي ، وعلى الأخص بكوني أستاذاً جامعياً مصرياً يعمل في مؤسسة كويتية يرأسها شاب كويتي صغير السن ، يحيط به من كل جانب رجال من العرب والأجانب ، يطمحون إلى اقتناص أى فرصة قد تتاح لهم للإفادة من الثراء الفاحش لهذا الصندوق ، ولا يمكن اقتناصها إلا بالتقرب من مديره .

كان ينهال على الصندوق عدد لا نهائى من الطلبات والعروض ، من مختلف الدول الأوروبية والولايات المتحدة (وأقلها من الدول العربية) ؛ طمعا في الحصول على مغنم أو آخر من هذا الصندوق الثرى ، ويتنافس أصحابها في اختراع أى وسيلة جديدة لتحويل جزء من أموال الصندوق إلى جيوبهم . كانت نهال الدعوات مثلاً على مدير الصندوق لإلقاء محاضرة في جامعة ما في أمريكا أو أوروبا ، أو أمام حشد من رجال المال والاقتصاد المرموقين ، أو للتفضل بالموافقة على أن يصبح عضواً في مجلس إدارة أو مجلس أمناء جامعة مرموقة هنا أو هناك ، وكان الغرض دائماً هو المال ؛ فَمَا هو أكبر عائداً من كسب مودة مدير الصندوق الكويتي الذي يتجاوز رأس ماله مليار دينار كويتي ، أى أكثر من ثلاثة بلايين دولار أمريكي ، عن طريق إحاطته بمختلف أنواع التبجيل والاحترام ، والادعاء بأنه ليس هناك من هو أقدر منه على إلقاء محاضرة في موضوع معين ، أو إلقاء الضوء على مشكلة

اقتصادية صعبة، أو أن المطلوب هو الإفادة من خبرته الواسعة (وهو الشاب الذي لا يزال في مقتبل العمر) في إداة هذا المعهد أو البنك... إلخ؟

كان مدير الصندوق يقع أحياناً في الفخ، ويصدق بعض هذه الادعاءات، إذ لا بد أن من أصعب الأمور على شاب في مثل سنه، وجد نفسه فجأة على رأس هذه المؤسسة الثرية، ومحاطاً بأشخاص لا هم لهم إلا ثقله والثناء عليه، أن يظل محصناً ضد كل هذا التناقض، وأن يحتفظ باتزانه ولا يشتط في تقدير نفسه. كان المدير كثيراً ما يقوم بتحويل هذه الدعوات والطلبات إلى، باعتبارى عضواً فيما كان يسمى في الصندوق بـ «إدارة البحوث»، لإبداء الرأي فيما إذا كان من الملائم قبول هذه الدعوات والطلبات أو رفضها. وكنت أكتب نصيحتى برفض معظم هذه الدعوات، مبيناً أنه لا مصلحة ترجى للصندوق، أو لدولة الكويت، أو للعرب من وراء قبولها.

كان اتخاذى لرأى فى مثل هذه الأمور سهلاً ولا يسبب لى أى عناء، وإن لم يحظ دائماً برضا المدير. ولكن حدث مرة ما وجدت من الصعب جداً الوصول إلى قرار بشأنه، وظللت حائرًا أبحت عن الموقف السليم عدة أيام بل وأسابيع. وتتلخص القصة فى أن أستاذاً فلسطينياً مرموقاً فى الاقتصاد، ويتمتع بشهرة واسعة فى العالم العربى (هو الدكتور يوسف صائغ) كان قد تعافد مع الصندوق الكويتى قبل التحاقى بالصندوق بضع سنوات على تأليف كتاب كبير عن الاقتصاد العربى، وعندما أتته وقدمه للصندوق أحال مدير الصندوق الكتاب إلى لإبداء الرأى فيه: هل استوفى الشروط المتفق عليها؟ هل يستحق المؤلف الآن أن يتسلم بقية المبلغ المستحق له؟ (وكان مبلغاً كبيراً جداً بمعايير ذلك الوقت)، وهل أنصح الصندوق بقبول الطلب الذى تقدم به المؤلف بأن يقدم الصندوق دعماً مالياً لطباعته وشراء بعض نسخه؟ كنت حديث العهد بالالتحاق بالصندوق، وكان لإدارة البحوث مدير مصرى كان هو الأجدر من حيث منصبه وخبرته بأن يقوم بهذه المهمة، ولكنه كان رجلاً لا يحب المشاكل، فنصح مدير الصندوق بأن أقوم أنا بمهمة تقييم الكتاب بدلا منه. وقرأت الكتاب ووجدته لا بأس به ومستوفياً للشروط ولا غضاضة فيه إلا شيئاً

واحدا استوقفني وهو أنه كان يحتوى على نقد شديد للحالة التعليمية في الكويت .
لم يكن ثمة خطأ في نظري فيما قاله في ذلك ، ولكنني شعرت وقتها ، بحكم عملي
في مؤسسة كويتية ، وقد طلب مني المدير الكويتي أن أقوم بتقييم الكتاب وتقديم
النصح له بالسلوك الواجب إزاءه ، بأن من واجبي أن ألقت نظر المدير إلى ما تضمنته
الكتاب من نقد للكويت . عندما استعيد القصة في ذهني الآن أعتقد أنني كنت أبالغ
في أهمية الأمر كله ، ولو ووجهت بهذا الأمر الآن لما استغرق مني التفكير
والتصرف فيه بضعة دقائق .

ولكنني ضخمت وقتها من حجم مسؤوليتي ، فتصورت من الممكن أن تنشر
الصحف الكويتية ، أو يشير أحد أعضاء مجلس الأمة ممن قد يكونون عدوة لمدير
الصندوق لأي سبب ، ما تضمنه الكتاب من نقد ، ويتساءل : لماذا يوافق مدير
الصندوق الكويتي على نشر مثل هذا الكلام عن الكويت ؟ وتصورت أن المدير يمكن
أن يفقد منصبه أو يتعرض لأذى يسبب ذلك الهجوم المحتمل ، وأكون أنا السبب إذ
لم ألقت نظره إلى ما تضمنه الكتاب ، مع أنه أتمنتى على هذه المهمة لأنه لا يمكن أن
يقوم بهذه المهمة بنفسه لكثرة مشاغله .

لابد إذن أن ألقت نظره للأمر ، هكذا قلت لنفسي . ولكن كيف أسمع لنفسي
بأن أقوم بعمل قد يؤدي إلى حذف نقد من الكتاب هو نقد في محله مائة بالمائة ، ولا
غبار عليه ؟ المفروض من ناحية المبدأ أن يتحمل الصندوق مثل هذا النقد ولا يعترض
عليه ، ولكن المفروض أيضاً أن ألقت نظر المدير إليه ليتخذ هو القرار بشأنه . ولفت
نظره إليه سوف يؤدي على الأرجح إلى حذف الحقيقة وإخفائها . فما الذي يمكنني
أن أفعل ؟ الصمت خطأ ، والكلام سوف يؤدي على الأرجح إلى خطأ . انتهيت بعد
عذاب طويل إلى الحل الآتي : أخبرت المدير بالأمر ونصحتة بإعطاء المؤلف بقية
المبلغ المستحق له على التأليف ، ولكن فلنخسره بين أمرين : إذا أراد أن يقوم
الصندوق بالإففاق على طبعه فعليه أن يجري التعديل على بعض الفقرات المتعلقة
بنقد الحالة التعليمية في الكويت ، ولكن من حقه أن يبقى الكتاب على ما هو عليه
دون تغيير إذا قبل أن يتحمل بنفسه نفقات الطبع أو أن يبحث بنفسه عن ناشر . لم

أكن راضيا تماما عن هذا الحل ولكنى وجدته وقتها أفضل الحلول المتاحة ، ووافق عليه المدير ، وعرضته على المؤلف فاختار أن يجرى التعديل اللازم فى مقابل أن يتفق الصندوق على طباعته ويدعم عملية النشر . عندما واجهت المؤلف باقتراحى رأيت علامات الأسف على وجهه وشعرت أنا ببعض الحجل . وأظن أننى لو واجهت تلك المشكلة الآن لما قمت بلفت نظر المدير إلى ذلك النقد .

رأيت فى الصندوق الكويتى أيضاً ما أثار دهشتى الشديدة، إذ لم تكن لى تجربة بمثل هذا من قبل ، وخيب آملا غامضا كان لدى عندما بدأت العمل فيه . كان الصندوق قد ضاعف رأس ماله إلى ثلاثة أمثال ما كان عليه ، كما سبق أن ذكرت ، قبيل انضمامى إليه ، فأصبح يربو على ثلاثة بلايين دولار ، وهو مبلغ يسمح بتمويل العديد من المشروعات الكبيرة والمؤثرة فى عدة بلاد عربية ، كما يغرى بشحذ الهمة وإطلاق العنان للخيال لما يمكن لمؤسسة عربية ثرية تحقيقه لتحقيق بعض الآمال العربية التى طال الشوق لتحقيقها . ألم يكن من الممكن مثلا محاولة تصور إستراتيجية لتمويل مشروعات تزيد من ربط العرب بعضهم ببعض بدلا من زيادة تفككهم؟ أو للنهوض بالبحث العلمى ، أو لتحقيق نقل مشعر للتكنولوجيا المتقدمة على نحو يتفق مع الحاجات الحقيقية للعرب . . إلخ؟

الذى ظهر لى للأسف بعد شهور قليلة من بدء عملى بالصندوق ، أن الصندوق الكويتى لسبب أو آخر يسير وراء البنك الدولى خطوة بخطوة ، يستلهم منه الأفكار ويسير فى ركابه ، ولا يجرؤ على اتخاذ خطوة من شأنها إغضابه ، بل يفتن الصندوق بالدخول كشريك صغير للبنك الدولى فى تمويل المشروعات التى يختارها البنك الدولى ابتداء .

عندما اتضح لى ذلك تبين لى بوضوح تام أن الزيادة الكبيرة التى حدثت فى أسعار النفط (والتي أدت إلى زيادة موارد الصندوق الكويتى) لا تعنى بالمرء أى زيادة حقيقية فى قدرة العرب على تحقيق آمالهم ، وأن القول بأن هذه الزيادة فى أسعار النفط تمثل فرصة ذهبية للعرب لتحقيق نهضتهم المرجوة ، كلام لا أساس له من الواقع ، طالما استمر فقدان العرب لإرادتهم وعجزهم عن اتخاذ أى قرار مهم دون

استئذان غيرهم . أما فقدان الإرادة والعجز عن اتخاذ قرار دون استئذان فلا بد أنه يرجع إلى أسباب سياسية (بل ونفسية أيضاً) لا علاج له إلا بمواجهة أسبابه ، أى أن العلاج لا بد أن يكون أيضاً سياسياً ونفسياً .

- ٢ -

أتاحت لى وظيفتى فى الصندوق الكويتى بعض الفرص الذهبية لرؤية بلاد لا أظن أنى كنت سأحظى برؤيتها لو لا عملى بالكويت . كان الصندوق يرسل البعثة بعد الأخرى إلى البلاد التى يريد تقديم المساعدة المالية لها . وكانت هذه المساعدة مقصورة فى البداية على البلاد العربية ، ثم اتسع نطاقها فشملت كل البلاد الفقيرة فى إفريقيا واسيا ، بعد أن أدى ارتفاع أسعار البترول فى ٧٣ و ١٩٧٤ إلى تضاعف إيرادات الكويت ، وتضاعف رأس مال الصندوق الكويتى .

لم يمض عام على التحاقى بالعمل بالصندوق حتى عرّص علىّ رئيسه أن أسافر معه وزميل آخر كويتي بالصندوق فى زيارة لتسعة بلاد آسيوية نستطلع فيها حاجات هذه البلاد لمعمونة ، ونختار بعض المشروعات لتمويلها . قال لى إن السفر سيكون بطائرة خاصة ، لا تتسع إلا لسبعة أشخاص ، وإن المسافرين الوحيدى عديها هم نحن الثلاثة بالإضافة إلى طيار عراقى وخادم لبنانى . وأن الرحلة كلها لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع . كان هذا فى أوائل سنة ١٩٧٥ ، ولم يكن من الممكن أن أرفض عرضاً كهذا ، إذ لم أتصور أن تتاح لى فرصة كهذه مرة أخرى فى المستقبل . صحيح أن المدة المقررة لنا فى كل بلد لم تكن تزيد على يومين ، ولكن حتى هذه الزيارات السريعة يمكن أن تترك فى الذهن انطباعات قد تبقى مع المرء طوال العمر . وهذا ما حدث معى ، فقد خرجت من كل دولة بانطباع أو فكرة لا تزال معى حتى الآن .

أثرت فى نفسى جدية الباكستانيين وحساسهم ، أو ما بدا لى كذلك ، وحكمة الهنود ورسالتهم ، وروح ماليزيا الشابة وحيويتها ، وسلبية الإندونيسيين وبأسهم من الإصلاح ، وصرامة أهل سنغافورة وانضباطهم ، وبؤس بنجلاديش وقلة

حيلتها، وبراءة أهل نيبال وطبيتهم . كما لاحظت التفاوت المذهل في توزيع الدخل والثروة في تايلاند والفلبين . والفجوة الواسعة التي تفصل بين نمط حياة الأغنياء والفقراء في كل منهما . ولكني خرجت من الرحلة كلها بفكرة أخت على ذهني ، وهي أن هناك - فيما بدا لي - أمماً يمكن وصفها بأنها أم عجوز وأخرى فتية . وهذا التمييز يتعلق بالموقف النفسي للشعب أكثر مما يتعلق بتاريخها أو نظامها السياسي أو الاقتصادي أو مواردها . والدول التي اعتبرتها دولاً فتية تتقدم بسرعة ، أو هي على الأقل مؤهلة للتقدم السريع ، بينما الأم العجوز ثابتة في مكانها لا تكاد تتحرك ، وأملها في التقدم ضعيف للغاية .

كانت الباكستان وتايلاند وماليزيا هي الدول التي شعرت بأنها «فتية» ، بينما شعرت بأن الهند وبنجلاديش وإندونيسيا والفلبين كلها دول عجوز . ولكن لم أمتنع الوصول إلى قرار واضح فيما يتعلق بنيبال أو سنغافورة ، الأولى ربما بسبب قسوة انزعاجها عن العالم ، وكأن قضية التنمية والتخلف لم تشغل بالها بعد ، والأخرى ربما بسبب أنها مدينة أكثر منها دولة أو أمة .

كانت أهم السمات التي دفعتني إلى وصف المجموعة الأولى بالفتوة ، هي أن شعوبها بدت لي وكأنها تأخذ الأمور مأخذ الجدد ، يحاول عمالها إتقان ما يقومون به من أعمال ، أو ما ينتجونه من سلع ، ويشعرون بالفخر إذ يتقنون أعمالهم . أما شعوب المجموعة الأخرى فقد بدا لي وكأنهم يشعرون بأنه «لا شيء يهم» ، وكأن لا شيء يستحق منهم بذل الجهد وتحمل العناء ، وكأن العمل المتقن ليس أفضل كثيراً من العمل غير المتقن : كل شيء سواء ، والأمر كله في نهاية الأمر عبث في عبث .

قلت لنفسى إن الأمر لا يتعلق بدرجة الذكاء أو الحكمة . فمن يدري . قد يكون من الحكمة حقاً ألا يعلق المرء أهمية كبيرة على أى شيء ، وقد يكون صحيحاً أنه «لا شيء يهم في نهاية الأمر» ، وقد يكون من الذكاء أو الفطنة عدم المبالغة في تقدير النجاح ، وألا نعلق أهمية كبيرة على ما لا يستحق كل هذا الاهتمام . ولكني قلت لنفسى أيضاً : إن الذكاء والحكمة شيء ، والنهضة والتقدم شيء آخر . الأمة العجوز قد تكون قد رأت في تاريخها الطويل ما يبطئ همتها ، ورسخ لديها الاعتقاد بأنه «لا شيء يهم

فى نهاية الأمر. وقد تكون الأمة الفتية، كالطفل الصغير أو الفتى اليافع، مفرطة فى ثقنتها بنفسها وحماسها وتفاؤلها، وستتكفل الأيام، على أية حال، بردها إلى صوابها. نعم، قد تكون الأمة العجوز أكثر حكمة حقا، ولكن المستقبل والتقدم هما من نصيب الأم الفتية، كما أن الشباب هم وحدهم أصحاب المستقبل.

عندما سألت نفسى عما إذا كانت مصر يمكن أن تصنف من بين الأم الفتية أم العجوز؟ لم تكن الإجابة التى ملت إليها لأول وهلة داعثة على السرور. فالبلاد التى وصفتها بأنها عجوز كانت قد ذكرتنى بأمور كثيرة فى مصر. فالمصريون، إذا جاز التعميم، يميلون فيما يبدو إلى فلسفة «لا شيء يهم». ولكن سرعان ما طمأنات نفسى بعدة أمور. فأولا لا يمكن تلخيص أسباب نهضة الأم فى عامل واحد نفسى، كما أن سيادة نفسية بعينها فى دولة ما لا بد أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتركيبة الطبقية للمجتمع وكذلك بالتركيب العمرى للسكان، وكلا الأمرين، التركيب الطبقي والعمرى، برآن فى مصر بتغيرات عميقة قد تدفع إلى السطح بطبقة اجتماعية جديدة أكثر حيوية ونشاطا، وبأجيال جديدة أصغر سنا ومن ثم أشد رغبة فى التغيير وأكثر تفاؤلا بالمستقبل.

كما أن هناك سببا آخر للتفاؤل، إذا نظرنا إلى المصريين كجزء من أمة أكبر. فمن بين الشعوب العربية، فيما أرى، من هو أكثر «فتوة» بكثير من المصريين. إن المصريين بلا شك لا ينقصهم الذكاء ولا الحكمة. ولكن الذكاء والحكمة شيء، كما قلت، والاستعداد للنهوض شيء آخر. وقد يكون مستقبل الأمة العربية ككل رهنا بما ستفعله تلك الأجزاء من العالم العربى التى تتسم بدرجة أكبر من الفتوة، حتى إن لم يكن لهم مثل ما للمصريين من تاريخ موغل فى القدم.

هكذا بدا لى الأمر فى ١٩٧٥، أى منذ ثلاثين عاما، وقد حدث خلال هذه الثلاثين عاما أشياء قد تؤكد صحة الفكرة، كالتقدم الاقتصادى السريع الذى حدث فى ماليزيا وتايلاند، وبطء النمو فى بنجلاديش والفلبين، ولكن حدثت أشياء أخرى قد يبدو تعارضها مع هذه الفكرة كالتقدم السريع الذى أحرزته إندونيسيا والهند. ولكن لا أظن أن معدلات النمو الاقتصادى تكفى للحكم عما إذا كان هذا

التمييز بين الفتوة والشيوخوخة صحيحاً ومفيداً أو غير صحيح أو مفيد . فهناك عوامل أخرى عديدة . خاصة ما تعلق منها بالظروف الدولية ، قد يتغلب أثرها على أثر الشيوخوخة والفتوة .

ولكن بصرف النظر عن اختلاف البلاد التي رأيتها في درجة الفتوة أو الشيوخوخة ، تركت كل من هذه البلاد في ذهني بعض الانطباعات القوية والذكريات التي ليس من السهل محوها . وسأقتل هنا بعض مـ دوتـه من ملاحظات خلال هذه الرحلة الآسيوية .

«في الباكستان رأينا العاصمة الجديدة «إسلام آباد» التي أسسها أيوب خان في مطلع الستينات لتحل محل كراتشي ، فوجدتها مدينة بالغة الجمال ، تقع وسط حدائق لا نهاية لها ، ولكنها أيضاً بلا شخصية ولا تاريخ . وقال لنا نائب وزير التخطيط الباكستاني : إن من مـاوى وجود كل الوزارات في إسلام آباد ، أن الموظفين لا يحتكون بالجمهور كما كانوا يحتكون بهم في كراتشي . ولكنهم ، من ناحية أخرى لا يعانون من التعطيلات الكثيرة التي يسببها وجود الوزارات في وسط مدينة مكتظة بالسكن والمشاكل مثل كراتشي . . .

وفي الهند قابلنا من قبل لنا أنه أهم وزير في الحكومة الهندية وهو المسئول عن التخطيط . رجل كبير السن وعظيم الهيبة أيضاً . يتكلم عن التخطيط كما لو كان يأخذ في اعتباره خمسة أو ستة قرون وليس فقط سنوات الخطة الخمس . قال إن ما حققته الهند كبير إذا أخذنا في الاعتبار أن الديمقراطية مسألة لا تحتمل النقاش . وفي كلامه عن الهند والغرب قال إن الغرب يتبه الديناصور في قوته وجبروته ، أما الهند فهي تشبه الحلزون (snail) بطيئة الحركة ولكنك إذا قطعناها نمت من جديد .

كنت قد كتبت قبل زيارتنا للهند بشهور قليلة كلمة ليلقيها مدير الصندوق في واشنطن أمام لجنة التنمية في الاجتماع المشترك لصندوق النقد والبنك الدولي ، وبذلك فيها مجهوداً كبيراً للتعبير عن وجهة نظر العالم الثالث . وقد تلقى المدير أثناء زيارتنا للهند ، ثناء الكثيرين على هذه الكلمة وأبلغنى بهذا الثناء . وفي حفلة السفارة الكويتية في دلهي عبّر وزراء كثيرون عن كانوا قد استمعوا إلى الكلمة ، عن

شأنهم عليها، فشكرنى المدير مرة أخرى عليها. ولكن يبدو أن الكلمة التى كتبها كانت من النوع الذى يعجب على العالم الثالث أكثر مما تعجب على الدول الغنية، إذ إن مدير الصندوق أضاف بنية تجمع بين الجد والمزاح:

«من فضلك يا جلال، عندما نكتب لى كلمة أخرى فى مناسبة كهذه حاول أن نكتب كلمة تُنسى مباشرة بعد لقائنا!». . . .

وفى كاغاندو عاصمة نيبال لاحظنا أن الفرق بين التوقيت النيبالى والهندي عشر دقائق، وقيل لنا إن سبب ذلك هو مجرد رغبة النيباليين فى تمييز أنفسهم عن الهند. وقال لى مستشار بالسفارة المصرية فى نيبال (وهى السفارة العربية الوحيدة هناك) إن شعور أهل نيبال نحو الهند مثل شعور السودانى نحو مصر: إذا أراد السودانى أن يقضى إجازة الصيف، قضاها فى مصر، وإذا أراد الزواج تزوج من مصرية وبنى بيت فى مصر، ولكن لا يمكن أن يطمئن تماماً للمصريين!

سكان نيبال ١٢ مليوناً، وشعبها طيب جداً وسدج جداً، وعنده روح مرح ودعابة رائعة. منتهى البساطة فى المعاملة ولا وجود للبيروقراطية. حجرة الوزير مفروشة كحجرة فى بيت متواضع فى مصر، ويقدمون علبه السجائر على طبق، وإذا ضحكوا ضحكوا من قلوبهم ولمت عيونهم. ونسأؤهم جميلات. ولكن الفقر فظيع. متوسط الدخل ٩٠ دولاراً. لا يميزون بين الملك والإله. أكثر من ٩٠٪ من السكان يعتمدون على الزراعة (لا بد أن هناك علاقة بين ارتفاع نسبة التصنيع وتقلد الشعب). ورغم أن وزير المالية كان زميلاً لمدير الصندوق الكويتى فى الدراسة فى الولايات المتحدة فإنه عاملنى نفس المعاملة التى يبدىها للمدير. عيناك موظف من وزارة الاقتصاد لمرافقتنا فدعونا إلى الغذاء معنا فى الفندق فقبل بخجل. وعندما جاء الخادم ليعرف طلباتنا كررنا ثلاث مرات على الموظف هل يريد شربة أم عصيراً؟ فرد فى المرات الثلاث: «كما ترون». وهو لا يعرف كيف يستعمل الشوكة والسكين. ويستخدم السكين فى نقل الطعام إلى فمه. وقد رفض فى خجل أن يأخذ بنصيحتنا أن ياكل بيده كيفما يشاء.

بعد وصولنا مباشرة إلى الفندق أخذونا للتفرج على مزار لبرودا (الذى ولد فى

نيبال)، ورأينا مجموعة من النساء يتمسحن بالحجارة المحيطة به. والبلد كله رائع الجمال حتى خطر لى أنه يمكن قضاء إجازة ممتعة فيه مع أسرتى. ثم زرنا المتحف وهو يدعو إلى الاستغراق فى الضحك، إذ لا يكاد يحتوى على أى شيء ذى قيمة أو جمال. ومع ذلك فهم فخورون به جداً، وسألونا أكثر من مرة قبل مجيئنا إليه «هل رأيتم المتحف؟». فيه صورة كبيرة فيحة للغاية للملكة فيكتوريا، ويقب حوت لم يصطادوه طبعاً فى نيبال التى ليس لها منفذ إلى البحر. ولكن الشعب لطيف جداً، فما إن رأنا بعض الأولاد ندخل المتحف حتى دخلوا وراءنا والتفوا حول مدير المتحف الذى يشرح لنا محتوياته لكن يلتقطوا منه بعض المعلومات المفيدة. أثناء تناولنا الطعام فى الفندق اشترك الخادم الذى يقدم لنا الطعام معنا فى الكلام، وهو ما لم يجزى عليه أى خادام فى أى بلد آخر مررتنا به. شكنا لى السفير المصرى فى نيبال من عدم اهتمام حكومته بعلاقتها بنيبال، وقال إن ما ترسله القاهرة للإنفاق على القضية العربية فى نيبال مائة جنيه فى السنة، وهو مبلغ لا يكفى للويسكى وحده. وقال إنهم أرسلوا إليه من القاهرة بعض الأفلام عن مصر والبلاد العربية، ولكن السفارة لا تملك ثمن جهاز لعرض هذه الأفلام. كما ذكر أن الجامعة العربية فررت فى يوليو الماضى تخصيص ٣٠٠٠ دولار للإنفاق على الدعاية للقضية العربية، فالتزمت السفارة ببعض الالتزامات ولكن المبلغ لم يصل حتى الآن.

وقد لاحظت أن المدير الكويتى فى حديثه مع النيبالين لم يذكر قط أى قضية عربية ولا مشكلة إسرائيل، رغم أهميتها فى حالة نيبال بسبب إقبالهم على التعاون مع إسرائيل التى أرسلت لهم خبيراً فى زراعة القطن، ولم تفكر مصر فى أن تفعل ذلك. المدير يتكلم دائماً ككويتى، رغم أن من نقابلهم فى كثير من هذه البلاد لا يفرقون بين الكويتى والعربى، وكان رأى السفير المصرى أن أى معونة من الكويت سوف ينظر إليها على أنها معونة من العرب إلى نيبال. . .

فى داكا عاصمة بنجلاديش قابلنا رئيس الجمهورية مجيب الرحمن، وهو شخص بسيط ومتواضع ولكن يبدو عليه الإرهاق الشديد، وكان الأربعة عشر عاماً التى قضاه فى السجن تركت أثراً كبيراً عليه، فهو يلتفت مترعجاً إلى أقل صوت

يصدر من مساعديه . ويبدو من مقابلتنا لنائب الرئيس بعد الظهر أن هذا النائب قد يكون هو الرجل الأقوى والأكثر اتصالاً بالأحداث والمشكلات . بدا على رئيس الجمهورية الاستياء عندما قال له مدير الصندوق «إن عندنا، نحن أيضاً في العالم العربي بنجلاديش (our Bangladesh) كاليمن وموريتانيا» . وفي كلامه بعد المدير أخذ يفخر ببلده مستخدماً كلمة «عندى» و«عندى» (I have, I have) مشيراً إلى ما فى بلده من أنانام وموز وأرض وصناعات . إلخ .

فى طريق العودة من مقابلة رئيس الجمهورية قلت للمدير : «إن لدى فكرة جيدة . لماذا لا يبنى الصندوق فكرة الإتفاق فى سبيل نشر اللغة العربية والثقافة العربية فى بلاد آسيا وإفريقيا المسئمة؟» قال : «وهل هذه فكرة جديدة؟ لقد عرضناها بعد زيارتنا لإفريقيا على مجلس الوزراء فقبل لنا عرضوها على وزير الأوقاف الذى ركنها ولم يرد» . . .

عند وصولنا إلى بالهوك ، عاصمة تايلاند ، كان فى استقبالنا نحو تسعة أو عشرة أشخاص ، أحدهم تايلاندى كان زميلاً قديماً لمدير الصندوق ويعمل الآن فى منصب مهم بوزارة التخطيط ، وكان حتى وقت قريب مقرباً جداً من رئيس الوزراء قبل أن يسقط ويأتى غيره . كما كان فى استقبالنا نحو سبعة أشخاص من المسلمين يمثلون هيئة اسمها مؤتمر المعلمين ، تقوم بتدريس ونشر الدين الإسلامى وعلومه فى تايلاند . وقد بدا عليهم فرح شديد بنا حيث إننا قادمون من بلاد الإسلام الأصلية ونعرف العربية ، وهم فخورون بما يستطيعون نطقه من عدد قليل من الكلمات العربية . والمسلمون فى تايلاند يشكلون نحو ٥ ملايين من بين ٤١ مليوناً (فى ١٩٧٤) ، وقيل لنا إنهم أقوىاء ونشاطهم السياسى مؤثر ، ولهم ١٧ من ٧٥ مقعداً فى البرلمان . مرة أخرى خطر لى : كم يمكن للإسلام أن يكون قوة ، وكم نجعل ما لنا من أصدقاء وإخوان فى أركان الأرض المترامية . جلست مع بعضهم فى غرفة كبار الزوار منتظرين الجوازات ، وقالوا لى إنهم يهيمهم جداً أن تقوم بزيارة زعيمهم واستغربوا أنى لم أسمع باسمه من قبل ، وقالوا إن كل من يأتى من البلاد العربية يذهب لمقبلته ليحصل على بركاته . سألت مدير الصندوق عن رأيه فى زيارته ،

فسألت صديقه التايلاندي الذي أبدى تردداً في الإجابة فقرر المدير الاعتذار «لعدم التدخل في الأمور السياسية».

في الطريق لفت نظري جمال نساء تايلاند، وبشرتهن الناعمة اللامعة، ورشاقة أجسامهن التي يبدو حرصهن على إظهارها بارتداء الجونلات القصيرة. وتزلنا فيما أظن أنه أجمل فندق رأيته في حياتي (أورينتال Oriental) ويطل على النهر. وأول ما لفت نظري فيه كثرة البنات الجميلات، العاملات فيه، وإقبالهن على التواثر بالابتسامات بسبب ودون سبب، فإذا رأوا نتجه إلى المصعد أسرعوا واحدة إليه للضغط على الزر، وإذا جاءت أخرى لتأخذ من الملابس المطلوب غسلها، نظرت مرة أخرى إلى الورا قبل أن تختفي، لتعطي ابتسامة جميلة.

أخذنا الزميل التايلاندي القديم بعد هذا للحلاقة. وأى حلاقة! صالون يتكون من دورين ومقسم إلى حجرات صغيرة بكل منها كرسي حلاقة واحد، وبها ليس إلا سارة، وجدرانها لا تصل بالضبط إلى السقف أو إلى الأرض ولكن لا يرى أحد من في الحجرة المجاورة، اللهم إلا كعب الفتاة التي تقوم بالحلاقة. ذلك أن الحلاقة فتاة على درجة فائقة من الجمال، كان أول ما فعلته عندما دخلت أن مرت على فمها بقلم أحمر الشفاه ومألتي وهي تضع ذراعها على كتفي: «هل تريد أيضاً تدليكاً؟» قلت: نعم. وماذا بك؟ قلت: نعم. وبأديك؟ قلت: نعم. وتنظيف الأذنين؟ قلت: نعم. فكانت النتيجة أن استغرقت الحلاقة ساعتين بالضبط، تفصيلها على النحو التالي:

بعد أن تقص الحلاقة شعرك بمهارة، تقوم بغسله، ثم تغسل الأذنين. وإذا وجدت حبة على إحدى أذني حاولت إزالتها بالصابون صاحكة. فإذا كانت إحدى يديها غير مشغولة بشيء استخدمتها في مداعبة أصابعك أو شعر رأسك. ثم تأتي فتاة أخرى أجمل فتية في تدليك وجهك بالكريم، وتستغرق في ذلك وقتاً طويلاً. وتستخدم في ذلك أصابعها بمهارة فائقة، وخاصة فيم بين العينين وحول الأذنين، ثم تضيف المزيد من الكريم وتعيد الكرة. في نفس الوقت تقوم الفتاة الأخرى بتدليك الجسم (دون خلع الملابس)، وقد ربطت بكفها جهازاً كهربائياً

صغيراً أشبه بالمكنى يتحرك بسرعة فتتحرك يدها معه . وبعد هذا تستمر فى التبدليك بيدها المجردة وهى تحرك جسمها باستمرار وكأنها تعجن فطيرة . خلال اشتغال هذه وتلك تأتى المختصة بالمانيكير والبديكير (أى بأصابع اليدين والقدمين) فتأخذ يدا بعد أخرى وقدماء بعد أخرى ، بعد أن تقوم هى بخلع حذاءك وجوربك وغسيل القدمين ، ثم تقلم الأظافر وقد وضعت قدمك على رجلها لكى تسهل عملها . بحيث تستقر نصف سافك فوق فوطة تغطى إحدى رجليها ، والنصف الآخر على رجلها نصف العارية . ثم تلبسك الجوارب والحذاء . كلفتى كل هذا ١٢٠ بات ، أى ما يعادل ستة دولارات ، أضفت إليها دولارين بقشيشاً . إذن فالتكاليف الإجمالية ثمانية دولارات ، بينما تتقاضى الفتاة منهن ما يعادل مائة وخمسين دولاراً فى الشهر راتباً .

بعد هذا ذهبت للتلبية أجمل دعوة للعشاء تلقيتها فى حياتى ، وكانت من وزارة المالية التايلاندية . كان العشاء فى مطعم يخلب البصر وكأنه مصنع من الذهب الخالص . طُلب منا أن نخلع الأحذية قبل الدخول . ثم وُرعت علينا المشروبات قبل الجلوس . فيما جلسنا وضعوا أمام كل منا طبقاً كبيراً تحيط به عشرة أطباق صغيرة فى أحدها دجاج ، وفى الآخر سمك ، وفى الثالث جمبرى ، وفى الرابع لحم بالكارى . . إلخ . ثم جاءت خمس راقصات رانعات الجمال فرقصن أمامنا بأصابع الأيدى والأرجل وبالأعين ، ثم قمن بتقيد كل منا عقداً كبيراً من الورد والياسمين .

فى مقابلة مع أحد كبار المسئولين فى وزارة المالية استمعنا إلى عرض لحانة تايلاند الاقتصادية ووصف لأهم مشروعاتهم ، فى حجرة للاجتماعات لا أعتقد أنه توجد حجرة للاجتماعات بمثل فخمتها فى أغنى الدول . هذا البذخ وهذه الضخامة يتكرران كثيراً فى بانجوك ، فى دولة لا يزيد متوسط الدخل فيها على ٢١٠ دولارات أمريكية سنوياً . ومن ثم يسهل تخمين مدى سوء توزيع الدخل فيها . وقد قالوا ك كلاماً كثيراً عن سوء توزيع الدخل وأن بانجوك ليست تايلاند ، وأن هناك مناطق غاية فى الفقر خارج العاصمة ، ولكنى لا أظن أنهم يفعلون شيئاً لعلاج ذلك ، بل أنا على يقين بأن الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . نحن فى تايلاند بأن الفساد متغلغل

في أعلى مستويات الحكومة ، وأن العلاقة وثيقة بين الموظفين الكبار والشركات الأجنبية والمحلية ، ومن ثم لم يبهز كثيرا جمال المكاتب وحسن طباعة مجلدات وتقارير الخططة . . .

يجرد وصولنا إلى جاكارتا عاصمة إندونيسيا تذكرت مصر ، وشملت رائحة الانفجار السكاني . فالتاس تمشي كالنمل في الشوارع ، ومع ذلك فالازدحام في مصر أكثر وحالة الأتوبيسات أسوأ . على أن أكثر ما ذكرته بمصر الاجتماع الذي عقدناه مع وزير المالية وكبير المسؤولين في هذه الوزارة وممثل التخطيط . وأنا على قلة ما حضرته في مصر من اجتماعات من هذا النوع ، أكاد أجزم بأن صورة من هذا الاجتماع لا بد أن تتكرر كثيرا في مصر . فالوزير مرهق ، ولا يعرف الإجابة عن سؤال المدير الكويتي عن الكمية التي تنتجها إندونيسيا من البترول ، وينظر إلى مساعديه طالبا المعونة . والأكل يقدم لنا مع المشروبات في اجتماعنا مع المسؤولين والمسؤولون يقبلون على الأكل أثناء الاجتماع وكأنه هو الغرض الأساسي منه . وهم دائمو الحديث ، بعضهم مع بعض ، خلال الاجتماع ، إما طالبا للمساعدة في الإجابة عن سؤال صعب أو لمجرد التعليق ، وكثيرا ما يكتفون بالابتسام . والموظفون انصغار الجائسون لتدوين محضر الاجتماع يبدو عليهم السورور بالارتباك الذي يصيب كبيرهم في الإجابة عن أسئلة ، والبيدهيات التي يذكرها مدير الصندوق الكويتي يفتحون لها أفواههم تعجبا ، وأستلهم يوجهونها للوقت لا رغبة في المعرفة . وقبل حضور ممثل وزارة التخطيط (الذي هو قطعاً أقلهم جهلا وأكثرهم ثقة) كانوا يألون عنه في قلق خوفا من ألا يجيء ، فلما جاء تنفسوا الصعداء . يحيل أحدهم الكلام إلى آخر دون سابق اتفاق ، فإذا الذي يقدم على أنه سيتكلم عن ميزان المدفوعات يتكلم عن البنوك . وصور رئيس الجمهورية معلقة في كل حجرة . . إنج . ولكننا في المساء قابنا في الفندق نائب رئيس البنك الدولي لشتون أمسيا وسألناه عن إندونيسيا فامتدح الحالة فيها بشدة .

على أن ما لفت نظري في كلام نائب رئيس البنك الدولي أنه قال إن هناك ثلاثة أو أربعة ملايين من السكان في جزيرة سومطرة يتميزون بحوية وديناميكية غريبة

خلافاً لبقية السكان، وإتاهم مسلمون أصوليون وينتمى إليهم وزير المواصلات، وهو في رأيه أكثر الوزراء نشاطاً وتأثيراً، وإن هذه الفئة يتميز أفرادها بالجزم والصلابة وسرعة البت. . إلخ. . وعلفت على ذلك بقولى إن عليّ أن تدرس أسباب وجود طائفة معينة داخل كل دولة، تتميز بمثل هذه الصفات (كأهل دمياط في مصر مثلاً) فربما فهمنا شروط نجاح التنمية على نحو أفضل، فإيدنى بشدة.

لا أزال لا أدري ما الذى يجعل شعباً عجوزاً وآخر فتياً؟ ولكنى لاحظت (إن كان لهذه الملاحظة قيمة) أن قوة الشعور الدينى (وليس مجرد التمسك اللفظى بالدين) أكثر وضوحاً فى الشعوب الفتية. فالشعور الدينى قوى فى نيبال وتايلاند، بينما يبدو الإندونيسيون والبنجلاديشيون وكأنهم لا يبالون بشيء. . وكلام نائب رئيس البنك عن قوة الشعور الدينى عند تلك الطائفة فى شمال غرب سومطرة يؤكد هذه الملاحظة. .



تضافرت المنعصت التى قابلتها فى وظيفتى بالصندوق الكويتى، مع اشتداد قوة شعورى بأنى أعيش فى الكويت حياة غير طبيعية، فأصبحت أعيش خلال السنة الأخيرة من ستوات إقامتى بالكويت وكأنى فى انتظار حدوث شيء يدفعني لمغادرتها. وقد حدث هذا بسلى دعوة من صديق أمريكى، هو الأستاذ مالكولم كير (Malcolm Kerr) وكان أستاذاً للعلوم السياسية فى جامعة كاليفورنيا ببلوس أنجلوس، ومديراً لمركز الدراسات العربية بها، لقضاء سنة فى تلك الجامعة أجمع فيها بين التدريس والبحث. قبلت على الفور وكأى الأمر لا يحتمل أى تردد. ولكن مدير الصندوق الكويتى كان كريماً معى كعادته مع الجميع، فجدد عقدى، الذى كانت مدته تنتهى خلال سنة إقامتى بالولايات المتحدة، دون أن أطلب منه ذلك، فأعفانى من القلق الذى كان لابد أن ينتج من التفكير فيما يمكن لى أن أفعله بعد انتهاء تلك السنة التى أقضيها ببلوس أنجلوس. بعد أن كنت قد فقدت وظيفتى فى جامعة عين شمس بسبب تركى لها بدون إذن.

لوس أنجلوس

عندما أتيتحت لى فرصة لرؤية الولايات المتحدة لأول مرة فى سنة ١٩٧٨ ، كنت أظن أنى سارى فقط صورة مكثفة ومتطورة بعض الشيء من المجتمع الأوروبى ، الذى كنت أرى تطوره عاما بعد عام كلما قمت بزيارة أهل زوجتى فى إنجلترا . فإذا بى أشعر بمجرد أن وطنى قدماى أرض الولايات المتحدة وكأنى انتقلت إلى كوكب مختلف تماما عن كوكب الأرض ، وأدركت على الفور بأن الذى أراه ليس مجرد «الظاهرة الأوروبية مكثفة» ولكن ظاهرة جديدة بمعنى الكلمة ، حتى إنه كثيرا ما يخطر لى ، منذ ذلك الحين ، أن وصف «الحضارة الغربية» بهذا الاسم سوف يتضح شيئا فشيئا أنه يحجب عن الأنظار حقيقة مهمة للغاية ، هى هذا الاختلاف الشاسع بين نمطين من الحياة . صحيح بالطبع أن غط الحياة الأمريكية نشأ أوروبا فى الأساس ، ولكن قد تكون الحضارة الإنسانية كلها ، بهذا المعنى واحدة ، إذ ساهم كل من الحضارات فى نشأة حضارة أخرى ونظورها . والتجربة الأمريكية تبتعد شيئا فشيئا عن الأصل الذى نشأت عنه حتى أنه عن قريب سوف يصبح من الممكن ، بفرض أن هذا ليس ممكنا الآن ، الكلام عن «حضارة أمريكية» لها سماتها المهمة التى تميزها عن كل ما عداها .

وجدت المجتمع الاستهلاكى متطورا إلى درجة مذهلة فى الولايات المتحدة ، ولكنى وجدت أيضا شيئا آخر لعله كان بدوره نتيجة لنمو المجتمع الاستهلاكى وانتشاره . هذا الشيء الآخر بلغ فى تطوره حدًا خطيرًا لم يكن من الممكن للذين أن تخطفه فى الولايات المتحدة ، حتى إذا فات المرء الانتباه إليه فى المجتمعات الأوروبية . وأقصد بهذا «الشيء الآخر» ، وبعبس الشائع عن الولايات المتحدة :

أقول الفردية وشيوع نوع من التفكير الشمولى الذى يطبع مختلف جوانب الحياة الأمريكية .

كنت قد قرأت رواية جورج أورويل (١٩٨٤) قبل ذهابى للولايات المتحدة بعدة سنوات ، وكنت أعرف أن الرأى الشائع أن هذه الرواية وضعت أساسا لنقد النظام الشمولى فى الاتحاد السوفيتى ، فالأخ الأكبر هو ستالين ، وبوليس الفكر هو جهاز المخابرات الروسى . إلخ . ولكنى وجدت فى الرواية أكثر من هذا بكثير ، وقراءتى لأعمال أخرى لأورويل جعلتنى أعتقد أن ما كان يقلقه لم يكن النظام الشمولى السوفيتى أو الشيوعى فى حد ذاته ، بل قدرة المجتمع التكنولوجى على قهر الفرد ، وأن غموة الدولة إنما هو نتيجة حتمية لثمر قدرة المجتمع التكنولوجية ، وأن أورويل كان حريصا جدا على إتمام الرواية قبل أن يموت لأنه كان يشعر بأن من واجبه أن يحذر الناس من خطر يمكن جدا أن يحدث رغم انتصار الحلفاء على النازية والفاشية ، وأن الدولة البريطانية نفسها يمكن أن تتحول إلى نظام شبيه بنظام (١٩٨٤) لو لم يأخذ الناس حذرهم ويفهموا الخطر المحدق بهم . فلما ذهبت إلى الولايات المتحدة التى كانت ولا تزال يضرب بها المثل دائما على أنها التجربة المناقضة تماما للتجربة السوفيتية ، وأن النظام الديمقراطى فى أمريكا هو نقيض النظام الشمولى الذى يصوره أورويل ، إذا بى أجد أن الحقيقة أبعد ما تكون من ذلك .

وجدت فى الأمريكين أمة ، وإن كانت تباهى بتشجيع الفردية والتميز ، يعشق أفرادها أن يكونوا أعضاء فى فريق ، يفعل كل منهم مثله بفعل الآخرون ، ويهتفون نفس الهناقات ويهيمون بنفس الأبطال أو النجوم . وهم يثقون فى رؤسائهم أكثر من اللازم ويقبلون ما يقال لهم بدون شك أو تمحيص ، وهو ما يسهل مهمة الدولة فى حكمهم . إذ يبدو الأمريكيون وكأنهم أسهل أم العالم حكما ، وأكثرها انقيادا . يمكن أن تغير وسائل الإعلام مسار الرأى العام من اتجاه إلى نقيضه بمجهود بسيط ، ولا يحتاج الأمر إلى استخدام الكثير من الحجج والبراهين ، كما يحتاج هذا فى أوروبا ، بل يحتاج فقط إلى بعض الإلحاح واستخدام نفس أنواع المؤثرات التى تستخدم فى الدعاية للسلع ، وهى مؤشرات لا تخاطب المنطق بقدر ما تخاطب

اللا شعور . عرأت في أول رحلة لى للولايات المتحدة مقالا «لناوم تشومسكى» الذى يحمل عنوانا يلخص مضمونه وهو «حدود التفكير المسموح به» (Boundaries of Thinkable Thought)، وكنت أرى يوميا فى أمريكا ما يؤكد لى أن هناك مثل هذه الحدود التى لا يسمح بتحطيتها، ليس فقط فى الفعل والكلام، بل وفى مجرد التفكير . لقد فسرت هذه السمة من سمات الحياة الأمريكية بما يتيحها التطور التكنولوجى أمام الشركات وأصحاب الأعمال من نشر الفكرة الواحدة والشعور الواحد بين الملايين من الناس فى نفس الوقت، وابتساع السوق الأمريكى الذى سمح بأن تستخدم وسائل التكنولوجيا المتقدمة فى أمريكا قبل غيرها . وسلطان الدولة، الذى يبدو ضعيفا ولكنه فى الحقيقة أقوى فى أمريكا منه فى الكثير من الدول المسماة بالشمولية، مستمد من قوة الشركات وأصحاب الأعمال . ومن ثم فليس صحيحا الظن بأن الخطر الذى يهدد الحرية الفردية واستقلال الرأى إنما يأتى فقط من ازدياد قوة الدولة، كما يظهر مثلا فى رواية ١٩٨٤ . بل قد يأتى أيضا من ازدياد قوة الشركات وأرباب الأعمال الذى قد يؤدى إلى ازدياد سلطان الدولة .

لم أتحمس قط إذن لما يسمى بالديمقراطية الأمريكية بل وجدت فيها الكثير من الزيف والادعاء، إذ اعتبرت أن أقل أنواع النظم حرية وديمقراطية هى تلك التى يظن فيها الناس بأنهم أحرار ويتمتعون باستقلال الرأى والفكر دون أن يكونوا فى الحقيقة كذلك . بل اعتبرت أن مصر وأمثالها، مما شاع اعتبار نظام الحكم فيها شموليا، وهو بالفعل كذلك، قد تنعم أهلها بدرجة أكبر من الاستقلال وحرية التعبير عن النفس، مما يتمتع به الأمريكيون، لمجرد أن المصريين لا يعترضهم أى شك فى أى وقت فى زيف ما يزعمه نظامهم من ديمقراطية، ولا تثير فيهم الدعاية السياسية من خلال وسائل الإعلام إلا السخرية المعلنه أو الصامتة، بينما يبدى الأمريكيون استعدادا مدهشا لقبول ما تقولونه لهم وسائل الإعلام .



كان ذهابى إلى الولايات المتحدة فى ١٩٧٨ كما ذكرت، تلبية لدعوة من الأستاذ الأمريكى «مالكولم كير» الذى كان وقتها مديرا لمركز بحوث عن الشرق

الأوسط يحمل اسم المستشرق «فون جرونباوم»، في جامعة كاليفورنيا بـ«لوس إنجلوس». وكان المطلوب من قضاة عام دراسي في تلك الجامعة أقوم خلاله بتدريس بعض المقررات في التنمية واقتصاديات الشرق الأوسط، مع القيام في نفس الوقت بكتابة بحث عن الاقتصاد المصري ينشر ضمن مجموعة من البحوث عن التطورات الحديثة في اقتصاديات البلاد العربية. وقد رحبت بالدعوة بشدة، ولم أتردد لحظة في قبولها، فضلاً عن فرصة رؤية الولايات المتحدة لأول مرة (أو ما تكاد تكون أول مرة، إذ حدث أن زرت في نفس السنة مدينة «ماديسون» بولاية «ويسكونسن» للاشتراك في ندوة عن سياسة الانفتاح الاقتصادي)، كان شعوري قد أصبح قوياً جداً بضرورة الرحيل عن الكويت.

وقد حققت هذه الرحلة إلى الولايات المتحدة الغرض منها: كتبت بحثاً بالعربية أولاً نُشر في صورة كتاب بعنوان (المشرق العربي والغرب)، ثم بالإنجليزية في كتاب مشترك بعنوان: الدول الغنية والفقيرة في الشرق الأوسط (Rich and Poor Countries in the Middle East)، والأهم من ذلك هو تعرفي على نط الحياة الأمريكي مما لا بد أن ترك أثراً عميقاً في نفسي استمر معي حتى الآن. وساعد على بلورة أفكارى عن الحضارة الغربية والتغريب.

لم يكن انطباعي عن نط الحياة الأمريكي إيجابياً بادرة، وعلى الرغم من أني مع الوقت أصبحت أكثر استعداداً للاعتراف بأوجه إيجابية فيه، فإن موقفي السلبي منه لا يزال هو الغالب ولا يزال باقياً معي حتى الآن. كنت على استعداد، ولا أزال، للاعتراف بفضل التجربة (أو الحضارة) الأمريكية في الارتفاع بمسوى معيشة الشخص العادي أو المتوسط، ليس في أمريكا وحدها بل في العالم ككل. فالنموذج الأمريكي موجه في الأساس لخدمة الرجل العادي والمرأة العادية، متوسطى الذكاء والخيال والخلق، وهذا في رأيي هو السبب الحقيقي وراء انتشار النمط الأمريكي في الحياة، في مختلف بقاع الأرض، انتشار النار في الهشيم، وهذا هو سر جاذبيته. ولكن الوجه الآخر لهذا النجاح هو ما تتسم به الثقافة الأمريكية بوجه عام من تراجع مختلف أنواع الثقافة الرفيعة أمام ذلك التيار الكاسح الذي يخاطب أكثر نوازع الإنسان سطحية، والاستعداد للتضحية بالكيف لحساب

الكم، وإهمال ما لا يمكن قياسه وحسابه بالأرقام لصالح التقدم المادى البحث الذى يمكن قياسه وحسابه .

كرهت أيضاً ما لاحظته من ميل متأصل فى نفس الأمريكى لتفضيل كل ما هو مصنوع، طالما أنه قد صنع بمهارة، على كل ما هو طبيعى . وبدأ لى أن للأمريكى غراما لا حده بإثبات تفوقه على الطبيعة وقدرته على الاستغناء عنها . واستغريت بشدة كيف يمكن فى بلد تسخر فيه الطبيعة هذا السخاء على الإنسان أن يبندى الإنسان نحوها كل هذا العدا؟ رأيت مثلاً فى ولاية كاليفورنيا، التى قضيت فيها معظم فترة إقامتى بالولايات المتحدة، ولا تكاد تضاهيها ولاية أمريكية أخرى فى جمال مناخها واعتداله على مدار العام، أنى أدخل بناء بعد آخر، ومقهى أو مطعماً تلو الآخر، فماذا أجد؟ أجد النوافذ مركبة على نحو يجعل من المستحيل فتحها، أو مصنوعة من زجاج ملون يحجب ضوء الشمس عما وراءها، وأجد أجهزة تكييف الهواء شائعة الاستعمال على نحو يخيل إليك معه أنك فى أشد بلاد العالم حرارة وأقساها ساخناً . وأجد المصابيح الكهربائية مضاءة فى وضوح النهار، ولم لا؟ فقد يكون ضوء الشمس أشد قليلاً أو أخف قليلاً مما تريد فى لحظة بعينها، والحرارة أشد قليلاً أو أخف قليلاً مما تحب وتستهوى فى ساعة معينة من ساعات النهار أو الليل !

ثم ما هى هذه المعجزة الشهيرة فى كافة أنحاء الأرض، المعروفة بـ «ديزى لاند» أو مدينة ملاهى ديزنى، فى جنوب لوس أنجلوس؟ مساحة فيحة من الأرض تقوم عليها مبان متناثرة تقدم لك وسائل مختلفة للترفيه والتسلية، رائعة التنظيم والتنسيق حقاً وبالغة النظافة والبهاء، ولكن شيئاً واحداً يجمع فيما بينها: محاولة الإنسان الأمريكى أن يثبت أنه قادر على منافسة الطبيعة والتفوق عليها . ففى مكان منها يحاول مدرب سخيف أن يقنعك بأنه قادر على أن يجعل فرس من البحر ياتمر بأمره، يرقص أو يلعب بالكرة أو يقبل امرأة جميلة نصف عارية . وفى مكان آخر تستقل مركبة تدور بك بسرعة بالغة المفروض أن تشعر معها بأنك تحوم فى مركبة فى الفضاء . والمكان كله لا نهاية فيه لما يبدو وكأنه حيوانات وليست فى الحقيقة كذلك، وطيور ليست بالطيور، وأشجار ليست بأشجار . فإذا أعياك هذا كله وذهبت إلى

مكان لتناول الطعام ، فإنك ستجلس إلى مائدة تبدو وكأنها مصنوعة من الخشب ولكنها ليست كذلك ، وسوف يقدم إليك شيء شبيه بالطعام ولكنه ليس طعاما ، إذ إن من بين ما يغرر به الأمريكي أن يصنع لنا خاليا من الدسم ، وسكرا لا يحتوى على مادة سكرية ، وخيزالا يؤدي إلى السمنة ، وقهوة لا تحول دون النوم .

في حادثة أخرى من حداثك لوس أنجلوس رأيت شيئا مدعشا ، ولكنه أيضا أمريكي مائة بالمائة . كان هذا هو «سيرك الطيور» ، وهو مسرح صغير يمكنك فيه أن تشاهد عرضا بالغ المهارة لا يختلف عن السيرك المألوف إلا في أن أبطاله من الطيور وليسوا فيلة أو أسودا . وفيه ينتزع المروض التصفيق من الحاضرين لدى رؤيتهم طائرا ، مثل الحمامة أو الديك أو البغاء ، رائع الألوان ، وبالعالمية والجمال ، يقف على قدم واحدة ، أو يتسلق سلما ، أو يخطر فوق مكعبات دون الوقوع فيما بينها من مسافات ، أو يقوم بمختلف الألعاب الهلوانية وينحني للجمهور لدى تصفيقه له في نهاية العرض .

وقد ذكرنى هذا المنظر ببلادنا الفقيرة ، وبما صنعه بنا الرجل الغربى مما يشبه ما صنعه المروض الأمريكى . فيها هى طيور لا تقل عن مروضها فى قدراتها وإمكاناتها ولكنها تفوقه مهابة ، فهى تستطيع الطيران حيث لا يستطيعه ، وهى تهتم بصغارها حيث لا يبدى اهتماما كافيا بصغارها ، وهى لا تكذب أو تافق فى سبيل حصولها على الرزق . ولكن المروض لا يريد أن يعترف لها بفضل إلا إذا نجحت فى تقليده ، واستطاعت الوقوف على قدم واحدة ولعبت كرة القدم ، وأظهرت من القدرات ما ليس لديها أدنى استعداد له أو حاجة إليه .

فى بلد له مثل ما للولايات المتحدة من موارد تبدو وكأنها لا حدود أو نهاية لها ، كيف يكون لأهلها هذا الولع بالأرقام والحساب ؟ أم أن وفرة الموارد كانت هى ذاتها دافعا لهذا الولع ؟ ذلك أنى لم أصادف شعبا يستخدم فى كلامه العادى قدر ما يستخدمه الأمريكى من أرقام ، ولا من هو أشد منه غراما بالتعبير الرقمى . فأسعار السلع بأجزائها العشرية ، وسعة سيارته من البنزين ، وعدد الأميال بين مكان وآخر ، والوقت الذى تستغرقه رحلة أو تأدية عمل ، حاضرة فى ذهنه دائما ، يخطر بباله

دون أى جهد ويقارن بينها دون مشقة . والرجل لا يوصف بأنه طويل أو قصير ، ولكن يقال لك إن طوله خمس أقدام وبوصتان ، والمكان لا يوصف بأنه بعيد أو قريب وإنما تخبر عما تستغرقه الرحلة إليه من الدقائق بالسيارة أو بال طائرة . والشئ الذى لا يمكن حسابه بالأرقام يفترض ضمناً أنه لا يستحق الاهتمام .

وقد لا يبدو فى هذا الميل الواضح إلى التعبير الرقمى غضاضة لولا أنه انعكس فى فكرة الأمريكى عن «الكفاءة» . فالكفاءة لدى الأمريكى هى بوجه عام إنتاج أكبر قدر بأقل تكلفة ، أو القيام بأكثر عدد من الأعمال فى أقل وقت ممكن ، دون اهتمام كبير بالآثار التى لا يمكن تقديرها تقديراً رقمياً . فما أسهل على الأمريكى أن يشعر بالرضا إذ يجد سيارته قد قطعت عدداً كبيراً من الأميال ، أو يجد نفسه قد أنجز عدداً كبيراً من الأعمال ، أو زار عدداً كبيراً من البلاد ، أو شاهد عدداً كبيراً من التاحف ، دون أن يعير اهتماماً كبيراً للطبيعة الرحلة أو الغرض منها . أو للفائدة الحقيقية من العسل وجدواه ، أو لما جناه من معرفة حقيقية بما زاره من بلاد أو شاهده .

فكثيراً ما يبدو لك الأمريكى «كأم العروس» . فاضية ومشغولة (كما يقول التعبير المصرى الشعبى) ، لا يطبق الكف عن الحركة والعمل . وكان أى عمل مهما كان تأقها أفضل من عدمه . لا يطيل البقاء فى مكان لأن فى انتظاره عملاً آخر لا بد من تأديته . يتناول طعامه بسرعة ثم يقفز إلى سيارته أو يتاوله أمام التليفزيون أو فى السيارة نفسها . فإذا دعاك إلى الغداء فهو «غذاء عمل» ، وإذا فكر فى أن يدعو معك شخصاً آخر فلأنه يرى أن من المفيد أن يتعرف أحدكما على الآخر . وهو مغرم بجميع أسماء المعارف وعناوينهم ، ويشعر بالفخر لكثرة معارفه واتصالاته هنا وهناك . فإذا زار بلداً فمن المهم ألا يقضى وقتاً أطول من اللازم فى مكان واحد ، فإذا تعذر عليه استيعابه فليتنقط له الصور . وبرامج التليفزيون الأمريكى تتميز بنفس الطابع : الكثرة على حساب الجودة ، والسرعة على حساب العمق . وكثيراً ما يحدث ألا نجد من بين برامج العدد اللانهائى من القنوات التليفزيونية ، التى يمتلئ بعضها طوال ٢٤ ساعة كل يوم ، برنامجاً واحداً تشوقك رؤيته ، أو فى العدد النهاى من صفحات جريدة الأحد إلا القليل مما يستحق القراءة . فإذا عرض

التليفزيون نقاشا أو ندوة فقلما تجد تممقا في التحليل أو إحاطة بالظاهرة التي يدور حولها النقاش من مختلف جوانبها . والمهم في إعداد الأخبار أن تحتوى النشرة على أكبر عدد من الأخبار دون جهد يذكر في تحليل أسباب الخبر أو آثاره . صحيح أنك تجد في الحياة الثقافية الأمريكية الغث والسمين ، وبمكنتك إذا أردت ، الاستماع إلى موسيقى ريفية والعثور على تحليل جيد للأخبار ، ولكن هذا ليس هو الطابع العام للثقافة الأمريكية السائدة .



تراسلت كالعادة ، خلال العام الذي قضيته في الولايات المتحدة ، مع أخى حسين ، وها هي مقتطفات من بعض خطاباتى إليه من لوس أنجلوس :

١٩٧٨ / ١٠ / ٢٥

أخى العزيز حسين ، تحياتى وأشواقى (. . .)

الجميع يقولون إن لوس أنجلوس ليست أمريكا ، أو هى أمريكا كما سوف تكون ، فهى رائدة فى كل شئ ، فى التكنولوجيا كما فى الجرائم . ولا تتصور صعوبة «حماية» الأولاد من هذا الجو المسموم الذى يحيط بهم من كل ناحية . حتى الأخبار فى التليفزيون لا تستطيع أن تأمن على أولادك منها . فالجو ينضح بالجنس والجريمة والمخدرات . . إلخ . كما أذهلنى أن وجدت كل واحد فى حاله ، حتى الطلبة فى الجامعة ، ويندر أن تجد أحدا يضحك . هل أخص لك الصورة كلها فى كلمة واحدة؟ ١٩٨٤ . . هذه هى الخلاصة . لقد كان أوروبيل يتصور أن ١٩٨٤ هى مستقبل روسيا ، ولكن يبدو أن أمريكا سبقتها إلى ذلك . وأعتقد أن أوروبيل ما كن ليصدق عينه لو كان رأى لوس أنجلوس الآن ، فربما وجده قد فاقت خياله . الناس على وشك أن يصبحوا ماكينات ، والعائلة لم تعد موجودة ، والكل يجرى من أجل الحصول على دولارات إضافية . كل هذا معروف من قبل؟ نعم ، ولكنى لم أكن أتوقع أن أجد حقيقة بهذه الدرجة من القرب من الموجود بالكتب . هذا لا ينفى أننا مسرطون ، وأنشغل الآن بجهد على كتاب جديد ، أعتقد أنه سيكون جيدا ، ولا بد أن انتهى منه قبل عودتى . ولكن هذا النزول إلى لوس أنجلوس شبيه بالنزول على القمر!

كانت مشاهدتي للأمريك والمعيشة فيها بضعة أسابيع كافية لأن أقدر أنه لا بد من العودة والاستقرار في مصر . العودة إلى الكويت تبدو لي من ها أمراً مضحكاً ، لا أدري بالضبط السبب . ولكنني عازمت (نهايتها إن شاء الله!) على العودة إلى مصر في يوليو ، وأن أذهب إلى الكويت لمدة أسبوع خلال الخريف ، فقط لأحضر عشى وأبيع ميارتي . من حسن الخط أن لنا جيراناً لهم أولاد في سن أولادى ، ولهم نظرة إلى الحياة في أمريك مثل نظرنا (ولو أنهم أمريكيون) ولا يسمحون للأولاد بمشاهدة التلفزيون على الإطلاق . (. . .)

أرحو أيضاً أن تذكر لى ولو كلمة سريعة عن انطباع النامس عن كامب دافيد . (لقد ابتأست كثيراً لها) .



١٩٧٩ / ٢ / ١٩

أخى العزيز حبيب ، منذ مدة طويلة لم أسمع منك (. . .)

أخبرنا كلها بخير . وقد قضى والدجان معن ثلاثة أسابيع ووالدتها شهرين . وسافرت منذ أيام ، وأنا أرحب دائماً بزياراتهما لك بسبب الأولاد أساساً ، الذين يفرحون كثيراً بهما . أما أخبار شغلى فقد وجدت بعد أسابيع من وصولي أن المطلوب منى هنا لا يشكل عبثاً كبيراً . فالبحت المطلوب يمكن أن أنجزه في الشهرين الأخيرين . وعندما حضرت بعض محاضرات التنمية الاقتصادية هنا ، وهو نفس المقرر المطلوب منى تدريسه خلال الشهرين الحاليين ، وجدت أن محاضراتي القديمة في الجامعة الأمريكية تكفى وزيادة ، فلا مستوى الأساتذة ولا الطلبة يتطلب أكثر من ذلك . لهذا عكفت في الشهور الأولى على إعداد مادة الكتيب الذى كنت ارتبطت بكتابه لمركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) وأنهيت إعدادها منذ شهر ، وسأبدأ الكتابة هذا الأسبوع ، وأمل أن أنهى منه في منتصف مايو . ولا أستطيع أن أقول الآن ما مدى رضاي عن المادة التى جمعتها ، وسيوضح الأمر عندما أبدأ الكتابة ، وسيكون عنوانه فيما أتصور (المشرق العربى والغرب : ١٧٨٩ ~ ١٩٧٥) وهو يتناول أساساً أثر اتصالنا بالغرب فى تعطيل النهضة العربية والوحدة العربية . ومن

الأشياء التي استرعت انتباهي جداً وإعجابي أثناء قراءتي، الحركة السنوسية في ليبيا ومدى الشبه الكبير بينها وبين الحركة الوهابية وحركة المهدي في السودان، مما يقطع بأن البلاد العربية لو كانت تركت وشأنها لأنصرت هذه البذور (قضلا عن حركة محمد علي في مصر) نهضة حقيقية.

ومن ناحية أخرى بدأنا، مع طول إقامتنا هنا، نقدر بعض الجوانب الإيجابية في الحياة الأمريكية. فالناس هنا بصفة عامة يذكرونني في طباعهم، بطالب مصري أرسقراطي لم يصادف مشكلة مادية قط، وتخرج في مدرسة أجنبية في مصر: الدمانة والرقعة والسذاجة والتفاؤل والبساطة، مع عدم القدرة على تكوين علاقات اجتماعية عميقة، وغيبة أية رغبة في التحليل وتقليب الأمر على وجوهه. فلعل الأمريكيين هم أكثر الشعوب التي أعرفها بعداً عن أن يوصفوا بال intellectuals، بل لعلهم يفرون من أي جهد ذهني يُبدل لوجه الله.

والهاية التي ألتفها هنا تكفي حياة مريحة وبعض الكماليات القليلة (كالسينما والمسرح) دون أي فائض. ولهذا تجدني قد سحبت من مدخراتي «الكويتية» لأنفق على شراء السيارة مثلاً، وبعض الرحلات التي قمت بها مع والدي جان. ولكن ما اعتبره أهم أخباري هو أنني تعاقدت مع الجامعة الأمريكية بمصر على وظيفة أستاذ زائر لمدة سنتين ابتداء من أول سبتمبر القادم. وبمجرد أن وقعت العقد معهم كتبت للصدوق الكويتي بأنني لا أنوي العودة إلى الكويت. لم أتردد كثيراً في اتخاذ هذا القرار، لأكثر من سبب. فزيادة المدخرات كما تعرف لم تكن أبداً جزءاً من طموحي. وبعد مجيئي هنا بدت لي حياتنا في الكويت لا معنى لها، خاصة بعد أن أصبحت حياة روتينية خالية من أي جديد. إنني أدرك تماماً صعوبات الحياة في مصر الآن (وقراءة الأهرام هنا تضخم من شعوري بهذه المصاعب) ولكن الوجود في مصر الآن بالنسبة لي يحمل من الاحتمالات ما أصبحت الكويت لا تقدمه لي. وإنني أعتبر الجامعة الأمريكية مجرد فترة انتقال يعقبها، إما الرجوع إلى جامعة عين شمس أو إلى جامعة إقليمية كالزقازيق أو المنصورة.

كذلك قررت ألا أكتب بعد الآن إلا باللغة العربية. فقد بلغ سأمي من الأجانب والمشرقيين أقصاه (. . .).

أخي العزيز حسين، غياني وأشواقى (. . .)

اكتشفنا بعد أن قضينا هنا بضعة شهور مدى غنى الحياة الثقافية فى لوس أنجلوس . فالتنوع الهائل المعروف عن أمريكا فى السلع موجود أيضاً فى الثقافة . ولكن كما أن من الصعب اختيار نوع القميص الذى تشتريه بسبب وجود آلاف الأصناف ، فإن من الصعب الاختيار بين الأصناف العديدة الموجودة فى الثقافة أيضاً (. . .) ومع هذا فالتاس هنا يجدون الحياة لا طعم لها (كما أن طعامهم أيضاً لا طعم له إطلاقاً مهما كانت فخامة المطعم الذى تذهب إليه) وهذا الأمر يحيرنى جداً . فأنت تمشى فى الشارع فتجد البيوت غاية فى الجمال ، والحديقة المحيطة بكل منزل بدعية التنسيق ولا ينقصها شيء . ومع هذا لا يمكن إلا أن تشعر بأن كل هذا لا طعم له . أنا لا أتعجب إطلاقاً عندما أسمع أن واحداً من بين كل ثلاثة رجال هو مدمن خمر alcoholic أو يعاني من اكتئاب مستديم . فأنا لم أعشت هنا ستين أو ثلاثاً لآبد أن أصبح هذا أو ذاك ! كما لا أتعجب من أن تقريباً كل امرأة تقابلها هنا مطلقة . إن الجميع يحاول أن يجد شيئاً يعطى لحياته معنى ، فإذا لم يجده فى امرأة جديدة أو لم يسمح له دخله بذلك لجأ إلى السكر أو المخدرات . ولكن السؤال : كيف عجز مجتمع بهذا الرخاء عن أن يعطى للحياة معنى ؟ إنى أرفض التفسير الذى يقول بأن الرخاء نفسه هو المشول . لا أعتقد ذلك ، ولعلنى أصل إلى رأى قبل رجلي !! .

* * *

لا بد أن أروى هنا قصة مؤثرة ولكنها أيضاً ذات نهاية محزنة للغاية ، وهى قصة الأستاذ مالكولم كير ، الذى كان له فضل ترتيب زيارتى لأمريكا ، والذى عرفته عن قرب خلال ذلك العام الذى قضيته فى لوس أنجلوس ، وتطور شعورى نحوه إلى شعور عميق بالاحترام والحب ، وحزنت حزناً شديداً عندما سمعت بنهاية المأساوية فى بيروت بعد ثلاث سنوات من عودتى من لوس أنجلوس .

كانت أول مرة أقابل فيها مالكولم كير فى سنة ١٩٦٦ ، عندما اشتركت فى ندوة نظمتها كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن بعنوان «تطور مصر منذ ١٩٥٢» ،

وكان هو أيضا واحدا من مقدمى الأوراق لهذه الندوة . أذكره وقد جاء إلى خلال الندوة يأتنى عن الكتب العربية التى صدرت عن اشتراكية عبد الناصر ثم وهو يكتب بعناية أسماء هذه الكتب ومؤلفيها بحروفها العربية . لم أره أو أسمع عنه بعد ذلك لمدة ثماني سنوات ، ولكن اسمه ذاع واشتهر خلال هذه السنوات ، بين الأكاديميين المشتغلين بالشئون العربية ، بسبب نشره لكتاب صغير سرعان ما أصبح يعتبر عملا كلاسيكيا فى موضوعه وهو كتاب «الحرب العربية الباردة» (The Arab Cold War) ، الذى حلل فيه تحليلًا بديعا العلاقات العربية - العربية منذ صعود نجم عبد الناصر فى منتصف الخمسينات وحتى هزيمته فى ١٩٦٧ . عندما أتذكر الآن مستوى الجودة التى حققها هذا الكتاب ، وتميز كتابات مالكولم كير الأخرى ، أدرك كم كان الرجل مختلفا عن غيره من مدعى المعرفة بشئون العرب والمسلمين . كان بالإضافة إلى جلده وإخلاصه فى العمل ، يملك عقلا نقادا مع قدرة على الكتابة السلسة والواضحة التى كثيرا ما تقرب من التعبير الأدبى .

وقد أرسلت إليه نسخة من مخطوطة كتابي (تدوين الفقر) (The Modernization of Poverty) بعد فراغى منه ، فقرأه بعناية وكتب لى ملاحظاته المفصلة ، وحاول أن يساعدنى فى العثور على ناشر للكتاب . ثم عرض علىّ بعد ذلك ببضع سنوات ذلك العرض الذى أتى بى إلى لوس أنجلوس لمدة عام .

وفى لوس أنجلوس تعرفت على صفات جميلة أخرى فيه : فهو مضيف كريم ، وسخى بوقته وجهده إذا احتاج أصدقاؤه إليه . ثم بهرنى كمحاضر وخطيب . استمعت له وهو يلقي محاضرة عن الاشتراكية العربية فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس ، فوجدته يقول لمدة ساعة كلاما عميقا ودقيقا ومنظما ، وبأسلوب فصيح ، دون أن تكون أمامه أى ورقة تذكره بما يجب عليه أن يقول . ثم بهرنى مرة أخرى بظرفه وهو يلقي الكلمة الرئيسية فى احتفال أقيم فى نفس الجامعة لإهداء جائزة مرموقة للأستاذ ألبير حوراني المؤرخ المعروف بجامعة أكسفورد .

كان مالكولم كير يجمع على نحو فريد بين منتهى الجدية والإخلاص لعمله ، وبين إحساس قوى بالسخرية والمفارقات الكامنة فى الأشياء وفى تصرفات الناس ،

مما كان يمنعه من أن يأخذ نفسه بجدية أكثر من اللازم أو أن يبالح في أهمية ما يصنعه. ولكن أكثر ما بهرني فيه شجاعته. فبعد وصولي إلى لوس أنجلوس بأيام قليلة تلقيت منه دعوة للعشاء في بيته البالغ الجمال في منطقة باسيفيك بلاسيد (Pacific Palacaid)، المقام في أعلى جبل وتطل حديقته مباشرة على المحيط. كان قد نشر قبل يوم الدعوة بيضعة أيام مقالا في جريدة لوس أنجلوس تايمز، مقالا اعتبرته منظمة الدفاع اليهودية (Jewish Defense League) معرطا في تحيزه للعرب. وقد قال لى مالكولم كبير إن رئيس تحرير الجريدة كان قد حذف بعض العبارات من المقال لهذا السبب، دون استئذان كاتبها. ثم حدث في الليلة السابقة مباشرة على حفلة العشاء أن قام أفراد من هذه المنظمة اليهودية بإشعال حريق في سيارته الواقفة أمام باب منزله، واستيقظ هو من نومه على رائحة الدخان المبعث من السيارة المشتعلة، ثم تلقى مكالمة تليفونية، بعد أن حاول إنقاذ سيارته دون جدوى، من شخص يقول له إن الحريق أشعلته المنظمة اليهودية على سبيل العقاب له والشايب. وعندما سمعت الخبر في الصباح ظننت أن مالكولم سوف يلغى حفل العشاء المزمع عقده في نفس المنزل في المساء، ولكنه قال إن كل شيء يسير كما كان مخططا. وبالفعل ذهبنا إلى بيته ولم يبد عليه أن الحادث قد ترك في نفسه أى أثر.

كانت هذه الشجاعة هي بالطبع ما أدت إلى مصرعه، وهو لم يتجاوز الخمسين من العمر. وقد قرأت وسمعت الكثير من الثناء عليه بعد وفاته وعن ظروف مقتله البشعة، ولكني لم أسمع أحدا يحاول أن ينس بينت شفة عمن يمكن أن يكون قاتله أو عن دوافع هذا القتل. كان قد عرض عليه منصب مدير الجامعة الأمريكية في بيروت في أوائل الثمانينات أثناء اشتعال الحرب الأهلية، وكان ما نسمعه عن مشاعب الحياة اليومية في بيروت وخطورتها كافيا لإثناء عزم أى شخص عن الحياة فيها. ولكنه قبل الوظيفة، وبعد شهور قليلة سمعنا أن الرصاص أطلق عليه أمام مكتبه في الجامعة في بيروت، ولم يتجرأ أحد على أن يقول أو حتى أن يتكهن بشخصية قاتله أو سبب القتل. حتى زوجته، التي كنا نعرفها أنا وزوجتي جيدا، بدت عازفة تماما عن الخوض في الموضوع، وكنت أشعر شعورا قويا بأنها تخاف أن تقول ما تعرفه.

الجامعة الأمريكية

عندما اتصل بي رئيس قسم الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، في أحد أيام سنة ١٩٦٦ ليعرض عليّ تدريس «تاريخ الفكر الاقتصادي»، إلى جانب عملي المعتاد بجامعة عين شمس، قبلت على الفور وبسرور. كان هذا العمل جذاباً في نظري لعدة أمور. فتاريخ الفكر الاقتصادي كان دائماً من أحب موضوعات الاقتصاد إليّ، ولم يكن تدريسه متاح لي في كلية الحقوق إذ لم يكن من المطلوب لدارس القانون أن يعرف من علم الاقتصاد أكثر من مبادئه الأساسية. والتدريس في الجامعة الأمريكية بالإنجليزية، مما لم يشكل أى صعوبة بالنسبة لي بل كان يتيح لي فرصة التعبير عن أفكار الاقتصاديين انكبار مباشرة كما عبّروا هم عنها دون ترجمة، كما يسمح لي بأن أطلب من الطلبة أن يقرأوا في المكتبة ما لا أستطيع أن أطلبه من طلبة كلية الحقوق. والجامعة الأمريكية كانت تبدو لي من بعيد عالماً جذاباً أحب أن أدخله وأكتشف ما فيه، كما أن المكافأة المالية التي كانوا يعرضونها كانت عنصر جذب إضافي يعينني على تلبية حاجاتي الجديدة التي يعجز عن الوفاء بها مرتب كلية الحقوق الهزيل، وأنا لا أزال أحاول أن أكمل فرس بيتي وأدفع أقساط التلاجة والفرن.

ولم يخب ظني في أى من هذه التوقعات. دخلت مبنى الجامعة الأمريكية بالقرب من ميدان باب اللوق، فإذا بي أجدها كالأوحة الصغيرة وسط صحراء واسعة مجبدة. كل شيء فيها هو عكس ما يجري بخارجها. فبمجرد أن تتجاوز عتبة الباب تمجد من النظافة والجمال ما لا تجد مثله خارج الباب. الحديقة بافعة ومبهرة الخضرة والأزهار، مما يعني أن ثمة شخصاً أو أشخاصاً لا عمل لهم إلا

سقيها وتنسيقها . والحجرات والمرات نظيفة وتحتوى على كل الوسائل اللازمة للراحة والمساعدة على العمل دون تعكير ودون حاجة مستمرة للشكوى . والبنيات الجميلات الناضرة التي تعرف كل منهن ، حتى الأقل جمالا ، موضع اجمال فيها فتبرزه ، ولديها من المال ما يسمح باستخدام كل الأساليب اللازمة لتحقيق ذلك ، من شراء الملابس المناسبة لها بالضبط ، إلى الذهاب إلى كوافير كف يساعدها على تحقيق هدفها . . إلخ . الأمر إذن فى مجمله مبهج تماما ولا عيب فيه . وهو فى كل هذه الأشياء وغيرها يكاد أن يكون النقيض التام لما كنت أراه فى جامعة عين شمس ، حيث يخيم على الطلبة الحزن والفقر ، وحجرات الأساتذة مقفرة لا تحتوى كل منها إلا على مكتب وكوسى ، إذ لم يفكر أحد أن يضع على النافذة ستارة جميلة أو على المكتب إناء للأزهار . والأرض بلاط لا يغطيه شيء ، وكاف لإصابتك بالبرد إذا قضيت فى الحجرة ساعة واحدة فى الشتاء مما يدفعك إلى العودة إلى منزلك بأسرع طريقة ، دون مقابلة الطلاب . والفراشون يخيم عليهم من الأسى وسوء الحال ما يخيم على التلاميذ والأساتذة . ودورة المياه النظيفة الوحيدة فى الكلية كلها موجودة فى الدور العلوى الذى تقع فيه حجرة العميد ، وهى الحجرة الوحيدة التى تحتوى على سجادة ومروحة ومقاعد وثيرة . ولكن حتى دورة المياه هذه لها مفتاح يحتفظ به فراش العميد فى جيبه ، وهو فراش طويل عريض اختير بعناية ليحرس مكتب العميد ، وليفتح للعميد نفسه ولزواره المقربين ، باب دورة المياه كلما احتاجوا لذلك . وبناات كلية الحقوق فيهن الجميلات بالطبع ، فهن لا يختلفن فى المعدن الذى صنع منه عن طالبات اجامعة الأمريكية . ولكن ظروفهن كلها لا تسمح بأن يظهر منهن ما قد يكون لهن من جمال : لا الملابس التى يرتدينها ، ولا طريقة تسريحة الشعر ، ولا المنشئة المشاقة ، ولا خوفهن المستطير من أن يقترب منهن أى رجل . بل أتاج لى دخول الجامعة الأمريكية أشياء طيبة أخرى لم أكن أعرفها من قبل . فالمكتبة عامرة بالكتب والدوريات الجيدة ، والطلبة يذهبون إلى المكتبة بالفعل ويستفيدون منها ولا يستغريون أن يطلب منهم الأستاذ أن يقرأوا فيها كتابا أو مقالة . والطلبة يقضون الجزء الأكبر من اليوم فى الجامعة ، ما بين حضور المحاضرات والقراءة فى المكتبة ، أو حضور محاضرة عامة لأستاذ زائر من مصر أو خارجها ، أو

رؤية فيلم جيد من الأفلام التي ينظمها ناد للسينما، أو يحضرون مسرحية يمثلها الطلاب أو حفلة موسيقية يقيمونها، كما يستطيعون أن يتدولوا وجبة جيدة من الطعام، أعدت إعدادا جيدا في مطبخ نظيف. كل هذا كان طلبة كلية الحقوق في عين شمس محرومين تمامًا منه، ومن ثم فلا شيء كان يستقيم في الكلية بعد انتهاء المحاضرات، أو حتى قبل انتهائها، إذ يصبح الأمر كله ثقيلا جدًا على النفس يغري المرء بمحاولة الهرب منه كلما أتحت له الفرصة لذلك.

فلما عدت من لوس أنجلوس وأصبحت أستاذًا متفرغا بالجامعة الأمريكية ابتداء من سبتمبر ١٩٧٩، أتاحت لي الجامعة الأمريكية أيضا فرصة لتدريس مقررات لم أكن أستطيع تدريسها بكلية الحقوق. فالتنمية الاقتصادية لم تكن مقررا مستقلا من بين مقررات هذه الكلية، ولا الاقتصاد المصري، بل كان كل منهما، في أحسن الأحوال، جزءا يضاف دون تعمق لأحد المقررات الأخرى. وقد قمت بتدريس هذين المقررين، التنمية الاقتصادية والاقتصاد المصري، لعدة سنوات في الجامعة الأمريكية. ولكن التجربة الثيرة حقا والتي لم يكن من الممكن تصوّر تطبيقها في جامعة من جامعات الأعداد الغفيرة في مصر، هي تدريس مقرر يتكون من نحو اثني عشر كتابا من الكتب الكلاسيكية في موضوعات مختلفة، خلال فترة أربعة أشهر، هي طول أحد الفصلين المكونين للسنة الدراسية. كان على الطالب في هذا المقرر أن يقرأ ويناقش كتبًا كلاسيكية من نوع محاورات أفلاطون، ومسرحية من مسرحيات سوفوكليس، واعترافات سانت أوجستين، وكتاب الأمير لماكيافيلي، ومسرحية من مسرحيات شكسبير، إلى جانب بعض فصول من كتاب داروين، والبيان الشيوعي لكارل ماركس وإنجلز، وكتب صغير لغرويد. وبعض الكتب الأدبية الشهيرة المعاصرة... إلخ.

وقد اشتركت لعدة سنوات في تدريس هذا المقرر، وهو ما كان يعنى أن ألقى خلال الفصل الدراسي محاضرة عامة واحدة، لجميع الطلاب الدارسين لهذا المقرر، عن أحد هذه الكتب المختارة. ثم ألقى بمجموعة صغيرة منهم، يتراوح عددهم بين الثمانية والعشرة، مرتين في كل أسبوع، لنناقش معا كتاب الأسبوع،

كما تناقش المحاضرة العامة التي سمعتها عن هذا الكتاب . أتاح لي تدريس هذا المقرر أن أقرأ بعض الكتب المهمة والرائعة التي لم أكن قد قرأتها من قبل ، وإعادة قراءة كتب أخرى مهمة . وقد أثرت فيّ موجه خاص كتب بعضها ، فبذلت جهداً أكبر من المعتاد في إعداد محاضراتي عنها ، وأحياناً أيضاً في القراءة في أمور متصلة بها . من ذلك كتاب الأمير لماكيا فيلى الذى وصفه بعض الكتّاب بأنه «أول رجل عصرى» ، فبذلت جهداً في محاولة فهم هذه العبارة والتدليل على صحتها ، وفى الربط بين الكتاب والفكر الاقتصادى الحديث من حيث العلاقة بين الغايات والوسائل . من هذه الكتب أيضاً كتاب ابن رشد «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» فبذلت جهداً في محاولة فهم الأسباب الحقيقية للخلاف بينه وبين الغزالي . وأعجبت إعجاباً فائقاً برواية الكاتب النيجيرى المعاصر (أشيبى) «عندم ينهار كل شيء» (Things Fall Apart) وأبرزت في محاضرتي عنها قصة اصطدام ثقافات العالم الثالث بالحضارة الغربية ، وهو ما أبرزته أيضاً عندما حاضرت ، أكثر من مرة ، عن تلك الرواية الأثيرة لدى «موسم الهجرة إلى الشمال» للطبيب صالح . كنت قد قرأت مقدمة ابن خلدون قبل اشتراكى في تدريس مادة تاريخ الفكر الاقتصادى ، وأثار حماسى أن أكتشف أن كاتباً عربياً أحرز كل هذا التقدم فى صياغة بعض الأفكار الاقتصادية المهمة قبل آدم سميث بأربعة قرون ، وشرحت هذا فى محاضراتي فى تاريخ الفكر الاقتصادى ، ولكنى لم أكتشف أهمية كتاب حى بن يقظان لابن طفيل إلا بسبب اشتراكى فى تدريس هذا المقرر عن الكتب الكلاسيكية ، واعتبرت هذا الكتاب من الدرر الثمينة ، ولا بد أن أبى كان قد شعر نحوه شعوراً مائلاً هو الذى أدى به إلى تحقيقه ونشره ومقارنته بكتب عربية أخرى فى نفس الموضوع .



كل هذا جميل وعظيم جداً ، ولكنى مع مرور الوقت وتدريس سنة بعد أخرى فى الجامعة الأمريكية حتى أصبحت هى مكان عملى الأساسى منذ ١٩٧٩ وحتى الآن ، اكتشفت نقاط ضعفها ، واتضح لى مثالب ذكرتني بمثالب كليتي القديمة فى

عين شمس، وهو ما ذكرني بحوار طريف دار مرة بين أبى وأخى الأكبر منذ أكثر من خمسين عاما. كان أخى محمد قد عاد منذ وقت قصير من أوروبا بعد أن قضى فيها عدة سنوات في الدراسة للدكتوراه. ويبدو أنه في الأسابيع الأولى التي قضاها في مصر بعد عودته صادف بعض المتاعب غير المتوقعة، خيب خلالها بعض الناس أمله، أو لم يتفدوا ما وعدوه به، أو استغلوا نسيانه لبعض طرق التعامل في مصر بسبب غيبته الطويلة. سأله أبى عن أحواله ورأيه عما رآه في مصر بعد عودته فقال أخى بحزن: «الناس هن يأكل بعضهم بعضا». ففكر أبى قليلا ثم رد عليه مبتسما «وفى أوروبا أيضاً، وإن كانوا هنك يأكل بعضهم البعض بالشوكة والسكين!».

حدث مثلا، عندما قامت حرب ١٩٧٣، وخشيت إدارة الجامعة الأمريكية أن تلحقها بعض المتاعب من جراء وقوف الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل ومدّها بالأسلحة لتعويضها عما فقدته في هجوم أكتوبر، أن قرر رئيس الجامعة إغلاقها لأجل غير مسمى، وشكل لجنة من بعض الأساتذة والإداريين لمنايعة الموقف يوما بيوم، وإبداء النصيحة يوميا لرئيس الجامعة بما إذا كان الوضع أصبح يسمح أو لا يسمح بإعادة فتح الجامعة. وأخترت أنا عضوا في هذه اللجنة التي كانت تجتمع كل يوم، وفي أوقات مختلفة من اليوم، وتغطا بهالة من الاهتمام، إذ يتوقف على قرارها (هكذا كنا ننظن) تحديد الموعد الذي تعود فيه الجامعة إلى ممارسة نشاطها. كنت وقتها أكثر سذاجة بكثير مما أنا اليوم، فكنت أظن فعلا أن المقصود بهذه اللجنة ألا ينفرد أحد بالرأى، وأن يكون إغلاق الجامعة أو فتحها بقرار من العاملين فيها أو من يمثلهم. ظلمنا نجتمع كل يوم، في ساعات مختلفة من ساعات الصباح أو المساء، ويجلس معنا دائما نائب مدير الجامعة، وهو مصرى ووثيق الصلة بالأمريكيين وبالحكومة المصرية في نفس الوقت، وكنا نعتبر أنفسنا أثناء ذلك أشخاصا مهمين للغاية. ألا يتوقف فتح الجامعة أو استمرار إغلاقها على قرارنا نحن، وعلى تقييمنا اليومي للوضع السياسى؟ كان نائب مدير الجامعة يأتي إلى الاجتماع في كل مرة، بعد أن يجلس مع المدير ويتناقش معه في خطوة. وفي أحد الأيام، بعد أن مضت أسابيع على هذه الاجتماعات المهمة، دخل علينا هذا النائب

وأخبرنا أنه أت لتوّه من مكتب مدير الجامعة وقد استقر رأى المدير على أن تفتح أبواب الجامعة غداً. ولم يترك لنا فرصة لمناقشة صواب هذا القرار أو خطئه، فانصرفتا في ذهول ونحن نتساءل عن جدوى كل اجتماعاتنا السابقة اللهم إلا التظاهر بالديمقراطية وتبادل الرأى.

حدث بعد هذا بقليل حادث آخر يستحق أن يروى. كان لأنور السادات، رئيس الجمهورية آنذاك، بنت تقدم لخطبتها أحد أبناء رجل ثرى ومن المقربين لسلطة، وكان وقتها رئيساً لمجلس الشعب. كان هذا الابن قد تخرج لتوّه من الجامعة الأمريكية، ولكن لم يكن قد وجد لنفسه بعد وظيفة يمكن أن تذكر إلى جانب اسمه فى الصحف، عندما يعلن نبأ خطبته لبنت السادات. واستقر رأى الأسرة على أن من الملائم جداً أن تذكر الصحف أن هذا العريس السعيد يشغل وظيفة معيد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. ولم يكن هناك فى الحقيقة وظيفة بهذا الاسم، فأقصى ما يطمح فيه شخص حديث التخرج فى الجامعة الأمريكية إذا أراد أن يعمل فى الجامعة بعد تخرجه، أن يعين مساعد باحث، أى مساعداً لأحد أساتذة الجامعة ليضع ساعات كل أسبوع بمكافأة بسيطة، ودون أن يؤهله هذا على الإطلاق لوظيفة ثابتة فى هيئة التدريس بالكلية، بعكس وظيفة المعيد فى الجامعة المصرية التى تؤهل صاحبها بعد أن يحصل على الدكتوراه لأن ينضم إلى هيئة التدريس.

كان المقصود بالطبع أن يفهم قارئ الصحيفة المصرية الخير بهذا المعنى الخاطئ، فيكتسب خطيب بنت السادات الاحترام الواجب. تم الاتصال بمدير الجامعة الأمريكية لإخطاره بالرغبة السامية، فنقلها بدوره إلى رئيس قسم الاقتصاد، وكان شاباً أمريكياً يسارى الأفكار، وبوهيميا جريئاً فى نفس الوقت، فنقل إلينا الخير بالضبط، وقال لنا إن رغبة مدير الجامعة هى الاستجابة لرغبة رئاسة الجمهورية وأن الأمر بيدنا، نحن أساتذة القسم، لنقرر ما نشاء فيما إذا كنا نقبل تعيين هذا الشاب فى وظيفة مساعد باحث بالقسم. أضاف رئيس القسم إلى معلوماتنا أيضاً الخير المثير الآتى: وهو أن مدير الجامعة قال له إنه فهم من اتصل به من الحكومة المصرية، أن مسألة اعتراف الحكومة بشهادة الجامعة الأمريكية أو عدم الاعتراف بها، (وكانت

مطروحة في هذا الوقت، إذ لم تكن هذه الشهادة قد حصلت على هذا الاعتراف (بعد) تتوقف على قرار قسم الاقتصاد بقبول أو رفض تعيين هذا الشاب المحظوظ.

كان تصرف رئيس القسم شريفاً مائة بالمائة، وإن كان قد وضعنا جميعاً في ورصة لا نحسد عليها. وكان اجتماعاً مثيراً ومسلماً للغاية، ذلك الذي عقدناه في القسم لبحث الأمر. كنا أربعة أو خمسة بالإضافة إلى رئيس القسم. أما رئيس القسم فقد ترك لنا حرية اتخاذ القرار الذي يرضى ضميرنا. سأل أستاذ مصرى، من بين أعضاء القسم، عما إذا كان هناك متقدمون للوظيفة غير هذا الشاب، ففيل له إن هناك شاباً واحداً آخر تقدم لها وهو حاصل على درجات أكبر. فاقترح هذا الأستاذ المصرى أن يعين الإنسان معنا للحرص وخروجاً من هذه الورطة، فوافقنا على ذلك وتم التعيين. ولكن فوجئنا بعد فترة قصيرة للغاية، لعلها لا تزيد على شهرين من تاريخ نشر حر التعيين في الصحف، بخبر استقالة هذا الشاب المحظوظ من الوظيفة التي عيناه فيها، بعد أن وضعنا كلنا في هذه الورطة. وسمعنا بعد ذلك إنه اشتغل بعمل أكبر دخلاً بكثير يتصل بتجارة التصدير والاستيراد.



كانت هناك بالطبع أشبه كثيرة مشتركة بين الجامعات المصرية والجامعة الأمريكية. كان من بينها ما لم يكن يخطر لى بالبال عندما كنت لا أزال شاباً غصاً عائداً لتوه من البعثة. كانت لا تزال لدى عندئذ فكرة مثالية أكثر من اللازم وغير واقعية بناتاً عن أستاذ الجامعة، أى جامعة، تتعلق بالاهتمام الحقيقي بالعلم، والانشغال المستمر بالقضايا الفكرية، بدرجة تفوق درجة اهتمامه وانشغاله بأى شىء آخر. قلما رأيت أساتذة الجامعة عن قرب وجدت أنهم، باستثناء قلة نادرة للعناية، على عكس هذا تماماً: رجال من لحم ودم، لهم تطلعاتهم المادية مثل غيرهم، وذوو أهواء ونحيزات صارخة تحكم آراءهم ومواقفهم. والذي وجدته أغرب من كل هذا أن صبرهم على أى مناقشة فكرية حقيقية ضئيل للغاية، وميلهم إلى قلب الأمور على أوجهها المتعددة ضعيف أو غير موجود أصلاً.

لقد تبينت مع مرور السنين، أن مدلول الكلمة الإنجليزية intellectual لا يتوافر

إلا في عدد قليل جداً من الناس، وتوافره بين أساتذة الجامعة، مصرية كانت أو أمريكية، ليس أكبر بالضرورة منه بين غيرهم، وأن الحصول على الشهادات العالية، كالذكوراه، من جامعات عظيمة، كهارفارد أو لندن أو أكسفورد أو باريس، لا يدل على أى شيء على الإطلاق فيما يتعلق بهذه الصفة. إن كلمة (intellectual) ليس لها في الحقيقة مقابل شائع باللغة العربية، فهي بالطبع لا تعنى التعلم ولا حتى المثقف، بل تشير إلى الانشغال المستمر، أو شبه المستمر، بأمر فكري، أو رؤية للمشكلة الفكرية وراء أى حدث أو ظاهرة من أحداث وظواهر الحياة اليومية (عما عُبّر عنه تعبيراً طريفاً كاتب إنجليزي كان يصف جورج أورويل، فقال عنه إنه لا يمكن أن يخرج المندبل من جيبه ليمسح أنفه، دون أن تخطر بباله المشاكل الأخلاقية التي تثيرها صناعة المناديل!). هذه الصفة هي التي راعتني تدرتها بين أساتذة الجامعة، مصرية كانت أو أمريكية، فإذا بي أجد لديهم نفس نفاذ الصبر، عندما تثار أى مشكلة ذات طابع فكري، الذي يمكن أن تجده عند أى مجموعة من الشباب صغار السن المشغولين بأى أمور صغيرة، أو عند رجال لا يعرفون القراءة والكتابة.



عندما جاءني خطاب من الجامعة الأمريكية أثناء وجودي في الولايات المتحدة في سنة ١٩٧٩ تعرض على العمل بها، ولم تكن لدى وقتها أية نية للعودة إلى العمل بالكويت، وكنت راغياً في العودة إلى مصر بعد انتهاء عملي كأستاذ زائر بـلوس أنجلوس، وجدت العرض ملائماً لي تماماً، وأرسلت باستقالتي إلى الكويت دون تردد على الإطلاق. خطر لي بالطبع خاطر يتعلق بأن الجامعة أمريكية وليست مصرية، وأن العمل بها قد يكون عملاً غير وطني. لم يكن من الواضح لي قط ما هو بالضبط الشيء «غير الوطني» في قيامي بالتدريس في الجامعة الأمريكية. لقد درست فيها سنوات عديدة قبل ذلك، أستاذاً لبعض الوقت أحياناً، ومتفرغاً في سنوات أخرى، ولم أشعر قط بأنني أقوم بعمل غير أخلاقي، أو أنني بذلك أنتكر لوطني وقومي. كانت الغالبية الساحقة من تلاميذ الجامعة الأمريكية مصريين مائة

بالمائة، ولمست لدى كثيرين منهم شعورا وطنيا قويا، بل لعل بعضهم كانوا يبدون لى أكثر قدرة على التعبير عن هذا الشعور الوطنى، من طلبة جامعة عين شمس مثلا، ربما لأن ما يتمتعون به من رخاء يسمح لهم بالانغماس، ولو بعض الوقت، فى رفاهية المشاعر الوطنية. كما أنى لم ألس قط من إدارة الجامعة الأمريكية تدخل فى النشاط السياسى للطلبة أكثر مما لمسته من إدارة جامعة عين شمس، بل كان من الواضح تماما لى أن الحكومة، ومعها إدارة الجامعات المصرية، أكثر حساسية بكثير لى بادرة احتجاج أو تمرد من طلبة هذه الجامعات منهم لسلوك الطلبة فى الجامعة الأمريكية، لسبب بسيط وبديهى وهو كثرة العدد فى الأولى وقتل فى الثانية. ثم إنى لم أشارك قط فى أى عمل إدارى فى الجامعة الأمريكية يعرضنى لاتخاذ مواقف قد تتعارض مع مشاعرى أو موقفى السياسى. لهذا لم أتوقف طويلا عند ذلك التساؤل عما إذا كان فى التدريس بالجامعة الأمريكية شبهة أى سلوك «غير وطنى».

كان يطوف بخاطرى أحيانا، وإن لم يكن بكثرة، تساؤل عن التدريس بالإنجليزية على الرغم من اعتقادى الأكيد بأن نهضة أى أمة تتطلب تدريس العلوم بلغتها القومية، وتساؤل عما لابد أن يترتب على الدراسة بالإنجليزية فى جامعة هى أمريكية فى نهاية الأمر، من إضعاف التمسك بمختلف مظاهر الثقافة الوطنية. ولكنى لم أكن أيضاً أتوقف طويلا عند هذا التساؤل أو ذاك، إذ كان من الواضح لى أن المرء يصادف يوميا أمثلة لا حصر لها على إهمال اللغة القومية والتكرار للثقافة الوطنية حتى فى مؤسساتنا التى يفترض فيها حماية هذه اللغة وهذه الثقافة، بحيث تبدو أى جريمة قد ترتكبها الجامعة الأمريكية فى هذا الصدد كقطرة فى محيط، أو كذرة صغيرة من الملح تلقى فى بحر مالح واسع، لا يمكن أن تزيده ملوحة. ثم شعرت بأن الخوايا المختلفة التى يفرها لى العمل بالجامعة الأمريكية، تحب فى الحقيقة أى عيب من العيوب التى ذكرتها حالا، وأن راحة البال التى أحصل عليها من العمل فى مكان كالجامعة الأمريكية تسمح لى بالقيام بأعمال، لخدمة وطنى وتلاميذى، قد تمنعنى منها ظروف العمل فى جامعة مصرية. كم سررت إذن عندما قرأت قولاً لذلك الكاتب الأثير لى (جورج أوروبل) يفسر به إرساله لابنه بالبنى لى مدرسة من المدارس الأرستقراطية والمسماة فى إنجلترا Public Schools، على

الرغم من ميوله الاشتراكية وكرامته للامتيازات الطبقية . قال أورويل تعليقاً على ذلك : (نعم أنا ضد نظام Public Schools ، وأؤيد إلغاءه ، ولكن طالما هو موجود سأظل أرسل ابني إلى مدرسة من هذه المدارس !). لقد فهمت هذا القول بمعنى تفضيل الواقعية الكاملة على الاستسلام للشعارات المجردة ، وبمعنى الاعتراف بأن قدرة المرء منا على أن يحدث بعمله المنفرد تغييراً مهماً في النظام السائد قدرة محدودة جداً ، وأنه قد تكون من الحماقة أن يضحي المرء بنفسه ، أو بمصالح شخصية مهمة له أو لأسرته ، في سبيل التمسك بمبدأ عام لا توجد أمامه فرصة جدية للتحقق في المدى المتطور .

ومع ذلك فقد اتخذت بعض الخطوات في الشهور الأولى التالية لبدء عملي في الجامعة الأمريكية كأستاذ متفرغ بها في ١٩٧٩ ، لتتحقق مما إذا كان هناك عمل آخر ملائم لي في مكان آخر «مصري مائة بالمائة» . فقابلت مدير مركز الدراسات الاجتماعية والجنائية (الدكتور أحمد خليفة) وسأله عن الفرص المتاحة لي للعمل في هذا المركز ، فلم أجد منه تشجيعاً ونصحني أن أبقى حيث أنا . ومألت عن حالة الجامعات الإقليمية وما إذا كان من المناسب أن أقدم بطلب العمل بها ، فكان ما سمعته عن ظروف العمل بها كافياً لصرف نظري عن ذلك . أما فكرة العودة إلى كليتي القديمة ، فحقوق عين شمس ، فقد بدت مستحيلة من البداية بسبب ما لا بد أن يترتب عن عودتي إليها من مزاحمة زملاء قدامى فيما يحققونه من دخل من كتبهم الجامعية . وهكذا انقضى العام بعد الآخر ، وأنا أدرس في الجامعة الأمريكية دون انقطاع إلا مرتين ، مستفيداً مما تتيحه هذه الجامعة كل ست سنوات ، من التفرغ للبحث لمدة سنة كاملة دون تخفيض في المرتب . كانت نتيجة التفرغ الأول كتابتي لكتاب «قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد علي إلى اليوم» ونتيجة التفرغ الثاني كتاب «كشف الأثمة عن نظريات التنمية الاقتصادية» .



باستثناء الستين اللتين قضيتهما بعد تخرجي مباشرة في وظيفة بإدارة الفتوى والشريعة بمجلس الدولة ، والنسبة الأربعة التي قضيتها في الكويت كمستشار

اقتصادي للصندوق الكويتي، كانت وظيفتي الوحيدة منذ تخرجت من التدريس في الجامعة. واعتقد الآن، كما كنت أعتقد دائما، أنني سعيد الحظ إذا اشتغلت بالعمل الذي يلائمني تماما. فأننا أكاد أن أكون قد ولدت مدرّسا، أعشق مرقف المدرّس عشقا، ولدي القدرة على تبسيط الفكرة المعقدة، وأجد متعة في توصيلها للآخرين. وبما أغبط نفسي عليه أنني على الأقل لم أجلب البؤس والمعاناة لتلاميذي، إذا حكمت على نفسي بناء على ما أسمعته من رأي تلاميذي في محاضراتي ومعاملتي لهم. أما فيما يتعلق بدرجة نجاحي في توسيع مداركهم وزيادة معلوماتهم فأننا أقل ثقة في نفسي، إذ كنت دائما أخرج من المحاضرة وأنا أشعر بأنها كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير، ولكن لعل هذا هو في حد ذاته دليل على الأداء الجيد في هذا الأمر أيضاً.

لقد مرّ على الآن أكثر من أربعين عاما منذ ألقيت أول محاضرة جامعية لي في كلية الحقوق بجامعة عين شمس (١٩٦٤)، فما أكثر إذن ما أقيت من محاضرات! درّست بالعربية والإنجليزية، لصبية لم يبلغوا العشرين، ولرجال ونساء باحجين يحضرون للماجستير، في جامعات مصرية وأمريكية، في مصر وفي الولايات المتحدة، كما كنت أحيانا ألقى المحاضرة في كلية حقوق عين شمس، ثم أذهب بعد انتهائها لإلقائها من جديد على طلبة كلية الشرطة، إذ كانوا يتقدمون لنفس الامتحانات ليصبحوا قانونيين وصباط شرطة في نفس الوقت. ما أكثر المحاضرات إذن التي أقيتها في جامعات مصرية، وكذلك في بعض الجامعات العربية كبغداد وصنعا، وما أكثر المحاضرات العامة التي أقيتها في داخل مصر وخارجها، في بيروت ودمشق والكويت وأبو ظبي وعمّان وتونس والجزائر، وفي خارج العالم العربي درّست في لوس أنجلوس، وأقيت محاضرات عامة في أكسفورد وطوكيو. وأستطيع بعد هذا أن أقول بكل ثقة «كم هي مهنة رائعة»!

أقول هذا بكل ثقة، ولكنني أعرف أيضا أنها ليست مهنة رائعة في نظر الجميع. إنني أعرف أشخاصا من أصدقائي ومن أفراد عائلتي ممن اعتبرهم أذكى مني بكثير، أو أوسع ثقافة، أو أكثر نشاطا وأعلى همة، ولكنهم لا يطبقون فكرة أن يشتغلوا ولو

يوما واحدا بالتدريس . بعض هؤلاء يرون في وظيفة التدريس تكرارا عملا لنفس الكلام عاما بعد عام دون إضافة تذكر . وبعضهم يفضلون توجيه طاقاتهم لمحاولة اكتشاف شيء جديد أو اكتساب معرفة جديدة ، على إضاعتها في محاولة توصيل معلومات معروفة أو نظريات مستقرة إلى آخرين ، أو إنهام تلاميذ صغار ، بعضهم لا يستحق أصلا بذل أى جهد معه . والبعض يفضل استخدام معرفته وعلمه في صنع شيء له نتائج عملية مباشرة ، كإنشاء مصنع أو إدارته أو استصلاح أرض ، على تدريس شروط الإدارة الناجحة لشركة صناعية أو شرح الأنواع المختلفة للتربة أو الطرق المختلفة للرعى . إلخ . لابد أن مثل هذا هو الذى كان يقصده الكاتب الأيرلندى الشهير برناردش في عبارته الساخرة من التدريس والمدرسين : « من يعرف كيف يقوم بعمل ما ، يقوم به بالفعل ، ومن لا يعرف ، يقوم بتدريسه » .

هناك بعض الصحة ، بلا شك ، في هذا القول ، ولكنه قاس أكثر من اللازم . فالمدرس ليس دائما شخصا فاشلا دفعه فشله إلى الاشتغال بالتدريس ، بل قد يكون دفعه إلى ذلك بعض الصفات الطيبة للغاية . كالتعاطف مع الآخرين ، والقدرة على فهم نوازعهم واهتماماتهم ، والحساسية لما يحزون سماعه وما يصيبهم بالملل . والشخص المفرط في خجله من الناس أو خوفه منهم ، أو المفرط في احساسية ، لا يمكنه فيما أظن أن يكون أستاذا ناجح . وكذلك الشخص الشرير بطبعه ، أو العاجز عن رؤية ما يضحك في موقف ما ، أو الذى يسعى تفسير ما يرسم على وجوه تلاميذه أو المستمعين إليه . إلخ . المدرس الناجح يحتاج إلى توافر صفات تقرب من صفات الممثل الناجح : لابد أن يهيم أن يحصل على إعجاب الناس وتصفيقهم ، وتسره بشدة رؤية وجوه المستمعين أو المتفرجين وقد علتها ابتسامة أو تعبيرات الدهشة أو الانفعال ، ناهيك بالطبع عن قوة الصوت ووضوح نبراته وبعض التفصاحة . لابد أن بعض هذه الصفات تتوافر في بدرجة معقولة ، وإلا ما ظلت راضيا عن نفسه ، بل وما استمر اشتغالي بالتدريس طوال هذه السنوات . ولكن لا شك أيضا أن جزءا من نجاحي كمدرس يرجع إلى توافر بعض القناص وأوجه الضعف . فقد كان دائما يهمنى رأى الناس في ويهمنى الحصول على تقديرهم أو إعجابهم ، بل ويبدو أنى كنت دائما أحتاج إلى ما يؤكد

لى هذا التقدير أو الإعجاب على فترات متقاربة . وإلا بدأت أفقد الثقة فى نفسى . فكان كل محاضرة جديدة كنت تعطينى هذه الفرصة ومن ثم أستعد لها تمام الاستعداد ، وأتخذ لها كل وسائل الحيلة وكأنى مقدم على معركة . لاشك أننى لم أكن قط شديد الثقة بنفسى ، وهو على الأرجح شعور ولدنمى ولم تغلظ ظروف أسرتى ونشأتى فى اقتلاعه . والذى يعانى من مثل هذا الشعور لابد أن يجد مصدراً مهماً للسوى والطمأنينة فى عمل كالتدريس أو التمثيل ، وأظن أن التدريس أدنى لى هذه المهمة بكفاءة عالية .

كان من الطبيعى أن أشعر بمرور مضاعف إذا لمست هذا الإعجاب أو التقدير فيما يرسم على وجوه تلميذاتى ، خاصة الجميلات منهن . لقد كان لدى أيضاً شعور دفين منذ سن مبكرة للغاية ، بأن من الصعب جداً أن تعجب بى فتاة أو امرأة . لا أدرى من أين جاء هذا الشعور اللعين الذى لم يفلح قط فى القضاء عليه أى دليل يأتينى على عكسه . ولكن ها هى وظيفة التدريس تعطينى بعض التعويض ، وإن كان تعويضاً بانساً للغاية ، عما حرمنى منه هذا الشعور تجاه المرأة . فكم تلقيت من تعبيرات الإعجاب والتقدير على وجوه تلميذات جميلات ، فى كل جامعة قمت بالتدريس فيها ، (باستثناء كلية الشرطة بالطبع حيث كنت . لهذا السبب بلا شك . أقل إقبالا على التدريس فيها منى فى غيرها) . وكم ظلت رؤية وجه جميل بظالبة معينة أو أخرى ، واستثارة تعبير الإعجاب منه ، حافزاً إضافياً لدى للذهاب بحماس لإلقاء المحاضرة . وقد اعترف لى مرة أستاذ مصرى كبير بأن شيئاً كهذا هو الشيء الوحيد الذى يجعله يطبق مهمة التدريس أصلاً . وقال لى أستاذى روبنز مرة ، فى حجرته بكلية لندن للاقتصاد ، إن الاشتغال بالتدريس به شبه بالزواج من امرأة دائمة الشباب . ولعله كان يقصد أن الأستاذ قد يستمر عاماً بعد آخر فى تدريس نفس المقرر لتلاميذ من نفس العمر ، فإدا به يجدد شبابه باستمرار من اتصاله المستمر بتلاميذ لا يشيخون أبداً . قد وجدت ملاحظته صحيحة ، ولكنى وجدت الملاحظة صحيحة بوجه خاص إذا كان بين التلاميذ بعض الفتيات الجميلات .

هذه الميزة المهمة التى كان يحققها لى التدريس ، وهى الحصول على إعجاب الناس وتقديرهم ، أو بالأحرى التصويت كل فترة وجيزة على تجديد الثقة بى ، ومن

ثم تجديد الثقة بنفسى ، لا بد أن كثيرين من احترفوا هذه المهنة يشتركون فيها معى ، ولكنها على أى حال ليست الميزة الوحيدة التى كسب أجدها فى وظيفة التدريس . كان هناك بالإضافة إلى ذلك الحرية الرائعة التى يتمتع بها الأستاذ أكثر من أى موظف آخر . إزاء مرءوسيه ، وهم الطلاب ، وإزاء رؤسائه ، وهم رؤساء الأقسام والعمداء ومديرو الجامعات . فمن المبادئ المستقرة وإن لم تكن مدونة ، أن الأستاذ حر فى اختيار ما يقوله لتلاميذه ، واختيار الطريقة التى يريد بها للتدريس ، وفى وضع ما شاء من امتحانات فى الوقت الذى يروق له ، وفى تحديد الكتب التى يطلب من التلاميذ قراءتها . . إلخ . هناك بالطبع حدود لكل هذه الأمور ولكنها حدود فضفاضة جداً وترك للأستاذ سلطاناً تصعب مقارنته بأى سلطان آخر . هكذا جرى تفسير مبدأ « الحرية الأكاديمية » حتى أصبح الأستاذ ملكاً غير متوج ، يرضى بإياه وشمم فرض أى قيد على حريته ، وأصبح من أصعب الأمور على الطلاب أن يتخلصوا من أستاذ سيئ ، إذ من يدرى ، ألا يجوز أن يكون أستاذاً عبقرياً يطبق طريقة فى التدريس لم يسمع بها أحد ، ولكنها أفضل فى الحقيقة من أى طريقة أخرى ، وقد يؤدى المساس بحريته إلى تعطيل إبداعه وقد المجتمع لثمار علمه ؟

ولكن وظيفة التدريس أتاحت لى أيضاً مزايا أخرى كانت ذات أهمية كبيرة لى . فقد وجدت أن أفضل طريقة لفهم المشكلة المعقدة أن يضطر المرء إلى تدريسها ، إذ إن الطلبة رقباء ممتازون على درجة فهم الأستاذ لما يقون ، وهذا يجبر الأستاذ ، ما لم يكن نصيباً ، على فعل المستحيل حتى يصبح قادراً على مواجهة أى سؤال لتوضيح ما يقوم بشرحه . والأساتذة الذين يتجرون على أن يتكلموا عن أشياء لا يحسنون فهمها صنف نادر ، والعادة أن يفضح أمرهم . تتصل بذلك ميزة أخرى هى الابتكار ، والاهتمام إلى أفكار جديدة . فالمحاولة المستمرة للتعمق فى الفهم استعداداً لمواجهة التلاميذ كثيراً ما تقود الأستاذ إلى أفكار جديدة قد يكون بعضها ذات قيمة . والحقيقة أننى صلين للتدريس بكثير من مقالاتى وكتبى ، فإذا كان بعضهم بعض النفع فهو بلا شك نافع فى الأصل من خوفى من أن أقول كلاماً غير مفهوم .

لكل هذا أعتبر نفسى سعيد الحظ ، إذ كانت الوظيفة التى أكسب منها رزقى تحلب

لى كل هذا القدر من السرور والرضا عن النفس . ولهذا الأسباب أيضاً ، أكثر من أى سبب مالى ، لم أفكر قط فى أن أستبدل بمهنة أخرى . حتى المرة الوحيدة التى تركت فيها التدريس للاشتغال بعمل آخر ، كمستشار للصندوق الكويتى ، كان فى ذهنى دائماً أنها تجربة مؤقتة لا يمكن أن تستمر طويلاً ، وهذا هو ما حدث بالفعل .



لم أصادف أثناء عملى فى الجامعة الأمريكية الكثير من المشاكل من النوع الذى يشير قضية «أخلاقية» . حدث مثلاً بعد شهور قليلة من بداية عملى بهذه أحامعة للمرة الثانية كأستاذ لكل الوقت فى أواخر السبعينات ، أن التحق بالجامعة ، كتلميذ فى السنة الأولى ، ابن شياه إيران . كانت الثورة الإسلامية فى إيران قد أطاحت بحكم الشاه وجاءت أسرته فى البداية للإقامة فى مصر خلال عهد السادات صديق الشاه الومى . وكانت الأسرة تعتقد أو تأمل أن تكون الثورة الإسلامية قصيرة العمر ، وأن تعود الأسرة إلى إيران فيجلس هذا الابن على عرش أبيه . خلال هذه الفترة لم نجد الأسرة مكاناً للابن أفضل من الجامعة الأمريكية بالقاهرة . وكان أحد الفصول التى انتحق بها الفصل الذى أدرس فيه مبادئ الاقتصاد . كان يحضر إلى الفصل محاطاً بحراسة مشددة ويظل الحراس واقفين خارج الفصل طوال المحاضرة ، وحتى يعودوا به إلى منزله . أذكر أنه حضر محاضراتى مرتين أو ثلاثاً ثم انقطع عن الحضور . وبعد بضعة أيام اتصل بي رئيس القسم ليقول لى أن رئيس الجامعة يرجو أن يكون من الممكن أن أذهب لإعطاء ابن الشاه دروس الاقتصاد فى منزله ، إذ إن ظروف الابن وصعوبة حراسته تجعل من غير المستحب خروجه يومياً إلى الجامعة . أخبرونى أيضاً بأن بقية الأساتذة الذين يدرسون له سوف يطلب منهم نفس الطلب . وأن بعضهم قد وافق بالفعل . واستغربت أن أسمع أن أستاذة أمريكية كبيرة فى العلوم السياسية قد وافقت على أن يذهب لإعطائه الدروس فى منزله ، كما لم تعارض زميلة مصرية . لم يطل تفكيرى فى الأمر وسرعان ما رفضت . طبعاً مرت بخاطرى صورة بعض السجاء الأيرانى وهو يصل إلى بيتى كهديفة ، أو شىء

ثمين آخر ، ولكنى اعتبرت المسألة واضحة كالشمس ، وأن الرفض هو الموقف الوحيد اللائق . بدت فى الأمر إهانة لا شك فيها للأستاذ ، وتذكرت القصة التى حكها لى د . عبد العظيم أنيس ، أستاذ الرياضيات الجليل ، عندما كان مكلفاً بوضع أسئلة الثانوية العامة فى الرياضيات فاقصه به مكتب رئيس الجمهورية ، وكان الرئيس فى ذلك الوقت أنور السادات ، ليطلب منه أن يعطى دروساً خصوصية فى الرياضيات ، لابن الرئيس . وكان الغرض بالطبع محاولة إغرائه بأن يساعد الولد على اجتياز الامتحان بتدريبه ، على نحو أو آخر ، على الإجابة على نفس الأسئلة التى سيضمونها الامتحان . فلما اعتذر د . عبد العظيم عن القيام بهذه المهمة شارحاً لهم السبب ، وهو أنه هو الذى يقوم بوضع الامتحان ، لم يروا بالطبع وجهة هذا العذر ، إذ إن هذا العذر بالضبط هو ما جعلهم يطلبون منه القيام بالمهمة . رشح لهم د . عبد العظيم أستاذاً آخر وامتنح قدراته وكفاءته ، فاضطروا لتظاهره بالموافقة ولكن انتهى الأمر بأن سيارة من رئاسة الجمهورية كانت تذهب لإحضار الأستاذ إلى منزل الرئيس ، يوماً بعد يوم ، ثم ترك الأستاذ ساعه أو أكثر فى حجرة الاستقبال ، يقدم له خلالها مشروب بعد آخر ، وتنتهى بأن يأتى شخص ليعتذر للأستاذ بأن التلميذ مشغول اليوم بحفلة عيد ميلاد مهمة أو بأى عذر طارئ آخر . تصورت الأستاذ المسكين ، أثناء عودته ذليلاً إلى منزله وحجم الندم الذى لا بد أن يكون قد شعر به إذ قل أن يقوم بهذه المهمة . ولم أستطع أن أنصرو أن أضع نفسى فى مثل هذا الموقف . لم يُلحَ على أحد فى القبول ، ولا أعرف ما إذا كان قد ذهب شخص آخر بدلاً منى أو لم يذهب ، ولكن لم تمض شهور قليلة حتى سمعنا أن أميرة الشاه قد تركت مصر بأمرها لتعيش فى مكان آخر .



ظل التدريس مصدرًا لـسـرورى وتجديد رضائى عن نفسى عاماً بعد عام ، ولا يصيبنى منه السأم . ولكنى لاحظت أننى فى محاضراتى أميل أكثر فأكثر ، مع تقدمى فى السن ، إلى التفور من الخوض فى التفاصيل ، ومن شرح نظريات وموضوعات كنت أعتبرها مهمة فى الماضى ، فأصبحت أعتبرها قليلة أو عديمة القيمة ، وإذا بى أشك فى قيمة تدريس كثير من النظريات المشهورة ، التى ربما استمدت فنتها من

أناقشتها ودقتها دون أن يكون لها أى قيمة عملية، فدراساتها ليست إذن أكثر من تمرين عقلى يمكن أن يحصل الطالب على نفس متفعته من أشياء أخرى قد لا تكون لها صلة بالعلم. لاحظت أيضاً زيادة اهتمامى بأن أذكر فى محاضراتى، أكثر فأكثر، الجوانب الشخصية للاقتصاديين الكبار الذين ندرس أفكارهم، كـ بعض المعلومات المدهشة عن تعليم جون ستوارت ميل وشخصية آييه، أو عن علاقة كينز ببعض الكتّاب المشهورين من أعضاء جماعة بلومزبرى، وحرص فرجينيا وولف على معرفة رأيها فى رواياتها، أو عن علاقة والد مالش بجان جاك روسو... الخ. الطلاب يحبون دائماً، بالطبع، أن يتطرق المحاضر إلى مثل هذه الأمور، ولكنى أصبحت أميل مع تقدمى فى السن إلى إعطائها أهمية أكبر من ذى قبل، بل وبدأت أشعر أن تأثير مثل هذه المعلومات فى النفس قد يكون أعمق وأكثر دواماً، وربما أيضاً أفضل وأجمل، من تأثير المعرفة بالنظريات العلمية نفسها.

قد يؤيد هذا أننى لا أزال أتذكر حتى الآن ما قد يكون قد قاله أستاذ قديم لى، فى إحدى محاضراته، عن شيء لا علاقة له بالعلم الذى كان يدرسه، ولكنه يتعلق بجانب إنسانى أو أخلاقى عام. ومنذ وقت قريب وقع بينى كتاب أستاذى القديم ليونيل روبرتس، الذى أشرف على دراستى للماجستير فى إنجلترا، عن تاريخ الفكر الاقتصادى، وهو كتاب استخرجه تلاميذه مباشرة من محاضراته أننى ألقاها بعد أن تجاوز سن الثمانين، وتعتمد اعتماداً كلياً تقريباً على تسجيلات هذه المحاضرات، مع الحرص على عدم إجراء أى تعديل مهم عليها. إلا ما كان منها ضرورياً تماماً لاستقامة المعنى أو استكمال الجملة. لفت نظرى أن هذا الكتاب (أو هذه المحاضرات) كان مليئاً بمثل هذه القصص والأخبار عن جوانب شخصية بحتة للاقتصاديين الذين يتكلم عنه، والتي تكشف عن جوانبهم الإنسانية، الصالح منها والطالح، أكثر مما تكشف عن مساهماتهم الفكرية. قلت لنفسى: «وما الذى تتوقعه غير ذلك؟ رجل يلقى محاضراته بعد أن تجاوز الثمانين، أى بعد أن اكتشف ما هو المهم فى الحقيقة وما هو غير المهم، فأنجبه أكثر فأكثر إلى الحديث فقط عما ينفذ الناس. ويمكث فى الأرض».

«ماذا حدث للمصريين؟»

في أعقاب توقيع أنور السادات الاتفاقية المعروفة باسم «اتفاقية السلام» مع إسرائيل في مارس ١٩٧٩ ، أصبحت كلمة «السلام» فجأة من أكثر الكلمات تداولاً في مصر ، فأصبح رئيس الجمهورية الذي وقع الاتفاقية يوصف بأنه «بطل السلام» ، وأحياناً «بطل الحرب والسلام» ، وأعلن عن أن ترعة جديدة ستشق لتوصيل مياه النيل إلى سيناء وأطلق عليها «ترعة السلام» ، وشاع استخدام «السلام» كاسم للمحلات والمطاعم والفنادق الجديدة . وكان لابد أن تمتد الظاهرة لتدخل في مقرراتنا التعليمية أيضاً .

ففي صيف ١٩٨٠ ، عادت ابنتي من امتحان الشهادة الابتدائية الذي جلس فيه أكثر من ٦٠٠ ألف تلميذ وتلميذة متوسط أعمارهم ١١ - ١٢ سنة ، ودخل معهم أكثر من نصف مليون أسرة مصرية تمثل أكثر من ٥٪ من مجموع الشعب المصري . وأصابني الدهور عندما قرأت ورقة امتحان اللغة العربية .

فالامتحان يتكون من عشرة أسئلة (بما في ذلك أسئلة الخط والإملاء) كانت أربعة منها تتعلق بالسلام . فـسؤال المحفوظات يبدأ بالعبارة الآتية «أشرقت يا يوم السلام» ، وسؤال النحو يطلب إعراب «أفرقت راية السلام» ، والفعل المضارع المطلوب استخراجُه من القطعة هو «يشيد العالم يحب مصر للسلام» ، والموضوع المختار من موضوعات القراءة المقررة يتكلم عن استرداد مصر لقناتها «نُشِبَت للعالم رغبته في السلام» . بل ولم يجدوا ضمو الامتحان في القرآن الكريم ما يطلب من التلاميذ شرحه إلا «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعرفوا» ، ولم يجدوا في السيرة النبوية إلا أن «مولد الرسول صلى الله عليه وسلم كان يوم السلام» .

استبد بي الغضب لدى قراءة ورقة الامتحان وجلست لكتابة مقال تساءلت فيه عن الدافع الذي يجعل المستحق يتصور أنه ليس هناك قيمة من القيم تستحق الاهتمام والفرس في نفوس التلاميذ غير تلك التي تتعلق بقضية سياسية، وعما إذا كان الدافع إلى اهتمام المتحنيين بها هو دافع آخر غير مدهاته الاحكام. وأرسلت المقال إلى جريدة الأهرام اليومية ولم أستغرب أنه لم ينشر. فقيع المقال في أحد أدراجي حتى حاولت مرة أخرى بعد نحو سنة ونصف، إذ أرسلته بالبريد العادي لمجلة «الأهرام الاقتصادي» التي كان يرأس تحريرها رجل شجاع ووطني هو د. لطفي عبد العظيم، وكم كان سروري عندما فوجئت برؤية المقال منشورا بالمجلة (في عدد ٢٥ يناير ١٩٨٢)، وعنوان المقال على غلافها. ولم أستغرب نشر المقال هذه المرة، إذ كان رئيس الجمهورية قد قُتل قبل نشر المقال بنحو أربعة أشهر، ولاسيباب ليست منبئة الصلة باتفاقية «السلام».

كما هي عادتي، لم أتأكد من أن المقال جيد إلا عندما قال لي بعض من قرأه إنه جيد، وكانت هذه بداية شعوري بأنني قد أكون أكثر من اقتصادي. كان هذا منذ ٢٤ عاماً، ولم أتوقف منذ ذلك الوقت عن الكتابة في الأمور العامة، وكأني عشت فجأة، عن طريق كتابة هذا المقال ونشره، على حرفتي الأصلية التي تنكرت لها منذ قررت دخول كلية الحقوق وأنا في السادسة عشرة من عمري. شجعني بالطبع على الاستمرار في كتابة هذه المقالات الاستقبال الجيد الذي حظيت به مقالاتي التي نشرتها بعد ذلك في مجلة الأهرام الاقتصادي ثم في جريدة الأهلالي، بعد عودة جرائد المعارضة التي أغلقها السادات إلى الظهور. كانت أفضل هذه المقالات، في رأيي، تلك التي تجمع بين الخاص العام، أي بين تجربة شخصية خاصة بي ومشكلة عامة ذات مغزى، تتعلق بأحوال مصر والمصريين. كان مقالتي عن أسئلة امتحان الابتدائية من هذا النوع، إذ جمعت فيه بين تجربة ابنتي الشخصية والفساد الذي ينطوي عليه إجبار التلاميذ على التعبير عن موقف سياسي خاطئ اتخذته الحكومة، كما كان من هذا النوع أيضاً مقال آخر لي بعنوان «المذكرات مثقف مصري عن وقائع تجديد رخصة سيارته»، احتوى على وصف مفصل، خطوة خطوة، لمعاناتي في تجديد رخصة سيارتي، وهي معاناة استمرت أربعة أيام كاملة انقطعت فيها تماماً عن

العمل للتفرغ لتجديد الرخصة، ولكنه يلخص أيضاً مشكلة عامة هي ما يعانيه المصريون جميعاً في تعاملهم مع البيروقراطية المصرية.

تبين لي بكتابة مقال بعد آخر من هذا النوع أن هذا هو أحب أنواع الكتابة لي، لا الكتابة في الاقتصاد ولا في السياسة ولا في أى موضوع آخر ما لم أستطع مزجه بتجربة خاصة لي. ثم تبينت أيضاً أن كتابة هذا النوع من المقالات هو في الحقيقة أكثر ما يجلب لي السرور على الإطلاق، أكتبه بلا عناء وباستغراق تام وبذلك النوع من السرور الذي يجلبه التعبير الحر عن النفس. كانت عملية الكتابة نفسها مصدر سرور يفوق ما تجلبه لي رؤية المقال منشوراً، بل يفوق ما يجلبه ثناء أسمع أو أقرأه على المقال. نعم كان هذا وذاك يسرّني بالطبع، ولكنه سرور قصير العمر سرعان ما يزول، أما السرور الذي يجلبه التفكير في موضوع المقال ووضع خطته ثم كتابته، فهو، كما تبينت، الأكثر حدوثاً والأطول عمراً.

مع تكرار تجربتي في الكتابة والنشر استقر في ذهني أن من الممكن بالفعل أن أصبح «كاتباً»، أي أن أحقق ذلك الأمل القديم الذي بدأ يراودني منذ مطلع الصبا، ولكنه كان حينئذ أقرب إلى حلم من أحلام اليقظة. وقد زادت ثقتي بذلك شيئاً فشيئاً بنشرى كتاباً بعد آخر في موضوعات غير اقتصادية، واستقبال بعض هذه الكتب استقبالا حسناً من القراء. ولكن الذي رسّخ هذه الثقة بنفسى ككاتب، هو النجاح الذي حققه كتاب «ماذا حدث للمصريين؟»، وهو نجاح، وإن كان قد جلب لي الكثير من الفرح، أثار لدى أيضاً الكثير من العيظ.

بدأت قصة هذا الكتاب في سنة ١٩٩٦ بطلب من صديقي مصطفى نبيل، عندما كان رئيساً لتحرير مجلة الهلال الشهرية، بأن أساهم بمقال في ملف بعنوان «ماذا حدث للمصريين؟» دلى فيه عدد من كتاب الهلال، كل بدلو، في الإجابة عن هذا السؤال من أى زاوية يشاء، إذ قدرت المجلة أننا، ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، يجدر بنا أن نتأمل ما طرأ على الحياة الاجتماعية في مصر من تغيرات، وأن يحاسب المصريون أنفسهم على ما ارتكبوه من أخطاء، على أمل أن يبدأوا صفحة جديدة في القرن الجديد يحققون فيها ما فشلوا في تحقيقه من قبل.

وقد رحبت بالمساهمة، واخترت أن أكتب عما طرا على مركز المرأة في مصر من تغير خلال الخمسين عاما الماضية، من خلال ما حدث من تطورات لمستها من خبرتي أما الشخصية، فقارنت بين مركز ثلاثة أجيال من النساء في أسرتي: جيل أمي، وجيل أختي، وجيل ابنتي. وحاولت، من جديد، أن أفهم الخاص من خلال العام، والعام من خلال الخاص، إذ مزجت بين تجربة أسرتي الخاصة وتجربة المجتمع المصري بصفة عامة، ووجدتهما، كما توقعت متطابقتين. وقد شجعني هذا، كما شجعتني أهمية الموضوع، على أن أتناول ناحية بعد أخرى من المجتمع المصري، فأتبع تطوره في الخمسين عاما الماضية هي عمر وعي وإدراكي لما يحدث من حولي. فكانت حصيلة هذا الفصول التي تكون منها كتاب «ماذا حدث للمصريين؟».

وقد نجح الكتاب مع القراء نجاحا باهرا جعل نسخ الطبعة الأولى التي نشرتها دار الهلال في يناير ١٩٩٨، تنفذ في أقل من عام، مما دفع مكتبة الأسرة إلى إصدار طبعة جديدة في العام التالي (قيل لي إنها من خمسين ألف نسخة) ونفذت أيضا في نحو عامين، ثم صدرت بعد ذلك طبعتان أخريان بالعربية، وترجمه قسم النشر بالجامعة الأمريكية فصدرت طبعة إنجليزية في سنة ٢٠٠٠ أعيد طبعها تسع مرات.

كنت أستطيع أن أخمن لماذا نجح هذا الكتاب مع القراء أكثر بكثير مما نجح غيره، ومع هذا فقد كنت أشعر بالغيب عندما كان يحدث أن يقابلني شخص، بعد صدور الكتاب بعدة سنوات نشرت خلالها عدة كتب أخرى لا بأس بها، فإذا به يقول لي «أهتاك على كتابك»، وأظن لوهلة أنه يقصد كتابي الأخير فإذا به يقصد بالطبع «ماذا حدث للمصريين؟». تذكرت الغيب الذي كن يشعر به بحس حقي عندما لا يذكر أحد اسمه إلا مقترنا بقصة «فندي أم هاشم»، على الرغم من أنه نشر عشرات القصص والروايات بعدها، وكان هو يعتبر أن أفضلها جميعا ورواية أخرى هي «صبح النوم». وتذكرت أيضا الكاتب الأثير لدى (ألفريد إير) A.J. Ayer، الذي نشر وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره كتابا صغيرا اسمه «اللغة والحقيقة والمنطق» (Language, Truth and Logic) لخص فيه بوضوح وسلاسة مدعشة فلسفة الوضعية المنطقية، فظل حتى آخر أيامه لا يذكر اسمه إلا مقترنا بذلك الكتاب، وكان هذا يغضبه بدوره إذ كان يعتقد أنه نشر بعد هذا الكتاب كتابا أفضل منه بكثير.

لاحظت أن هذا الكتاب (ماذا حدث للمصريين؟) يمزج أيضاً بين وصف تجارب شخصية لى وتجارب المجتمع المصرى ككل، فقلت لنفسي: «أليست هذه السمة هى أيضاً التى تلاحظها فى كتابات أحب الكُتّاب الإنجليز إلىّ، وهو جورج أورويل، الذى كان يكتب وكأنه يتكلم، ولا يجد أى غضاضة فى مقالاته من التطرق من الحديث عن موضوع عام بالغ الأهمية، إلى حديث عن تجربة شخصية له، أو العكس؟ أو أليست هذه السمة من بين ما حجب الرجل إلىّ؟ ثم أليست هذه أيضاً سمة لكتابات واحد من أحب الكُتّاب السياسيين المصريين إلىّ وهو أحمد بهاء الدين، الذى كان بدوره يكتب وكأنه يتكلم، وكان كلامه، الممتع دائماً، مليئاً بالقصص الواقعية الصغيرة التى مرّت به وعابنها بنفسه، ولكنها كانت دائماً قصصاً ذات مغزى عام ولا تكون تافهة أبداً؟».



فى سنة ١٩٩٠ حدث اعتداء طبع على بعض الأقباط فى مدينة أبو قرقاص بالصعيد، وأثر الحادث فى نفسى تأثيراً بالغاً، فكتب مقالاً شديد اللهجة أعبر فيه عن مشاعرى إزاءه. وقد سررت جداً برد الفعل الذى أحدثه مقالى فى الدفاع عن الأقباط واستهجان الاعتداء عليهم وسكوت الدولة على ذلك، وخاصة بين الأقباط الذين رحّبوا بالمقال ترحيباً شديداً وطبع بعضهم نسخاً جديدة من المقال وقاموا بتوزيعها. واتصل بى كثيرون منهم، ومن المسلمين كذلك، للتعبير عن تقديرهم للمقال. وكان سرورى شديداً على الأخص بمكالمة تلقيتها من يوسف إدريس قال لى فيها إن فى المقال «شجاعة وحكمة ومهابة». وكانت هذه إحدى مرتين كلمنى فيهما يوسف إدريس تليفونيا، كان فى المرة الأولى يشكرنى على مقال كتبه بعنوان «عصر التشكيك فى البديهيات» ونشرته جريدة الأهرام فى أوائل الثمانينات، دافعت فيه عن يوسف إدريس ضد الهجوم العاتى الذى تعرض له، بما فى ذلك هجوم على من الرئيس مبارك فى إحدى خطبه، لمجرد أن يوسف إدريس تجرأ ونشر وطبع مقالات فى جريدة خليجية ينتقد فيها الرئيس السادات ودوره فى حرب ١٩٧٣. وأذكر أنى فى ذلك المقال رددت على من قال إن يوسف إدريس بذلك

يسىء إلى سمعة مصر، يقول إن سمعة مصر هي سمعة يوسف إدريس نفسه باعتبار أنه أكبر كاتب قصة قصيرة عرفه العالم العربي. وقد سرّ المقال يوسف إدريس إلى درجة جعلته يضم مقالي كاملاً إلى أحد كتبه (فكر الفقر وفقر الفكر) مع إشارة طيبة إلى.



كنت أيضاً بحماس شديد في الدفاع عن أحمد بهاء الدين ضد هجوم في غاية المخافة من ثروت أباطة، عندما دافع بهاء الدين عن القطاع العام فقال ثروت أباطة إن دواسه في كلية الحقوق تؤدي إلى القول بغير ذلك وإنه كان الأجدر بهاء، ما دام قد درس هو أيضاً في كلية الحقوق، أن يدرك ذلك. وقد كان شعوري نحو ثروت أباطة، منذ وقت طويل، شعوراً سلبياً، بدأ منذ كان أبي يتلقى منه مكالمات تليفونية، عندما كان ثروت أباطة لا يزال شاباً صغيراً، ويستغرب أبي جرأته عليه، وعلى غيره من كبار الكتّاب، اعتماداً على ما لأبيه، دسوقي باشا أباطة، من ثروة وجاه. كان من الواضح تماماً لي أنه رجل قليل الموهبة، يظن مع ذلك أنه أديب موهوب، ولكنه يتسم، فضلاً عن ذلك، بجرأة مدعشة وإصرار غريب على الحصول على كل ما يرغب فيه. وقد فتحت له هاتان الصفتان، الغرور مع الجرأة، أبواباً كثيرة ما كانت لتفتح لشخص غيره له نفس هذا القدر الضئيل من الموهبة. هكذا استمر ثروت أباطة يكتب وينشر، ويحتل مناصب لا يستحقها، ويتبع له سلطات أعلى من كثيرين ممن هم أكثر وأكبر موهبة منه بكثير. ودعمه للأسف بعض كبار الكتّاب، كتوفيق الحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ، فأرضوا غروره ولم يكبحوا جماح طموحه: إما طمعاً في مكسب صغير من ورائه، أو اتقاء لشربه، أو طلباً للهدوء والسلامة. لهذا أصابه مقال الأول ضده، بدهشة وغضب شديد، رغم أنه كان قد نشر في مجلة محدودة التوزيع (الأهرام الاقتصادية)، وإذا به يرد على مقال عنيف في صحيفة الأهرام اليومية، ذكر فيه أنه لولا أنني ابن أحمد أمين لعرف كيف يؤدبني.

ثم عدت إلى الهجوم عليه مرتين بعد ذلك أثناء حياته. مرة عندما قرأت بعض

حلقات سيرته الذاتية التي كانت تنشر في الأهرام اليومي، فراعته تضاعفتها وسخاقتها، ومرة عندما تسبب في سجن صحفي شاب وموهوب (جمال فهمي) بتهمة السب والقذف، عندما كتب مقالا يذكر فيه بعض الوقائع عن دور أبيه السياسي.

كنت دائما مطمئنا إلى صواب موقفى من ثروت أباطة، رغم انى لم أكن قد قرأت له حتى ذلك الوقت من الروايات أو القصص إلا رواية واحدة لم أستطع إتمامها. كنت أستغرب دائما تضاعف ما ينشره من مقالات سياسية، وسماع أهم صحيفة يومية في مصر بنشر ما يكتبه، وإشارتها المستمرة له على أنه «الكتاب الكبير»، وقربه من السلطة السياسية، وتمتعه بحق الكلام باستمرار في لقاء رئيس الجمهورية السنوي بالأدباء والكتاب. كان ثروت أباطة في نظرى، فهذا السب، ظاهرة في حد ذاتها يصعب العثور على مثل لها، إذ يندر أن تجتمع هذه الصفات في شخص واحد: قلة أو انعدام الموهبة، مع الشهرة والوجود الدائم في وسائل الإعلام باعتباره أدبيا كبيرا، وتقريب السلطة السياسية له مع شدة حماقته السياسية. فلما توفى في سنة ٢٠٠٦ دهشت مرة أخرى لمقدار التمجيل والاهتمام اللذين أحيط بهما خبر وفاته، ولحجم النشأ الذي أعقدفه عليه بعض الكتاب الكبار من بينهم نجيب محفوظ. صحيح أن الأمر لم يستمر أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، ونسى الرجل بعدها أو كاد ينسى نسيانا تاما، ولكنى ظلت مندهشا من أن يصل تدهور المناخ الثقافي (والسياسي) في مصر إلى هذا المستوى. شعرت حينئذ بشعور مماثل لما أشعر به عادة عندما أحس بأن ظلما كبيرا قد وقع ويحتاج إلى كشفه وإزالته، فأظلم أشعر بالقلق ولا يهدأ لى بال حتى أعبر كتابة عما أشعر به وأحاول تفسيره وشرحه. صممت على كتابة مقال طويل عن ظاهرة ثروت أباطة، ولكن الأمر كان يقتضى قراءة بعض رواياته، خاصة المشهور منها مثل «شيء من الخوف» و«هارب من الأيام»، فرحت أبحث عنهما حتى وجدت مجلدا يضمهما وأعمالا أخرى له مع مقدمة طويلة كتبها رجل مخمور عرفت فيما بعد أنه كان يتقرب بهذا المجلد إلى ثروت أباطة ويخطب وده. قرأت الروايتين والمقدمة الطويلة فلم أجد أى شيء يثبني عن عزمى أو يغير رأى فى الرجل وأدبه. نصحنى البعض بالآ أنشر المقالة

إلا بعد مرور الأربعين يوماً على وفاته ، فاتصعت لهذه الصبحة ، ولكنها نشرت بعد ذلك مباشرة فى جريدة معارضة ، فإذا بى أقرأ رداً عنيفاً عليها موقعا باسم أرملة ثروت أباطة ، ونساءلت فى ردها عما يمكن أن يكون «قد حدث للمصريين» حتى أكتب مثل هذا الكلام عن زوجها الراحل ، الذى اعترف بأدبه الجميع وعلى رأسهم : طه حسين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم . وقال لى رئيس تحرير الجريدة التى نشرت مقالى إن رئيس مجلس الشورى الذى كان ثروت أباطة وكيلا له ، قد اتصل بنفسه ليحتج على مقالى وحذر الجريدة من انعقاب إذا لم تقم بنشر رد أرملة الفقيه . ولكن المدهش فى الأمر أنه باستثناء هذا الرد لم أصادف أى رد أو تنفيد لما كتبتة فى أى صحيفة أو مجلة ، وكأن الرجل بموته قد فقد فجأة كل من كان يقف إلى جانبه وينتق على أدبه . وهذا السكوت المطبق والمفاجئ ، بعد كل ذلك الضجيج من الثناء والمدح ، يؤكد نفس التحليل الذى كنت وصلت إليه لظاهرة ثروت أباطة ، ولكنه يؤكد أيضاً مدى التدهور الذى وصلت إليه الحالة الثقافية (والسياسية) فى مصر .



نفس المشاعر التى قادتنى إلى كتابة دفاعى عن أحمد بهاء الدين ، والهجوم على ثروت أباطة ، هى التى قادتنى إلى كتابة نقد شديد لرجاء النقاش رداً على مقال له يكيل فيه الثناء على الرئيس حسنى مبارك بسبب أفضاله على الثقافة المصرية والمثقفين ، ومن بين هذه الأفضال ، حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ، إذ لم يكن ليحصل عليها ، فى رأى رجاء النقاش ، لولا الرئيس مبارك . ضايقت أيضاً بشدة ما حصلت عليه رواية «الخبز الحافى» للكاتب المغربى محمد شكرى ، والفضجة التى أثارها أستاذة بالجامعة الأمريكية كانت تقوم بتدريسها للطلبة ، عندما رأى رئيس الجامعة بحق أن ما فى الرواية من بداءات يجعلها غير صالحة للتدريس ، وكان قد أعطاها لزوجته الأمريكية لإبداء رأيها فيما يعترض اتخاذها من قرار بمنعها ، فكان رأيها أنها هى أيضاً كانت مستنمعة أولادها من قراءتها إذا رأتها بأيديهم . ضايقت الدفاع عن مثل هذا باسم حرية الرأى ، وعبرت عنها فى مقال طويل قارنت فيه بين هذه الرواية ورواية الطيب صالح البديعة «موسم الهجرة إلى الشمال» التى

أراد البعض منع تدريسيها، بل ومنع تداولها بالفعل في السودان بزعم أنها تتناول العلاقات الجنسية بصراحة غير مبررة. وقلت في مقالتي إن تناول الطيب صالح للجنس مختلف جداً عن تناوله عند محمد شكري، والابتدال غير موجود عند الأول ولكنه موجود عند الثاني.

كتبت أيضاً عن سخطي على فيلمي يوسف شاهين «المهاجر» و«المصري»، وعلى كتاب السيرة الذاتية ليحيى الجمل «قصة حياة عادية»، بل وعن سخطي على كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي»، وكل هذه أمثلة يجمع بينها، فيما أظن، شيوع الثناء على شخص أو عمل وإصرار الكتاب على تمجيدته وتعظيمه، بينما أعتقد أننا أن العكس بالضبط هو الموقف الصحيح. وكان من الطبيعي أن يجلب هذا الموقف من جانب السخط والغضب من جانب المضارين منه، ولكن كان سر عان ما يطمئني العدد الكبير من القراء الذين يؤكدون لي أنني عبرت بالضبط عما يدور في أذهانهم منذ فترة طويلة. جاءني هذا التأكيد من بعض من كانوا يعملون مع يوسف شاهين في فيلم المهاجر، ومن كاتب شهير قال لي عندما انتقدت كتاب طه حسين إنه كان يريد أن يقول نفس الشيء منذ وقت طويل ولم يجرق على قوله. واتصلت بي صحفيتان شابتان في صباح يوم ظهور مقالتي عن رجاء النقاش، لتعبرا في نفس الكلمة عن فرحهما بأن يجدا - أخيراً - أحداً يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام. وأخذ آخرون يحكون لي ما لم أكن أعرفه من قصص عاشوها شخصياً مع بعض من انتقدت وتؤكد نفس النتيجة التي وصلت إليها عنهم. أما ثروت أباطة فالإجماع على السخط والدهشة مما حققه من نجاح وشهرة دون استحقاق، كان معروف من قبل أن أكتب عنه بكثير، وإنما جاءت مقالاتي عنه لتسجيل ما كان يشعر به كل المثقفين المصريين باستثناء واحد، ربما، هو نجيب محفوظ، الذي أصر على أن يستمر على ولانه لصديقه. ولكن كثيراً من مواقف نجيب محفوظ الاجتماعية والسياسية، ظلت دائماً لغزاً محيراً للجميع.

«التراثيون الجدد»

فى كتاب «حياتى» وصف أبى البيت الذى نشأ فيه بقوله إنك إذا فتحت بابيه «شممت منه رائحة الدين ساطعة زاكية». أما أنا فلا أستطيع بالمرة أن أقول إن هذا الوصف ينطبق على البيت الذى نشأت فيه. فأبى على الرغم من نشأته هذه، وشدة تدين أبيه وأمه، ونوع التعليم الذى تلقاه فى صباه وشبابه، ورغم أن أهم كتاباته كانت تدور حول الإسلام، لم يكن متدينا بمعظم المعانى الشائعة اليوم. إنى لا أنذكر مثلاً أنى رأيت أبى وهو يصلى، ولا أذكر أنى رأيته وهو يقرأ فى المصحف. إنى أتذكر اعتذاره عن الصوم بسبب مرض أو آخر كان يفرض عليه نظاماً معيناً فى الأكل، أو بسبب التدخين، ولكنى لا أتذكره وهو ينتظر حلول المغرب ليتناول إنطاره فى رمضان. لاشك أن للأمـر علاقة بأنى أصغر أولاده، وربما كان إخوتى الذين عاصروه فى فترات أخرى من عمره، يذكرون أشياء أخرى. ولكنى أقول فقط ما رأيته بنفسى وما لم أره. إن هذا لا ينفى ما كان ينحلى به أبى من صفات قريبة من التصوف، كما لا يتعارض مع ما أتذكره من أقواله الكثيرة التى تنم عن إيمان عميق بالله. من الذكريات الملتصقة بقوة فى ذهنى ركوننا معه فى قارب شراعى فى النيل فى إحدى ليالى الصيف فى رأس البر، وكانت هى ليلة القدر، وإذا به يطلب منا أن نردد وراءه دعاء طويلاً إلى الله، يقول منه جملة، وتقولها بعده، ثم ينتقل إلى ما بعدها. كان هذا فى أوائل الأربعينات، فلا بد أنى كنت فى السابعة أو الثامنة. وأنا أتذكر هذا الآن مرتبطاً بشعور من السعادة لا بد أن كان من أسبابه ما يشعر به صبى فى مثل هذه السن عندما يرى العائلة كلها تقوم بعمل مشترك، ويسيطر عليها أثناء شعور بالحبـة والوفاء. وعلى أى حال فإنى لا

بخامسنى أى شك فى أن أبى كان يعلق على أخلاق المسلم أهمية أكبر مما يعلقه على شعائر الدين . لدى ألف دليل على هذا من أقواله وتصرفاته وكتاباتة .

أما أمى فلم تكن أكثر تدينا من أبى . كانت تكره مثل أبى أن تسمع أى قول ينم عن أى شبهة كفر بالله ، ولا يمكن أن تدع مثل هذا يبرّ دون أن تعترض . ولكننى لا أتذكر أداءها للصلاة أو صوم ، ولا هى أدت فريضة الحج أو عبرت عن رغبة شديدة فى أدائها . وما أكثر ما كانت تستخدم عبارة «إنما الأعمال بالنيات» لئلا يفسر ما فى أداء شعائر الدين .

كيف يمكن ، والحال كذلك ، أن تفوح رائحة الدين من بيتنا كما كان الحال فى البيت الذى نشأ فيه أبى ؟ بل الراجح أن هذا الموقف من جانب أبى وأمى قد ترك فى كلنا ، نحن الإخوة ، الذكور والإناث ، أثرا دائما لم نحمه الأيام . فلا أذكر أن أحدا منا نحن الإخوة قد واطب على أداء شعائر الدين لفترة طويلة من حياته . كان هناك الميل المعروف إلى التدين فى فترة من فترات الصبا وبداية الشباب ، وهو ما أذكر أنه سيطر علىّ سنة أو سنتين ، كما أذكر نفس الشيء فيما يتعلق بإخوتى الذين وعيت هذه الفترة من حياتهم ، أما بقية الإخوة فلا يقترون أى منهم فى ذهنى بأى مشاعر دينية قوية أو حرص على أداء شعائر الدين بانتظام .

لم يتخذ أى منا قط أى موقف عدائى من الدين ، لا جهرا ولا سرا ، ولكن كان هناك بلا شك نوع من قلة الاهتمام بما إذا كانت شعائر الدين تؤدي كاملة أو ناقصة ، ولا أذكر أن أبى أو أمى اتخذا أى موقف يحاول به إعادتنا إلى حظيرة الدين .

من القصص المشهورة فى أسرتنا أن أختى نعيمة ذهبت مرة إلى أحد رجال الدين الصالحين ، وكانت تعاني من ضائقة مالية لقلة ما كان يحققه زوجها من دخل لا نسب إلا فرط قناعته وقلة طموحه ، وسألته : «لماذا يفتّر الله علىّ وعلى زوجى فى الرزق ، بينما يوسع على بقية إخوتى فيه ، رغم أنى أنا وزوجى أكثر تدينا منهم جميعا؟» . روت لنا أختى نعيمة بنفسها هذه القصة ، كما أخبرتنا أن الشيخ أجابها «بأن الله يمتحننا» .

مرت أعوام كثيرة إذن قبل أن يشير الدين أية مشكلة لدىّ ، ولم يبدأ الدين فى

إثارة بعض المشاكل في ذهني إلا وقد دربت الأربعين من عمري . قبل ذلك لم يثر اعتناقى لمبادئ حزب البعث وأنا في نحو العشرين من عمري أى مشاكل تتعلق بالدين ، ولا حتى تحوّل ولانى من البعث إلى الماركسية بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات ، ولا تحوّل عن الماركسية وأنا في نحو السابعة والعشرين إلى الإعجاب والحماس لأفكار الوضعية المنطقية التى تتخذ من الدين موقفاً سلبياً جداً ، ولا زواجى بإنجليزية مسيحية وقد قاربت الثلاثين . كان المفروض أن تثور بعض التساؤلات المتعلقة بالدين بسبب كل من هذه التطورات ، بل إن كثيرين من الناس يصيبهم همٌّ وقتئذ شديدان بسبب تعارض مواقفهم من الدين مع مثل هذه التطورات . ولكن الأمر بالنسبة لى كان هادئاً جداً وبسيطاً للغاية . لم تكن أفكار حزب البعث تمسّ الدين ممّا مباشراً ، ولم يكن أعضاء الحزب وأصدقاه يعلقون أية أهمية على أن صاحب فكرة البعث ورئيس الحزب (ميشيل عفلق) مسيحي . ويحب أن أذكر أننى لم أعتبر قط كون ميشيل عفلق مسيحياً أمراً ذا أهمية على الإطلاق ، بل لم يثر انتباهى أصلاً ولا أثار أى تساؤل لى . ولم يكن حزب البعث يطلب من ينضم إليه إلا أن يكون مقتنعاً بالقومية العربية والوحدة ، ومتعاطفاً مع الاشتراكية ، مهما كانت درجة تدينه . وكان لميشيل عفلق محاضرة بدعية ، ألقاها في الأربعينات في يوم الاحتمال بالمولد النبوى ، وطبعت مراراً تحت عنوان «فى ذكرى الرسول العربى» كانت كافية لإقتناعنا بسهولة بأنه ليس ثمة تعارض ألبتة بين الولاء للعروة والولاء للإسلام .

أما حماسى للماركسية وقبولى لأفكار المادية الجدلية ، فقد مرّ أيضاً بسلام دون أن يعكرا على صفو الحياة . فقد بذالى وقتها أن أولوية المادة على الفكر أمر يكاد أن يكون بديهياً . أما إقدامى على الزواج من إنجليزية مسيحية فلم يسبقه أى تردد يذكر ، وإذا كانت قد ثارت فى ذهني بعض التساؤلات لأيام قليلة قبل أن أتخذ القرار بالزواج ، فإن هذه التساؤلات لم تكن تتعلق باختلاف الدين ، وإنما كان بعضها يتعلق باختلاف الجنسية ، وبعضها باختلاف الطباع . بل يجب أن أذكر أيضاً أن اختلاف دينها عن دينى لم يطف بخاطرى قط طوال فترة زواجنا ، ولا سبب لأى منا أى مشكلة فى أى وقت من الأوقات .

ربما كان الشخص الوحيد الذى طاف بذهنه بعض الشك فيما إذا كان من الملائم أن يتم هذا الزواج بين مسلم ومسيحية، هو أم زوجتى التى رأت من المناسب، وإن لم تكن هى نفسها متدبنة، أن تذكر الأمر للقسيس فى الكنيسة التى تذهب إليها مرة أو مرتين فى السنة، ولعلها كانت قد سمعت أن المسلم له حق الزواج من أربع نساء، وحفلها البعض من احتمال أن يكون لدى بالفعل زوجة أو أكثر تركتهن فى مصر قبل قدومى إلى إنجلترا، وأنى الآن أخيف إيهن الثالثة أو الرابعة. فذهبت أم زوجتى إلى هذا القسيس لتستوضحه بعض الأمور، فقال لها إنه قد يكون من المفيد أن يقابلنى قبل أن يتم الزواج. ولم أر بأسا من أن أذهب لمقابلته مع خطيبتى الإنجليزية، بل كنا نرى الأمر كله مسليا للغاية، ولا يتطوى على أى شىء جدى، أو على أى خطر يهدد مستقبلنا، وهو ما لابد أن يتوقع من شابين وقعا فى الحب حديثا وتفاهما على الزواج. وقد وجدنا القسيس رجلا ودودا ولطيفا، وإن كانت قد أصابته صدمة هائلة لم يكن يتوقعها عندما تلقى إجابتى عن سؤال وجهه إلى يتعلق بمعتقداتى الدينية. إذ جاءت إجابتى تعبر عن حماسى لفلسفة الوضعية المنطقية، وهى تعتبر فى نظر رجل مثله أفضح وأبعد عن معتقداته من الإسلام. ومن ثم أنهى الرجل المقابلة بسرعة ولم ير فى أى أمل يرجى.

إن حدث التحول فى موقفى من الدين لأسباب غير مألوفة أو متوقعة، وذلك فى أوائل السبعينات عندما كنت أقرب من سن الأربعين. كنت فى ذلك الوقت أزور إنجلترا على فترات متقاربة، بل كان يندر أن يحل صيف دون أن أقضى شهرا أو أكثر فى بيت والدى زوجتى فى فيليكستو (Felixstowe) وهى بلدة صغيرة على البحر فى الشمال الشرقى من لندن. وقد أتاح لى هذا أن أرى التغير الذى لحق بنمط الحياة فى إنجلترا، وفى الغرب عموما، عما بعد عام، منذ أن أقمت دراستى هناك فى منتصف الستينات. كان الغرب فى تلك السنوات يذوق طعم حياة الرفه على نحو لم يعرفه فى أى وقت فى الماضى. وكان ما أسماه الاقتصادى الأمريكى جون جالبريث «مجتمع الرخاء» (The Affluent Society) يتضح عاما بعد آخر على نحو لا يمكن أن تخطئه العين. كانت احياة اليومية التى عرفتھا فى الغرب فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات لا تزال تحمل كثيرا من بقايا مجتمع التشف اندى

اتسمت به سنوات إعادة بناء ما دمرته الحرب . أما الآن فقد سمح بتحقيق العمالة الكاملة ، وقيام الدولة ، فى ظل ما عرف بـ «نظام دولة الرفاهية» (Welfare State) ، بإتاحة الخدمات الضرورية للناس بلا مقابل أو بأسعار زهيدة للغاية ، مع ما تحقق من تقدم تكنولوجى سريع ومعدل غير مسبوق فى النمو الاقتصادى ، سمح كل ذلك بظهور ونمو ما أطلق عليه «المجتمع الاستهلاكى» ، حيث شاعت قيم تدور حول الانهماك فى إشباع النهم إلى الاستهلاك ، وتحول الكمالى إلى ضرورى ، وتسابق الناس وتنافسوا فى اقتناء المزيد والجديد من السلع والخدمات ، مع الانتشار التدريجى للإباحية فى العلاقات بين الجنسين ، أو حتى بين أفراد الجنس الواحد ، وأصبح كل هذا مقبولا ، بل أصبح غير المقبول هو الاحتجاج على أى من هذا ، وكان المرء الذى يحتج عليه يتدخل فى حريات الفرد الشخصية التى أصبحت تعامل معاملة المقدسات .

لم يعجبنى ما رأيت . وبدأ يعتربنى الشك . الذى أصبح يزداد قوة يوماً بعد يوم ، بل ويتحول شيئاً فشيئاً إلى يقين ، فى أن ما نسميه «الحضارة الغربية» قد يكون «غريباً» أكثر من كونه «حضارة» . لم أفقد بالطبع احترامى لما أدته هذه الحضارة من خدمات جليلة للبشرية كلها ، فى الغرب والشرق ، وفى الشمال والجنوب على السواء ، ولكن الذى بدأت أفقد الثقة فيه هو الاعتقاد بأن كل ما يقعله الغرب يمثل بالضرورة «تقدماً» للبشرية . بعبارة أخرى ، بدأت أنظر إلى مخط الحياة الغربى مثلما ينظر عالم الأثروبولوجيا للمقاييل غير المتحضرة فى إفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية ، فأخذت ألاحظ فى الحياة اليومية فى الغرب دليلاً جديداً فى كل يوم على «خصوصية» مخط الحياة الغربية ، مما لم أجد أى مبرر لإلزام المجتمعات الأخرى به ، أى إلزامهم بالاعتقاد بأن الطريق الذى يقطعه الغرب فى هذا الاتجاه أو ذاك ، هو نفس الطريق الذى «يجب» على المجتمعات الأخرى أن تسير فيه .

لم يكن الأمر بالنسبة لى ، (ولاهو الآن) مسألة «نقد» للغرب ، أو شعوراً من جاتى بأننا «أفضل» منهم ، فقد بدا لى أن هذا المرقف الذى يعتبر ثقافتنا ومخط حياتنا أفضل من ثقافتهم ومخط حياتهم ، ليس أقرب إلى الحقيقة من الموقف الذى تخللت

عنه، وهو اعتبار ما يفعله الغرب المثل الأعلى الواجب احتذائه. المسألة ليست هي من هو الأكثر أو الأقل رقباً، بل هي مسألة اختلاف ثقافات وأذواق وميول وعادات وتقاليدها جذور بعيدة في التاريخ والجغرافيا واللغة... إلخ، مما ينعكس فيما يمكن تسميته بنوع النظرة إلى الحياة.

هذا التحول في تفكيرى جعلنى أفتش فيما يصدر من كتب عما يتفق مع وجهة نظرى الجديدة فى أحوال الغرب. ولم يخب ظنى بالطبع، بل وجدت الكثير مما نشر فى الغرب فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات، ينتقد بشدة ما آل إليه حال الغرب ويشفق مع ملاحظاتي. ويؤيدها من مختلف الزوايا، ويدنى بحجج وملاحظات جديدة. وهكذا قرأت فى تلك السنوات عدداً من الكتب الجيدة والنثى تركت أثراً كبيراً فى نفسى، (مما أكدلى أن من الممكن أن نعرف الكتاب «الجيد» تعريفاً لا بأس به، بأنه الكتاب الذى يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل، أو الذى يذكرك بالحجج التى تحتاج إليها لتأييد وجهة نظرك!).



كان لابد لهذا كله أن يؤثر، ولو عن طريق غير مباشر، فى نظرتى إلى الدين. فقد أزال إدراكى لمساوى الحياة الحديثة فى الغرب، وللعيوب والنقائص المهمة فيما كان يعتبر من الأفكار والمبادئ المسلّم بها، أو فيما كان يحاط بهانة كبيرة من التبجيل من النظريات والكتابات الاقتصادية والاجتماعية، أزال كل هذا كثيراً مما كان على عيني من غشاوة. ففكرة التقدم نفسها أصبحت عندى محل شك كبير، انتهى بى إلى رفضها رفضاً تاماً. والنظر إلى الغرب باعتباره المثل الأعلى الواجب احتذائه والافتدائه به، لم يمد أيضاً صحيحاً فى نظرى. وقد أصاب كل هذا بضرب بالغ، فى نظرى، فلسفتين كانت كل منهما، فى مرحلة من مراحل حياتى الماضية، سبباً لثقله تعاطفى مع الدين والمتدينين: الماركسية والوضعية المنطقية.

أما الماركسية فكان الشئ الفلسفى منها قد تلىنى، فى نظرى، ضربة قاصمة من الوضعية المنطقية نفسها. إذ بعد أن تبين موقف الوضعية المنطقية من الميتافيزيقا، واعتبارها إياها «لغو من القول»، لم يمد هناك فارق فى نظرى بين القول بأن «المادة

سابقة على الفكر» والقول بأن «الفكر سابق على المادة»، كلاهما كلام فى المتناقضات
ومن ثم فكلاهما، هكذا اعتقدت وقتها، لغو من القول. ولكن حتى النظرية
الماركسية فى التاريخ، التى تعرف باسم المادية التاريخية، تلتفت الآن، فيما يتعلق
بى على الأقل، سهاها، إن لم تكن قد أصابها فى مقتل فقد جرحتها جرحاً بليغاً.
وأعنى بهذا، على الأخص، ما اعترأتى من شك عميق فى فكرة التقدم، وأن كل
مرحلة تاريخية هى «أعلى» و«أرقى» من سابقتها، وهى فكرة يعتبرها معظم
الماركسيين من المسلّمات. فهنا نحن نرى الحضارة الغربية العظيمة يصيبها
الانكسار، وبدلاً من أن تتحول الرأسمالية، مع مزيد من التقدم التكنولوجى، إلى
نظام أرقى هو الاشتراكية، إذا بها تتحول إلى نظام يقوم على التهم الاستهلاكية
المزاييد. بل وحتى الدول التى أعلنت أنها تطبق الاشتراكية يبدو عليها وكأنه قد بدأ
يصيبها أيضاً هذا التهم الاستهلاكية الذى تهد الدولة الاشتراكية صعوبة بالغة فى
صدّه. ولكن ربما كان الأهم من هذا وذلك أننى كلما قرى إدراكى لتناقض نمط الحياة
الغربية، كان يقوى لدى الشعور بأن من الصعب أو حتى من المستحيل أن ترتب
الثقافات المختلفة بعضها فوق بعض، وأن نعتبر بعضها «أرقى» من غيرها. ذلك أنه
يبدو أن هناك أشياء أخرى، إلى جانب التقدم الاقتصادى أو التكنولوجى، لها تأثير
بالغ القوة فى تشكيل نظرة الأمة إلى الحياة، ومن ثم لم يعد من الممكن لى أن أرد
كل شيء بالسهولة التى كنت أرد بها كل شيء فى الماضى، إلى العوامل الاقتصادية
والتكنولوجية، مثلما يميل الماركسيون فى أغلب الأحوال. والاختلاف الكبير بين
ثقافة أمة وثقافة أمة أخرى، لم يعد من الممكن فى نظرى أن يرد إلى عوامل اقتصادية
فقط، بل هناك أشياء أخرى أكثر عمقا وربما أكثر ثباتاً من العوامل الاقتصادية، ومن
بين هذه العوامل الدين.

ولكن بدا لى من ناحية أخرى، أن هذه الاختلافات الشديدة بين ثقافات وأنماط
حياة الأمم المختلفة كثيراً ما تكون مجرد أساليب مختلفة للتعبير عن نوازع عميقة
وثابتة لدى الإنسان، بحكم كونه إنساناً، وإنما يتخذ التعبير عن هذه النوازع المشتركة
والثابتة أساليب مختلفة بسبب الاختلاف فى التاريخ والجغرافيا أو الظروف
الاقتصادية أو مستوى التقدم التكنولوجى... إلخ. من بين هذه النوازع العميقة

والباقية لدى الإنسان، بصرف النظر عن اختلاف الثقافات، النزعة الدينية، التي بدا لي أنها شديدة الارتباط بالتركيب البيولوجي للإنسان، وهو رأي بحثت عن حجج تؤيده فوجدتها لدى بعض علماء البيولوجيا الاجتماعية وعلى الأخص عند إدوارد ويلسون E.O. Wilson في كتابه «عن الطبيعة الإنسانية» (On Human Nature). أدى بي هذا كله إلى إعادة النظر في ذلك الرفض الذي كنت أميل إليه فيما يتعلق بأى شيء يمكن أن يندرج تحت لفظ «المتافيزيقا». فإذا كانت المتافيزيقا تعنى كل ما لا يمكن إثبات صحته أو خطئه بالتجربة أو الملاحظة، فما أكثر الأراء المتافيزيقية الشديدة الجاذبية ومع ذلك ليس هناك من طريق لحسم صحتها أو خطئها بالتجربة والملاحظة. وإذا كانت المتافيزيقا هو كل ما كان غير محسوس، فما أكثر الأشياء التي لا تظهر أمامنا في شكل حسي ولكن هناك ما يرجع أنها بالغة الأثر في تصرفاتنا ومعتقداتنا. فما أصعب مثلاً أن نفسر اختلاف نظرة أمة عن أخرى إلى الحياة، واختلاف معتقداتهما الدينية ومبادئهما الأخلاقية. نعم إن لكل شيء أسبابه، ولكن ما هي درجة الأمل الحقيقي في أن تصل إلى تفسير كاف وشاف لهذه الاختلافات؟ ما هي درجة الأمل الحقيقي مثلاً في أن نفهم لماذا نجد شخصين خضعا لظروف واحدة، عائلية واقتصادية واجتماعية، وتلقيا نفس التعليم، ومع ذلك يختلفان اختلافا شاسعا في قوة الحس الأخلاقي لديهما وتوابع نظرتيهما إلى الحياة؟

كل هذه العوامل والأسباب التي لا تظهر في أى شيء محسوس، والتي يمكن وصفها بـ «المتافيزيقية»، إذا كان من الصعب كشفها وتبين كنهها، قد تكون في الحقيقة أكثر ما لدينا. إنها هي التي تميز الشيء الحى عن الميت، وهي التي تبث الحياة في الجسد الخامل، سواء كان جسد شخص أو جسد أمة. إن الذى يحرك الألم ويدفعها إلى النهوض والابتكار ليس إلا هذه العوامل «المتافيزيقية» العسيرة حق على الفهم، ولكنها مع ذلك هي المسؤولة عن نهضة الأمة أو تخلفها. فإذا كان هذا صحيحا، وهو ما لا يزال يبدو لي صحيحا، وإذا كانت العقيدة الدينية عنصراً من العناصر المكونة لهذه المتافيزيقا، وإن لم تكن العنصر الوحيد فيها، فكيف نستعزى بها أو نسخر؟ بل وكيف نسمح لأنفسنا بإضعافها أو هدمها؟ اليس في

التنكر «الميتافيزيقا» الأمة تنكر لحق هذه الأمة فى الوجود أصلا ، وفى التميز والنهضة وفى بناء حضارة أو المساهمة فى بنائها؟



هكذا حدث أنه بينما ضعضع انهيارى بالوضعية المنطقية من انهيارى بالماركسية ، شاهدت من تطورات الحياة فى الغرب ما ساعد على مزيد من ضعضة الانتين . لقد بدأ هذا التحول بطيئا وتدرجيا . كانت بداية تعبيرى عن هذا الموقف بداية متواضعة فى كتابى الذى كتبه بالإنجليزية فى أوائل السبعينات ونشر بالإنجليزية تحت عنوان (The Modernization of Poverty) أى تحديث الفقر ، وهو عنوان استعمرته من تعبير استخدمه إيفان إيليش (Ivan Illich) فى أحد كتبه لوصف تجربة كثير من بلاد العالم الثالث فى التنمية ، فاستخدمته عنوانا لكتابى الذى عرضت فيه تجربة تسع دول عربية فى التنمية فى ربع القرن التالى للحرب العالمية الثانية ، ورايت فيها أيضا شيئا أقرب إلى إلياس الفقر رداء حديثا دون نجاح كبير فى تخفيض الفقر نفسه . وكتبت إهداء هذا الكتاب على النحو التالى :

«إلى أولادى الذين أتمنى أن يكون مستقبلهم أكثر رخاء (more affluent) ولكن أقل حداثة (less modern) وكنت أقصد بذلك أن المرغوب فيه هو تقدم اقتصادى يخفف من الفقر ولكن دون تقليد المجتمع الحديث فيما لا نفع فيه . على أن هذا الموقف الذى عبر عنه عنوان الكتاب وإهدائه ، لا يظهر خلال فصول الكتاب على الإطلاق فيما عدا الخاتمة ، فقد بدأت البحث وأنا لا أزال تحت سيطرة الأفكار السائدة فى التنمية ، وكان الهدف الأسمى هو زيادة متوسط الدخل ، ورفع معدلات الادخار والاستثمار ، وتغيير الهيكل الإنتاجى لصالح الصناعة ، إلى آخر ما كانت تردده كتب التنمية . ولكن مع تقدم قراءتى عما حدث للاقتصاد والمجتمع العربى من ناحية ، وعما ولده النمو السريع فى الغرب من مشكلات ، بدأت ألاحظ ما يحدث من تضحية بنمط الحياة العربية من أجل التنمية وباسمها ، وبدأ يخامرني الشك فى أن الثمن الذى ندفعه قد يكون أعلى مما نحصل عليه فى مقابله . فأذكر أنى قرأت أثناء اشتغالى على هذا الكتاب مقالا لكاتب أمريكى ، ترك فى أثر كبير ،

وكان يشرح ما عم في أوائل الستينيات في مصر من إجراءات من أجل «تطوير» الأزهر، فإذا بالذي يحدث هو أن يتحول الأزهر إلى نسخة مكررة من الجامعات المصرية التي لم يكن فيها الكثير مما يبعث على الإعجاب، بينما ضعفت بشدة شخصية الأزهر المتميزة. عندما قرأت هذا المقال شعرت بأن أفكارى حول التنمية والثقافة والأصالة والمعاصرة، تترايط وتنظم في شكل مرتب وواضح. فقد انضج لي فجأة ما الذي يجب أن يكون هدفنا الحقيقي وما الذي لا يجوز التضحية به.

بعد سنتين من نشر كتابي (تحديث الفقر) اشتركت في ندوة في الكويت تحت عنوان «النظام الاقتصادي العالمي الجديد والعالم العربي»، فإذا بالورقة التي كتبها لهذه الندوة تحتوى على كلام في الثقافة (بالمعنى الأنثروبولوجي الواسع وليس بالمعنى الضيق الذي يشير إلى الإنتاج الفكري والفني) أكثر مما تحتوى على كلام في الاقتصاد. وإذا بي أشكو فيها من التبعية الثقافية أكثر مما أشكو من التبعية الاقتصادية، التي كانت مدرسة أمريكا اللاتينية في التبعية تؤكد عليها. وكان هذا بداية لتزايد حجم الجرعة الثقافية في كتاباتي على حساب الجرعة الاقتصادية. ولكن هذا لم يثر قلقي، إذ بدت المحافظة على الاستقلال الثقافي تكاد أن تكون مرادفة للمحافظة على الشخصية بل وعلى البقاء، وبدت لي التنمية بالمعنى الاقتصادي الضيق أقل أهمية بكثير. وبدت مهمة إصلاح المعوج في الاقتصاد أسهل بكثير من مهمة إصلاح المعوج في الميدان الثقافي، بل بدا لي أن الضرر أو الشرخ الذي يمكن أن يحدث للثقافة، نتيجة لما يسمى بـ «النمو الاقتصادي»، قد يكون من أصعب الأمور أو من المستحيل إصلاحه، وكنت أضرب دائما كمثال على ذلك، ما فعله الاستعمار الفرنسي باللغة العربية في الجزائر. بينما بدا لي أن تحرير الاقتصاد من سيطرة الأجانب أمرا يمكن تحقيقه بين يوم وليلة.

لقد جمعت ما كتبته من مقالات في التنمية في هذه الفترة، أي في منتصف السبعينات، ومن بينها تلك الورقة التي قدمتها في ١٩٧٦ لندوة النظام الاقتصادي العالمي الجديد، ونشرتها بعد ذلك تحت عنوان «تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟»، وهو عنوان يعبر تعبيراً جيداً عن انقياء هذه المقالات. ثم ازداد اقتناعي بهذه الفكرة،

وعُبرت عنها بقوة أكبر في كتاب كتبه وأنا أستاذ زائر في جامعة لوس أنجلوس، ونشرته في ١٩٧٩ تحت عنوان «المشرق العربي والغرب» وهو يدور على فكرتين: أولاًهما أن السبب الأساسي في محنة العرب هو العلاقة بينهم وبين الغرب، والثانية هي أن الاستقلال الثقافي لا يقل أهمية، إن لم يزد، عن الاستقلال الاقتصادي.

في أثناء عملي في هذا الكتاب (٧٨ - ١٩٧٩) كان من بين أكثر الكتب تأثيراً في كتاب صغير للكاتب لم أكن قد قرأت له من قبل شيئاً، ولا أعرف شيئاً عن أهميته ومواهبه. قرأت الكتاب ففتنتني لغته العربية البديعة وأسلوبه القويّ النفاذ، ووجدت موقفه من الدين شيئاً جديداً بموقفى، إذ يغلب عليه التأكيد على دور الدين في إحداث النهضة القومية بدلاً من اعتباره مجرد طريق للخلاص الروحي للفرد. كان هذا الكتاب «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» لشكيب أرسلان. وقد جعلني هذا الكتاب أقرأ أى شيء أجده لهذا الرجل العظيم، ولم يخيب ظنى أبداً. ولا يزال كتابه «حاضر العالم الإسلامى»، الذى فيه من التأليف أكثر مما فيه من الترجمة، من الكتب الأثيرة لدى، كما أثارت مقدمته البديعة لكتاب محمد الغمراوى في نقد كتاب الشعر الجاهلى لطف حسين، حماسى مثلما أثاره كتاب الغمراوى نفسه. وقد وجدت في كتاب الغمراوى مثلاً جديداً يؤيد فكرتى عن العلاقة بين الدين والعلم. فيها هو عالم مبرز فى الكيمياء، لا شك فى علو مقامه كعالم، ولكنه شديد التمسك بدينه. فلم تؤد صلابة إيمانه إلى إضعاف نزعة العلمية، ولا حدث العكس. إذن فإن من الممكن، بعكس ما كنت أقصّر من قبل، أن يكون الإنسان صادقاً فى علمه ودينه على السواء، وكأن كلا منهما يخاطب جزءاً من الإنسان لا علاقة له بالآخر. وأعتقد أن موقف أبى كان قريباً جداً من هذا.

هذا المنحى من التفكير لدى قوّاه ولم يضعفه اكتشافى شيئاً فشيئاً كم كنا نبالغ فى موضوعية العلم، وفى إمكانية الوصول إلى حقائق مجردة لا تؤثر فيها تحيزات العالم ونفسيّاته، أو مصالحه الشخصية أو مصالح الطبقة أو الدولة التى ينتمى إليها. أخذ هذا يظهر لى بوضوح فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية، ولكن حتى فى

العلوم الطبيعية بدأت اكتشف شيئاً مماثلاً وإن لم يكن بنفس القوة بالطبع، وذلك بتأثير قراءتي لكتب من نوع كتاب (T. Kuhn: The Structure of Scientific Revolution) وكتب أستاذ الفلسفة النمساوي الأصل فاير أبند Feyerabend ومقاله الذي اعتبرته بداية، عن ضرورة تحرير الدولة من العلم، مثلما تحررت من الكنيسة.

ذلك أنني من ناحية تبنت شيئاً فثبتاً، كيف أن العلم هو أكثر «شخصية أو ذاتية» مما كنت أظن، وليس دقيقاً بالدرجة التي كنت أظنها، ومن ثم من الممكن جداً أن يكون ضاراً ومدمراً. وفي نفس الوقت تبينت أن الدين رغم أنه لا يقوم على التجربة أو الملاحظة، قد يكون قوة دافعة لأعمال عظيمة. فما كل هذا الغرور إذن الذي يتسم به الكثيرون من العلمانيين؟، ولماذا كل هذه المعاملة السيئة والاحتقار للذين يدينونها إزاء المثدين؟ المسألة إذن ليست مسألة اختيار بين العلم والدين، وإنما هناك علم فاسد وعلم ينفع الناس، كما أن هناك تديناً فاسداً وتديناً ينفع الناس.



يبدو أن كتابي «المشرق العربي والغرب» قد لفت نظر بعض من كانوا أقرب مني إلى الدين، مثل: عادل حسين وطارق البشري، اللذين كانا قد سارا شوطاً أبعد مني بكثير في التعبير عن تعاطفهما مع اتجاه الإسلام السياسي، فوجدتهما يدعوانني إلى حضور ندوة دورية يحضرها نحو ستة إلى ثمانية أشخاص، ممن عبروا بشكل أو آخر عن اهتمامهم «بالتراث» أو «الأصالة» أو «الاستقلال الثقافي أو الحضاري» لناقشوا في كل أسبوع أو أسبوعين كتاباً من الكتب التي تثير اهتمامهم. وقد حضرت هذه الندوة التي استمرت عدة شهور، ثم توقفت الندوة عندما شعر أعضاؤها بقلّة جدواها. كان لهذه الندوة ما لأمثالها من فائدة «اجتماعية» بحتة، بمعنى إتاحة فرصة اللقاء وتبادل الحديث بين أشخاص متقاربين في الذكاء والثقافة ونوع القضايا المثيرة لأهتمامهم، ولكن سرعان ما تبين بعد عدة قليل من الاجتماعات أن المنفعة الفكرية منها محدودة. كان من الحاضرين من يسترسل في الكلام بلا توقف دون أن يشعر بما يعتريه من ملل، ومنهم البالغ الخجل الذي يتعثر أكثر من اللازم في التعبير عن نفسه، ومنهم من يفسر الدين تفسيراً غريباً مثل قوله

إن الله هو الثورة، ومنهم المحب للسيطرة الذي لا يقبل اختلافاً في الرأي، ومنهم الصامت معظم الوقت... إلخ. لم أشعر بالأسف إذن لتوقف هذه الاجتماعات، وإن سمعت وقرأت إشارات إلى بعض أعضاء هذه الندوة، ذكر فيها اسمي أحياناً، مقترنة بوصف «الترائيين الجدد». وهو وصف لا بأس به من حيث الدقة، فقد كنا جميعاً «ترائيين» بمعنى من المعاني، وإن اختلفت نظراتنا إلى التراث اختلافاً كبيراً، وكنا أيضاً «جداً» ببعض المعاني. ولكنني بعد فترة أصبحت أفضل ألا يدرج اسمي بين أسماء هؤلاء الترائيين الجدد، إذ سرعان ما تبين لي مدى الاختلاف بين نظرتي للتراث ونظراتهم. لم يكونوا هم أيضاً على وفاق تام فيما بينهم، ولكنني أدركت على أي حال أن حرصي على التراث يصدر من دوافع مختلفة عن دوافعهم، ومن ثم ففهمي وتعريفي للتراث يختلف عن فهمهم وتعريفهم، ونوع تعاطفي واحترامي للدين مختلف عن نوع تعاطفهم واحترامهم له. يمكن أن أجمل هذه الاختلافات في القول بأن نظرتي للتراث كانت سوسولوجية أكثر منها ميتافيزيقية، وتعاطفي مع الدين واحترامي له وحرصى على حمايته ينبع من تعاطفي مع أمته واحترامي لها وحرصى على حمايتها وليس العكس. ولنفس هذا السبب حدث خلال الثمانينات ما خلق جفوة وبروداً في علاقتي بأحد أعضاء هذه المجموعة، بمناسبة تكرار أحداث اعتداء بعض المسلمين على بعض الأقباط. ففى ندوة عقدتها صحيفة من صحف المعارضة لمناقشة واحد من أشد هذه الاعتداءات قسوة وهمجية، تكلمت بعدة منتقدا أحد الشيوخ اللامعين في وسائل الإعلام والذي كان يتمتع وقتها بشعبية واسعة، واعتبرته أحد المسئولين عن تهيج الناس ودفعهم إلى القيام بمثل هذه الاعتداءات. فإذا بهذا الزميل والصدیق، الذي كان حتى وقت قريب مشاركاً لنا في مناقشات «الترائيين الجدد»، يقول عبارة مديح في الدفاع عن هذا الشيخ الذي لم أكن أكنّ له أى نوع من التبجيل.

ومع هذا، فقد صادفت خلال الثمانينات والتسعينات ما جعلني أستمّر في تعاطفي مع الدين والمتدينين، وأن أدافع عنهم علناً في كتاباتي المنشورة عندما أشعر أن بعضهم قد تعرض للظلم من جانب العلمانيين. فقد قرأت مقالات كثيرة جيدة للغاية لكتاب يصنفون على أنهم من «الكتّاب الإسلاميين» فوجدتهم أقرب إلىّ في

كثير من مواقفهم السياسية والاجتماعية مما كنت أجد في كتابات كثير من الماركسيين والعلمانيين بوجه عام . كان بعض هؤلاء الكتّاب الإسلاميين من الشبان الذين كنت أقرأ لهم في ذلك الوقت لأول مرة ، فإذا برأجد حماسهم للدين مقترنا بالصدق والموهبة ، والإحساس المرفه بمشاكل المجتمع ، وترتيب صحيح للأولويات . قلت لنفسى : «ها هم متدينون لم يمنعهم موقفهم «المتنافيزيقي» من رؤية الأمور على حقيقتها ، ولم يمنعهم حماسهم للدين من اتخاذ الموقف العلمى من قضايا المجتمع . فإذا كانت هذه المزاي تقترن بثقة عالية بالنفس مستمدة من الإيمان بأن الله يقف إلى جانبهم ، وهذه الثقة تجعلهم على استعداد للنضحية والصبر والمثابرة أكثر مما يظهر من كثيرين غيرهم ، فما الذى نريده منهم أكثر من هذا؟» .

وجدت من بين طلبة الجامعة الأمريكية عدداً من انشبان والشابات ، ممن تتوافر فيهم هذه الزاي كلها ، بالإضافة إلى الشجاعة التى جعلتهم يعلنون تدينهم فى مجتمع (وهو طلبة الجامعة الأمريكية) كان يعتبر مثل هذا الموقف مدعاة للسخرية والاستهزاء ، فشعرت نحوهم بالإعجاب والتقدير ، خاصة وأن أداءهم الأكاديمى وذكاءهم كثيرا ما كانا أعلى بكثير مما وجدت فى زملائهم . أما الكتّاب المعروفون ، الذين وجدت فيهم هذه الصفات ، فكان أبرزهم فهمى هويدى ، الذى وجدته فى معظم مقالاته المنتظمة فى جريدة الأهرام يعبر عما اعتبره الموقف الصحيح ، سواء فى مشاكل السياسة أو المجتمع ، ويتخذ من قضية فلسطين وإسرائيل مواقف أكثر شجاعة من مواقف معظم العلمانيين ، فأكبرته واحترمته . ثم حدث أن قرأت له مقالا فى الأهرام فى أوائل التسعينات ينتقد فيه بشدة قيام وزارة الثقافة بنشر رواية كتبها مؤلف مصرى غير معروف وتتضمن أشياء كثيرة لا تراعى أبسط قواعد الأدب واللياقة وتسخر من الدين وتستخدم فى ذلك ألفاظا جريحة . فما إن هاجم فهمى هويدى الرواية حتى انبرت له أقلام كثيرين من الكتّاب من العلمانيين والماركسيين ممن يعتبرون حرية الفنان والأديب مقدسة ، ولكنهم لا يعتبرون الدين كذلك ، ومن لا يميزون فى أمر هذه الحرية بين المؤدب والبذىء . بين من يراعى مشاعر الناس وبين من يسىء إليهم ، كما لا يعينهم ما إذا كان العمل المنشور هو بالفعل عمل فنى يستحق الحماية أو عملاً من أعمال السب والقذف .

حاولت أن أعثر على نسخة من هذه الرواية فلم أجدها، فطلبتها من فهمى هويدى فأرسلها لى، وقرأت منها الفصول الأولى ولم أجد أى داع للاستمرار فى القراءة. أيقنت من الجرة الذى قرأته صحة تقييم فهمى هويدى للرواية وشاركته رأيه، وشعرت بالغضب الشديد لما تعرض له من ظلم، ورأيت أن موقفه، فى هذه الواقعة بالذات على الأقل، يستوجب الدعم والتأييد، وكتبت مقالا أعبر فيه عن تأييدى له، وكان المقال بعنوان «دفاع عن فهمى هويدى»، نشرته لى جريدة جديدة كانت تمتع بحرية غير معهودة حتى نفذ صبر الدولة عليها وأغلقتها، وهى جريدة الدستور. كنت أعرف أن المقال سيغضب الكثيرين، إذ كان أعداء فهمى هويدى الذى يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، كثيرين. كما كنت أتوقع أنها ستصيب بخيبة أمل كثيرين من الذين يصنفوننى فى معسكر آخر، سواء كان معسكر «اليساريين» أو «النازكيين» أو «العلمانيين». . إلخ. ولكنى لم أؤمر مبررا لأن أكتب رأى فى هذه القضية التى اعتبرتها مهمة (قضية الحرية التى يجب أن تتاح للفنان أو الكاتب، وهل هى حقاً بلا حدود؟)، وقلت لنفسى إن من الواجب فى تقييم الأشخاص التمييز بين مواقفهم فى القضايا المختلفة، وليس من حق الناس أن تصنف الكتاب تصنيفاً نهائياً فتضع كلا منهم فى معسكر ثابت وجامد على الرغم من الفوارق الدقيقة وغير الدقيقة التى تميز بين شخص وآخر. كما قلت لنفسى إن الحق مصيره أن يتضح فى النهاية، وإن الذى يسعى إلى الفهم الكامل للحقيقة المعقدة سرف يصل إليه، ومن لا يسعى إلى هذا الفهم لا يجب أن يبالي به.

ومع ذلك فقد ألتنى تسرع الكثيرين من معارفى وأصدقائى فى تصنيفى على هذا النحو، حتى وصل الأمر ببعضهم أن نعتنى بـ«الأصولى»، وتساءل البعض الآخر: «عما حدث لى؟» وكأننى قد مسنى ضرب من الجنون. ولكن الذى ألتنى بوجه خاص عجز بعض أصدقائى ومعارفى من الأقباط عن هذا التمييز، وتسرعهم مثل غيرهم فى اعتبارى وكأننى قد هجرت موقعى، وانضمت إلى المعسكر المعادى لهم. وعلى الرغم من أنى اعتبرته هذا الموقف منهم خطأ محضاً، فقد اعتبرته أيضاً من قبيل الخطأ المفروض عليهم فرضاً ويكاد يستحيل عليهم التخلص منه، بسبب وضعهم الخاص فى المجتمع المصرى، وفى هذه الفترة بالذات من تاريخ مصر. لقد

انقضى للأسف ذلك العصر الذى كان يمكن أن يقول فيه مكرم عبيد ، ذلك القبطى اللفذ ، «إنى قبطى ديناً ومسلم وطناً» ، فأى تعبير أجمل من هذا عن المعنى الذى يدور بذهنى؟ نعم ، الإسلام دين ، ولكنه أيضاً وطن وثقافة . ولكن التفكير على هذا النحو يتطلب ظروفاً سياسية واجتماعية كانت متوافرة فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات ولكنها لم تعد متوافرة الآن .

الذى يبدو لى أنه منى زالت تلك الظروف التى توحد المسلمين والأقباط فى مشروع واحد للنهضة ، والتى يكون فيها الولاء للدين علاقة بين الفرد وربه دون أن يهدد العلاقات الاجتماعية بين الأغلبية والأقلية ، متى زالت هذه الظروف السعيدة يعود الأقباط إلى الشعور شعوراً قوياً بأنهم أقلية ، ويعتريهم خوف دائم من أن تنكسر الأغلبية لهم ويتقلبون عليهم ، ويصبحون فى شك دائم من أنهم سيتعرضون للاعتداء أو الخيانة إن لم يكن اليوم ففى الغد ، مما جلب إلى ذهنى صورة الزوجة التى لديها سبب قوى يجعلها تعتقد أن زوجها قد يفضل غيرها عليها ، ومن ثم فهى دائمة الشك فى زوجها ، حيث ترى فى أى تصرف منه ، وفى أى كلمة تصدر عنه ، دليلاً على أنه يضمّر شراً ، وأن قلبه ينطوى على الخيانة . تظن أن زوجها يزعم نطقها وهجرانها فى أول فرصة تسنح له ، وتفسر كل نظرة منه إلى امرأة أخرى بأنه سرف يستبدل هذه المرأة بها . خطر لى وجود شبه بين مشاعر هذه الزوجة ومشاعر الأقباط فى مصر فى ظروف سياسية كالتى نعيشها اليوم . فأى كلام فى الدين يثير حساسيتهم ، وإن لم تكن له أى علاقة بهم أو بموقف الشخص المتدين منهم ، بل رأى كلام عن العروبة والوحدة العربية يؤخذ على أنه ينطوى على تهديد ، ولو فى المستقبل ، لمركزهم فى مصر وللعلاقة المسلمين المصريين بهم . إذا كان الأمر كذلك ، فما حيلة مثقف مصرى يجد فى حماية الإسلام من المتهاجمين عليه ، وفى احترام الشعور الدينى ، شرطاً من شروط تحقيق «نهضة قومية للمسلمين والأقباط على السواء» ؟

إنى إذ أستعرض فى ذهنى الآن موقف أبى من الدين ، ربما باستثناء فترة صباه وشبابه المبكر ، أجد أن موقفى الآن قريب جداً من موقفه . فعندما كتب أبى كتاب

«زعماء الإصلاح في العصر الحديث» أو حتى كتبه الأساسية في تاريخ الحياة العقلية في الإسلام، أي سلسلة فجر الإسلام وضحاها وظهره، كان الذي يسيطر عليه هو دور الدين في النهضة وفي إحياء أمته، أكثر من أي شيء آخر. نعم، لقد مرت بأبي فترة كان موقفه من الدين ينطوي على بعض الفتور أو الشك، ولكن لا أظن أنه فقد في أي من الأوقات ثقته في دور الشعور الديني في استعادة الأمة لفتوتها وشبابها.

المرض والشيخوخة

كانت أمي ، مثل الغالبية الساحقة من نساء جيلها ، لا تعمل أى شعور ودّى إزاء الأطباء ، وتحاول أن تتجنبهم بقدر طاقتها ، ومن ثم فإننى لا أكاد أذكر أمي قط وهى فى عيادة طبيب ، أو وهى تستدعى طبيباً أو يُستدعى لها طبيب فى المنزل . ناهيك عن شعورها نحو المستشفى ، الذى كان فى نظر نساء هذا الجيل (وكثير من الرجال أيضاً) مجرد خطوة نحو الموت ، يندر فى نظرهم إذا دخله شخص أن يعود إلى منزله .

لقد أصيبت أمي طبعاً بعدة أمراض ، منها مرض السكر ، ولكنها كانت تستهين بأمراضها كلها ، ولا تستجيب لمن يحذرها من تناول هذا الطعام أو ذلك . كان العمر فى نظرها «واحد» ، أى مقررًا سلفاً ولا يمكن إطالته أو تقصيره . ولكن لعل ما كانت تعنيه حقيقة هو أنها بعد أن بلغت سنًا معينة ، ومات أبى ، وتزوج معظم أولادها أو سافروا إلى الخارج ، ولم يبق لديها ما تشعر بأنها تعيش من أجله ، لم تعد ترى فى الموت شيئاً مخيفاً . وعندما جاءها الموت وهى فى نحو الثانية والستين (ولم تكن تعرف سنة ميلادها إلا بالتقريب) لم تكن تخافه . لم أكن بجوارها عندما ماتت ، فقد كنت فى بعثتى الدراسية بالإنجلترا ، ولكنى كنت معها قبل ذلك بسنة ، وما يرويه لى أخى حسين الذى كان بجوارها حيثشذ يدل على أنها لم تكن تجد فى الموت ما يخيف . وعلى أى حال ، فقد كان بإمكانها لو قدر لها أن تعلق على موتها أن تقول : «ألم أقل لكم؟ هاأنذا يأتينى الموت فى المستشفى فى المرة الوحيدة التى دخلته فيها ، ولم أعد منه إلى بيتى» .

إذا كان هذا هو موقفها من الأطباء والمستشفيات فلا يمكن أن نتوقع أن يكون

لموقفها من المرض بصفة عامة أى سمة من سمات «الروح العلمية». كان كلامها عما تشعر به من أوجاع أقرب إلى الشعور منه إلى العلم، فهي ماهرة فى استخدام التشبيهات البليغة فى وصف ما تشعر به، كأن تقول إنها تشعر بجسمها وكأنه شوال من الرمل، أو برجلها «تتيح عليها»، وكأن منشارا لا يكف عن نشرها جيئة وذهاباً، أو بقدمها وكأن مسامير قد دُقت فيها... إلخ. فإذا مرض أحدنا فارتفعت حرارته عبرت عن ذلك بأنه «ساخن كالنار»، وإذا طلب أحدنا منها أن تأتى بترمومتر لقياس الحرارة قالت «أنا إيدى ترمومتر». وكانت صائبة فى ذلك إلى حد كبير. وقد سررت عندما قال لى ابنى الأصغر منذ سنوات قليلة، عندما سألته عما إذا كانت صديفته الأمريكية تعرف بعض الكلمات العربية، «إنها تعرف عبارتين فقط بالعربية إحداهما (أنا إيدى ترمومتر)».

لم يكن الترمومتر يعتبر حينئذ من لوازم الحياة التى يجب وجودها فى كل بيت، كما أن كمية الأدوية التى تجدها فى بيتنا فى ذلك العصر كانت ضئيلة للغاية، إذا قورنت بما يحتويه أى بيت الآن، فكانت تكاد تقتصر على إناء صغير من «الفيكس» الذى يستخدم عند البرد والكام، وعلى «ملح الفواكه» الفوار الذى يستخدم عند اضطراب المعدة، وعلبة «الأسبرين» لتخفيض الحرارة. ومن ثم كان من النادر أن نسمع عن استفحال المرض بسبب الخطأ فى اختيار الدواء، إذ كان اللجوء إلى الأدوية محدوداً جداً فى الأصل، وكان الاعتقاد شائعاً بأن معظم الأمراض يكفى لعلاجها لجوء المريض إلى الراحة فى السرير، وتجنب التعرض للبرد، مع تناول طعام صحى، بالإضافة إلى بعض المشروبات التقليدية المعتمدة على بعض التوابل التى تبيعها محلات العطارة، والتى يوجد منها لكل داء دواء. أما الجرى إلى الطبيب لدى ظهور أى عارض من أعراض المرض أو لدى أى ارتفاع فى الحرارة، أو شعور بصداق أو فقدان للشهية... إلخ، كالذى أصبح شائعاً الآن، فلم يكن ليخطر على بال أمى (بل ولا حتى على بال أبى أو أحد من إخوتى) فى ذلك العصر. وقد قرأت مؤخراً فى السيرة الذاتية لأستاذ الفلسفة الشهير والمسمى الأصل (بول فاير أبند (P. Feyerabend) وصفاً لموقف أبيه وأمه من المرض يشبه جداً موقف أمى، إذ كانا يعتقدان مثلها أن المرض فى معظم الأحوال، سوف يزول دون سبب

واضح، كما جاء دون سبب واضح . وقال فييربند تعليقا على ذلك إن موقفهما هذا كان أكثر عقلانية من الجرى إلى الطبيب لدى ظهور أى عارض للمرض مهما كان عارضا ناعها .

كانت أمى، مع ذلك، تؤمن بجذوى بعض طرق العلاج التقليدية، أو «البلدية» كما أصبحنا نسميها مع زيادة احتكاكنا بالغرب، مثل علاج تورم الموز «التلحيس»، وهو علاج لم اسمع أحدا يتخوه باسمه منذ طفولتى، وكانت تقوم به امرأة لا علاقة لها بالطب أو الأطباء، تصحبنا أمى إليها كلما أصابنا احتقان فى الموز، وسط صباحنا وعويننا، لا بسبب ما نحن فيه من مرض، ولكن لما خبرناه من قبل من هذه المرأة، إذ كانت تدخل إصبعها فى حلقنا بعد أن تغصه بكمية كبيرة من اللبن، وتقوم بطلاء الزور المريض بإصبعها بهذا اللبن مع الضغط بإصبعها بشدة على الحلق .

كان لأمى أيضا موقف صارم وواضح جداً من البرد . كانت نظورتها فى الصحة والمرض تلتخص فى أن الشرطين الأساسيين للاحتفاظ بالصحة وتجنب المرض هما تناول الطعام الكافى والجيد، وتجنب البرد . ولكن حرصها على تجنب البرد كان يتخذ أبعادا متطرفة للغاية، فهى فى سبيل تجنب البرد لا تلقى أى بان لدرجة نقاء الهواء أو فساده، ولو استطاعت أن تسد كل منافذ الهواء أثناء نومنا، بما فى ذلك الفراغ فى أسفل الأبواب، لفعلت . وهى تجبرنا ونحن نستعد للذهاب إلى المدرسة فى الشتاء على ارتداء ملابس داخلية لا يمكن لأى أسرة عصرية الآن أن تتصورها . ولا أزال أذكر فرعى عندما كانت تصرّ على ارتدائى تلك الفانلة الصوفية الغريبة وأنا ذاهب إلى المدرسة، إذا اشتد البرد . لم تكن فانلة عادية مصنوعة من الصوف بل كان لها وير طويل لا يكف عن وخز الجسم، ولا أشك أن لها شيها بما كان المتصوفون يرتدونه، وربما اكتسبوا اسمهم منها، إيماننا فى تعذيب أنفسهم . ولكن بالإضافة إلى ما كانت تسببه لى هذه الفانلات الغريبة من ألم ماضى محض، كانت تصبني أيضا بألم نفسى، إذ كان زملائى فى المدرسة يرون ما أرتديه تحت القميص كلما ذهبا لتغيير ملابسنا استعدادا للقيام ببعض الألعاب الرياضية . كانت هذه الفانلة تثير استغراب بعضهم وأحيانا بعض التعليقات الساخرة، وربما كان لهذا علاقة بما ظلت أشعر به من كراهية لأى نوع من الألعاب الرياضية بقية العمر .

كتب لنا أخى الأكبر مرة ، عندما كان يقضى بضعة شهور فى السويد فى زيارة بعض مصانعها ، وكان بطبعه مغرما بالمبالغة الشديدة ، فقل إن البرد فى السويد من الشدة بحيث يحدث أحيانا أن يتجمد أنف الرجل أو المرأة أو أذناهما وهما سائران فى الطريق . وقد أحدث هذا الخطاب رعبا لدى أمى ظل ملازما لها لسنوات طويلة حتى عاد كل أبنائها من أوروبا ، إذ كانت تتصور أن أحدا منهم قد يفقد أنفه أو أذنه بسبب البرد . وظلت تحذرهم من ذلك فى كل خطاب ترسله إليهم .



كان أبى بالطبع ، بعلمه الواسع وعقلانيته ، محصنا ضد هذه المعتقدات والمخاوف ، كما كان أكثر ثقة من أمى بالطب والأطباء . ونشأنا نحن الأولاد والبنات أقرب بالطبع إلى موقف أبى منا إلى موقف أمى . ومع هذا فلا بد أن أعترف بأننى إذا نظرت الآن إلى خلاصة خبرتى مع الأطباء . خلال حياتى الماضية بأكملها ، أجد أنها أقرب إلى خيبة الأمل منها إلى الإعجاب . بل إنى عندما أستعيد ذكرياتى مع الأطباء ، خطوة بخطوة ، منذ أول عهدي بهم حتى الآن ، تدهشنى كثرة عدد من ارتكبوا أخطاء جسيمة فى حقى .

بدأ هذا فى سن مبكرة للغاية إذ لم أكن تجاوزت سن السابعة أو الثامنة عندما أخذنا أبى ، نحن الإخوة الثلاثة ، أحمد وحسين وأنا ، إلى طبيب الأنف والأذن والحنجرة لاستئصال اللوز فى يوم واحد ، وكان فيما أذكر أشهر طبيب مصرى فى هذا التخصص . وتمت العملية وعدنا إلى البيت . دون أن ندرك وقتها أن الطبيب فى حالى أنا ، لم يستأصل من اللوز كل ما كان عليه استئصاله ، وأنه من ناحية أخرى استأصل أكثر مما يجب . فقد لاحظ أبى فى السنوات التالية شيئا غير طبيعى يجرى فى حلقى ويدفعنى كل صباح للإسراع بالاختصاص مما تجتمع فى حلقى طوال الليل ، وأنى أتعرض أكثر من إخوتى لنوبات من السعال والإنفلونزا خاصة فى الشتاء . استمر الحال على هذا النحو لعدة سنوات حتى أخذنى أبى وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى إلى طبيب كبير آخر ، بدأ عليه الذهول عندما قام بفحص حلقى وأخبرنا بأن الطبيب السابق ، فضلا عن استئصاله للحنجرة دون موجب ، أثناء عملية اللوز ، ترك جزءا من اللوز دون استئصال فعاد نموها من جديد .

فى نفس السن أخذنى أبى لطبيب العيون لما لاحظته من ضعف فى بصرى فأخبرنا الطبيب بحاجتى إلى نظارة . ولا أزال أذكر كيف انهال أبى علىّ طوّال طريق عودتنا إلى البيت ، فى الشارع وفى الأتوبيس ، باللوم والتقريع ، وكأنى أنا المسئول عن حالة عينيّ . وذكر أثناء ذلك كل ما يمكن ذكره عن عادات القراءة السليمة التى لا أتبعها ، وأضرار القراءة فى ضوء ضعيف أو تقريب الكتاب أكثر من اللازم من العين . . إلخ . كان غاضبا وحزيناً ، ولم أدرك إلا فيما بعد أن سبب غضبه وحزنه لم يكن اعتقاده بخطأ ارتكبته أنا ، كما كان يزعم ، بل اعتقاده بأنه هو المسئول عن ضعف بصرى بتوريشى ياه . على العكس من ذلك ، لم أكن أنا أشعر بأى حزن أو غضب ، بل أظن أنى كنت أقرب إلى الابتهاج لما كان يبغى لى نظارة من أهمية ، أو هكذا تصورت فى تلك السن .

ظلت علاقتى بأطباء العيون هى العلاقة المألوفة لقصار النظر حتى أصبت بمرض السكر ، أو على الأقل اكتشفت أنى مصاب به ، فى سن الثالثة والستين ، ونصحت أن أواظب على الكشف على عيني مرة كل عام على الأقل للتأكد من أن السكر لم يصب النظر بالتدهور . وإذا نصحتنى أخى أحمد ، الذى كان يثق فى الأطباء أكثر بكثير منى ، بأن أواظب أيضا على الكشف عن ضغط العين لحظورة ارتفاعه ، اعتدت أن أذهب فى كل عام لطبيب عيون للكشف عن هذا وذاك . ولكنى فى إحدى المرات لاحظت أن الطبيب دخل عيادته مهرولاً على غير عادته ، وكان قد وصل متأخراً عن مواعده أكثر بكثير من المعتاد حتى من سائر الأطباء ، وفهمت من حديثه مع مساعديه أنه يستعد للسفر فى الغد إلى مؤتمر خارج مصر .

كشفت علىّ الطبيب وهو فى هذه الحالة فرجد ضغط العين عندى أعلى من اللازم ، فأعاد الكشف ووصل إلى نفس النتيجة ، ثم كتب لى الدواء . وعندما سألته عن الفترة التى يجب أن أستمّر خلالها فى استخدام هذا الدواء ، قال لى الأبد . ثم أضاف بسرعة أن علىّ التأكد من سلامة الكبد أو الكلى (لا أذكر) لتجنب الضرر الذى يحدثه الدواء إن لم يكن هذا سليماً . اندعشت دهشة عظيمة من أن شيئاً بهذه الأهمية يجبرى بهذه السهولة : دواء يؤخذ طول العمر ، ويمكن أن يكون له آثار

حاجية خطيرة، يجرى النصح بتناوله بهذه السرعة وهذه البساطة. قررت أن أهمل النصيحة تماماً وانتظر حتى أعيد الكشف عند طبيب آخر. وقد حدث، وتبين أن ضغط العين طبعي جداً، سنة بعد أخرى. وعندما عدت للطبيب الأول ونظر إلى أوراقي وقال إنى بالطبع أتناول الدواء الخاص بضغط العين، قلت له إن الحقيقة أنى لا أتناوله، لأنى أفضل أن أقلل استخدام الأدوية إلى الحد الأدنى، فأعاد الكشف المرة بعد المرة، ثم أعلن استغرابه الشديد أن يجد ضغط العين عندى طبيعياً تماماً قائلاً «كنك شخص آخر تماماً!».

أذكر أيضاً أننى فى سن الثانية والثلاثين، وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة، اضطرت للذهاب إلى طبيب أسنان، تصادف أن كان أشهر طبيب للأسنان فى مصر فى ذلك الوقت، ولكنه لهذا السبب كان مثقلاً بالعمل، وليس أمامه منع من الوقت فأحالتنى إلى ابنه، طبيب الأسنان المتخرج حديثاً، والذى كان يتدرب فى نفس عيادة أبيه. فإذا بهذا الابن يستسهل خلع ثلاث أو أربع من أسناني، عرفت فيما بعد أن كان من الممكن إنقاذها من الخلع، ولكن الابن كان فيما يبدو أكثر قدرة على خلع الأسنان منه على حشوها.

بعد سنوات كثيرة سمعت ثناء كبيراً على طبيب أسنان آخر، اشتهر بعيادته المتطورة واتباعه أحدث أساليب العلاج التى أحضر لها أحدث الآلات والمعدات عند عودته من أمريكا. ذهبت إليه وكنت أظن أنى لا أحتاج إلا إلى علاج بسيط وسريع للقضاء على ألم عارض فى إحدى الأسنان، فإذا بى أجد أنه قد حول عيادته إلى سوبر ماركس فاخر، تستقبلك فيه مرضات جميلات عدن لتهن من الكوافير، وموسيقى ناعمة تملأ المكان، فضلاً عن عدد كبير من أجهزة الكمبيوتر التى تحتزن كل المعلومات المتعلقة بكل سن من أسنانك.

عندما مدّ يده التى تحمل صورة الأشعة الملونة التى التقطت لسمى من الداخل، اتسمت على وجهه سمات الفزع والألمف الشديدين إذ وصلت حال فمى وأسنانى إلى هذا المستوى من التدهور، وأخذ يشير بإصبعه إلى هذا الجزء من الصورة ثم إلى ذاك قائلاً :

«ألا ترى بنفسك ما حدث؟» وأنا أحاول أن أرى ما يراه دون جدوى، إذ لم أر
أى شيء ذى مغزى واضح. لقد بدت لى الصورة بشعة حقاً، ولكنى تصورت أن
صورة أى فم من الداخل لا بد أن تكون يشعة، حتى ولو كان فم صوفى لورين، إذ
ما الذى يمكن أن يتوقع المرء أن يراه فى صورة مكبرة للثة والأوعية الدموية وقد
كساها كلها اللعاب؟

تركتى هذا الطبيب المشهور بعد ذلك بضع دقائق فى حجرة مكتبه ريثما يرى
مريضاً آخر. وفى تلك الدقائق كانت لدى فرصة كافية لتأمل بعض الصور التى
وضعها على مكتبه فى مكان واضح لا يمكن أن يغفل الزائر عن رؤيتها، ومنها صور
له وهو واقف فى عظمة مبهرة بمعطفه الأبيض وإلى جانبه من اليمين مطرب شهير،
ومن اليسار سياسى كبير هو أيضاً من أشهر الصحفيين المصريين فى النصف الثانى
من القرن. هذا إذن هو نوع الناس الذين يقصدونه لعلاج أسنانهم فلا بد أن طبيب
عظيم. وعندما عاد إلى الطبيب شرح لى باهتمام بالغ أن حائلى تستلزم علاجاً لا بد
أن يطول، وينقسم إلى مرحلتين، الأولى ستتكلف نحو عشرين ألفاً من الجنيهات
والثانية يصعب تقدير تكاليفها حالياً وإن كانت، لسبب لم يذكره بوضوح،
ستتطلب الدفع بالدولار.

تركت العيادة مهموماً، ولكنى سرعان ما استعدت رباطة جأشى وضحكت من
الامر برمته. وذهبت إلى طبيب آخر، عالج ستنى المؤلة بثلاثين جنيهاً ولا تزال
تعمل بكفاءة حتى الآن وقد انقضى على هذا العلاج أكثر من عشر سنوات.

مع تكرار مرورى بتجارب من هذا النوع مع الأطباء، لم يعد يدهشنى أن
أصادف طبيباً جديداً أو مستشفى جديداً، فى مصر أو خارجها، يمارس درجة أو
أخرى من الاحتياك لتحقيق مكسب مادى أكبر على حساب المريض المسكين.
واتضح لى شيئاً فشيئاً أوجه شبه مهمة بين ممارسة مهنة الطب وممارسة مهنة رجل
الدين عندما تكون درجة الزاغة والاستقامة الخلقية فى أى منهما أقل مما يجب.
كلاهما يحاول أن يستغل نقطتى ضعف خطيرتين فيمن يلجأ إليهما طالباً منهما
العون: شدة الحاجة مع شدة الجهل. فنحن لا نلجأ إلى الطبيب أو رجل الدين إلا

عندما يشتد بنا الخوف على مصيرنا، إما خلال هذه الحياة أو الحياة التالية، والغالبية العظمى منا لا تعرف شيئ يذكر عن أسرار الجسم الإنساني أو أسرار الألوهية والحياة بعد الموت. وفي الحالتين، يجد الطبيب ورجل الدين بين يديه الكثير من المصطلحات الصعبة وغير المفهومة، والمراسم والطقوس التي لا تعرف بالضبط مدى ضرورتها فتسهل المبالغة في أهميتها.

بما ساعد الأطباء على الاحتفاظ بما يتمتعون به من هبة واحترام، ليس أن نسبة نجاحهم أكبر بكثير من نسبة فشلهم، بل إن هناك قوة جبارة تعمل باستمرار لصالحهم ولإنقاذهم من الأخطاء الكثيرة التي يرتكبونها. هذه القوة الجبارة هي طبعاً القدرة الطبيعية التي يحوزها جسم الإنسان على مقاومة ما يمكن أن يصيبه من أمراض، وعلى تصحيح معظم أوجه الخلل التي لابد أن تصيبه من وقت لآخر، دون أن يكون من الواضح، في معظم الأحيان، إلى من يعود الفضل في الشفاء: الطبيب أم تلك القوة الطبيعية الجبارة. هكذا شفيت من مرض عضال أصبت به في بيروت وأنا في سن الأربعين، وقضيت بسببه أسبوعين في مستشفى الجامعة الأمريكية، وأنا بين الحياة والموت، ومررت خلالهما بكل أقسام المستشفى، بينما كان الأطباء يحاولون اكتشاف ما أصابني دون جدوى، وتجمعت لديهم عشرات من صور الأشعة وعشرات التحليلات والقياسات، وانتهى الأمر كله بشفائي بقوة الجسم الطبيعية وقدرته على المقاومة. وكان تشخيص المرض بأنه «فيروس غير معروف الهربة»، إذا كان من الجائز اعتبار هذا تشخيص على الإطلاق.



روى عن الكاتب الأمريكي ذي الأصل الأرمني (وليام سارويان) قول طريف يقال إنه صدر منه وهو على فراش الموت: «لقد كنت أعرف دائماً أن كل إنسان لابد أن يموت، ولكنني كنت أأمل دائماً أن يحدث استثناء في حائتي». وأظن أن هذا الشعور ليس مقصوراً على وليام سارويان، بل ينطبق علينا جميعاً لحسن الحظ، إذ بدوننا لا أظن أن الحياة يمكن أن تكون محتملة. كما أعتقد أن هذا هو موقف أيضاً من الشيخوخة. فكلنا يعرف ومستعد للاعتراف بأنه لابد أن تصيبه الشيخوخة يوماً

ما، ولكنه يتصرف في حياته اليومية ويرسم خططه، وكأنه سيظل سليماً معافى إلى الأبد. أعرف أن هذا صحيح على الأقل في حالتي أنا. إنى الآن في السبعين وقد بدأت أحس بأعراض الشيخوخة منذ أربع أو خمس سنوات، بل وربما قبل ذلك بالتدريج، ولكنى لم أعترف بذلك لنفسى إلا منذ شهور قليلة، كنت قبلها أشعر فى قرارة نفسى بذلك الشعور غير العقلانى بالمره، هو أن الشيخوخة لن تصيبنى. بل حتى هذه اللحظة اننى أكتب فيها هذا الكلام، لا أزال أقول لنفسى كلف شعرت بأعراض الشيخوخة، بأنها أعراض مؤقتة لا تليث أن تزول، مع أن أى عاقل لا بد أن يعترف بأن هذه الأعراض جاءت لتبقى أو لتتحول إلى ما هو أسوأ منها.

ليس هذا هو الظن اللاعقلانى الوحيد الذى يميل إليه المرء فى شيخوخته. فهناك أيضاً الظن البالغ الحماقة بدوره بأن هذه الأعراض التى أحس بها لا يراها غيرى ومن ثم فإنى لا أزال أظهر أمام الآخرين كما كنت أظهر دائماً أمامهم. لقد أصبحت أفاعاً بين الحين والآخر كلما رايت صديقاً أو زميلاً قديماً من زملاء المدرسة أو الجامعة، لم أكن قد رأيت منذ مدة طويلة، فإذا بى أجده وقد أثقلت الشيخوخة حركتة، وربما وجدت معه عصاً يتوكأ عليها، وانتشرت التجاعيد فى وجهه، ناهيك عن انتشار الشعر الأبيض وسقوط أكثره. ما أكثر ما رأيت هذا التغير فى زملاء الطفولة والصبا، ومع ذلك فأنا لا أريد أن أتعلم وأغير رأى فى نفسى. قد انتظاها بالاعتراف بأن ما حدث تغيرى قد حدث لى أيضاً، ولكنى لا أعقد هذا حقيقة فى قرارة نفسى، وما أسرع ما أصدق ما يقوله لى مجامل أو منافق من أنى لم أغير قيد أعملة منذ رأتى منذ سنوات كثيرة. بل ما أكثر ما تشدد هذه الحماقة فتمتد إلى نظرة الرجل إلى النساء، حتى بعد أن يبلغ الشيخوخة. فيظن لمجرد أنه لا يزال يشتهي المرأة الجميلة ويتمناها، أنها يمكن أيضاً أن تميل إليه وترغب فيه.

فاجأنى الشعور بالشيخوخة فى وقت ما بعد بلوغى الخامسة والستين، ولا أستطيع أن أقول متى حدث هذا بالضبط، وإن كنت الآن، بعد أن بلغت السبعين، أستطيع بسهولة عقد مقارنة بين حالى بعد حدوثه وقبلة.

لم يكن جسمى موضوعاً للتفكير، أو حتى لوعى على أى نحو كان،

فأصبحت واعياً به في فترات كثيرة من كل يوم، يعود إلى تذكيري بوجوده وجمع بسيط في هذا الفصل أو ذلك، أو رؤيتي لسلم عال، عني ارتقاء درجاته، أو أي شيء ثقيل عليّ أن أحمله. تباطأت الحركة، وأخذت أرحب بأي فرصة للجلوس، وأصبحت الضوضاء تزعجني أكثر مما كانت من قبل، بينما أصبح الهدوء التام مصدراً للمتعة في حد ذاته ولو لم يصحبه أي شيء آخر ممتع. كنت قد لاحظت من قبل إلى أي حد يتأثر سلوكنا في مختلف المجالات، بالرغبة في الحصول على إعجاب الجنس الآخر. ولكنني بعد بلوغى الشيخوخة أدركت هذا بوضوح أكبر، ودهشة أشد، إذ وجدت أن حماسي لكثير من الأمور قد أصابه بعض الفتور مع ضعف رغبتى في الحصول على هذا الإعجاب والرضا. لا أزال أجد فارقاً كبيراً، أثناء اللقاء لمحاضراتي، بين درجة سرورى بما قد يتركه حديثي من أثر طيب في المستمعين من الذكور، وبين سرورى بأى تعبير عن الرضا أو التقدير أراه على وجه امرأة جميلة بين الحاضرين، ولكن مما لا شك فيه أن الضعف الذى أصاب الرغبة في الحصول على إعجاب الجنس الآخر قد ترك أثره على درجة الحماسة لأشياء كثيرة في الحياة، من اختيار الملابس، إلى انتقاء الحديث، إلى تغنن المرء في إظهار قدراته في أحسن صورة.

ذكرنى هذا الضعف في الحماسة لأشياء كثيرة، الذى نتج عن الضعف الذى أصاب الرغبة في الظفر بإعجاب الجنس الآخر، بما كنا نشعر به في الكويت، فى منتصف السبعينات، حيث كان من الممكن بأن يقطع المرء شوارع طويلة ويدخل محلاً أو مطعماً أو فندقاً بعد آخر، فلا يصادف امرأة من أى نوع، شابة أو عجوزاً، منقبة أو محجبة أو غير محجبة ولا منقبة، فيشبع شعور بالجدب التام قد لا يدرك المرء سببه الحقيقى، ولكنه بلا شك له علاقة ما بهذا الغياب الكامل للمرأة.

مع الشيخوخة لا تضعف فقط رغباتك فيما يمكن أن يحققه الناس وتحققه الحياة لك، ولكن تضعف أيضاً، وبلا للأسف، رغبات الناس فيما يمكن أن تحققه أنت لهم. ذلك أن الحقيقة أن قدرتك على تحقيق رغبات الناس، لا بد أن تضعف مع تقدمك في السن. فالوظيفة المهمة التى كنت تشغلها، تفقدها بلوغ سن المعاش،

وقد تركت المجهود على تلبية طلبات الناس للكتابة أو إلقاء محاضرة أو الاشتراك في برنامج تليفزيونى لم تعد كما كانت، لا كمًا ولا نوعًا، بل وحتى الاشتراك فى المناسبات الاجتماعية المختلفة، كحضور حفل زواج أو تلبية دعوة عشاء، قد يضعف الأمل فيه بتكرار اعتذارك عن هذه الدعوة أو تلك، أو يضعف رغبتك فى المشاركة فى الكلام أو الضحك. لا بد إذن أن تجد عدد المرات التى يرن فيها جرس التليفون فى بيتك قد أصبح أقل بكثير مما كان، وكذلك عدد الخطابات التى تأتلك فى البريد. إنى لم أقطع بعد شوطا بعيدا فى هذا المنحدر، ولكنى أراه أمامى بكل وضوح، خاصة وأنى لا أزال أذكر ببعض الحزن، ما كان يظهر على وجه أبى فى شيخوخته، من خيبة الأمل عندما كان يرق جرس التليفون فجأة وهو جالس دون انشغال حقيقى بأى عمل محدد، فيعتبره الأمل فى أن يكون المتكلم صديقا له أو حتى شخصا لا يعرفه يحاول أن يحصل على وساطته للحصول على وظيفة أو بعثة أو ترقية، ثم تصيبه خيبة الأمل عندما يكتشف أن المكالمة لابن من أبته.

ولكنى أذكر أيضا مقالة كتبها الفيلسوف البريطانى برتراند رسل فى صحيفه بريطانية لدى بموغه الخامسة والثمانين، وصف فيها المرات المختلفة التى يتمتع بها المرء فى هذه السن الكبيرة. أذكر أنه ذكر أنه تخلص إلى الأبد من أى شعور بالغيرة وروح المنافسة والرغبة فى التفوق على الآخرين، وما يصاحب هذا الشعور أحيانا من آلام. وأضيف إلى ذلك الميزة الأكثر وضوحا والمتمثلة فى انخفاض درجة الاحتياج إلى المال مع انخفاض حدة مختلف الرغبات، وانخفاض درجة الخوف من العوز المادى لقلة المتاح من الوقت الذى يمكن للمرء فيه إنفاق ما سبق له ادخاره. بل لقد لاحظت أن خوفى من الموت نفسه قد أصبح أقل بكثير فى الشيخوخة مما كان قبل عشر سنوات أو عشرين. ربما كان السبب أن الشيخوخة، بما تنطوى عليه من ضعف مادى، تنطوى هى نفسها على شىء من الموت، ولكن مع الشيخوخة يزداد تعرض المرء للموت بصورة أخرى، إذ يزيد شيئا فشيئا عند أقرانه ومعارفه الذين سبقوه فى الرحيل، فتصبح الفكرة أقرب إلى التصور وأقل ثقلًا على النفس. أو ربما كان السبب أن ضعف الحماسة لتحقيق مختلف الرغبات يجعل الحرمان التام من تلبية هذه الرغبات أخف على النفس ويزيد من قدرة المرء على احتماله. بل

هناك أيضًا مجرد الملل . فالحياة الممتدة لا بد أن تتكرر فيها التجارب المرة تلو الأخرى ، والسرور أو الإثارة التي كانت تجلبها التجربة عندما كانت تجربة جديدة ، تفقد قوتها وجاذبيتها بالتكرار والعود ، فإذا بالمرء يضعف أيضا تطلعه إلى المزيد من تكرار نفس التجارب .

عندما أنظر الآن إلى أولادى وحفيدى ، وقد اعترتهم الحماسة لشيء لم يعد بشير لذى أى حماسة من فرط تكرار حدوثه هو نفسه أو حدوث مثيل له ، يعترينى أولاً تعجب ودهشة لا يدومان أكثر من لحظة قصيرة . إذ سرعان ما أتذكر حماسى لهذا الشيء عندما كنت أصادفه لأول مرة . فيتوقف عجبى ودهشتى ، وقد أظاھر بمشاركتهم حماستهم ، أو أكتفى بإبتسامة صغيرة ، ولكنى بالطبع لا أسمع انفسى قط بأن أذكر لهم السبب الحقيقى لهذا الفارق الكبير بين موقفى وموقفهم .

البدايات والنهايات

- ١ -

هأنذا اليوم، وقد تجاوزت السبعين من عمري، أستعرض حياتي فأجدها مليئة بالأمثلة على خيبة الأمل، وهكذا أيضاً أجده حياة كل من عرفتهم عن قرب، حتى من كان أكثرهم نجاحاً.

كان أبى يعتبر حياته ناجحة، كما يظهر بوضوح من الفقرة التى أنهى بها كتابه «حياتى»، حيث يقول إن الله من عليه بالتوفيق «فى أكثر ما زاولت من أعمال: فيما ألقت من كتب، فى عملى بلجنة التأليف، فى الجامعة الشعبية، فى الجامعة المصرية، فى الجامعة العربية، فى عمادة كلية الآداب، كذلك الشأن فى حياتى العلمية والأدبية والمالية والعائلية: نعم من الله لا أستطيع أن أقوم بالشكر عليها».

ولكنه يعبر أيضاً عن دهشته من هذا النجاح فيقول إنه يجد من الصعب تفسيره بالتحليل العقلى أو تفسيره بالتحليل الاجتماعى والنفسى، «فكم رأيت من أناس كانوا أذكى منى وأمتن خلف وأقوى عزيمة، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون فى أعمالهم إذا مارسوها، ثم باءوا بالخيبة ومنوا بالإخفاق، ولا تعليل لها إلا لأن «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

ما السر إذن فى هذا الحزن الشديد الذى كان يخيم على أبى فى سنواته الأخيرة؟ وكأنه لم يعد هناك شىء قادر على إبهاجه، لا الثناء على كتاب جديد له أو مقال نشره، ولا حصوله على أكبر جائزة أدبية من الملك، ولا منحه الدكتوراه الفخرية فى حفل مهيب فى قاعة الاحتفالات بالجامعة... إلخ.

أما أمي فربما كانت أكثر ميلا من أبي للشكوى، ولكن معظم من عرفوها يعتبرون حياة أمي ناجحة أيضاً، بمايبر جيلاها وعصرها، رغم أنها في سنواتها الأخيرة أصبحت قليلة الكلام، وفقدت الرغبة في المشاركة في أي مناسبة للمزاج أو المرح، وقد وجدت أنا في هذا دليلاً على حزن أقوى عما عهدته فيها في أي وقت مضى .

الملاحظة نفسها تنطبق أيضاً على إخوتي، وعلى كثير من أبنائهم وبناتهم، رغم أن معظم هؤلاء الأبناء والبنات لم يبلغوا الخمسين . بل لقد لاحظت حتى على تلاميذي الذين مرّ على منهم عشرات وربما مئات في كل عام، لفرة تزيد على ثلاثين عاماً، أنهم يداون حياتهم الجامعية مبشرين متفائلين، ثم أراهم وهم على وشك التخرج فإذا بهم قد خيم عليهم شيء كالخوف من المستقبل، ناهيك عما يبدو على معظمهم من خيبة أمل إذا حدث وقابلتهم بعد بضع سنوات من التخرج .

أما أنا فإني اعتبر حياتي بدورها ناجحة، ولكن ما أكثر ما شعرت به خلالها من خيبة أمل، ليس فقط فيما يتعلق بي شخصياً، بل وأيضاً بأصدقائي ومعارفي وبلدي . وكما صادفت من أشخاص كنت شديد الإعجاب بهم فظهرت لي أوجه ضعف كثيرة فيهم مع مرور الزمن، وكما علقت من آمال على تغيير سياسي في مصر ثم ظهر أن الأحوال لم تحسن بسببه بل وأصبحت أسوأ عما كانت عليه من قبل . كنت أظن أن غمطاً من أنماط الحياة نموذجي يحدثي فوجدت أنه ليس أفضل من غيره، وكنت أظن أن العلم يمدنا بمعرفة يقينية بالعالم ثم ظهر لي مدى خضوع العلماء، خاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانيات، شأنهم في ذلك شأن غيرهم، للتحيزات والأهواء . إنني أؤمن بصحة المثل الإنجليزي بأن «الفهم معناه الصفح» (To understand is to forgive)، ولكنني أظن الآن أن من الصحيح أيضاً أن المزيد من المعرفة معناه المزيد من خيبة الأمل، وأن المثل العربي القديم «أن تسمع عن المعبدى خير من أن تراه» صحيح أيضاً .

من الممكن أن نعتبر هذه الطريقة في النظر إلى الأمور مفردة في تشاؤمها، ولكنني أظن أن لها نصيباً كبيراً من الحقيقة . إذ ما الذي نتوقه غير خيبة الأمل من توالى أخبار المرض والموت، يصيبان أشخاصاً عزيزين علينا، مسنين أو في ريعان

الشباب؟ وكيف لا نتوقع خيبة الأمل مادامنا نرغب فى أشياء مستحيلة التحقيق، منها أن نعيش إلى الأبد، وفى صحة جيدة، وكذلك كل من نحب، ومادامنا نرغب فى أشياء تفوق قدراتنا؟ بل إننا نطمح إلى تحقيق رغبات متعارضة لا يمكن أن يتحقق بعضها إلا إذا فشلنا فى تحقيق رغبات أخرى. نحن نريد أكبر قدر من المال وأكبر قدر من راحة البال فى نفس الوقت. نريد احترام الناس وحبهم ونريد السيطرة عليهم أو استحوادهم فى نفس الوقت. نريد صحة الناس ونريد أيضاً الأفراد بأنفسنا. وحتى لو لم نطمح إلى شيء مستحيل التحقيق، ولا إلى أشياء تتعارض بعضها مع بعض، فإننا لابد أن نرغب فى أشياء تتعارض مع رغبات الآخرين. فأننا أرغب فى وظيفة يريدونها أيضاً غيرى، ولا يمكن أن نحصل عليها نحن الاثنين معا. وأنا أحب امرأة تحبها أنت أيضاً، ولا يمكن أن يحصل كلانا على حبها. فما الذى يمكن أن نترقبه غير خيبة الأمل؟

ولكن خيبة الأمل لها أيضاً معنى آخر، غير مجرد الفشل فى تحقيق ما نريد وهو، وبالعربية، أن نحقق بالضبط ما نريد! ما أكثر ما كتب عن السعى الخيثل إلى جمع المال الذى ينتهى بصاحبه إلى اكتشاف أن كثرة المال لم تجلب له من السرور ما كان يظنه ويأمل فيه. ولكن نفس الملاحظة تنطبق على أشياء كثيرة غير المال. لكم تمتعت فى مختلف مراحل عمري أن أرى اسمى منشوراً ومقترناً بمقال أو كتاب من تأليفى، وقد حققت هذا المرة بعد المرة، حتى أصبحت رؤية اسمى منشوراً تكاد تعادل رؤية اسم شخص آخر لا أعرفه. وعندما تقدمت فى السن فقدت الثقة فى أشياء كثيرة كنت أعلق عليها الأمل كمصادر من مصادر السرور، ثم تبين أننى بالغت فى قدرتها على تحقيق ما كنت أتوقعه.

اندهشت جداً عندما أدت بى استعراضى لكل هذه البدايات والنهايات إلى اكتشافى لهذا العدد الكبير من الأمثلة على نوع أو آخر من خيبة الأمل. مقارنة لما كتبه أبى على ظهر صورة التقطت له يوم زواجه، وما عثر فيه من آمال عظيمة لنفسه وأمه، بما رأيته مخيماً عليه من اكتئاب فى سنواته الأخيرة. خيبة أمل هذا الأخ أو هذه الأخت من إخوتى السبعة، وهذا الابن أو هذه البنت من أبنائهم وبنايتهم، إن لم

٣٣٥

يكن بسبب زواج غير موفق، أو صحة تدهورت في من مبكرة، فبسب وفاة ابن في من الشباب، أو اضطراب للهجرة والبعد عن الوطن والأهل لصعوبة الحصول على وظيفة مناسبة. . إلخ. وما أشد خيبة آمالنا جميعاً في الثورة المصرية، إذ يبدو كل ما علقناه عليها من آمال منذ خمسين عاماً وكأنه قد تبخّر، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة. بل هأنذا أنظر إلى الدولة الأوروبية التي عرفتها من قرب أكثر من أي دولة أخرى غير مصر، وتزوجت إحدى بناتها، إذ أزورها عاماً بعد عام، فأجد أنها قد فقدت بدورها كثيراً من سمات التقدم، أو ما كنا معتبره كذلك، واقتربت فيها زيادة الرفاهية المادية، في نظري على الأقل، بتدهور سياسي واجتماعي وثقافي. ولكن كل هذا يحتاج إلى الكثير من التفصيل، ولابدأ بأبي وأمي.

-٧-

لازلت أتذكر أبي، بوضوح تام، وهو جالس، منذ ما يقرب من ستين عاماً، في جلبيته الأبيض في مكانه المعتاد على الكنية الكبيرة وسط الصالة، وعلى يمينه مائدة وضع عليها عدد كبير من زجاجات الأدوية المختلفة الأشكال والأحجام، حيث كان يعتمد في التمييز بين دواء وآخر على اختلاف أحجام الزجاجات، بعد أن أصبح من الصعب جداً عليه، من فرط ضعف بصره، أن يقرأ اسم الدواء المكتوب على الزجاجات. كان يحاول أن يكتب شيكاً لمستأجر الأرض الزراعية التي يملكها، بيد مرتعشة، فعندما فرغ بصعوبة من كتابة الاسم والمبلغ، وجاء وقت التوقيع، وجد صعوبة بالغة في أن يكتب اسمه هو بالطريقة التي تعودها والتي يمكن أن يقلبها البنك، فلما اضطر إلى تمزيق الشيك وكتابة غيره، وواجه نفس الصعوبة فوجئنا بنفحاره بالبكاء، إذ وجد أنه لم يعد قادراً على القيام بهذا العمل البسيط جداً، والمهم جداً مع ذلك، والذي ظالمًا قام به دون عناء.

كان تدهور صحته ونظيره هو بلا شك السبب فيما أصابه من حزن. ولابد أن هذا التدهور هو ما جعله يفقد اهتمامه بأشياء كثيرة مما يهتم بها سائر الناس، ولم تكن تافهة لهذا الحد في نظره في الماضي. كان في سنواته الأخيرة يذهب إلى بعض

الحفلات المهمة ، في مناسبات رسمية ، فلا يرى داعياً لرابطة العنق ، بل وقد يستغنى عن حلالة ذقنه ، من فوط لا سبالانه بما يمكن أن يكون عليه منظره ، أو ما يمكن أن يكون رأى الناس في ذلك . الأغرب من ذلك لا مبالاته برأى الناس في مقالاته إلى درجة قبوله لأمر لازلت حتى الآن أتعجب أشد العجب من قبوله له . لا بد أن هذا كان قى أوائل الخمسينات ، وكانت مجلة الثقافة لازالت تصدر ولكنها لم تستمر طويلاً بعد هذا ، إذ واجهها من المصاعب المالية ما اضطرها إلى التوقف . وكان أبى يكتب فيها ، فى كل أسبوع ، مقالاً قصيراً جداً لا يزيد على مائتى كلمة أو ثلاثمائة تحت عنوان «خاطرة» . وكان يعبر عن ضيقه أحياناً بأنه لا يجد فكرة جديدة يكتب عنها مقالته ، وقد حل موعد تسليم المقال . كتبت وقتها فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمري ، ومغرمًا بكتابة بعض المقالات القصيرة ، كتبت أعثبرها «مقالات فلسفية» دون أن تستحق هذا الوصف على الإطلاق . فعرضت على أبى مرة أن أكتب أنا المقال فى ذلك الأسرع بدلاً منه ، وفوجئت بقبوله وبارساله مقالاً للمطبعة ، إذ كان هو رئيس التحرير ، ويظهر مقالى حاملاً اسمه هو . كان كل هذا مبعث سرور فائق لى ، إذ لا بد أنى ظننت وقتها أنى أوشكت أن أبلغ مكانة أبى كأديب . عندما أقرأ هذا المقال الآن لا أجده مما يسىء نشره كثيراً إلى أبى ، ولكنى أجد فيه شيئاً من الصبانية يليق بشباب صغير يقدر نفسه بأكبر سن قدرها الحقيقى . إلى هذا الحد بلغت قلة اكثراث أبى برأى الناس فيما يكتبه ، أو لعله وجد فرحى بأن ينشر لى مقالاً على هذا النحو بمجلة الثقافة ، أكبر أهمية من أن يقرأ الناس له مقالاً جيداً .

لازلت أشعر ببعض الألم ووخز الضمير حتى الآن ، كلما تذكرت منظر أبى وهو جالس فى الصالة وحده ليلاً ، فى ضوء خافت ، دون أن يبدو مشغولاً بشيء على الإطلاق ، لا قراءة ولا كتابة ، ولا الاستماع إلى راديو ، وقد رجعت أنا للتوى من مشاهدة فيلم سينمائى مع بعض الأصدقاء . أحنى أبى فيرد التحية ، وأنا متجه بسرعة إلى باب حجرتى وفى ثبثى أن أشرع فوراً فى النوم ، بينما هو يحاول استبائتى بأى عذر هو وبأى من وحدته ، وشوقاً إلى الحديث فى أى موضوع . يسألنى

أين كنت فأجيبه، وعمّن كان معنى فأخبره، وعن اسم الفيلم فأذكره، كل هذا بإجابات مختصرة أشد الاختصار وهو يأمل في عكس هذا بالضغط. فإذا طلب مني أن أحكى له موضوع الفيلم شعرت بضيق، وكأنه يطلب مني القيام بعمل ثقیل، أو كان وقتي ثمين جداً لا يسمح بأن أعطى أبى بضع دقائق.

لا أستطيع حتى الآن أن أفهم هذا التبرّم الذي كثيراً ما يشعر به شاب صغير إزاء أبيه أو أمّه، مهما بلغت حاجتهما إليه، بينما يبدى متّهى التسامح وسعة الصدر مع زميل أو صديق له في مثل سنّه مهما كانت سخافته وقلة شأنه. هل هو الخوف المستطير من فقدان الحرية والاستقلال، وتصور أبى تعليق أو طلب يصدر من أبيه أو أمّه وكأنه محاولة للتدخل في شئونه الخاصة أو تقييد لحرية؟ لقد لاحظت أحياناً مثل هذا التبرّم من أولادى وأنا عندما أكون في موقف مثل موقف أبى الذى وصفته حلاً، وإن كنت أحاول أن أتجنب هذا الموقف بقدر الإمكان لما أتذكره من شعورى بالتبرّم والتأفف من مطالب أبى. ولكنى كنت أقول لنفسى إذا اضطرت إلى ذلك نأبى لا أرغب في أكثر من الاطمئنان على ابنى هذا، أو في أن أعبر له عن اهتمامى بأحواله ومشاعره، فلماذا يعتبر هذا السلوك الذى لا باعث له إلا الحب، وكأنه اعتداء على حرّيته واستقلاله؟



كانت أمى بوجه عام أكثر استعداداً للفرح وأكثر تفاؤلاً بالحياة من أبى، ومع هذا فقد أصابها هى أيضاً في سنواتها الأخيرة مثلث أصاب أبى من قلة الاكترات بما يحدث.

كانت أمى تقول إنها قبل زواجها من أبى، عندما كانت تقيم في بيت قريبها الثرى، بعد أن هربت من بيت خالتها، لم تكن تكفّ عن الضحك والمزاح مع بنات الأسرة اللاتى يقاربنها في السن، ثم كفّت عن ذلك فجأة بانتقالها إلى بيت الزوجية حيث وجدت الزوج دكتاتوراً متسلطاً، قليل الكلام ولا يكاد يعرف المزاح. وقد ظلت سنوات طويلة تحاول أن تحقق لنفسها الاستقلال المادى عنه، حتى تستطيع أن تواجه أبى احتمال لتكره لها أو لهجرها وتزوجه بغيرها. وقد استطاعت في

النهاية، بما كوّنته من مدخرات، أن تظفر بقدر كبير من الحرية وكان هذا في السنوات الأخيرة من حياة أبى مع تدهور صحته، واضطراره إلى التنازل عن الكثير من سلطاته. أذكر أنها، بعد أن تحقق لها هذا القدر الكبير من المدخرات، وهذه الدرجة من الحرية في اتخاذ القرارات، رأت مرة في أحد المحلات التجارية لوحة معدنية صغيرة كتبت عليها الآية القرآنية: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»، ففرحت بها واشترتها وعلقتها فوق سريرها. وكانت كثيراً ما تردد هذه العبارة كلما يحلو لها أن تقارن بين حالها في مستقبل حياتها مع أبى وحالها بعد أن أصبح لديها ممتلكاتها الخاصة واكتسبت حريتها في تصريف أمورها. هل تطرد هذا الخادم أم تستبقه؟ هل توجر أحد أدوار البيت الذي تملكه أم لا توجره؟. وكان تكرارها لهذه العبارة: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»، يتطوى دائماً على إشارة خفية إلى أبى، فكان الله لم ينصرها إلا على أبى، أو كان العلاقة بينهما كان لابد أن تنتهي بغالب ومغلوب، مما يمكن أن يشير التساؤل عما إذا كانت العلاقة الزوجية هي دائماً علاقة بين شخصين متحابين، أم كثيراً ما تكون أشبه بالعلاقة بين متصارعين؟

ولكن أسمى بدت عليها هي أيضاً بوادر الحزن وبعض الاكتئاب في سنواتها الأخيرة. لم أكن يجوارها خلال سنتها الأخيرة، ولكنى أذكر جيداً كيف أصبحت أقل مرحاً بكثير في السنتين السابقتين على سفرى في البعثة إلى إنجلترا، وأقل ميلاً لتبادل الحديث. كان وراء ذلك بلا شك، كما كان الأمر مع أبى، تدهور الصحة مع تقادم مضاعفات مرض السكر في حالتها. وإهمالها الشديد في مراعاة ما يجب أن تتناوله أو لا تتناوله من طعام. ولكن ربما كان وراء هذا الإهمال الواضح لصحتها شعورها بأنها لم تعد لها مهمة واضحة في الحياة. كان أبى قد مات قبل بضع سنوات، فلم يعد هناك من تسهر على العناية به وخدمته. وكان الأولاد والبنات قد تزوج معظمهم أو سافروا للدراسة أو العمل خارج مصر. فما هي بالضبط الوظيفة الضرورية التي تؤديها؟ وإذا لم توجد هذه الوظيفة الضرورية فما هو بالضبط الداعى للنصياع لأوامر الطبيب فيما يتعلق بما يجب تناوله أو عدم تناوله من طعام؟

لم تكن أسرة زوجتي الإنجليزية أسرة متدينة بأى شكل من الأشكال، ولم يكن للدين وطقوسه أثر على حياة الأسرة اليومية ربما باستثناء تعودّ والدّة زوجتي الذهاب مرة واحدة في العام إلى الكنيسة للاشتراك في غناء بعض الأناشيد الدينية بمناسبة بدء عام جديد، بالإضافة إلى الاحتفال كل عام بعيد الميلاد، أى الكريسماس، بشراء شجرة وتزيينها، وتبادل الهدايا وإقامة غداء وعشاء أوفر من المعتاد. وقد تربت زوجتي وترعرعت على فكرة أن تزيين شجرة الكريسماس، كبيرة أو صغيرة، طبيعية أو صناعية، من الطقوس التى لا يجوز إهمالها، على أن يحتفظ بهذه الزينات من كور ملوّنة إلى قماشيل زجاجية، إلى شرائط مذهبة أو مفضضة، من عام لآخر، ويضاف إليها الجديد فى كل عام. وكانت جوارب الأطفال تملأ قبل نومهم فى الليلة السابقة على الكريسماس، وهى ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر، بمختلف أنواع الحلوى والهدايا، ثم تدسّ الجوارب تحت الأعطية بعد أن ينام الأطفال، حتى يتحمّسوا بإقدامهم عند استيقاظهم فيدأون يومهم بسرور غامر وهم يفحصون ما جاءهم به «الأب كريسماس» أثناء نومهم، ليتحققوا عما إذا كان هذا الأب العطوف قد تذكر تفضيلهم لنوع معين من الحلوى على غيره، وذلك قبل أن يجتمعوا حول الشجرة مع بقية العائلة، بعد أو قبل وليمة فاخرة، لفتح الهدايا الأساسية، وقد وضعت كلها حول الشجرة الجميلة وغلّقت كلها بأوراق مبهرجة بألوانها ورسومها، وقد وضعت على كل هدية بطاقة صغيرة، جميلة بدورها، تحمل اسم المهدى والمهدى إليه، مع عبارة قصيرة تشوّق المهدى إليها إلى معرفة ما الذى تحتويه هذه اللفافة الثمينة. وأحياناً تُغلّف الهدية بلفافة فوق أخرى حتى يستغرق استخراج المهدية أطول وقت ممكن، فإذا بعملية فتح الهدايا تستغرق عدة ساعات تتخللها صيحات الفرح وتقبيّل الأطفال لذويهم، اعترافاً منهم بكرمهم وذكائهم فى اختيار الهدايا المرغوبة.

لم يكن من الممكن لى أن أرفض استمرار هذا التقليد الجميل بعد الزواج، ولم

يبدى لى أى سبب مقبول لحرمان زوجتى من استمرار هذه العادة البهيجة . فلما جاءنا أطفال ، وعرف أطفالنا ما الذى يجرى فى الكريسماس ، لم يكن هناك أى احتمال للتكوص عن هذا الاحتفال ، من اقتناء الشجرة وتزيينها ، إلى تبادل الهدايا وملء الجوارب ، وإقامة عشاء أو عشاء شهى ، إلى ادعاء وجود شخصية حقيقية هى «الأب كريسماس» ، الذى ينزل إلى البيت من المدخنة المتصلة بالمدفئة . إذ كانت هناك مدخنة ومدفئة ، أو من الباب أو النافذة مهما كان إغلاقهما محكما ، بعد أن يستغرق الأطفال فى النوم فلا يحسّون بمجيئه .

بدأنا هذا التقليد بدعوة أشقائى جميعا وأزواجهم إلى العشاء فى بيتنا بالمعادى منذ أكثر من أربعين عاماً ، وطوال هذه الفترة لم نتوقف عن إقامة هذا الاحتفال بالكريسماس فى نفس البيت ، وعن دعوة نفس الأشخاص ، باستثناء السنوات الأربع التى قضيتها فى الكويت والسنتين اللتين قضيتاهما فى أمريكا ، وسنة ألقينا فيها الحفلة بسبب وفاة أخى حافظ ، وأخرى بسبب مرض شديد أصاب طارق ابن أخى عبد الحميد . نعم ظلت الحفلة هى الحفلة ، تكرر لمدة أربعين عاماً ، وتقام فى نفس البيت ، ويدعى إليها نفس المدعوين ، وأصناف الطعام المقدمة لا تتغير كثيراً ، فمعظمها هى الأطباق التى كانت تقدم فى حفلة الكريسماس فى بيت والدى زوجتى فى إنجلترا ، ويعبر المدعوون عند انصرافهم ، فى كل مرة ، عن شكرهم العميق لزوجتى لما تحمستته من تعب ، ولى لأننى الوحيد من بين الإخوة الثمانية ، رغم أنى أصغرهم جميعا ، الذى يواصل هذا الجهد لجمع شمل العائلة كلها ، عاماً بعد عام .

مع كل ذلك ، لم يكن من الصعب على أحد منا أن يدرك أن هذا الاستمرار فى إقامة حفلة الكريسماس على هذا النحو ، كل هذه المدة الطويلة ، لم يكن إلا ما بدا على السطح ، وأن ما يجرى تحت السطح أصابته تغيرات كبيرة وعميقة . بل حتى ما بدا على السطح أصابته بدوره تغيرات كبيرة . فقد اختفى البعض اختفاء تاماً ، إما بالموت أو الطلاق ، وهجر البعض إلى بلاد بعيدة ، وشاخ آخرون فأصبح الحديث معهم مستحيلاً أو غير مجد ، إم لضعف الاستجابة للحديث أو فقد القدرة على

سماعه أصلاً. وكبير الأولاد والبنات وتزوجوا، وسرعان ما حلّ بكثير منهم الرجوم، إما بسبب زواج غير سعيد أو بسبب طلاق غير سعيد أيضاً. وزادت الأعباء على الجميع، إن لم تكن أعباء مالية فهي أعباء مجرد التقدم في السن، وتتابع الأحداث المخيبة للأمال، سواء كانت آمال الشخص لنفسه أو لأولاده أو لبلده.

عندما لاحظت أنا وزوجتي أن المرح الذي كان يسود الاحتفال في السنوات الأولى ضعف بشدة في السنوات الأخيرة، فكّرنا في أن ندعو، إلى جانب الأصدقاء وأولادهم، أولاد الأولاد أيضاً، ومن ثم ظهر في الحفلة أولاد وبنات لم يبلغوا العشرين وبعضهم لم يبلغ العاشرة، ولكننا لاحظنا أن الأمر لم يتحسن كثيراً. لقد بدا وكأن هؤلاء الصبية قد أصابهم هم أيضاً شيء شبيه بذلك الشعور بخيبة الأمل الذي أصاب آباءهم وأمهاتهم، وإن اختلفت الأسباب.

- ٤ -

كان أكبر إخوتي (محمد) عندما بدأنا دعوة العائلة لحفلة الكريسماس في سنة ١٩٦٥ قد تزوج للمرة الثانية بعد أن طلق زوجته الأولى التي أنجب منها بنتين. كانت نهال أصغر البنتين، وقد بدت لي عندما رأيتهما آخر مرة، وكانت في نحو الخامسة والعشرين، فتاة رائعة الجمال، وكانت قد أنجبت بدورها بنتين جميلتين. لم أكن أرى نهال كثيراً، بل ربما كان كل عدد مرات مغابلتى لها في حياتي كلها لا يزيد على أربع أو خمس مرات. كان أخي محمد، أثناء زواجه الأول يعيش في الإسكندرية، إذ كان مدرسا بجامعة، وبعد طلاقه وزواجه الثاني ظلت البنتان تعيشان مع أمهما ولا تزوران أباهما إلا عبر فترات طويلة، كما يحدث كثيراً بعد الطلاق وزواج الأب من جديد.

كانت البنتان من الزواج الأول شاهدان ما يعيش فيه أبوهما وزوجته الجديدة من بحيرة، وما يحيط به الأب البنتين الأخريين من تدليل واهتمام زائد عن الحد، ويزيد بلا شك عما تحظيان هما به من اهتمام الأب وتدليله، خاصة وقد اعتلى

الأب أعلى المناصب بعد طلاقه ، وتدفع بين يديه المال الذى أتفق أكثره بالطبع على زوجته الجديدة وبنيتها .

لم يبذل الأب جهداً فى تزويج البنين الأولين كالذى بذله مع الآخرين ، ولكنه قام ببعض الواجب عليه إزاء البنين ، فعشر لكل منهما على شقة متواضعة وساعدهما فى دفع قيمة الخلو المطلوب ، وكان من نصيب « نهال » شقة لا بأس بها فى عمارة حديثة التأسيس فى شارع الهرم .

كان هذا فى أواخر السبعينات ، عندما كثرت أحداث سقوط العمارات ، بسبب ميل بعض المقاولين إلى استخدام أسمنت مغشوش ، أو التوفير فى أسياخ الحديد المستخدم فى البناء . فسمعت عن عمال محارة بسطاء تحولوا إلى مليونيرات خلال سنوات قليلة عن طريق بناء مثل هذه العمارات ، مع إهمال شنيع من جانب السلطات المانحة لتراخيص البناء ، وشيوع تقديم الرشاوى للحصول على هذه التراخيص للتخلص من اتباع القواعد التى يفرضها القانون . هكذا فوجئنا فى ظهر أحد أيام الجمعة بسماع خبر سقوط العمارة التى تسكنها نهال فى شارع الهرم . وهرع أخى ومطلقة إلى مكان العمارة ، وهرعت أنا بدورى لأكون بجانبه خلال هذه الساعات الفظيعة . وجده حالما فى مدخل فندق صغير قائم أمام مكان العمارة ، وعلى بعد خطوات قليلة جلست مطلقة التى لم أكن قد رأيتها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً . كانت مثل أخى ، قد تجاوزت الستين ، وبدت سيدة محطمة تماماً وقد وضعت رأسها بين كفيها دون أن تبادل أحداً الحديث . كانت العمارة ذات الطابق العشرة قد تحولت إلى أنقاض لا يزيد ارتفاعها على ارتفاع طابق واحد أو أكثر قليلاً ، ومن ثم كان الأمل فى عثور المتقنين بين الأنقاض على أى شخص حى ، ضئيلاً بل فى حكم المستحيل . وسمعت بعض التفاصيل عما حدث . كانت نهال وزوجها وطفلتها الصغيرتان اللتان كانت أكبرهما فى الخامسة والأخرى فى الثالثة من عمرهما ، إحدى أسرتين اثنتين سكنتا هذه العمارة الجديدة . ولما استيقظوا فى الصباح لاحظ الزوج شرخاً فى العمارة مع سقوط بعض التراب من السقف ، فاستدعى البواب الذى اتصل بصاحب العمارة فطمأنه على أن كل شيء على ما

برام . وذهب الزوج لأداء صلاة الجمعة في مسجد قريب وترك في البيت زوجته نهال وطفعتها . ثم حدث ما حدث ، وظللنا نراقب أعمال التنقيب حتى المساء دون أن يعثر على شيء . وأخذت أتصور ما لا بد أن يكون قد مرت به نهال والطفلتان من ذعر وخوف منقطعى الظنير ، منذ اللحظة التي سقطت فيها بعض قطع السقف أو أحد الحوائط إلى أن فارقن الحياة . لم يكن هناك شيء يمكن أن أقوله لأخى أو لمطلقة لتخفيف من وقع الحادث . ولكن أدهشتني بضعة أمور .

هأنذا واقف أشهد منظرا من أكثر المناظر مأساوية . عمال يقلبون الأنقاض أملا في أن يعثروا على جسم امرأة أو طفلة على قيد الحياة ، مع أن كمية الأنقاض المهيرة تكفى بثقلها وحده أن تقضى على أى شيء حى . ولكن وجوه العمال ونوع الكلام الذى يتبدلونه أثناء عملهم لا يختلف عما يمكن أن تكون أو أن يتفوهوا به لو كانت المهمة الموكولة إليهم عادية تماما ولا تنطوى على أى مأساة ، كبناء عمارة جديدة فعلا . والأب جالس أو واقف فى ردة الفندلق ولكنه متماسك لا يمكن أن يخمن أحد إذا رآه سبب مجيئه إلى هذا المكان ، وهو قادر على تبادل الحديث معى أو مع غيرى ، أى أن يتصرف بذنه عن التفكير فيما يجرى أمام عينيه وما يتوقع أن يسفر عنه البحث وسط الأنقاض .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى ألاحظ فيها شيئا كهذا ، ولكن المفارقة هنا بدت لى أكبر منها فى أى مرة سابقة : المفارقة بين حدث الموت وطريقة تلقى الناس له ، حتى ولو كانوا من أقرب المقربين إلى الشخص المفقود . للخبر وقع شديد فى البداية ولكن ما أسرع ما يألف الذهن الخبر ويتعايش معه . لقد ظلت فترة طويلة لا أستطيع خلالها أن أتصور كيف يمكن أن تعيش أى أم أو أب عند فقد الابن أو البنت ، أو كيف يستمر العاشق الولهان فى الحياة بعد فقد حبيبته . . الخ . ولكنى صادفت بعد ذلك ، المرة تلو المرة ، ما يبين لى خطئى ، إذ وجدت قدرة الإنسان على التأقلم مع أشد الأحداث إيلا ما أكبر كثيراً مما كنت أتصور .

ومع مرور بضعة أيام على هذا الحادث ، تأكد لى هذا أكثر فأكثر ، وكانت النتيجة مزيجاً من الارتياح والفرح فى نفس الوقت . الارتياح لأن الألم أقل بكثير مما كنت

أتوقع، والفرع من حجم القسوة التي تبين لى أنها كامة فى الجميع، بدرجة أكبر بكثير أيضاً عما كنت أظن .

-٥-

عندما كنت أنا وزوجتى على الباخرة التى أفلتتا من أوروبا إلى مصر، لأول مرة بعد زواجنا، وأخذت أصف لها أشعائى وغط حيلتهم، واحداً بعد الآخر، قمهيدا لفسائنها الأول بهم، حذرتها من أنها قد لا تستطيع مقابلة أخى عبد الحميد إلا بصعوبة، بسبب انشغاله المستمر ببحوثه العلمية وتجاربه فى مركز البحوث بالدقى، بالإضافة إلى وظيفته كأستاذ فى كلية الهندسة . وقد ظلت زوجتى تذكرنى بما قلته لها عن عبد الحميد، المرة تلو الأخرى، لعدة سنوات بعد ذلك، إذ أن الذى حدث كان العكس بالضبط . فمن بين الإخوة جميعا لم تكن نلتقى بأحد أكثر من لماننا بعيد الحميد، وكان يبدو وكأنه لا عمل له ولا وظيفة . ثم فوجئنا بقطعه التام عن أى عمل، سواء فى الجامعة أو مركز البحوث، بل وعن أى قراءة أو كتابة، عدا كتابة بعض الخطابات القصيرة لابنه المقيم بالنمسا، والتوقيع على بطاقات التهئة بالكريسماس لأقارب زوجته النمساوية . كان سبب هذا التغير الذى طرأ عليه مذهلا وغير متوقع بالمره .

فبعد عودتنا أن وزوجتى إلى مصر فى ١٩٦٤ بأسابيع قليلة بدأت تظهر على عبد الحميد أعراض مرض نفسى عضال لم نستطع تفسيره . بدأ يتكلم عن أشخاص يريدون إيذائه ولا يكفون عن مضايقته بكلمات تلفونية غير مفهومة، دون أن ينصح عمن يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص أو عن السبب الذى يمكن أن يدفعهم إلى مضايقته . ثم بدأ يعامل بعض الناس البسطاء، كواب عمارته مثلا، أو المشرف على حمام السباحة بالنادى الذى يذهب إليه، بغلظة شديدة ويهينهم دون مبرر رغم إبدائهم منتهى الصبر معه . كان حديثه يتضمن إشارات متكررة إلى جهاز المخابرات أو المباحث العامة، أو إلى الأستاذ الروسى الذى كان يتعاون معه فى تأليف كتاب يتعلق بتجاربه فى مركز البحوث قبل إصابته بهذا المرض مباشرة، وكان موضوع

الكتاب ذات صلة باستخدامات الطاقة النووية . كما كان كثيراً ما يربط ، على نحو غير واضح بالمرّة ، بين ما يحدث له وما يحدث لمصر والعالم ، ويستخدم أثناء ذلك كلمة إنجليزية كانت تتردد كثيراً على لسانه وهي كلمة الـ (system) وكان هناك قوة واحدة تحكم العالم ، اختار هذه الكلمة اسماً لها . وترسم مجرى الأحداث هنا وهناك ، حتى ما بدأ لنا تأفها . فإذا طلبنا منه الاستفاضة في شرح كنه هذا الـ (system) وأهدافه ، ضحك منا ولم يترسل في الكلام . فإذا تطوعنا نحن بتفسير بعض الأحداث على نحو نظن أنه يتفق مع نظريته ضحك أيضاً وقال إن هذا هو المستوى الأول أو الثاني من مستويات الفهم ولكننا لازلنا أبعد ما نكون عن فهم حقيقة هذا الـ (system) .

كنت أجد في كلامه وهو يحاول شرح ما يحدث في العالم جاذبية شديدة وإن لم يكن متسقاً دائماً ولا واضحاً ، كما وجدت جاذبية أشد في كثير من القرارات التي اتخذها وتعلّق بنمط حياته والتي نفّذها بصرامة متقطعة النظير . كان انقطاعه التام عن التدريس ، مع استمرار حصوله على المرتب ، بل وعلى كل العلاوات التي يحصل عليها زملاؤه في الجامعة ، ينطوي على تمرد بالغ وجراًءة إرادة عن الحد ، ولكنني كنت أعجب بكل ما أبداه من تمرد على غط حيّاتنا الممّعن في النهم الاستهلاكي دون أن أستطيع أن أجاريه في هذا التمرد .

استغنى عن السيارة ، وصار يذهب حيث يشاء مشياً على قدميه ، بما في ذلك ذهابه لشراء حاجيات المنزل من مأكولات ، إذ استغنى أيضاً عن الحدم وقامت زوجته بكل الأعمال اللازمة للطهي والتنظيف . لم يستكف أو يشعر بأى غربة في أى من ذلك ، ولا في استخدام المواصلات العامة التي لم يستخدمها بعض إخوتي منذ عشرات السنين ، وبدلاً من ذلك وكأنه السلوك الطبيعي ، بل ولم يلاحظ أنه يقوم بأعمال غير مألوفة . امتنع أيضاً عن قراءة الصحف انقطاعاً تاماً ، ومن ثم لم يعد يفهم ما الذى يفصله بخروج هذا الوزير من الوزارة أو بتأليف ذلك الحكومة جديدة . وقد قال لى مرة ، تعليقاً على شكواى من الحالة التي وصلت إليها الجرائد المصرية «يا جلال هذه الجرائد لا تصدر لأمثالك ، بل لنوع مختلف جداً من الناس» . وكنت

أشعر بأن كلامه فيه شيء مهم صائب، ولكنه لم يكن قادراً على الاسترسال في توضيح ما يقصد، ولم أكن أنا قادراً على الاقتداء به.

بعد أن انقطع انقطاعاً تاماً عن أى عمل خارج المنزل، وتوقفه تماماً عن التدريس وعن القراءة فى مجال تخصصه، وهو فرع من فروع الهندسة الكهربائية، أصبحت تسليته تنحصر فى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية من محطة الإذاعة المصرية، وفى رسم بعض الصور البسيطة غير الملونة، والخروج لشراء الأشياء الضرورية التى تحتاجها زوجته. ولكن كانت أكبر متعة يحصل عليها هى فى الذهاب ثلاث مرات كل أسبوع، فى أوقات محددة لا تتغير، إلى النادى القريب من بيته، فيجربى حول الملعب عدة مرات، ثم يسبح فى حمام السباحة عدداً ثابتاً من المرات ذهاباً وإياباً، ثم يتلقى دشا ساخناً ثم بارداً، ويعود إلى منزله ليتناول غداء خفيفاً فى الثانية عشرة ظهراً ثم يتام نوما هائناً.

كان يقول لى: عندما أسأله عما إذا كان لازال مواظباً على الجرى والسباحة، إن هذا هو السبب الوحيد لديه للاستمرار فى الحياة، إذ ما جدوى الحياة إن توقف عن السباحة والجرى؟ وعندما أصيب مرة بأزمة قلبية - نصحها الطبيب وشدد عليه بأن يمتنع عن الجرى والسباحة، استخف الطبيب استخفافاً تاماً، وعاد بعد شفائه مباشرة إلى ما كان يفعله، واستمر على هذا سنوات كثيرة، يجرى ويسبح، حتى قارب الثمانين دون أن يلحقه من ذلك أى ضرر.

كنا، أنا وأخى أحمد، قد اضطررنا فى بداية هذا التغير الذى طرأ على عبد الحميد، لاتخاذ بعض الخطوات الحاسمة لمنع مزيد من التدهور فى حالته النفسية، خاصة وأن زوجته جاءتنا يوماً وهى تبكى وفى حالة فزع شديد، لتخبرنا بأحداثه بالضرب دون سبرر على بواب العمارة. اقتنعنا بضرورة اللجوء إلى طبيب نفسى الذى رأى ضرورة دخوله المستشفى وتلقيه بعض الصدمات الكهربائية. حدث هذا مرتين ثم استقرت حالته ونمط معيشته على ما وضعت، وظل على هذه الحال نحو أربعين سنة، حتى بلغ التاسعة والسبعين.



لا بد أن عبد الحميد قد شعر بما أكنه في نفسه من حب له، ومن إعجاب خفى يتمط حياته، ويكثر من آرائه ومواقفه، فوثق بي واستراح إلى وأبدى نى من المودة أكثر عما كان يبدى لبقية إخوتى. لم يكن يستطيع مجاراتى فى الإنفاق، إذ لم يكن له دخل غير مرتبه، وما تحصل عليه زوجته مقابل بعض الدروس الخصوصية، فكان يستحيل عليه الذهاب إلى نفس المطاعم التى أذهب إليها أو مجاراتى فى الذهاب إلى حفلات الموسيقى العربية التى تقام فى الأوبرا، أو حتى فى زيارة بعض الأقارب الذين يسكنون بعيدا عن منزله، ما لم أصحبه هو وزوجته فى سيارتى، أو أضعه لغداء أو عشاء فى مطعم أو لحفلة موسيقية فى مناسبة تبرر أن أدفع أنا تكاليفها. ولكن الشيء الذى أبدى سعادة غامرة به هو الذهاب لقضاء يومين أو ثلاثة على ساحل البحر الأحمر فى فندق صغير بديع بالقرب من مدينة رأس سدر، ما أكثر ما ذهبت إليه نحن الأربعة، فإذا بعبد الحميد، حتى وهو فى التاسعة والسبعين، يقفز إلى الماء محرد وصوله ويسبح فى الماء الشديد البرودة، وكأنه سمكة أعادها صاندها إلى البحر بعد أن رأى عذابها على البر.

كنت أجد عبد الحميد، رغم كل ما مر به من متاعب نفسية، ورغم قلة دخله بالمقارنة ببقية الإخوة، أهدأ بالاً وأكثر رضا بحياته من جميعا. صحيح أنه منذ أصابه ذلك المرض النفسى فقد مره القديم وقدرته على الاسترسال فى الضحك، فضلاً بالطبع عن توقفه عن القيام بأى عمل «منتج»، ولكنى نادراً ما رأيت منه أى دليل على شعوره بالقلق، أو سمعت منه تعبيراً عن سخط أو تلهف على أمل صعب التحقيق. كان ولده الأكبر يقيم بالنسب فكان عبد الحميد يذهب كل بضع سنوات لزيارته ويستمتع أثناءها بالسير فى الجبال. وقضى ابنه الأصغر سنوات كثيرة فى ماليزيا فى مركز لتعليم الغوص، فكان عبد الحميد يذهب إليه المرة تلو الأخرى لقضاء شهر أو أكثر، فيستمتع بتجربة مناخ جديد وغط مختلف من الحياة، فى ظل كرم بالغ وحب حقيقى من ابنه وزوجته السودانية. كان النمط الطبيعى الذى اختاره لحياته، وتناوله لطعام بسيط دائماً وفى مواعيد ثابتة، وموافظته على اجبرى والسباحة فى أى ظرف من الظروف ومهما كان الجو، مصادر كافية للرضا بالحياة

وهذوء البال ، بل لعل هذا النمط من الحياة هو الذى خلّصه تمامًا من مرض السكر الذى أصيب به قبل أن يبلغ الخمسين ، وحافظ له على نشاطه وقدراته البدنية حتى بلغ التاسعة والسبعين ، عندما حدث لآبائه الأصغر ذلك الحدث الفظيع .

كان طارق ، ابنه الأصغر ، شاباً رائعاً من أكثر من ناحية . كان طويلاً عريضاً وسيماً ، نشيط العقل والجسم ، ولكن كان أكثر ما يميزه عشقه للطبيعة ، وهى صفة نادرة فى المصريين ولكنها كانت موجودة فى آبيه وقوية جداً عند أمه . علّمه أبوه الملاحه فى النيل وهو صغير . فأصرّ عندما كبر على أن يتعلم ابنى وابنتى الملاحه بدورهما وأن يكون هو معنهما . وجرب مرة الغطس فى أحد مراكز الغطس فى شرم الشيخ فهام حياً بما رآه تحت الماء من أسماك رائعة الألوان وشعب مرجانية . ثم أراه بعض الغربان فى سماء جمال الصحراء فعشقها أيضاً . أصبحت شرم الشيخ أحب مكان إلى قلبه ، يقضى فيه شهوراً متتالية ، حتى وهو لا يزال طالباً فى كلية التجارة ، ويبيت عذة ليال فى الصحراء القريبة منها ، فإذا جاء إلى القاهرة مضطراً لأداء امتحان أو تجديد بطاقة ، أنهى مأمورياته فى أقصر مدة ممكنة إذ لم يكن يرى فى القاهرة ، على حد قوله إلا «صندوقاً كبيراً للقمامة» ، وعاد بسرعة إلى شرم الشيخ .

عندما اضطر طارق إلى القيام بعمل دائم لكسب قوته ، اشتغل مرشداً للسانحين فى الغطس فى شرم الشيخ ، وأخّر من المال ما مكّنه من الإقامة بضع سنوات فى النمسا حصل خلالها على الماجستير فى العلوم السياسية ، ثم سمع أن من الممكن أن يحصل على الدكتوراه من إحدى جامعات ماليزيا بنفقة أقل مما تتطلبه الدراسة فى أوروبا ، فضلاً عن توفر مراكز الغطس فى ماليزيا أيضاً ، فذهب إلى كوالا لامبور وحصل منها على الدكتوراه ، ولكنه فضل بعد ذلك أن يكسب رزقه من عمل إلى جوار البحر .

بعد أن حلت الأزمة الاقتصادية بماليزيا فى ١٩٩٧ التى أودت بجزء كبير من مدخراته ، عاد إلى شرم الشيخ ، وبدأ سعيداً هو وزوجته السوديه التى تعرّف بها فى ماليزيا ، ووجد هو وزوجته عملاً فى أحد المراكز السياحية وسط مجموعة من الأصدقاء الذين يشاركونهما عشق الطبيعة وكراميه حياة المدن الكبيرة . ولم تكن

زوجته السوديّة أقل حماساً منه لقضاء النهار في الغطس والليل في الصحراء . ثم سمعنا فجأة بإصابته بصداع شديد ظنّه في البداية أمراً تافهاً ثم تبين ، عندما جاء للكشف في القاهرة ، أنه ناتج عن ورم في المخ ، لم يستطع أسهر أطباء فيينا علاجه ، فمات في بيت أبيه وأمه في القاهرة بعد عام ونصف من بداية شعوره بالمرض ، وهو في السادسة والأربعين من عمره .

لم يثر أى شك حول المكان الذي سيدفن فيه طارق ، فقد كنا نعرف أنه اختار مكاناً جميلاً على ربوة عالية في الصحراء ، على بعد خمسة كيلو مترات من شاطئ البحر في شرم الشيخ ، وأخبر زوجته وأصدقاءه بأنه لا يريد أن يدفن في أى مكان غيره . وقد رتب أصدقاءه المقيمون في شرم الشيخ كل شيء . بل وحضروا بالسيارات من شرم الشيخ إلى القاهرة لنقل جثمانه ، واستخرجوا كل التصريحات المطلوبة لمرور السيارات حتى مكان الدفن . سافرت زوجتى مع الموكب لتكون سنداً لأمه في الطريق وأثناء مراسم الدفن . وحكت لى زوجتى بعد عودتها أن أختى عبد الحميد بدا طبيعيّاً تماماً ومتناسكاً ، وأنه لم ينقطع عن الحديث طوال سيره إلى أعلى الربوة التى تم فيها الدفن .

كان عبد الحميد طوال شهور المرض وثقاً تماماً الثقة بأن ابنه سيتم شفائه ، رغم فقدنا نحن لأى أمل بعد قراءة تقرير الطبيب المصرى . وعندما خيّرنا الطبيب المصرى ، بعد أن اشتد المرض ، بين تركه يموت بالتدريج وبين إجراء عملية أخرى الأمل في الشفاء بعدها ضعيف جداً ، مع احتمال قوى للبقاء بضع سنوات أخرى في حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، انضم إلينا عبد الحميد في اختيار الحل الأول ، إذ أكدت لنا زوجة الابن أن هذه كانت رغبة طارق التى لاشك فيها والتى عبّر عنها قبل أن يفقد وعيه . فلما مات انقطع عبد الحميد عن اتباع نظامه اليرمى ، من السير إلى النادى ثم الجرى والسباحة ثم شراء حاجيات المنزل . . الخ . ولكن هذا الانقطاع لم يستمر أكثر من شهر عاد بعده إلى نفس نظامه القديم ، وتساءلنا ، بينما وبين أنفسنا ، عما إذا كان قد استطاع حقاً أن يتغلب على أحزانه . كان كثير الصمت قبل وفاة ابنه ، وظل كثير الصمت بعدها ، فلم تكن نعرف بالضبط نوع

الأفكار التي تدور بذهنه . ولكن الأمر اتضح لنا ، عندما تدهورت صحة عبد الحميد فجأة تدهورا ملحوظا ، وفقد القدرة على المشي أكثر من يضع خطوات ، وتذكرت قوله القديم عن فقدان الحياة أى معنى ، فى نظره ، إذا فقد القدرة على الجرى والسباحة .



بمرو سنة بعد أخرى ، فقدت واحداً بعد آخر من إخوانى ، وهو ما كان لابد أن يتوقعه آخر العنقود الواقف فى آخر الصف ، بشرط ألا يظن أن الترتيب سيرامى بدقة كاملة . فقدت أولاً أختى نعيمة فى ١٩٨٣ ، وهى لم تتجاوز الثانية والمستين ، وكانت حزينة فى سنواتها الأخيرة بسبب تدهور صحتها وبسبب خيبة آمالها فى زواج كبرى بناتها ، وهجرة بنت أخرى مع زوجها إلى أمريكا ، وفشلها فى العثور على زوج لأصغر بناتها وأقربهن إلى قلبها . وعبرت أكثر من مرة عن فرغها من فكرة أن تنهب ثمرة تعبها فى جمع ما جمعه من مال إلى زوج هذه البنت أو تلك .

ثم فقدت أختى محمد بعد ذلك بثلاث سنوات . جاءنى خبر وفاته وأنا فى كاليفورنيا فى خطاب من أختى أحمد يتعبه لى . وبعد شهور قليلة من وفاته جاءنى نبأ زواج أرملة من ابن عمها الذى قيل إنها كانت تحبه وهى طفلة . ثم مات أختى حافظ فى ١٩٩٠ وهو فى الثالثة والمستين دون أن يحقق الشهرة التى كان يتمناها كمؤلف مسرحى . وعاشت أختى فاطمة بعده خمسة عشر عاماً حتى توفيت فى الخامسة والثمانين دون أن تفقد أى ملكة من ملكاتها البدنية أو العقلية إلا فى الشهور الستة الأخيرة ، حيث أصبحت عاجزة عن السير من حجرة إلى أخرى ، ولكنها احتفظت حتى النهاية بشهيتها الفاتحة للطعام والحياة ، وكان يصرنى أن أراها تبسم ابتسامة واسعة ، قبل أن تموت بأسابيع قليلة ، عندما ترى عذبة الحلويات الشامية التى أحضرتها لها ، ثم وهى تلثمها كلها التهاما فى لحظات دون أن تعب بما نظنه بها .

كان لابد أيضا لمن بنى على قيد الحياة أن يعكّر صفو حياته المرض والضعف . عكّر صفو أختى عبد الحميد حتى قبل وفاة ابنه ، ما أصابه من ضعف شديد فى السمع ، حتى أصبح توجيه الكلام إليه مهمة فى غاية الصعوبة وقليلة الجدوى ، لا

يستطيع أحد أن يمارسها لفترة طويلة مهما حسنت نيته وصدق عزمه . وإذا أدرك هو هذا أصبح هو نفسه قليل الكلام منطويا على نفسه ، وكم كنت أشعر بالدهشة والجزع إذا اكتشف أن السب الوحيد لعدم دعوتنا له لكي ينضم إلينا في عشاء أو نزهة هو ضعف قدرته على السمع ، مما قضى على أى احتمال لمساهمة من جانبى فى الحديث أو الضحك .

أما أخى أحمد فقد أصابته مجموعة من العلل التى لم تفقده نشاطه ، وإن كان قد خيم عليه الحزن بعد فقدائه المبكر لزوجته ، فظل يقضى معظم أيامه فى بيت ريفى فى قرية كمشوش بالمنوفية ، كان أبى قد ترك لنا فيها خمسين فدانا لم يحتفظ منا بنصيبه فيها إلا أحمد . تمكن أحمد من زراعة نصيبه من الأرض بنجاح وأضاف إليه ، ووجد من الفلاحين من يخدمه ويجلب له اللبن ويطهو طعامه وينظف بيته ، فأصبح التفاؤ به فى القاهرة نادراً ، وإن ظل يحرص على حضور حفلتنا التى نقيمها للكريسماس كل عام . ومع هذا كنت أراه فى السنوات الأخيرة ، خلال الحفلة ، يجلس وحيدا لا يكاد يخاطب أحداً ، ثم يكون أول من يستأذن فى الانصراف .

ثم يفقد أخى حسين حماسه وشهوته الحياة مع تقدمه فى السن ، وأطن أن الذى احتفظ له بهذا الحماس هو حبه للقراءة والكتابة ، وشغوره الغامر بالسعادة إذا رأى شيئا منشورا له ، كتابا أو مقالا ، ولكن ضعفت حركته كثيرا بسبب جلطة فى ساقه جعلته لا يغادر بيته إلا لماما . وأصبح هو أيضاً من الصعب لقاءه دون الذهاب إليه فى منزله ، وهى مهمة أخذت تزداد صعوبة ، فى نظرى على الأقل ، سنة بعد أخرى .

-٦-

كانت نظرة أبى وأمى ، وجيلهما كله ، إلى الطلاق ، نظرة سلبية تماماً . كانوا بالفعل ينظرون إليه على أنه « أبعض الحلال » ، وكانت كل الظروف الاجتماعية السائدة أيام أبى وأمى تقوى هذه النظرة وتدعمها ، ومن ثم كان خبر الطلاق على

أسماعنا ونحن أطفال صغار ، وقع مبي جداً للغاية وكأنه كارثة . كان الأمر قد تغير قليلا عندما بلغنا سن الشباب ، فكان خبر طلاق أخى محمد ثم حافظ أخف وقعا وإن أثار دهشنا وامتعاضنا . حاول أبى قدر استطاعته أن يشى أخى محمد عن فكرة الطلاق إلى حد أن هدده بأنه إذا طلق زوجته سيطلق هو أمه ! قال أبى ذلك بلهجة تتراوح بين الجذ والمزاح ولكنه أراد أن يبين لمحمد خطورة ما يفعله ، فردت أمى ، وكانت حاضرة ، برد يتراوح بدوره بين الفزع الحقيقى والمصطنع ، تحتج على طلاقها هى بلا ذنب . لم يستجب محمد لرجاء أبى وطق زوجته ، كما لم يستجب حافظ للمحاولات المستعينة لإنقاذ زواجه ، سواء من جانبنا نحن ، أو من جانب أهل زوجته . كانت النتيجة أنى لم أر بنتى أخى محمد طوال الخمسين عاما التى انقضت على الطلاق أكثر من أربع أو خمس مرات ، ولم أر بنت أخى حافظ قط منذ كان عمرها أسبوعا أو أسبوعين ، وحتى الآن ، وهى لا بد أن تكون قد بلغت الخمسين من عمرها ، ولكنى لا أعرف فى أى بلد تعيش .

زادت حالات الطلاق زيادة كبيرة فى الجيل التالى . فبينما انتهت زيجتان بالطلاق فى حالتنا نحن الإخوة الثمانية ، أى بنسبة الربع ، لا يتظر أن تزيد وقد تجاوز أصغرنا السبعين ، ارتفعت هذه النسبة إلى نحو النصف فى الجيل التالى . أى بين أولاد وبنات الإخوة الثمانية . فمن بين عشرين ولدا وبناتا تزوج منهم ثمانية عشر ، انتهت ثمانى زيجات بالطلاق ، وكدهم لازلوا فى مقتبل العمر ومن ثم فلا زال أمامهم فرص واسعة ، إذا شاءوا ، للطلاق والزواج من جديد .

لا أجد من الصعب تفسير هذا التغير . لقد كان الطلاق فى حالة أبى وأمى أقرب إلى المستحيل ، وأبعد ما يكون عن التصور ، إذ ما الذى كان يمكن لأمى أن تفعله بثمانية أولاد ، لم يولد أصغرهم إلا بعد أن بلغت الأربعين ، وهى عاجزة تماما عن كسب أى دخل لا من عملها ولا من أهلها ؟ كانت أمى ونساء جيلها يتصورون أن إنجاب أكبر عدد من الأولاد والبنات سوف يشكهم الزوج ويقبده بغيرد تمنع من الحركة ومن مجرد التفكير فى الطلاق . ولكن من المؤكد أيضا أن المرأة فى أيام أمى وأبى كانت على استعداد لقبول معاملة أسوأ بكثير مما يمكن أن تقبده الزوجة الآن ،

حتى لا يفرق الطلاق بينها وبين أولادها، وهي تفتقد على أى حال أى قدرة على الإنفاق عليهم بمفردها .

فى آخر حفلة من حفلات الكريسماس التى أقمتها فى بيتنا نظرت إلى جيل أولادنا وبناتنا، وقد انتشرت بينهم حالات الطلاق على النحو الذى ذكرته، وأعمار معظمهم تتراوح بين الأربعين والخمسين، فوجدتهم أكثر ميلا للحزن والاكئاب مما كنا عليه، نحن أبائهم وأمهاتهم، فى مثل سنهم، وأقل استعداداً للمزاح والضحك، وأقل تفاؤلاً بالحياة. ثم يكن الطلاق هو السبب الوحيد، ولا هو، فيما أظن، السبب الأساسى لكل هذا الحزن المخيم عليهم، فقد وجدت نفس الليل إلى الحزن والاكئاب فى المتزوج والمطلق على السواء. كان من الواضح لى أن شيوع هذا الميل إلى الحزن لدى هذا الجيل الجديد من الأسرة لا يرجع إلى مسبب فردى يتعلق بهذا الشخص أو ذاك، أو بهذه الأسرة دون غيرها، بل يتعلق بما حدث لمصر بوجه عام، بل وربما يتعلق أيضاً بما حدث فى العالم ككل.



لم ينقض أكثر من ستين سنة على بداية هذا التقليد فى سنة ١٩٦٥، بدعوة الأسرة كلها للعشاء فى يوم الكريسماس من كل عام، حتى وقعت حرب ١٩٦٧ فلم تعد الحياة فى مصر بعد ١٩٦٧ مثلما كانت قبلها. كانت هذه الحرب هى البداية الحقيقية لما سسمى فى مصر «بالانفتاح الاقتصادى» أى إدخال مصر فى العالم الواسع. وقد أشاع هذا الانفتاح على العالم درجة عالية من التوتر فى المجتمع المصرى، وأثار من الآمال لدى شرائح واسعة من المصرىين أكثر بكثير مما يمكن تحقيقه. ولم يكن من قبيل المصادفة أن اقترنت بداية عصر الانفتاح فى مصر ببداية عصر التضخم الجامح، الذى وضع حدّاً لعصر مدهش لا تكاد الأسعار تتغير فيه بين عام وآخر، ولا تزيد فيه الدخول والثروات إلا ببطء شديد، ولا يكاد يغير فيه المرء وظيفته التى بدأ بها، ولا زوجته، ولا يشبع فى النفوس قلق ممض مما يمكن أن يأتى به المستقبل. كان هذا هو العالم الذى ولدت فيه والذى عشت فيه حتى أشرفت على الأربعين. أما ابنى الأصغر فقد ولد قبل ثلاثة أشهر من إعلان السادات بدء سياسة الانفتاح، وكان

معظم أولاد وبنات إخواني تتراوح سنهم حيثذ بين خمس وعشر سنوات . شب هؤلاء الأولاد والبنات وهم يسمعون آباءهم وأمهاتهم لا يكفرون عن الكلام عن ارتفاع الأسعار، بينما كان الموضوع لا يكاد يرد على لسان أبى أو أمى . لقد بدا أبى وأمى وكأنهما قد اطمأنا على أولادهما تمام الاطمئنان عندما رأوهم قد اتموا دراستهم الجامعية ، فظنوا أنهم لا يمكن أن تصيبهم بعد اليوم أى ضائقة مالية . ولكن أبى وأمى لم يريا ، ولا كان من الممكن أن يتوقعا ما حدث بعد وفاتهما بعشرين عاما . أصبح المرتب الذى تأتى به الوظيفة الحكومية غير كاف بالمرة ، حتى للحصول على نلاجة أو غسالة كهربائية ، فما بالك بجهاز التكييف والتلفزيون الملون وجهاز الفيديو ، ناهيك عن السيارة المكيفة أو السيارتين ، وكلها أشياء أصبح يعتبرها جيل أولادى من ضروريات الحياة؟ مثل هذه الأشياء أفقدت الوظيفة الحكومية ، ببرتها البسيط والثابت تقريبا فى مكانه ، أبنتها التى عرفها أبى وأمى ، بل وعرفتها أنا وإخوانى . وعندما فقدت الوظيفة الحكومية أبنتها فقدت الشهادة الجامعية ، التى تضمن الحصول على هذه الوظيفة ، الكثير من قيمتها . لا عجب أن تغيرت مشاعر الشباب نحو أساتذتهم ومدرسيهم ، ولمح هؤلاء الأساتذة والمدرسون مظاهر هذا التغير تغيرت بدورها نظرتهم هم إلى تلاميذهم بل ونظرتهم إلى أنفسهم .

عندما قرر «على» ، الابن الأكبر لأخى عبد الحميد ، أن يترك مدرسته قبل أن يحصل على الشهادة الثانوية ، وأن يسافر إلى النمسا يلد أمه ، لبحث عن أى عمل ، أو الالتحاق بمدرسة تدرّس أعمال الفتنة ، ورأى علامات الاستغراب والامتعاض على وجوه جميعا ، قال لنا ساخراً : «وماذا فعل أبى بشهادة الدكتوراه التى حصل عليها مرة من إنجلترا ومرة أخرى من ألمانيا ، وبوظيفته الرائعة كأستاذ جامعى؟ إنه لم يستطع حتى أن يشتري لى دراجة !» .

أصبحت الكلمة التى تتردد بكثرة على ألسنة هذا الجيل الذى يتبنى إليه أولادى وأولاد إخوانى هى كلمة «مشروع» وكناوا يقصدون بها مشروعاً استثمارياً باتى بربح كاف للحصول على هذه السلع التى لم تكن معروفة من قبل ، والتى بدت أسعارها أبعد بكثير عن متناول أبدى أصحاب الوظائف ذوى الدخل الثابت . صاحب هذا

التحول دخول التلفزيون إلى البيوت وانتشاره كانتشار النار في الهشيم، ثم أصاب التلفزيون بدوره تحولات سريعة في برامجه وكمية ونوع إعلاناته، أدت إلى تقريب مصر، أكثر فأكثر، مما يجري في العالم الواسع، وإذا بالتلفزيون يقول للناس إن الحياة يمكن أن تكون ممتعة، بل ومن الواجب أن تكون ممتعة، والذي يقصر في إمتاع نفسه هو شخص مقصر في القيام بواجب مقدس، أو بالأحرى شخص فاشل بكل معنى الكلمة، لا يصلح لا كزوج ولا كصديق. فإذا كان الحصول على هذه المصادر الرائعة للمتعة متعذرا في مصر بسبب الارتفاع الباهظ في الأسعار وقلة الدخول، وقلة الفرص المتاحة لإقامة «مشروع» يحقق الدخل المطلوب، فلا مانع من السفر، بل ولا مانع حتى من الهجرة الدائمة.

هكذا انتشر أفراد هذا الجيل من أusrتنا، يبحثون عن مصادر للرزق في أى مكان في العالم يمكن أن يعدهم بتحقيق هذه الحياة الحديثة الرائعة. هاجرت اثنتان منهم مع زوجيهما إلى أمريكا، وهاجر ثالث إلى أستراليا ورابع إلى النمسا. وجربَ خامس «نساء» أولاً ثم ذهب إلى ماليزيا، وتزوجت بنت أخرى من رجل استقر في النهاية في إنجلترا، ولكن أغلبهم رأى الحل في السفر لبضع سنوات إلى إحدى دول الخليج.

من المذهل إذن كيف بدا للغالبية العظمى من هذا الجيل أنه لا حل أمامهم إلا السفر. لقد فتحت مصر أبوابها أمام العالم فجاء العالم إليها ولكنه طرد المصريين منها. ومع هذا فنادرا ما حققت الهجرة الأموال التي عقدت عليها. لقد زرت بنتى أختى اللتين هاجرتا مع زوجيهما إلى أمريكا فلم أجد في حياتهما هناك ما عوّضهما عما تركاه في مصر، بل وانتهى الأمر بإحادهما بأن تركت زوجة هناك وعادت بطفليها إلى مصر، ولازلنا لا نعرف، بعد انقضاء ما يقرب من أربعين عاما على سفرهما لأول مرة إلى أمريكا، ما إذا كان الرجل قد وجد عملا مناسباً أو لم يجد، بل ولا حتى ما إذا كان له عمل على الإطلاق. أما من سافروا إلى الخليج فقد صادفوا مشكلة من نوع آخر. لم يكن الشعور بالغربة قويا ومحفّضا كما كان مع من هاجر إلى أمريكا أو إلى أستراليا، فالبلد المهاجر إليه عربى، والتلفزيون ناطق بالعربية، والأفلام المصرية متوافرة في دور السينما والتلفزيون، والفنول وبقيّة

الأطعمة المصرية في متناول اليد، وزيارة مصر سهلة على أى حال عندما تكون في الخليج. وإنما كانت المشكلة أن البلاد هناك ليست بلداً حقيقية، وإنما هي بلاد مصطنعة اختلقت اختلاقاً، ومهما حاول المهاجر إليها تعويض ذلك بشراء المزيد من السلع أو اقتناء مجوهرات ثمينة لزوجته أو ألعاب كهربائية لأولاده، بما كان يستحيل عليه اقتناؤها في مصر، مهما فعل ذلك فإنه لا يستطيع ملء الخواء النفسى الذى يتفاقم الإحساس به يوماً بعد يوم. لا عجب أن اقترن السفر إلى الخليج بكثرة أحداث الطلاق وتوتر العلاقة بين الزوجين سواء انتهى الأمر بالطلاق أو لم ينته. فها هو شاب من شباب العائلة يعمل في شركة بتروك في الخليج، يقضى الأسابيع وحيداً في وسط البحر، بعيداً عن زوجته وطفليه فلا يراهم إلا لبضعة أيام كل شهر أو أكثر. وها هو آخر يحاول إجبار زوجته على التحجب مثم يفعل أهل الخليج فترفض وتعود إلى مصر وحدها وتطلب الطلاق. وثالث يترك زوجته وأولاده في مصر ويذهب إلى الخليج بفردة ويرسل لهم ما يعينهم على الغلاء في مصر، وما يسمح للأولاد بإتفاق مبالغ طائلة على الألعاب الإلكترونية، ولكن تفشل الزوجة في الاحتفاظ بهم في البيت ولا تدرى بالضبط ما الذى يصنعونه في الخارج.

هناك من لم يسافر لا إلى أمريكا ولا إلى استراليا ولا إلى الخليج، ووجد الحل في الاشتغال في مؤسسة أجنبية داخل مصر تزيد مرتباتها بنفس سرعة التضخم. أى أن الحل في ظل الانفتاح كان ينحصر إما في خدمة الأجانب في الخارج أو خدمتهم في الداخل. أما من ضعفت همته وانعدم طموحه وبقي على ما كان عليه قبل الانفتاح فقد أصبح معرضاً لمختلف أنواع النقد من حوله، أو للشعور بالذنب وتآبيب الضمير مما أصاب حياته العائلية هو الآخر بالتوتر والاضطراب.

راعى بوجه خاص ما لاحظته من شدة الميل إلى العمل لخدمة الأجنبي لدى الجيل الأصغر، أى جيل أحفادى وأحفاد أشقائى. إن حفيدى أنا لازال طفلين صغيرين ولكن هناك من الأحفاد الآخرين من تخرجوا في الجامعة وبدأوا العمل وكسبوا رزقهم بأنفسهم، فإذا بى لا أكاد أجد واحداً منهم يكسب رزقه من عمل غير خدمة شركة أو مؤسسة أجنبية، سواء في داخل مصر أو خارجها. منهم من

يعمل بشركة بترول بالخليج، ومن يعمل مرشداً ومعلماً للغطس في شركة سياحة أجنبية بشرم الشيخ، ومن يعمل بشركة أدوية أجنبية بالمعمودية، وآخر بمكتب محاسبة أجنبية بالمعمودية أيضاً، ومن يعمل بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن، وآخر بشركة تليفزيون عالمية في كينيا، بالإضافة إلى أولاد المهاجرين الذين يعملون كلهم بالطبع في البلاد التي هاجر إليها أبائهم ويشغل أحدهم في وظيفة بالبيت الأبيض الأمريكي. ما الذي كان يمكن أن يطوف بذهن أبي لو كان قد سمع بنوع الأعمال التي يقوم بها الآن أحفاد أبنائه؟ وإذا سمع بأن أحدهم يكسب رزقه (وإن كان رزقاً وفيراً) باللغة الإنجليزية كجزء من إعلانات تذاع في بعض قنوات التليفزيون العربية، لثرويح نوع من أنواع الصابون الذي تنتجه شركة أمريكية شهيرة؟

-٧-

منذ سنوات قليلة رأيت ابن أحد إخوتي، وكان في نحو العشرين من عمره، وهو جالس وحده وعلى أذنيه سماعتان متصلتان بجهاز راديو أو تسجيل صغير، دون أن يسمع أحد غيره ما ينبعث من هذا الجهاز، وكان رأسه يتميل يمينا ويساراً دون أن نستطيع أن نجاريه في ذلك لأننا لا نسمع ما يسمعه. كنت أرى مثل هذا المنظر لأول مرة، وبدأ لي الفتى وقتها وكأنه مختل العقل، ولكني سرعان ما اعتدت المنظر عندما تكررت مشاهدتي لمثل. لقد بدأ هذا المنظر غريباً جداً في البداية شخص مثلي لم تكن الموسيقى تشغل هذا الجزء الكبير من وقته مثلما تشغل من وقت الشباب الآن، فإذا استمع إلى موسيقى كان من النادر أن يستمع إليها بمفرده بل كان يسمعها عادة وهو محاط بالناس، ولم تكن هناك تلك الوسيلة التي تعزله عزلاً تاماً عن الناس وتضيق أذنيه عن حوله. وعلى أي حال كانت الموسيقى والأغاني في البيت الذي نشأت فيه من نوع مختلف تماماً.

كانت الموسيقى والأغاني التي يستمع إليها أبي أو أمي، في اللحظات النادرة التي كنا نسمعها فيها أي موسيقى أو أغان، بل وحتى الموسيقى والأغاني المصرية التي كنت أستمع إليها أنا وإخوتي، كانت من النوع الذي يلائم حالة المصريين

وقتها، ويتفق مع علاقة الرجل بالمرأة في جيل أبى وأمى أو جيلى أنا وإخوتى . كانت المرأة قابعة فى المنزل فى أغلب الأوقات ، ومحتشمة ، قليلة الاختلاط بالرجال . فلما خرجت المرأة واختلطت بالرجال بل وسمحت لنفسها أحيانا بالتمايل بنوع أو آخر من الرقص فى حضورهم ، سارعت الموسيقى والأغاني المضربة بالتغير لتلبية الأغراض الجديدة المطلوبة منهم . صاحب هذا انتشار الموسيقى الغربية الأسرع إيقاعا وانتشار مختلف أنواع الأجهزة التى تسمع بسماع هذه الموسيقى والأغاني فى أى مكان وبكفاءة غير معهودة . فهذه الأجهزة خفيفة الوزن ، سهلة الحمل ، ومن الممكن للمرء أن يستمع إليها وحده أو مع آخرين ، فى المنزل أو السيارة أو أثناء سيره فى الطريق ، ومن أسهل الأمور تسجيل ما يعجبه منها وتخزينه وإعادة الاستماع إليه فى أى مكان . لا عجب أن أصبحت الموسيقى والأغاني تلعب دوراً فى حياة أولادى وحياة جيلهم ، ثم فى حياة أولادهم ، أهم بكثير مما لعبت فى حياتى . حياة أشقائى ، ناهيك عن دوره فى حياة أبى وأمى . كما أصبح النوع الذى يعجبهم من الموسيقى ونوع الكلام الذى يستسيغونه فى الأغاني ، مختلفا جداً أيضاً . كنت موسيقانا وأغانينا أكثر حزنا وأبطأ إيقاع ، أما أولادنا وأحفادنا فيريدون موسيقى يستطيعون الرقص على إيقاعها وكلمات أكثر مرحا يمكن لهم ترديدها على أسماع الجنس الآخر ، حتى ولو كانوا فى الحقيقة أقل تعاؤلا بالحياة منا وأكثر خوفا من المستقبل .

بقدر ما زادت أهمية الموسيقى والغناء والرقص لدى هذا الجيل من الأولاد والبنات ، بالمقارنة بجيلى عندما كنا فى مثل سنهم ، قلت أهمية السياسة وضعف بشدة الاهتمام بالشئون العامة والقومية . وأظن أن الظاهرتين مترابطتان . فإذا كانت المتعة ، بل والمتعة الحالة هى الهدف ، فما هى بالضبط جدوى الانشغال بالسياسة وبالأمر العامة والقومية؟ هذه الأمور السياسية والقومية تتعلق فى نهاية الأمر بالتزام أخلاقى ، ولكن المرء منا مشغول عن نفسه فقط . هذا هو ما توصل إليه هذا الجيل الجديد من الأولاد والبنات ، ومادام الأمر كذلك فلا شئ يبدو أكثر مقبوعة لنوقت وأشد إثارة للقلق من السياسة وشئون الوطن . بل وحتى إذا افترضنا أن

تغيير مسار السياسة والعمل من أجل ارتفاع شأن الوطن يمكن فى نهاية المطاف أن يزيد من حظ الناس من المتعة والسعادة، فأى أثر يمكن أن يكون لى أنا، أو لأى شخص آخر، فى تغيير الأحوال فى الاتجاه المنشود؟ إن هذه الأمور تبدو الآن وكأنها محكومة بقوة لا تملك بشأنها شيئاً وخارجة تماماً عن إرادتنا. أفلا يكون الاهتمام به إذن مضيقاً للوقت وتبديداً للجهد فيما لا يفيد؟

هكذا يبدو لى تفكير هذا الجيل من شباب أسرتنا اليوم. ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن كل هذا الحزن والاكتئاب اللذين يخيّمان عليهم؟ ولماذا يبدوون وكأنهم أقل حظاً من هدوء البال والطمأنينة والرضا عن النفس عما كنّا فى مثل سنهم؟ هل يمكن أن يكون السبب هو هذا الذى ذكرته حالاً، أى أن هذا التوجه إلى تحقيق متعة الخالصة بصرف النظر عن أى اعتبار آخر، كالتشعور بالمسئولية الاجتماعية أو بالتزام خلقي، هو نفسه المسئول عن كل هذا الحزن والاكتئاب؟ هل يمكن أن يكون تحديد الهدف بأنه السعادة أو المتعة الفردية بصرف النظر عن أى هدف آخر، وتقييم أى عمل أو هدف آخر وفقاً لنجاحه أو فشله فى تحقيق هذا الهدف وحده، السعادة أو المتعة، هو أسوأ الطرق لتحقيق السعادة أو المتعة، وأن أضمن طريقاً لتحقيقهما هو السعى إلى تحقيق هدف آخر؟

- ٨ -

عندما قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كنت فى السابعة عشرة من عمرى، وكانت كل المالبسات تدعو للابتهاج الشديد بقيامها. ثورة مفاجئة تطيح بمثل فاسد وينظام سياسى واجتماعى مكروه. والذى يفعل ذلك مجموعة من الضباط الشبان لم نسمع عن أى منهم من قبل، ولكنهم يبدوون من كلامهم وتصرفاتهم شباناً وطنيين غامروا بحياتهم من أجل النهوض ببلدهم، ويبدوون فى سلوكهم اليومى أقرب إلى عامة المصريين مما عهدناه من كانوا يسكنون بمقاليذ احكم قبلهم. ولكن لعل أهم سبب للابتهاج بقيام الثورة كان هو ما ذكرته حالاً من أن عمرى وقتها لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة.

كان أبى وقت قيام الثورة فى الخامسة والستين من عمره، ولا أذكر أنى سمعت منه أى تعليق ضد الثورة، بل لا أشك، بسبب ما أعرفه عن رأيه فى الملك وفى الأحزاب السياسية التى كانت تتبادل الحكم قبل الثورة، فى أنه قد اعتبر قيام الثورة أفضل من عدمه. ولكنى أذكر أيضاً أنه لم يبد حماساً لها من أى نوع، ولا أفاض فى التعبير عما يعلقه عليها من آمال، وهو موقف فسّره وقتها بتدهور صحته، ولكنى الآن، وقد مرّ على قيام الثورة أكثر من خمسين عاماً، أميل إلى تفسير هذا الموقف منه بأشياء أخرى. فأننا الآن، بعد أن تجاوزت السبعين أستطيع أن أتصور كيف بدت الثورة فى نظره شبيهة بأحداث حدثت فى الماضى، حتى وإن لم يكن الشبه كاملاً، وكيف بدا له حماس هؤلاء الضباط مختلطاً بمختلف المشاعر والدوافع الطبيعية التى لا بد أن توجد فى أمثالهم والتى لا يمكن أن تكون خالصة ونقية مائة بالمائة. كما أنه لا بد أن بدا له أن طموحات هؤلاء الضباط، على الأقل كما يعبرون عنها فى كلامهم، أكبر بكثير من قدراتهم، فى عالم تحكمه مختلف الأهداف الانانية والمدعومة للأسف بقوة عسكرية واقتصادية ليس لدى هؤلاء الضباط القدرة على مواجهتها والتغلب عليها.

بلغ حماسنا للثورة أقصى مدى له فى مطلع الستينات، أى بعد قيامها بعشر سنوات. كنا نحن طلبة البعثة فى إنجلترا قد بهرنا الخطوات الجبّارة التى اتخذت فى طريق الوحدة العربية والتنمية وإعادة توزيع الدخل لصالح العمال والمزارعين الصغار، وإتاحة مختلف السلع والخدمات الضرورية بأسعار فى متناول الجميع، أرحى مجاناً، كما فى حالة التعليم والعلاج. كنا فى سبيل ذلك على استعداد لضرب النصف عن غم الديكتاتورية والنظام البوليسى، كما أننا لم نأنف لحقيقة موقف النظام الجديد من قضية الهوية والمحافظة على التراث ومقاومة التغريب، فقد بدت لنا هذه القضية ثانوية وكهالية بالمقارنة بالنهوض الاقتصادى واستقلال الإرادة السياسية تجاه الدول الكبرى. بل لم نعلق أهمية تذكر على ما كان يرئسه النظام من أخطاء فاحشة فى اختيار الأشخاص الذى توكل إليهم مسؤوليات شديدة الخطورة، كرئاسة الجيش مثلاً، وكاننا كنا على استعداد لتصديق ما نحب تصديقه

بصرف النظر عن بعده أو قربيه من الحقيقة . كنا نتوق إلى أن يكون لنا جيش قوى
فصرنا النظر عن كل ما كنا نسمعه عن تصرفات المسؤولين عن الجيش ، وكنا نتحرق
شوقاً إلى أن تصبح مصر في عداد الدول الصناعية المتقدمة فصلدنا ما قبل لنا من أننا
دخلنا بالفعل «مرحلة الانطلاق الاقتصادي» التي يسير بعدها النمو الاقتصادي
بشكل تلقائي ومنظم دون حاجة إلى توضيحات استثنائية . ولم نعلق أهمية على
اعتماد خطة التنمية اعتماداً كبيراً على المعونات الأمريكية ، التي كانت تأتيها في
صورة قمح و سلع زراعية ، وعلى المعونات السوفيتية التي كانت تمول السد العالي
والتنمية الصناعية ، وكأنه ليس من الممكن أن تتوقف هذه المعونات وتلث فجأة
دون أي خطأ أو جرم من جانبنا ، فتتوقف التنمية الاقتصادية توقفاً تاماً ، كما
حدث بالفعل .

كان أسبوع واحد ، أو بالأحرى خمسة أيام فقط ، كافية لإيقاظنا من كل هذه
الاحلام الجميلة وهي الأيام ٥ - ٩ يونية ١٩٦٧ . إن من الممكن أن أقول إنه بمعنى
من المعاني ، لم يستعد جيلي توازنه حتى الآن منذ تعرضه لصدمة الهزيمة العسكرية
التي منيت بها في يونية ١٩٦٧ ، رغم مرور ما يقرب من أربعين عاماً عليها . ولكن
الحقيقة أن تتابع خيبة الآمال ، الواحد منها بعد الآخر ، استمر طوال هذه الأربعين
عاماً حتى أصبح من دواعي الرثاء الشديد أن يقارن المرء بين ما انتهينا إليه وما كانت
عليه طموحاتنا وأمالنا عندما قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

في السبعينات تحرر السادات من الالتزام الذي فرضته الثورة على نفسها بإعادة
توزيع الدخل لصالح الشرائح الاجتماعية الدنيا ، كما أتاح باستقلال مصر
السياسي ، وقبل ما رفضه النظام في السينات من ضغوط أمريكية وإسرائيلية
وضغوط المؤسسات المالية الدولية كصندوق النقد والبنك الدولي . في مقابل هذا
أعطى السادات للمصريين نوعاً من الديمقراطية سرعان ما تبين ، للأسف ، أنها
ديمقراطية مزيفة لم تمنع السادات من وضع كل معارضيه في السجون قبل مقتله
بأسابيع قليلة . أما الرواج الاقتصادي الذي شهدته مصر في عهد السادات فكان
بدوره وواجباً ظاهرياً مصدره تحويلات المهاجرين من الخارج ، أو تحويلات المعونة

الأمريكية، أو ارتفاع أسعار البترول أو رواج السياحة، وكلها مصادر للدخل تخرج عن سيطرة المصريين. فما أن انخفضت أسعار البترول، وقلت محرمات المهاجرين، وتكرر ضرب السياح، حتى بدأ المصريون يدفعون الثمن الباهظ للإهمال الصناعية والزراعية.

وفي الثمانينات والتسعينات عاد الكساد الاقتصادي بعد سنوات قليلة من بداية عهد مبارك، واستمر دون انقطاع تقريبا حتى الآن، واستمر النظام في لا مبالته بالزيادة الفاحشة في التفاوت بين الدخول، وهو التفاوت الذي زاد من حدته وقسوته استمرار الكساد الاقتصادي وارتفاع معدلات البطالة. كما استمر النظام في استكائه لمطالب الأمريكيين والإسرائيليين ومعلى المؤسسات الدولية، سواء فيما يتعلق بقضية فلسطين أو فتح أبواب الاقتصاد دون ضوابط. وأما الديمقراطية السياسية التي اتضح زيفها في أواخر عهد السادات فقد زاد تزيفها في عهد مبارك، حتى أصبح الكلام عن «أزهى عصور الحرية» في عهده مشار سخرية المصريين.



هكذا بدالى، بعد أن مر أكثر من نصف قرن على قيام ثورة ٢٣ يوليو، أن آمالنا التي عقدناها على هذه الثورة في ١٩٥٢ قد خاب أكثرها، فلم تتحقق آمالنا في تحقيق الديمقراطية، ولا في حل مشكلة فلسطين، ولا في التقدم الاقتصادي، ولا في التقريب بين الطبقات، ولا حتى في نشر التعليم ومحو الأمية. نعم، ارتفع المستوى المادى للمعيشة، ولكن بأقل كثيرا مما كنا نتصوره ونطمح إليه، ولا يبدو أن المصريين يتمتعون اليوم بحرية سياسية أو فكرية أكبر مما كانوا يتمتعون به في ١٩٥٢، ولا بنظام اجتماعي أكثر عدالة. بدالى أن التقدم الحقيقى الذى لا شك فيه هو فقط أن المصريين قد أصبحوا اليوم أكثر عددا بكثير مما كانوا منذ نصف قرن، فأصبحوا أكثر من سبعين مليوناً بعد أن كانوا اثنين وعشرين، أى أن عددهم تضاعف أكثر من ثلاث مرات، وهو تقدم لا يستهان به بمقيار دارونى بحث، ولكنه أبعد ما يكون عما كنا نرجوه ونتوقعه عندما قامت الثورة في سنة ١٩٥٢.

بدلاً إلى أيضاً من استعراض تطور الأحوال والأحداث في مصر في الخمسين عاماً التي مرت منذ ثورة يوليو أن من أفضل التشخيصات أو الأوصاف التي يمكن أن تقدم لهذه الفترة، تشخيصها أو وصفها بأنها كانت تشكل في إجمالها «العصر الأمريكي»، أو على الأقل الخمسين عاماً الأولى من هذا العصر الأمريكي. لقد كنت في العاشرة من عمري عندما انتهت الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥. وقد بدأت فترة ما بعد الحرب بسعي الولايات المتحدة الحثيث إلى وراثة مطلق النفوذ التي كانت تخضع للاستعمار البريطاني والفرنسي، وقد حدثت هذه الوراثة في بلد عربي بعد آخر، كما حدثت في بلد بعد آخر في آسيا وإفريقيا. وقد دخلت مصر تحت النفوذ الأمريكي في ١٩٥٢ ولا زالت تحته حتى الآن. أم الانقلابات التي شهدتها مصر خلال هذه الفترة، من استقلال نسيي إلى خضوع تام، فلا يجب أن تحجب عن أنظارنا طبيعة الفترة مأخوذة ككل. إذا نظرنا إلى هذه الفترة على هذا النحو فإن مصر تبدو وكأنها فقط استبدلت سيدياً حديداً بسيد قديم، ومن ثم فإن التقدم محدود دائماً بما يسمح به السيد الراهن، وهو لا يسمح إلا بما لا يتعارض مع مصالحه. هل كان خاطر كهذا ياترى هو ما كان يدور بذهن أبي عندما سمع بقيام الانقلاب العسكري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن ثم لم يتحمس بشدة لما سمعه من أخبار وبيانات الثورة؟

لقد كان أبي في العشرين من عمره عندما وقعت حادثة دنشواي، التي قتل بسببها الإنجليز ظلماً عدداً من الفلاحين المصريين عقاباً لهم على جريمة لم يرتكبوها، وإنما أراد الإنجليز فقط إدخال الرعب في نفوس الشعب المصري. وقد قال لي أبي إنه بكى بكاء مرّاً بسبب حادثة دنشواي. ولكن حادثة دنشواي والأحداث المعاصرة لها لم تدخل في وعي السياسي إلا عن طريق القراء، وبعد حدوثها بوقت طويل، بينما دخلت في وعي أبي، لحظة بلحظة، فكونت جزءاً من مخزونه الفكري والعاطفي. عندما سمع أبي بقيام ثورة ١٩٥٢ لابد أن هذا المخزون من الأحداث والانطباعات قد أثر في نظرتة إلى هذه الثورة وفي توقعاته بشأنها، أما أنا وجيلي فمقدد كان علينا أن نعيش هذه الثورة لحظة بلحظة قبل أن نصل إلى نفس

النتيجة التي وصل إليها أبى منذ لحظةها الأولى ، وإن لم يجد من الملائم أن يذكر لنا وقتها ما كان يدور بذهنه .

-٩-

لم يكن يخطر ببالي عندما ركبت الباخرة إلى إنجلترا في ٢٣ يناير ١٩٥٨ ، وعمرى ثلاثة وعشرون عاماً بالضبط ، أن إنجلترا ستلعب هذا الدور المهم في حياتي : أتى سافضى فيها ست سنوات متتالية في مطلع شبابه ، وسأزوج من إحدى بناتها ، وسأظل بعد ذلك أسافر إليها مرة في كل صيف ، بدون انقطاع تقريباً خلال الأربعين عاماً التالية ، وأن تظل هذه الدولة ولغتها النافذة الأساسية التي أعرف من خلال على العالم الغربي والحضارة الغربية .

كنا نقضى في البداية ، أنا وزوجتي ، شهراً أو شهرين من كل صيف في بيت يملكه والد زوجتي في بلدة مطلة على البحر في الساحل الشرقي لإنجلترا هي «فيلكستو» (Felixstowe) ، وهي بلدة صغيرة ليس لها جاذبية شديدة ولا شخصية متميزة ، وإنما كانت ميزتها الوحيدة وجود والدي زوجتي فيها ، وبينهما الجميل بحديقته الرائعة المطلة مباشرة على البحر . فلما توفت أم زوجتي ثم والدها زال على الفور أى دافع لدينا للذهاب إلى فيليكستو ، وتحولنا منها إلى مدينة كامبردج ، تلك المدينة الرائعة التي اعتبرها من أقرب مدن العالم إلى قلبي . كنت في سنوات البعثة كثيراً ما أذهب إلى كامبردج مع بعض أصدقائي المصريين لقضاء يوم جميل ، من أيام الأحد ، فنزج قوارب في نهرها ، ونفجع على مباني كليباتها التي تغلب اللب ، ثم نسير نحو ساعة إلى القرية الملاصقة لكامبردج «جرانشستر» (Granchester) فتناول الشاي والقطاثر التي اشتهر بها الإنجليز في بستان من شجر التفاح ، ويحمل هذا الاسم (The Orchard) . وقد اشتهر هذا البستان في المنطقة كلها ، ليس فقط لجماله ، ولكن لأنه كان المكان المفضل لتناول الشاي لعدد من أشهر الكتاب والفلاسفة الإنجليز وأصدقائهم الذين عاشوا فترة من حياتهم في كامبردج ، مثل الفيلسوفين برتراند رسل وفنجشتاين ، والاقتصادي الشهير كينز . وقد حرص أصحاب البستان ، بقدر الإمكان ، أن يبقى كل شيء على حاله ، الموائد والكراسي

والكوخ الخشبي الذي يستخدم إذا سقط المطر، كما كانت بالضبط عندما كان هؤلاء الرجال العظام يتناولون الشاي فيه .

استطعت بما ادخرته من مال في فترة عملي بالكويت شراء شقة صغيرة، ولكنها في موقع بالغ الجمال في كامبردج، تطلّ على النهر مباشرة وتقع في أقصى الطرف الشرقي لكامبردج، ومن ثم فهي ملاصقة لحقوق لانهاية لها من ناحية الشرق تسمح للمرء بالسير مسافات طويلة لا يرى خلالها إلا النهر والأبقار والخيول وهي ترعى في هذه الحقوق المملوكة ملكية شائعة للمجتمع ككل، ويمنع القاتون الإنجليزي إقامة أي بناء عليها. كنتُ نَـزِـجُ هذه الشقة تسعة أو عشرة أشهر في كل عام لأستاذ زائر لجامعة كامبردج أو لبعض طلبة الدراسات العليا فيها، على أن يخلوها لنا في شهور الصيف. وهكذا ظللتُ نأتى إلى كامبردج في كل صيف تقريبا منذ سنة ١٩٧٨ وحتى الآن، أى لمدة تقرب من ثلاثين عاماً، ولا أظن أنه قد انقضى عام واحد خلال هذه الثلاثين عاماً لم أذهب فيه مع أسرتي وبعض أصدقائي لتناول الشاي في ذلك البستان الجميل في جرانشستر .

ها قد مرّ إذن ما يقرب من نصف قرن على بداية تعرّفي على نمط الحياة الإنجليزية. وعندما أفارق نمط الحياة حينئذ بما أصبحت عليه الحياة الإنجليزية اليوم، لا أكاد أصدق حجم التغيرات التي طرأت عليها، وفي مختلف نواحي الحياة. والأمر يستحق بلا شك أن يروى ببعض التفصيل .



كانت إنجلترا بلا شك في سنة ١٩٥٨، عندما سافرت إليها في بعثتي الدرامية، أقل رخاء بكثير منها الآن. كانت بعض مظاهر الفقر موجودة حتى في أرقى الأحياء وأكثرها تقدماً، كما كان الفقر وتوزيع الدخل موضوعاً أساسياً من الموضوعات التي يناقشها السياسيون وتكتب عنها الصحف. لم يكن من النادر على الإطلاق أن أرى متسولاً أو أكثر خلال سيرى من محطة مترو الإنفاق في لندن إلى كليتي، أو أن أشاهد امرأة فقيرة واقفة على الرصيف تحاول بيع كمية ضئيلة من الفاكهة، في يوم شديد البرودة، دون أن يكون على جسمها ما يكفي لحمايتها من البرد. كانت

الاشتراكية لا تزال موضوعاً مهماً، يدعو إليها البعض بحماسة وينتقدها البعض بشدة، وليست كما هي الآن موضوعاً مهملًا أو مثيراً للتحية. كان إطلاق وصف «ماركسي» أو «شيوعي» على شخص يكتفى لامتناد الغضب والسخط عليه، وليس كما أصبح الآن شيئاً نادراً من ناحية ومثيراً للدهشة بدلاً من السخط، من ناحية أخرى. نعم كانت مظاهر الفقر أكثر شيوعاً في إنجلترا حينئذٍ مما هي الآن، وإن لم تكن تقارن بالطبع بمظاهر الفقر في البلاد التي أتينا منها، ولكنني أستطيع أن أقول بكل ثقة، إن إنجلترا، في أشياء أخرى مهمة للغاية كانت حينئذٍ أكثر رقياً بكثير مما هي الآن، وأكثر تحضراً.

كنت أسمع منذ وقت طويل، من أبي ومن إخوتي الذين سبقوني إلى رؤية إنجلترا، فضلاً عن الكثيرين من الكتاب والصحفيين، كلاماً كثيراً في الشأن على أخلاق الإنجليز وبالذات على قوة إحساسهم بالمصلحة العامة واستعدادهم الطبيعي للالتزام بالقواعد واحترام القانون حتى ولو كان يتطلب منهم التضحية بمصلحتهم الخاصة، إدراكاً منهم أن هذا في صالح المجتمع ككل. كم سمعت عن احترام الإنجليز «لنظابور»، بل ونكات تنذر بهذا الاحترام وتزعم أن الإنجليز يحبّ الوقوف في الطابور حتى إذا كان يجبل سبب وجود الطابور أصلاً. كنت قد سمعت أيضاً عن مدى استهجان الإنجليز بل ودهشهم من أي شخص يحاول العبث بأى شيء يعتبر مملوكاً ملكية عامة، كشجرة في حديقة أو مقعد في قطار، وعن مدى احترامهم لحقوق الآخرين فلا يسمح أحد لنفسه بالاعتداء على حق الجالس في قطار في التمتع بالهدوء طوال الرحلة فلا يعكف صفعهم ضجيج يصدر من راديو أو راكب يكلم آخر بصوت عال أكثر من اللازم. إلخ. وقد لاحظت كل هذا بنفسى عندما رأيت إنجلترا لأول مرة في ١٩٥١، ثم رأيت من جديد خلال إقامتي الطويلة ابتداءً من ١٩٥٨، ولم ألاحظ تغيراً ملموساً في شيء من ذلك حتى تركت إنجلترا في ١٩٦٤. ولكنني كنت كلما زرت إنجلترا بعد ذلك، مرة بعد أخرى، ألاحظ التدهور الملحوظ في كل هذه الأمور. شعرت بدهشة شديدة عندما رأيت لأول مرة كلاماً مكتوباً بخط كبير، وباستخدام دهان لا يسهل محوه، على

حرائط محطات مترو الإنفاق، كتبه عايشون أو سكارى لا يقصدون إلا محض اللعب والتخريب، وعندما بدأت ألاحظ أشياء مماثلة في القطارات نفسها والحدائق العامة ودورات المياه وعلى الكبارى وسلات المهملات، وكثرة الزجاجات الفارغة والعلب والأوراق التي استغنى عنها أصحابها ملقاة على الرصيف أو على أرض محطات القطار. لم تكن إنجلترا كذلك قط، ولكنى بدأت أرى نوع الأشخاص الذين يمكن أن يفعلوا مثل هذا، بل ورأيت بعضهم وهم يتلذذون بفعله: صبية وفتيات مرهقون يسبرون في الشوارع بلا هدف، يرتدون ثيابهم بإهمال واضح ومتعمد، وبعضهم يدخن السجائر، ويحملون في أيديهم زجاجات أو علب تحتوي على مشروبات كحولية مختلفة، يتكلمون ويصيحون بصوت عال ويبدو عليهم الاستعداد الكامل لإهانة أى شخص يحاول أن يتعرض لهم، بالسب على الأقل وربما بالضرب أيضاً. ثم نسمع أو نقرأ في الصحف عن واحد من هؤلاء وقد طعن شخصاً لا يعرفه بمطوأة أو سكين بدون هدف معروف، أو بدون هدف على الإطلاق، ومن ثم نسمع من يقول لك إن من الحكمة تجنب الشوارع الهادئة أو الخالية نسبياً من المارة بعد حلول الظلام.

وقد انتشر الإقبال على البوابات وشرب الخمر بوجه عام خلال هذه العقود الخمسة الأخيرة، وبدأت العادة تنتشر أكثر فأكثر بين صغار السن، حتى أصبح منظر فتية مخمورين يسبرون في الشوارع، ممن لم يبلغوا العشرين بعد، منظرًا متكررًا، خاصة في عطلة آخر الأسبوع، وهو منظر منفر للغاية خاصة من الفتيات، ولكن يبدو على السائرين الآخرين في الشارع، من الإنجليز أنفسهم، أنهم بدأوا يقبلونه كمنظر طبيعي ومألوف ولا يبدو عليهم الانزعاج منه.

لاحظت بداية هذا التحول منذ منتصف الستينات، مع بداية ظهور حركة الهيبيز (Hippies) التي اقترنت بإطلاق الشباب لشعر رؤوسهم، وبدأ الحديث بكثرة عن انتشار المخدرات بين الشباب، التي كانت أنواعاً خفيفة في البداية وبسهولة الإقلاع عنها، ثم أصبحت أكثر خطورة وأصبح الإقلاع عنها أصعب. وقد اقترن هذا وذاك بما عرف عن هذه الفترة من ارتفاع مستوى المعيشة ارتفاعاً ملحوظاً وحلول فترة من

الرخاء الاقتصادي غير المسبوق، مع وصول المجتمع إلى حالة العمالة الكاملة والارتفاع الشديد في مستوى الأجور. كانت تلك السنوات أيضاً هي فترة ظهور فرقة البيتلز (Beatles) التي حققت شعبية هائلة، وعلى الأخص بين المراهقين الذين كانوا يستقبلون أغانيها بالصياح الهستيري وكأنهم قد فقدوا الوعي.

في أوائل السبعينات عرضت على المسرح الإنجليزي أول مسرحية يظهر فيها بعض الممثلين عرايا تماماً. كان هذا العرض «أوه كالكتا» (Oh! Calcutta!) من تأليف ناقد مسرحي مشهور ومحترم «كينيث تاينان» (Kenneth Tynan) لا بد أنه اعتقد أنه قد آن أوان التخلص من هذا القيد الذي لا لزوم له، وهو ارتداء الملابس في العمل الفني. وسرعان ما انتشرت موجة من التحرر الجنسي في الأفلام والمسرحيات اعتبرت مظهرًا من مظاهر زيادة ما يتمتع به الناس من حرية بوجه عام. وهكذا أصبح ما لم يكن يتصور ظهوره إلا في الأفلام التي تقصد الإثارة الجنسية عمداً (المسماة بالبورنو) والمتنوع عرضها إلا في دور عرض خاصة، متاحاً في جميع دور العرض ولا يتطلب إلا أن يبلغ المشاهد من الثامنة عشرة.

صحب ذلك أيضاً تساهل تدريجي في تقديم الخمر في البارات والمطاعم، فزادت الساعات التي يسمح فيها للبارات بأن تفتح أبوابها، وخفض السن الذي يسمح فيها بتناول الخمر في الأماكن العامة. ثم بدأ يظهر التساهل شيئاً فشيئاً مع الشواذ جنسياً. لقد كانت ممارسة الشذوذ الجنسي في منتصف القرن العشرين جريمة يعاقب عليها القانون حتى ولو كنت بين شخصين بالغين وبرضا الطرفين. ثم انتشر الشواذ على سطح الحياة ومارسوا حرية أكثر في التعبير عن ميولهم، في الشوارع والأماكن العامة، وفي الأفلام والمسرحيات، وفي الكتابات الصحفية والكتب، حتى أصبح مما ينظر إليه شذراً أن يبدد من أي شخص اعتراض على هذا النوع من الممارسة الجنسية، واعتبر هذا الاعتراض دليلاً على الإغراق في الرجعية وضيق الأفق، واعتداء صارخاً على حرية الآخرين. وأصبح منتج الأفلام والمسرحيات كثيراً ما يعتمدون تضمين الفيلم أو المسرحية شخصية رجل أو امرأة من الشواذ طمعاً في كسب رضا هؤلاء عن العمل أو تجنباً للاتهام بالرجعية.

عندما أتأمل هذا التطور المدهش فى موقف الإنجليز من الشذوذ الجنسى أجد من الطريف المقارنة بين النشور الشديد الذى كان يبدىه الإنجليز إزاء أى تقارب جسمى بين رجل وآخر، ولو كانت ملاصقة صغيرة أو مصافحة لا لزوم لها، وبين موقفه من علاقة الشذوذ الجنسى. إنى أذكر مثلاً كيف كان الإنجليز يبدى الدهشة الشديدة والتى لا تخفى من امتعاض، عندما يرى رجلاً مصرىاً يعانق صديقه أو يقبله بعد غيبة طويلة أو قصيرة، أو عندما يرى شابين مصرين يسيرون فى أحد شوارع لندن وقد أمسك أحدهما بيد الآخر أو وضع ذراعه فوق كتفه. إن مثل هذا الذى كان يعتبره المصرى طبيعياً تماماً وتعبيراً لا غضاضة فيه عن المودة أو الاشتياق، كان الإنجليز يشتم فيه رائحة علاقة غير سوّية ومفسدة. كنا حينئذ، نحن الطلبة المصريين نشعر ببعض الخجل عندما نلاحظ نظرة الإنجليز إلى ما قد نقوم به أحياناً من عناق وتقبيل، بل وربما شعر بعضنا، عندما يلاحظ موقف الإنجليز من هذا الأمر بأنه دليل آخر على «تخلفنا» وعدم «تمدّنا»، يضاف إلى العديد من الأدلة الأخرى. ها قد دار الزمن دورته وأصبح الإنجليز ينظرون باحتقار إلى أى شخص لا يبدى «نفسهما» لشعور الشواذ ولا يقبل ما يقدمون عليه من تقارب جسمى فى الأماكن العامة، ويبدى أى اعتراض أو تّبرم بإصرار الشواذ على التعبير عن مشاعرهم على الملأ وبلا خجل، تأكيداً منهم على أن هذا التعبير هو حق من حقوق الإنسان وأن هذه العلاقة التى يمارسونها ليست أقل «طبيعية» من علاقة الرجل بالمرأة. الآن يعتبر الإنجليز أن من يستحق وصف «المتخلف» وعدم «التمدّن» هو الذى يبدى أو يشعر بأى تّبرم إزاء هذه العلاقة الشاذة. وعيب نحن المصريين، بالطبع، أن نعتاد هذه المعايير الجديدة فى الحكم على الأمور.

أقترن هذا الاتجاه نحو المزيد من التحرر فى العلاقات الجنسية بارتفاع كبير فى معدلات الطلاق، وارتفاع مذهل فى نسبة ممارسة الجنس بين المراهقين، وفى نسبة الفتيات المراهقات اللاتى يصبحن أمهات دون زواج، ونسبة «العائلات» أو ما يسمى بالعائلات، التى يعيش فيها الأطفال مع الأم دون الأب، أو مع الأب دون الأم. وأصبح من الشائع أن تجد امرأة لم تتعد العشرين بكثير تعيش مع طفنها أو طفلتها بعد أن تركهما الأب، أو تركت الأب، وتعتمد لمواجهة نفقات معيشتها هى

وظفلها على معونة شهرية من الدولة ، وتعتبر هذا من حقوقها على المجتمع طالما كانت هذه الظروف تمنعها من الاشتغال بعمل تنكسب منه .

كنت فى أوائل الستينات قد استمعت إلى محاضرة لأستاذ إنجيزى متخصص فى التاريخ الاجتماعى ، تطرق فيها إلى الحديث عن ظاهرة كانت لا تزال فى بدايتها فى إنجلترا فى ذلك الوقت ، ولكن الرجل أدرك خطورتها وأهميتها ، وظهر صدق حدسه مع مرور الوقت عندما شاعت هذه الظاهرة وسادت فى العالم الغربى كله ، ثم فى بلادنا أيضاً . كان الرجل يشير إلى حبوب منع الحمل ، التى يشير إليها الإنجليز الآن بكلمة واحدة صغيرة هى «الحبة» (The Pill) ، فقال إن هذا الاختراع سوف يحدث فى المجتمع والأسرة والعلاقات بين الناصر بوجه عام آثاراً لن تقل فى أهميتها عن آثار اختراع الآلة البخارية . كان الرجل يفكر بالطبع فيما يعنيه هذا الاختراع الجديد من فصل بين ممارسة الجنس وبين الإنجاب ، وما لا بد أن يعنيه هذا من بداية النهاية لهذا الجزء الطويل جداً من تاريخ الإنسانية الذى فرضت فيه هذه العلاقة بين ممارسة الجنس والإنجاب مختلف أنواع القيود على حرية المرأة والرجل على السواء ، وقيام مؤسسات وتنظيمات اجتماعية عريقة اعتبرها الإنسان من البدايات أو حتى من المقدسات التى لا يجوز المسام بها . فإذا بهذه الحبة المدهشة تهدد كل هذه التنظيمات والمؤسسات فى الصميم وتثير الشكوك حول ضرورتها وجدواها .

كان من بين هذه الآثار الخطيرة بلا شك ما بدأت المرأة تحظى به من حريات لم تكن لتحلم بها ، وغو الحركات النسوية نتيجة لذلك أو مقترنا به ، والتدهور الذى أصاب العائلة وارتفاع نسب الطلاق . . إلخ . بل لقد قرأت لعالم اجتماع أمريكى راباً يربط فيه بين هذا التحرر الذى حققته المرأة وبين انتشار ظاهرة الشذوذ الجنسى . فإذا أصبحت المرأة قادرة على ممارسة الجنس دون أن يشترط على ذلك إنجاب ، أصبحت معرّضة ، أكثر فأكثر ، لأن تعيش مستقلة عن الرجل ، كما سمر الرجل يتوع من التهديد إزاء ما اكتسبته المرأة من قوة جديدة واستقلال عته ، وهى قوة قد تخيف بعض الأنواع من الرجال وقد تدفعهم دفعا إلى نوع آخر من علاقات الجنسية .

المدهش في ظل هذه الظروف كلها، وعلى الرغم من هذه الدرجة غير المسبوقة من التحرر الجنسي وسهولة تكوين العلاقات الجنسية الحافظة التي لا تلزم أحدا بشيء، أن نلاحظ مدى سيطرة الجنس، وبدرجة غير مسبوقة أيضاً، على مختلف وسائل الإعلام ومختلف أنواع الفنون، سواء في الأدب أو السينما أو المسرح أو الأغاني أو الفنون التشكيلية. كان من المعقول جداً أن نتوقع أنه كلما تحور الناس من القيود التي تفرضها التقاليد والقيم السائدة على الجنس، قلت سيطرة هذا الموضوع على الأذهان، وانصرف الذهن إلى التفكير في أمور أخرى ومشكلات أخرى. ولكن العكس بالضبط هو الذي حدث بل وزاد قوة مع الزمن. فلا زال موضوع الجنس يعتمد عليه في جذب الجمهور إلى الفيلم الجديد والمسرحية الجديدة والسلع الجديدة، ولا زالت الصور الجنسية تعتمد عليها الصحف والمجلات لزيادة التوزيع وكسب قراء جدد. ولا زال مصممو الأزياء يتفنون كل عام، ويتنافسون فيما بينهم في استغلال نفس المدافع ونفس المول لترويج أزيائهم الجديدة. . إلخ.

إنني أقارن الآن بين ما كنت أشاهده من أفلام ومسرحيات وبرامج تليفزيونية وما كنت أقرأه في الصحف والمجلات في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، أثناء سنوات إقامتي الأولى في إنجلترا، وبين ما أقرأه أو أشاهده الآن كلما زرتها من جديد، فأجد اكتساحاً صارخاً ومتزايد القوة لموضوعات الجنس على حساب الموضوعات الأكثر صلة بالمشكلات الاجتماعية أو الأخلاقية والأضعف صلة بالعلاقة بين الجنسين. لقد أخذت نسبة المسرحيات والأفلام التي تتناول مثل هذه الموضوعات الأخيرة تتضاءل شيئاً فشيئاً، وأغلقت أبواب بعض دور السينما التي كانت تعتمد على جمهور هذا النوع من الأفلام الجادة، كسينما إيفري منز (Everyman's) في هامستيد (Hampstead) أو سينما الأكاديمية (Academy) في شارع أكسفورد (Oxford St.) ومالت المسارح التي لم تكن تعرض إلا مسرحيات لشيكوف أو بريخت أو سارتر أو برناردشو وأمثالهم، إلى تقديم مسرحيات من نوع مختلف يغلب عليها الجنس أو تعتمد على الموسيقى والغناء والرقص. حدث تطور مهم بلا شك في أدواق الناس وفي معدلات الربح التي تحققها هذه الأنواع أو تلك

من المسرحيات والأفلام. صحيح أنه لا زال من الممكن أن ترى في لندن أفضل ما ينتجه مؤلفو المسرح ومخرجو السينما في العالم الغربي، بل ربما كان من الأسهل أن ترى في لندن أفضل ما ينتجه مخرجو السينما المنتمون لثقافات أخرى، من أن تراه في أى بلد آخر في العالم، ولكن من المؤكد أن نسبة الغث إلى السمين قد ارتفعت بشدة، وأن الذوق السائد فيما تعرضه المسارح أو دور السينما في لندن قد أصابه تدهور شديد لا يعادله إلا الارتفاع الكبير في النفقات التي أصبحت تتكلفتها الأفلام الحديثة والمسرحيات الاستعراضية والفنائية.

حدث تدهور مماثل فيما يقدمه التلفزيون وما تنشره الصحف والمجلات وما تخرجه المطابع من كتب. لقد زادت السرعة في الكتابة والقراءة على السواء، كما زاد الاعتماد في ترويج كل هذا (الصحف والمجلات وبرامج التلفزيون وأفلام السينما والمسرحيات) على وسائل لا تختلف عما يستخدم في ترويج السلع: الإلحاح، والصيغ، والألوان، والصور المثيرة ومختلف أشكال الخداع، سواء فيما يكتب على أغلفة الكتب من وصف غير صحيح لمحتواها، أو ما تعد به مانتشت الصحف أو عناوين المقالات أو إعلانات الأفلام والمسرحيات من أشياء لا يحد لها القارئ أو المشاهد أثرا في الحقيقة.



جنباً إلى جنب مع انتشار نمط المجتمع الاستهلاكي واكتساح نظام السوق لغيره من النظم، بدأ المجتمع الحديث يبدى تسامحاً أكبر مع الأقليات ونفورا متزايداً من التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العقيدة. كان الرجل الأسود منذ نصف قرن يلقى في المجتمعات الغربية معاملة شديدة الإجحاف، كما كان الأوروبيون ينظرون بتمعال وسخرية إلى أصحاب الثقافات المغايرة لثقافتهم. من كان يتصور منذ خمسين عاماً أن يصبح لاعب كرة القدم من السود أعضاء في الفريق «القمي» لدولة أوروبية، أو أن تحظى بطولة ويمبلدون في التنس شقيقستان أمريكيتان سوداوان، وأن يحظى هؤلاء اللاعبون وهاتان الفتاتان بمعاملة الأبطال إذ جلبوا كل هذا الشرف للدولة التي يتسبون إليها؟ أو من كان يتصور أن تحظى شوارع

مدينة مثل لندن بمطاعم ومقاه تقدم مأكولات من كل صنف وتنتمي إلى مختلف الشفقات والأجناس والمشارب، ويذهب إليها الإنجليز أكثر مما يذهب إليها الأجانب؟ أو أن يرى شوارع لندن ومحلاتها مكتظة بالأجناس المختلفة حتى ليصعب من الصعب أن تصدق أنك في عاصمة الشعب البريطاني؟ نعم، لقد سوى نظام السوق والتطور التكنولوجي (أو كاد يسوى) بين الجميع، فقضى أو كاد يقضى على أى تميز لأحد عن غيره، وعلى أى محاولة من جانب الصفوة من أى نوع، سواء كانت صفوة اجتماعية أو ثقافية أو أخلاقية، لتمييز نفسها عن الباقين. بل وما هو نفس التطور يكاد يقضى حتى على أى محاولة للرجل لتمييز نفسه عن المرأة، أو للمرأة لتمييز نفسها عن الرجل، وما أكثر ما سمعنا ونسمع من تصفيق وتر حبيب بهذه التسوية بين الناس. ولكنى أجد فى نفسى شعوراً بالخوف المستطير من أن تكون هذه التسوية أشبه بما يفعله «وابور الزلظ» إذ يسوى بثقله كل ما يسير فوقه. وكثيراً ما يخطر لى أن شيئاً شبيهاً بهذا هو ما فعلته، ولا زالت تفعله، حضارة السوق بالأشياء والناس على السواء. فبعد أن رأينا شيئاً بعد آخر، مما كان مجانياً ومتاحاً للجميع، يصبح محلاً للبيع والشراء، أخذ البيع والشراء يشملان الناس أيضاً. وعندما يصبح كل شىء محلاً للبيع والشراء، يزول أيضاً أى معيار آخر للتمييز بين الأشياء والأشخاص.

- ١٠ -

فى أواخر سنة ١٩٧٠ حدث لى حادث فظيع، أر على الأقل اعتبرته كذلك حينئذ، قضيت بسببه أياماً من أعسى أيامى على الإطلاق.

كنت وقتها فى الخامسة والثلاثين من عمري، وقد انقضى على حصولى على الدكتوراه ورجوعى إلى مصر ست سنوات، قضيتها مدرسا ثم أستاذاً مساعداً فى الاقتصاد فى كلية الحقوق بجامعة عين شمس، وانتدبت أحياناً لبعض الوقت للتدريس فى الجامعة الأمريكية، وسافرت خلالها إلى إنجلترا أكثر من مرة لقضاء جزء من عطلة الصيف ومعى زوجتى وطفلان فى زيارة لوالديها فى بلديهما فى

شمال شرق لندن . كنت أذهب خلال هذه الرحلات إلى لندن للالتقاء ببعض زملاء القدامى ، وقد أمرّ على أستاذي القديم روبنز (Robbins) للتحية ، ولكنني نادرا ما كنت أحاول زيارة الأستاذة الأمريكية التي أشرفت علىّ خلال الدكتوراه إيديث بنروز (Penrose) ، فلم أكن أقابلها إلا مضطرا .

ظللت دائما أحمل حبا خالصا وشعورا بالامتنان للأستاذ روبنز لم أكن أشعر بتلهما للأستاذة بنروز . لم أكن أشعر نحوها بأي ضغينة ، وقد ظلت علاقتنا ودية إذ لم يمس أحدنا قط إلى الآخر ، حتى ذلك الوقت على الأقل ، ولكنني كنت اعتبرها دائما أستاذة عادية ، بلغت ما بلغت بجتهادها وطموحها دون تميز خاص يزيد عن المألوف ، لا عقليا ولا خلقيا . وعندما شرعت مرة في اختيار الإهداء الذي سأصدر به كتابي الأول الذي نشر في إنجلترا ويتضمن رسالتي للدكتوراه ، أهديت الكتاب إلى شخصين لم تكن هي منهما ، فجاء الإهداء كالآتي «إلى أبي الذي علمني حب الكلمة المطبوعة وإلى أستاذي روبنز الذي علمني ألا أقدمها» . كانت هذه العبارة تنطوي على بعض المبالغة في التاجيتين ، إذ من الصعب أن يتعلم المرء «حب الكلمة المطبوعة» من شخص واحد ، ناهيك عن تعلم «عدم تقدسها» . ولكنني كنت مدفوعا بالطبع بالرغبة في أن يكون الإهداء بليغا ومؤثرا . على أن الذي يهمني الآن أنني لم أذكر الأستاذة بنروز في الإهداء ، ولا خطر لي أن أذكرها ، مع أنها هي التي أشرفت على بحثي الذي يتضمنه الكتاب ، وهي التي أخبرت الناشر الإنجليزي به فوافق على نشره ، إذ أنني لم أكن أشعر بأي امتنان نحوها من أي نوع . وقد بدا عليها الامتناع عندما قرأت الإهداء ولكنها لم تعلق عليه . لقد وجهت إليها الشكر التقليدي في المقدمة من بين من شكرت ، ولكن اسمها ورد ضمن عدد كبير من الأشخاص الذين لم يساهموا في الكتاب مساهمة ذات شأن ، ومنهم السيدة التي كتبت الرسالة على الآلة الكاتبة .

في إحدى زيارتي للندن قابلت رئيس قسم الاقتصاد بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن ، وكان شابا إنجليزيا رقيقا متخصصا في اقتصاديات الشرق الأقصى ، وقال لي إن وظيفة مدرس لاقتصاديات الشرق الأوسط سوف يعلن عنها قريبا في كليته وشجعتني على التقدم لها ووعدني بمؤازرته .

فرحت بالخبر فرحاً شديداً، ولم أتردد لحظة في التقدم للوظيفة. كنت وقتها أعتبر الحصول على وظيفة أستاذ في جامعة لندن أفضل ما يمكن أن يحدث لي في حياتي الأكاديمية، وكانت كل الظروف الأخرى تشجع على اتخاذ هذه الخطوة: أن نعيش في لندن، تلك المدينة العظيمة، ولو لبضع سنوات، وبالقرب من والدي زوجتي، فتغوى علاقة طفلي بهما. والوظيفة تسمح لي بأن أشتري بيتاً بالتقسيط، طبقاً للنظام المألوف في إنجلترا، فنسكن بيتاً بحديقة جميلة لا يبعد كثيراً عن أفضل المسارح وقاعات الموسيقى ودور السينما التي تعرض أفضل ما يمكن أن يتبع من أفلام. كل هذا فضلاً بالطبع عن فرصة التفرغ التام للبحث والكتابة، إذ توفر الجامعة الوقت الكافي لذلك وكل المراجع العلمية التي قد أحتاج إليها، بالمقارنة بالفوضى الشائعة التي تتسم بها حياتنا في مصر مما لا يكاد يسمع بعمل أي شيء ذي شأن على الإطلاق، كما اكتشفت في السنوات الست التي انقضت على حصولي على الدكتوراه ولم أنتج فيها شيئاً ذا بال، اللهم إلا بضع مقالات كتبت على عجل عن اقتصاديات البلاد العربية، ومقالات كتب على عجل أيضاً عن بعض نظريات ابن خلدون الاقتصادية.

لم يخطر ببالي قط أن اتصل بالأستاذة بنروز لاستشرها في تقديمي للوظيفة، وكانت قد أصبحت أستاذة في الكلية التي أرغب في التعيين فيها، إذ لم يخطر لي قط أن يكون من الممكن أن تعترض على ذلك، وظننت أن مجرد تشجيع رئيس القسم لي على التقدم للوظيفة، فضلاً عن شعوري باستحقاقي لها، كافيان لضمان حصولي عليها. تقدمت إذن للوظيفة وأرسلت بي جامعة لندن تذكرة الحضور إلى إنجلترا لمقابلة الأستاذة المختصين وعميد الكلية، فظننت أن هذه المقابلة أمر شكلي بحث لا بد أن ينتهي بتعييني، وسافرت إلى لندن مبهتجاً وواعداً نفسي بمستقبل باهر وبداية حياة مثمرة.

فوجدت بمقابلة رسمية للغاية، وإذا بي أجلس أمام ستة أو سبعة من الأساتذة الكبار في غرفة عميد الكلية الذي رأس الاجتماع، وشعرت بأنني في امتحان عسير توجه إلي فيه الأسئلة القاسية من كل صوب، وشعرت بعدوانية من العميد في

اختياره للأسئلة التي وجهها إليّ، ولكنني فوجئت تمامًا بعد واثنية واضحة من الأستاذة بنروز نفسها التي كنت أظن أنها سوف تحاول تسهيل مهمتي. أما أكبر قدر من العدوانية فقد جاءت من الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis)، المورخ الشهير، الذي كان قتها لا يزال أستاذًا في نفس الكلية قبل أن ينتقل إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدة، ثم سمعنا عن دوره في رسم السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط بمناسبة أحداث ١١ سبتمبر، ثم قرأنا كتيبه القطيعة ضد العرب والمسلمين التي كتبها في أعقاب تلك الأحداث وحازت رواجًا كبيرًا.

عندما استرجعت في ذهني فيما بعد الأسئلة التي وجهت إليّ خلال هذه المقابلة لم يثر لديّ شك في أن القرار برفض تعيبي كان قد اتخذ من قبل أن أحضر إلى لندن، وإنّا اضطررنا لإجراء المقابلة مراعاة لبعض الشكليات، ومراعاة لشعور رئيس القسم الذي شجعني على التقدم للوظيفة.

كانت الأسئلة من نوع: «لماذا تكتب عن الاقتصاد العربي وليس عن اقتصاديات الشرق الأوسط؟ وما الذي دفعك للكتابة عن ابن خلدون؟ وهل أنت على استعداد لتعلم اللغة التركية؟» (هكذا كانت أسئلة برنارد لويس). أو «هل تريد المجيء الآن بسبب صغر من أطفالك وفي نيتك ترك الوظيفة بعد سنوات قليلة؟» (هكذا كانت أسئلة العميد). أو «ألا ترى أن كتاباتك بعد حصول على الدكتوراه بعيدة الصلة بموضوع رسالة الدكتوراه، أو لم يكن من الأجدر بك الالتزام بالتخصص وعدم التطرق لموضوعات بعيدة عن موضوع تخصصت؟ أو هل تستطيع حقًا التدريس في فصول تتكون من أعداد صغيرة من الطلاب وأنت قد تمردت على المحاضرة أمام عدة مئات منهم؟» (هكذا كانت أسئلة بنروز). لا أذكر أنني سمعت سؤالاً مشجعاً إلا من رئيس القسم، ومع ذلك فقد خرجت من المقابلة واضياً عن أدائي ولم يخطر ببالي قط أن النتيجة التي سوف يخطرني بها بعد خروجي بدقائق قليلة هي الرفض.

كانت الصدمة شديدة وخيبة الأمل كبيرة. ولما أخذت أفكر في الأمر يهدوء بعد رجوعي منهزمًا إلى مصر، رجعت أن برنارد لويس كان له التأثير الحاسم على

الباقين ، بمن فيهم العميد نفسه ، وأن بنروز بدورها لم تجد لها مصلحة في مخالفتها .
لم أكن أدرك وقتها إلى أى مدى يدين برنارد لويس بالولاء للصهيونية . ولكنى الآن
لا أشك في دوافعه إلى رفض تعنى منرسا في تلك الوظيفة . إنى لم أعرف يهوديا
واحدا في حياتى لا يسيطر عليه ولاؤه لدولة إسرائيل ، ولا يضرب الصفح عن أى
اعتبار آخر إذا تطلب منه هذا الولاء أن يتصرف على نحو معين . ولابد أن برنارد
لويس سأل نفسه عن المصلحة التى يمكن أن يحققها لإسرائيل تعيين اقتصادى
مصرى واعد ، يظهر من كتاباته أنه يهجم حال العرب ، فى وظيفة فى جامعة مهمة
تتيح له الاتصال المستمر بطلبة من مختلف الجنسيات . والأرجح أن يكون قد سمع
من بنروز أو من غميسرها اسم أبى . ولا أشك فى أنه يعرف من هو وأنه المؤرخ
الإسلامى الذى يهجم بدوره أن يهض العرب والمسلمون من كبوتهم . . الخ . كان
لابد إذن أن يرفض برنارد لويس تعيينى . والرجل كبير السطوة وقريب من وزارة
الخارجية البريطانية القريبة بدورها من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية ، فلا بد أن
يكون للرجل القدرة على التأثير فى عميدها . أما الأستاذة بنروز ، ففى ضوء ما
أعرفه عن شخصيتها وطموحاتها ، ما الذى يمكن أن تحنيه من مجئ اقتصادى
مصرى فى مقبيل العمر ، يعرف اللغة العربية التى تتظاهر بمعرفتها بعكس الحقيقة ،
 ويعرف عن جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية فى مصر ما تجهل أيضا؟ وهو على
أى حال لا يبدو أنه يحمل لها تقديرا كبيرا أو احتراما زائدا؟

هكذا استقر رأيى ونفسيى لما حدث . وقررت ألا تكون بينى وبين بنروز أى
علاقة بعد الآن ، وأن أرفض الالتقاء بها هى وزوجها إذا جاءا إلى مصر فى زيارتهما
لهابىن الحين والآخر . وهذا هو بالفعل ما حدث . فلما جاءا إلى مصر بعد شهور
قليلة ، واتصلت بى كالمعتاد رفضت مقابلتهما ، وكان من الواضح لهما سبب هذا
الرفض .

كان زوج إيديث برور إنجليزيا فاضلا يكبرها فى السن كثيرا . كان قد تجاوز
السبعين ، وكان أستاذا مرموقا فى علم السكان وله مؤلفات تحظى بالاحترام ، وكنت
أجده رجلا متحضرا للغاية ، كريما فى معاملته للناس ، وواسع الأفق والثقافة . وقد

أسفت لاضطرارى لمقاطعتي بسبب ما فعلته زوجته . ثم جاء رده على موقفى فتراد تقديرى له وإعجابى به . فقد تسلمت بعد أيام من رجوعهما إلى لندن خطاباً طويلاً منه ، يصل إلى ست أو سبع صفحات ، يقول فيه إنه يفهم تماماً قوة شعورى بخيبة الأمل ، ولكنه يرجو أن تغلب على هذا الشعور ، وألا أزع ما حدث بترك أثره باقياً فى نفسى . ثم أخذ يحكى لى فى الخطاب قصة بعد أخرى مما حدث له فى حياته وما جلبته له هذه التجربة أو تلك من خيبة أمل ، ثم يبين له فيما بعد كم كان يبالغ فى أهمية ما حدث له ، وأن كثيراً ما اعتبره كارثة تدعو إلى الإحباط الشديد ، تبين له فيما بعد أنه كان ينطوى على خير عميم . أرسلت له رداً أعبر فيه عن امتنانى لمعطفه ونبل مشاعره . ولم تنقض سنة أو ستان حتى كنت قد نسيت الأمر برمته ، بل وتبينت لى بعد مرور بضع سنوات أخرى صحة ما قاله الأستاذ العجوز عن الكارثة التى قد تطوى على خير عميم . ولكنى لم أغير رأى بالطبع فى زوجته . التقيت بها بعد ذلك مرتين أو ثلاثاً فى مدينة صغيرة قريبة من كامبردج حيث اشترت لنفسها منزلاً تعيش فيه بالقرب من ابنها بعد أن مت زوجها وأحيلت هى إلى المعاش . وكانت تبدى حرصاً شديداً على أن أتصل بها كلما جئت إلى كامبردج ، ودعنى أنا وزوجتى لتناول الغداء مع ابنها فى حديقة منزلها ، وكان يطيب لها أن تستعيد ذكريات السنوات التى قضتها أستاذة فى كلية لندن للاتصاف ومحدث بينها وبين هذا الطالب المصرى أو ذاك . ثم جاءنى خبر وفاتها وهى على مشارف الثمانين ، وكنت قد تخلصت من كل شعور بالمرارة إزاءها . ولكنى لازلت أعتقد أننى لم أكن لأخسر كثيراً لو لم أعرفها فى حياتى قط .



بعد هذه الحادثة بأقل من عام جاءنى عرضان مغريان فى وقت واحد ، حوت حيرة شديدة فى الاختيار بينهما : عرض من الجامعة الأمريكية ببيروت بتعيينى أستاذاً مساعداً للاقتصاد ، وآخر من مؤسسة فورد لقضاء عام كامل فى أى مكان اختاره لكتابة بحث أو كتاب أكون قد بدأته ويحتاج إلى عام من التفرغ لإنهائه . كان لكل العرضين مزاياه الواضحة ، وطال ترددى فحاولت أن أحصل على موافقة

الجامعة الأمريكية ببيروت أو مؤسسة فورد على تأجيل العرض عنما واحداً بأمم
الجمع بين الاثنين نلم أفنح . وأثناء مرورى بهذه الحيرة والتردد الطويل تصادف أن
قابلت رجلاً من أقاربى ، كنت أعرف عنه الحكمة وسداد الرأى . كان قد جاوز
الثمانين ، واستمع إلى مشكلتى فى الاختيار بين شينين كلاهما طيب ، فكان رده
مختصراً وحاسماً : «الحقيقة يا جلال أن اختيارك لهذا العرض أو ذاك لن يكون له
أثر مهم على الإطلاق فى المدى الطويل ، وأن المسألة كلها لا تستحق كل هذا القلق
أو الحيرة» . وأنا لا أشك الآن فى أنه كان على صواب .

- ١١ -

كنت فى صباى ، وفى مقبل الشباب ، أنصوّر أن ثمة ما يمكن تسميته «الحقيقة»
أو «حقيقة الأشياء» ، أو أن هناك «إجابات نهائية وحاسمة» على الأسئلة المهمة التى
تشغل بالنا ، وأن كل ما نحتاج إليه لاكتشاف هذه الحقيقة أو هذه الإجابات النهائية
هو أن نقرأ الكتب والمقالات التى كتبها كتّاب يتسمون بالحكمة ، وأن نشاهد
المسرحيات والأفلام الجيدة ، وأن نستمع إلى الموسيقى الرفيعة . هكذا كنا نظن ،
ومن ثم شعرنا بأن قراءة ومشاهدة هذه الأشياء ، والاستماع إلى هذه الموسيقى ،
ليست مجرد عمل مفيد أو جدير بالثناء بل واجب من الواجبات التى يُلام المرء إذا
قصر فى أدائها . هكذا اعتبرنا أنفسنا مقصرين إذا لم نكن مثلاً قد قرأنا بعد «الحرب
والسلام» لتولستوى ، أو الإخوة كرامازوف لدستوفسكى ، أو كتاب «رأس المال»
لكارل ماركس أو «أصل الأنواع» لدارون ، أو لم نشاهد شكسبير أو بريخت على
المسرح ، أو أفلام دى سيكا وبرجمان فى السينما ، أو إذا لم نكن نستطيع التمييز بين
موسيقى باخ وهاندل ، أو بين موزار وبيتهوفن . . إلخ . بل أذكر أنى أثناء سنوات
البعثة فى إنجلترا كنت أشعر بتأنيب الضمير ، ليس فقط إذا لم أذهب لمشاهدة
مسرحية لشكسبير تمثّل فى مسرح قرب ، أو لحضور حفلة موسيقية فى صالة
الموسيقى الكبيرة (Festival Hall) الواقعة بجوار جسر واترلو وعلى بعد خطوات
قليلة من كليثى ، بل كنت أشعر بوخز الضمير أيضاً إذا انقضى يوم الأحد دون أن أتم

قراءة صحيفة «الأوبزورر» (Observer) الأسبوعية، بتعليقاتها السياسية ومقالات النقد المسرحي... إلخ.

كم تغيرت نظرتي إلى هذه الأشياء كلها، وكم تبدوا لي الآن نظرتي القديمة مفرطة في التفاؤل، بل وأكاد أقول في السذاجة أيضاً. إن هدفاً من قراءة الكتب والصحف ورؤية المسرحيات والأفلام والذهاب إلى حفلات الموسيقى، لم يكن مجرد الترويح عن النفس أو التسلية، بل ولا كان مجرد زيادة معلوماتنا عما يجري في العالم، بل كان هدف «الفهم» والوصول إلى «الحقيقة»، ولكنني لم أعرف إلا بعد سنوات كثيرة كم هو صعب تحقيق هذا الهدف، إن كان ممكناً على الإطلاق. فالصحف ونشرات الأخبار في الراديو والتلفزيون تنهال علينا كل يوم بكمية هائلة من المعلومات، ولكنني أعرف الآن أن زيادة المعلومات كثيراً ما تؤدي إلى تقليل الفهم بدلاً من زيادته، خاصة إذا قدمت إليها على النحو الذي تقدمها به لنا عادة وسائل الإعلام: أخبار سريعة وغير مترابطة وخالية في معظم الأحيان من أي تحليل، وتختلط فيها المعلومات الهامة بغير الهامة، الضرورية مع غير الضرورية. لقد اكتشفت أيضاً بعد سنوات كثيرة، أن أكثر الكتب هي أيضاً من هذا النوع الذي يعطيك من المعلومات أكثر بكثير مما يعطيك من التحليل والفهم، وأن هذا التحليل، إذا وجد، نادراً ما ينصب على الجوهرى والمهم، ونادراً ما يجيب على الأسئلة التي كنت تنتظر أن يجيب عليها، ومن ثم نادراً ما يزيد من فهمك لشيء تريد فهمه.

نحن نعرف أن عناوين الكتب كثيراً ما تكون ضعيفة الدلالة على ما تحتمله، ولكن حتى إذا كان العنوان يصف محتوى الكتاب وصفاً صادقاً، ما أكثر ما يخيب الكتب أملت بعد قراءة فصول قليلة منه، واكتشفت أنه لا حاجة بك إلى إتمام قراءته. إنني أنظر الآن إلى عشرات الكتب التي تناول موضوع «التنمية الاقتصادية» من مختلف جوانبها، والواقفة الآن على رفوف مكتبي، فلا أشعر بأي أسف إذا حدثت وفقدت الغالبية العظمى منها، إذ أن هذه الغالبية العظمى لم تجب على أسئلة تشوقني فعلاً معرفة الإجابة عليها، ولم تزدني فهماً بالأسباب الحقيقية للفقر أو

بالطرق الصحيحة للقضاء عليه . ولكنى أستطيع أن أقول نفس الشيء عن معظم الكتب التى قرأتها فى بقية فروع الاقتصاد ، وفى غير الاقتصاد من العلوم الاجتماعية . نعم فى كثير منها تمارين عقلية شائقة ، ولكن هذه التمارين العقلية أقرب إلى التمرينات الرياضية التى تقوى الجسم ولا تغذيه ، فهذه أيضاً تقوى عضلات العقل دون أن تزيد فهما للمشكلات التى نتكلم عنها .

لجورج أورويل قول طريف يعرف فيه الكتاب الجيد بأنه « الكتاب الذى يقول لك ما كنت تعرفه من قبل » . إنه إذن ليس الكتاب الذى يضيف إلى معلوماتك ، فهذا النوع من الكتب لا يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل ، ولكنه الكتاب الذى يدعم فهمك لبعض الأمور ، وقد ينظم هذا الفهم ويرتبه ، فيزيد من وضوح هذا الفهم فى ذهنك ، ومن ثقتك بصحته . أورويل يقصد أن يقول أيضاً ، فيما أظن ، أن أفضل الأفكار وأهمها هى أبسط الأفكار وأسهلها ، ومن ثم فليس من الغريب أن تطرأ على ذهن الكثيرين ، فىئى الكتاب الجيد فقط لتأكيد ما وتوضيحه . ولكن الحقيقة أن أكثر الكتب ليس من هذا النوع ، بل أكثرها يثير أسئلة غير مهمة ويجب عليها إجابات غير مقنعة . فكيف لا يخيب فيها الأمل ؟

لهذا السبب اعتقد أن أستاذى القديم (مصطفى بدران) الذى أعطانى الدروس الوحيدة التى تلقيتها فى علم الكيمياء فى حياتى كلها ، وكنت فى الثالثة عشرة من عمري ، كان على صواب عندما كان يصبر على ألا يتكلم فى موضوع لم يتأكد بعد من رغبتنا فى معرفته وفهمه ، وألا يقدم لنا إجابة على سؤال لم نطرحه نحن ابتداء . هل كان وراء هذه الطريقة فى التعليم نفس الافتراض الذى يكمن وراء تعريف أورويل للكتاب الجيد ، وهو افتراض أن الكلام الجيد مائة بالمائة لا يمكن أن يشكل «معرفة» حقيقية ، بل يجب أن يكون الكلام ، لكى تكون له فائدة حقيقية ، صدى لما كان يدور من قبل فى ذهن المتلقى ؟ وهل وراء هذه النظرة إلى التعليم وهذا التعريف للكتاب الجيد نفس الفكرة ، أو فكرة وثيقة الصلة بما كان يفقه الشاعر الهندي طاغور فى مقطوعته الشعرية الجميلة التى سبق لى اقتطافها ، والتى تقول :

«لقد أنفقت ثروة طائلة في السفر إلى شواطئ بعيدة، فرأيت جبلا شاهقة ومحيطات لا يحدها حد. ولكني لم أجد متسعاً من الوقت لأن أخطو بضع خطوات قليلة خارج منزلي، لأنظر إلى قطرة واحدة من الندى، على ورقة واحدة من أوراق العشب»؟

ربما كان فيما نعرفه عن حياة نجيب محفوظ شيئاً يدعم نفس الفكرة. فالرجل الذي عاش حتى بلغ الخامسة والتسعين وأنتج كل هذه الروايات التي حازت إعجاب الكثيرين وجلبت له جائزة نوبل، كان كارها للترحال بدرجة تلفت النظر. كان ملتصقا بالتصاقا مدهشاً بمدينته وحيه والمقهى الذي يجلس فيه كل يوم، ويرفض رفضاً باتاً أي فرصة تتاح له للسفر لرؤية بلد جديد وتجربة أي غط مختلف للحياة. وكأن تجاربه الجديدة، وهي بلا شك كثيرة جداً، كانت تدور كلها داخل رأسه. نعم، نحن نعرف أيضاً أن نجيب محفوظ كان قارئاً نهما، ولكن ما أقل إضاءة نجيب محفوظ بكتّاب يعينهم باعتبارهم أصحاب فضل كبير على أدبه وفكره، وما أصعب أن تبين تأثيراً لكتّاب معين يفوق تأثير غيره. وكان المهم، في حالة نجيب محفوظ، ليس ما قرأه من كتب بل ما صنع ذهنه بهذه الكتب، أو على الأرجح ما جاءت هذه الكتب لتدعمه مما كان يدور بذهنه من قبل.



زارني مرة أخى حسين، أثناء بعثتي في لندن، ووجدني أقرأ في كتاب جوزيف شومبيتر (J. Schumpeter) الضخم «تاريخ التحليل الاقتصادي» (History of Economic Analysis) وهو كتاب يقع في أكثر من ألف صفحة ومطبوع بحروف صغيرة، فإذا بحسين يعبر عن أسفه ضاحكاً أن يكون هذا الكتاب كتاب اقتصاد وليس رواية، إذ ما أضيع كل هذه الصفحات، في رأيه، إذا لم تتضمن عملاً روائياً! وقد مرّ على وقت كنت فيه مثل حسين، أحمل كل هذا الإعجاب بالأدب، وأعلق عليه أهمية كبيرة، مثلما كان حسين يعلق عليه من أهمية في كشف «الحقيقة» أو في فهم «حقيقة الأشياء». في ذلك الوقت كنت إذا شرعت في قراءة رواية

كلاسيكية شهيرة أو في مشاهدة مسرحية لكاتب كبير وتقوم بتمثيلها فرقة مرموقة، أو ذهبت لرؤية فيلم لمخرج لامع، أتوقع أن يصبح حالي بعد قراءة الرواية أو مشاهدة المسرحية أو الفيلم مختلفاً جداً عن حالي قبلها، أو أن أجد في جملة أو فقرة من الرواية، أو في موقف إحدى شخصيات الرواية أو المسرحية أو الفيلم تلخيصاً للموقف الواجب اتخاذه في الحياة، أو حكمة تنفع جداً للكثير من تساؤلاتنا عن معنى الحياة، أو عن سر السعادة والبؤس... إلخ.

لاشك أن فترة الدراسة في إنجلترا قد صرفتني عما كنت أفعله قبل سفري من الإقبال على الأعمال الأدبية في صورها المختلفة، كما أدت كثرة قراءاتي لكتب ومقالات الاقتصاد إلى إضعاف حاستي الأدبية ومن حماسي لأي نوع من الأدب. ولكنني عندما أقرأ من حديد بعض الروايات وأشاهد بعض المسرحيات والكثير من الأفلام تبين أنني كنت أطلب المتحيل، وأن كتاب الرواية والمخرج والمخرجين السينمائيين ليسوا بالضرورة أكثر حكمة من غيرهم، أو أكثر الناس معرفة بحقائق الأشياء. إنهم فقط فنانون، أي لديهم من الموهبة ما يمكنهم من رواية القصة أو كتابة الحوار أو إخراج الفيلم على نحو جذاب ومشوق ومثير، أي ما يمكنهم من إنتاج عمل فني بأسر القراء أو المشاهدين بجماله، دون أن ينسجم بالضرورة بالعمق أو نفاذ البصيرة. رأيت أن هذا الذي كنت أتوقعه في الأعمال الأدبية والفنية لا يوجد حقيقة إلا في أعمال عدد صغير للغاية ممن وهبوا المهارة الفنية والحكمة في نفس الوقت، ولكن ما أكثر الفنانين الذين لا يتفوقون على جمهورهم في الحكمة وسداد الرأي. وهؤلاء لا يمكن للمرء أن يتوقع أن يحصل من أعمالهم الفنية على أكثر من مجرد الترفيه والترويح عن النفس.

مع مرور الوقت أدركت أيضاً خطأ اعتقادي بأن في الموسيقى شيئاً يزيد عن مجرد «الفن»، أي بأن الموسيقى يمكن أن تنقل إلى مستمعها «فكرة» أو «فهما» من أي نوع يشه ما يحصل عليه قارئ الكتاب أو المقال. نعم هناك من أنواع الموسيقى ما يمكن اعتباره «أرقى» من غيرها، ولكن التميز هنا يتعلق بعمق الإحساس وليس بعمق الفكر.

ما أشد الرهبة التي شعرت بها عندما جلست لأول مرة في مواجهة الكاميرا مشتركا في أحد برامج التلفزيون المصري . كانت فكرة الظهور في برنامج تلفزيوني تراه الآلاف المؤلفة من الناس تبعث في نفسي السرور والخوف في نفس الوقت . السرور لما يجلبه التلفزيون من شهرة (أو ما نظنه كذلك) ، والخوف من ارتكاب أى نوع من الخطأ ومن ثم مما يمكن أن يجلبه هذه الشهرة من أثر هو عكس المطلوب بالضبط . ولكن سرعان ما ذهب الخوف وقلَّ السرور .

ذلك أننى بعد أن ظهرت في التلفزيون ثلاث أو أربع سرات ، بدأ يعترضني الشعور بالضيق من طريقة معاملة المشتغلين بالتلفزيون لضيوفهم . نيين لى أن جماهيرية التلفزيون تضى على العاملين فيه أهمية لا يستحقها معظمهم ، فإذا بهم يتصرفون وكأنهم وسطاء بين ضيوف التلفزيون وهذه الأعداد الغفيرة من المشاهدين ، فيصدرون الأوامر لهؤلاء الضيوف بالالتفات إلى اليمين أو اليسار ، ويأمر بتحركوا على هذا النحو أو ذلك ، فتشعر بعد لحظات بأنك كالمشلول أو بالشخص الذى قيدت قدماء وذراعاه فتسمر في مكانه ، ويخرج الكلام مغتصبا وبلا روح ، ريثم يقطعه مقدم البرنامج بإعلان الجمهور والضيوف بأنه لا بد من قطع الكلام لمساعدة فاصل من الإعلانات التى لا توجد صلة بينها وبين ما كنت تتكلم فيه ، بل المنافية تماما لموضوع الحديث . وقد تظن أن لديك قدرة على الانسحاب وعدم الاستمرار فى هذه التمثيلية التى تقدم وكأنها فرصة ممتازة للحوار والكلام بحرية ، ولكنك فى الحقيقة تدرك بسرعة من كل هذه الجذبة والصرامة التى يحاط بها البرنامج ، أو يفترض أنه يتنظره ، يجب أن تلى رغباته ويشبع نهمه للتفرج على هؤلاء الحمقى الذين قبلوا المجيء للتجاوز أمامه ، ولا وظيفة لهم فى الحقيقة إلا تسليته والترويح عنه ، وهو ، أى هذا الجمهور المتوحش ، يستطيع فى أى لحظة بضغط إصبعه على زر ار صغير ، أن يحوكم تماما من الصورة ويستغنى عنك

ويستبدل بك رافضة أو مغنية أو فيلما سينمائيا . وهذه الحرية المزعومة للحوار التلفزيوني يقلل من قيمتها بشدة قدرة إدارة التلفزيون على أن يحذفوا أى جملة من جملتك يعتبرونها مخالفة للسياسة العليا للتلفزيون أو للدولة ، دون أن يشعر المشاهد بأن أى حذف قد حدث ، ومن ثم يجد ضيف التلفزيون نفسه وقد نسب إليه رأى غير رأيه .

جعلنى كل هذا أفقد الثقة فى التلفزيون وأفقد الرغبة سواء فى مشاهدته أو الاشتراك فى أحد برامجها ، باستثناء حالات استثنائية رأيت فيها أن البرنامج جاد ويسمح بدرجة لا بأس بها من الحرية . وقد حاولت مرة أن اشترط عدم قطع البرنامج بالإعلانات ، فأفهمونى أن هذا مستحيل ، وأدركت أننا نظهرونا على شاشة التلفزيون ، حتى فى تلك البرامج القليلة الجادة ، إنما نظهر بدافع واحد فقط لدى متجى البرامج والمشرفين على التلفزيون ، وهو تحقيق أقصى ربح ممكن من الإعلانات .

تغيرت أيضا نظرتى إلى المؤتمرات والندوات التى لا تنقطع فى مصر وخارجها فأصبحت أعتبر معظمها إضاعة للوقت دون فائدة تذكر ، وأصبحت أندesh كلما فكرت فى حجم الأموال الطائلة التى تنفق على جلب المدعوين إلى هذه المؤتمرات والندوات ، من أقصى أركان الأرض إلى مكان المؤتمر ، وعلى إقامتهم فى الفنادق الفاخرة بلا أى طائل ، أو على الأقل بدون أى نفع عام ، وإنما فقط لتحقيق أهداف أنانية بحثة مثل تظاهر متوضى المؤتمر أو الندوة بخدمة قضية نبيلة ، ضمانا لاستمرارهم فى مناصبهم ، أو تحقيقا للشهرة وذبوع الصيت . أو التقرب إلى بعض أصحاب النفوذ الذين يمكن أن يحققوا المنتضى المؤتمر غرض من أغراضهم الخاصة . . الخ

فما أكثر ما وجدت ما ينفق على هذه المؤتمرات أكبر بكثير من اللازم ، إذ كان من الممكن تحقيق المطلوب (أو الذى يتظاهرون بأنه مطلوب) بفعالية أكبر ، إذا كان عدد المدعوين أقل ، ومدة المؤتمر أقصر ، وبحفلات بلغذاء أو العشاء أقل إسرافا . خطر بذهنى أكثر من مرة ، أثناء حضورى لمؤتمر بعد آخر من هذه المؤتمرات ، أن لكل عصر

طريقته في إنفاق الفائض الاقتصادي بعد إشباع حاجات الناس الأساسية وإشباع حاجات الناس المهمين غير الأساسية. ففي مصر القديمة كنت هناك طريقة بناء الأهرامات التي سخر الآلاف من الناس لبنائها، وهي في نهاية الأمر قليلة الجدوى. وفي عصرنا الحديث هناك، فضلاً عن برامج التلفزيون، هذه المؤتمرات والندوات اللانهائية. أو لنعل الوظيفة الحقيقية لهذه المؤتمرات والندوات والتلفزيون نفسه هو مجرد خلق مستهلكين جدد، ودفعهم دفعاً أو حشهم على المزيد من الاستهلاك، إذ من الذي سيشتغل مقاعد الطائرات المحلقة في كل ساعة من ساعات النهار والليل، والمتنقلة بين مختلف بلاد العالم؟ ومن الذي يشتري كل هذه السلع التي لا فائدة ترجى منها، والمعروضة في الأسواق الحرة بالمطارات، إذا استغنيا عن كل هذه المؤتمرات والندوات والاجتماعات؟

كان هذا الإدراك، أو هذا التساؤل، كافياً لإضعاف رغبتى في الاشتراك في هذه المؤتمرات اللانهائية، ولم يعد الحصول على تذكرة سفر مجانية إغراء تويالي. ومن ثم شرعت في اشتراط شروط متعسفة لقبولي السفر من أجل الاشتراك في مؤتمر، تضمن لي أكبر قدر من الراحة وبدل أقل قدر من الجهد، ولكن مع مرور الزمن، لم يعد حتى هذا كافياً، فأصبحت أرفض الاشتراك حتى من قبل أن ترفض شروطى.

- ١٣ -

لا بد أن ذلك السرور القديم برؤية اسمى منشورا، وبالظهور على شاشة التلفزيون وتلقى الدعوات للاشتراك في الندوات والمؤتمرات، كان يرجع في نهاية الأمر إلى حب الشهرة وذبيع الصيت، وهو شيء أشترك فيه مع كثيرين، بل وربما مع معظم الناس. وربما يتعلق الأمر بحاجة بيولوجية دقيقة لا تختلف كثيراً عن حاجة الطفل الصغير إلى لفت الأنظار ولو بالبكاء والعويل، إذ أياً كان سبب الضات الناس إليه فهو أفضل على أى حال من تجاهله تجاهلاً تاماً وكأنه غير موجود.

ألا يفرح الناس بنشر خبر زواجهم أو أعياد ميلادهم في الصحف والمجلات مع

أن الزواج أو الاحتفال بعيد الميلاد ليس بالضرورة داعياً من دواعي الفخر والمباهاة، ومعظم الناس قادرون على هذا أو ذلك، ولا يحتاج الأمر إلى توفر ذكاء خاص أو مزايا نادرة؟ ولكن أن يعرف الآلاف خبر زواجى أو أن يروا صورتى فى الصحف . . أليس هذا شيئاً طيباً يستحق حتى أن يتفق المرء بعض المال والجهد من أجله؟ فإذا افترضنا أن للشهرة سبب يدعو للتقدير والإعجاب، فما الذى يجب أن يجلب للمرء السرور والابتهاج، هل هى الشهرة أم هذا السبب الذى يدعو إلى التقدير والإعجاب بصرف النظر عما إذا كان قد جلب له شهرة أو لم يجلبها؟ لاشك أن شيئاً كهذا هو ما كان يدور بذهن الكاتب السودانى الشهير الطيب صالح عندمالقى محاضرة على طلبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعنوان «تفاهة أن يكون المرء كاتباً»، وكان محور المحاضرة أنه كلما حدث له ما يجعله يظن أنه قد أصبح مشهوراً واذع الصيت فينتفخ ويملأ التيه والإعجاب بنفسه، حدث بعد ذلك مباشرة ما يعيده إلى صوابه وينهيه إلى أن شهرته لم تعد حفنة ضئيلة من الناس مما لا يستوجب كل هذا التيه والزهو. فإذا أعلن مثلاً عن فوزه بجائزة قيِّمة على أعماله الأدبية، فظن بنفسه الظنون، يحدث أن يزور خالته فى قريتها، فإذا بها تسأله فى براءة عما يفعله بالضبط، وكيف يكسب قوته؟ إنها تفهم أن يكون الرجل طبيباً أو مهندساً أو مدرساً، ولكن رجل يكتب القصص والروايات؟ أى عمل هذا بالضبط؟.

سألت صديقاً لى مرة عن السبب الذى جعله يشترك فى حوار تليفزيونى لا أرى فيه أى ميزة تجذب المرء إلى الاشتراك فيه: لا الموضوع، ولا شخصية المذيع المحاور، ولا اتجاهاته السياسية، فقال لى إنه يظل سنوات يكتب المقالات فى صحيفة من الصحف بعد أحوى فلا يشعر بأنها كَوْنَتْ له جمهوراً يقرأه ويعرفه، ثم يظهر مرة واحدة فى برنامج تليفزيونى، ولو فى ساعة متأخرة من الليل، فإذا به فى كل يوم يقابل من يتعرف عليه ويسأله باهتمام: «حضرتك بتطلع فى التليفزيون؟». كما شكاً لى المحلل السياسى القدير إلياس محاب من أنه ظل ينشر مقالاته السياسية فى الصحف اللبنانية لمدة تقرب من أربعين عاماً. ثم حدث وعاد أخوه الأصغر المايسترو سليم محاب من دراسته فى موسكو وقدم حفلة موسيقية واحدة أو

حفلتين فى بيروت وأذاعهما التلفزيون، فإذا بالياس كلما قابل شخصا سألته «هل أنت شقيق سليم سحاب؟».



لقد تذوقت طعم الصيت والشهرة، منذ كنت تلميذا صغيراً فى المدرسة الابتدائية، إذ كلما دخل زائر أو مفتش فى أحد دروس اللغة العربية وجدت المدرس يهمس فى أذنه «بأننى ابن الأستاذ أحمد أمين»، وقد وجدت الأمر لذينا واستطعمت، ولا شك أن هذه التجربة المبكرة قد غرست فى نفسى بذور الإدمان، أى إدمان السعى إلى ذبوع الصيت ولفت الأنظار. وربما ساعد على نموها عندى أنى أصغر الأولاد فى العائلة، مما يجعل للفت الأنظار قيمة مضاعفة. والظاهر أن حب الشهرة يمكن فعلاً أن يتحول إلى إدمان بحيث إنه متى تسلط على الشخص أصبح من الصعب عليه أن يعيش بدون إشباعه إشباعاً مستمراً. بل وقد تزيد الجرعة اللازمة لإشباعه كلما زاد ما يحوزه منها.

وقد أتيت لى بعض الجرعات الصغيرة للفت الأنظار، بصفتى الشخصية وليس بوصفى ابناً لأحمد أمين، وأنا فى المدرسة الثانوية عندما كان يطلب منى أحياناً أن ألقى كلمة فى احتفال مدرسى أو آخر، بمولد الرسول مثلاً أو بذكرى الهجرة. فكنت أقبل برور فى معظم الأحيان، وأعمل للأمر حساباً يفوق أهميته بكثير. وأظن أفكر فى هذه الجملة أو تلك، وأسود وأبيض، مدفوعاً بلا شك بالرغبة فى تحقيق نجاح باهر أمام هذه الجماهير الغفيرة، التى قد لا يزيد عددهم عن العشرين أو الثلاثين، ممن لا يهمهم فى الحقيقة فى قليل أو كثير قيمة الكلمة التى سيلقيها هذا التلميذ الصغير. كان للميكروفون بالطبع سحر لا يقاوم، قبل أن يشيع استخدامه على النحو الذى نراه الآن، فما بالك بما يمكن أن يشعر به تلميذ فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره إذا وجد نفسه أمام ميكروفون، ويخطب فى جمهور يجلس بينه ناظر المدرسة وكبار رجالها؟

طلب منى مرة، وأنا فى هذه السن، أن اشترك فى مناظرة فى المدرسة حول موضوع يصعب أن تتصور أن تعقد حوله مناظرة فى مدرسة حكومية فى هذه

الأيام . كانت السنة هي ١٩٤٧ في أعقاب انتشار وباء الكوليرا في بعض القرى المصرية . فلما تم القضاء عليه ، ولم يكن للناس حديث إلا عنه ، فكر أحد مدرسي المدرسة في عقد مناظرة عنوانها «من المسئول عن انتشار الكوليرا في مصر : الحكومة أم الشعب؟» وقال لي هذا المدرس إنه سوف يمثل وجهة النظر التي تلقى بالوم على الحكومة وأن علي أن أمثل وجهة النظر الأخرى ، التي تنقذ بالمسؤولية على الشعب . كمت أخيراً أن الأصوات ستؤخذ بعد انتهاء المناظرة لمعرفة أي المناظرين انتصر على خصمه . وقبلت بسذاجة إذ كنت لازلت حديث العهد بهذه الأمور ، ولم يعنط بيالي قط أنني مهزوم لا محالة ، فالتاس لابد أن تصوت في النهاية ضد الحكومة ميرثين أنفسهم من المسئولية . كان المهم هو أنني دعيت للكلام أصلاً ، وأمام ميكروفون . وألقيت بدلوى وكانت النتيجة هي طبعاً هزيمتي المطلقة ، والتي دهشت لها كثيراً إذ كنت قد قدمت بعض الحجج المقنعة .

بمرور الزمن ضعفت لدى الرغبة في لفت الأنظار وأصبحت فرصة نشر مقال لي في جريدة سيارة ، أو إلقاء كلمة أمام بعض الناس المهمين : أو الظهور في التلفزيون ، لا تحمل جاذبية كبيرة لي ، وكادت جاذبية أي من هذه الأمور تنحصر في مدى جاذبية الموضوع الذي يطلب سني أن أتناوله بالكتابة أو الحديث ، دون أن أبالي كثيراً بما قد يتصل به من «جماهيرية» .

لقد عرفت عدداً من مشاهير الكتاب الذين شعرت نحوهم بحب خاص واحترام يزيد عما أشعر به نحو غيرهم ، ولا أظن أنه من قبيل الصدفة أن هؤلاء كانوا أيضاً من أقل من عرفت بمبالاة بالشهرة وذيوخ الصيت . هكذا وجدت مثلاً أحمد بهاء الدين ، الكاتب الصحفي الشهير الذي كان يسرع بتحويل مجرى الحديث إلى موضوع آخر إذا سمع من أحد ثناء على مقال منشور له ، وكذلك عبد العظيم أنيس أستاذ الرياضيات والكاتب والمناضل السياسي الشهير ، إذ كنت أحس بأنه إذا سمع ثناء على شيء كتبه أو عمل قام به ، وإن قام بشكر قائله شكراً مخلصاً ، كان كمن يسمع ثناء على شخص غيره . أما الطيب صالح ، فكان يضحك إذا سمع ثناء عليه ، ويفني بشدة أنه يستحق شيئاً منه ، واصفاً نفسه بأنه مجرد «كريب»

صغير . كما كان ينفر بشدة من أى مناسبة تضعه فى مكان الصدارة ويكون فيها محط الأنظار .

قال لى الطبيب صالح مرة إنه يعجبه تشبيه أحد الكتاب للشهرة «بالعاهرة» ، ولعله يقصد بذلك أن السعى إلى الشهرة مثل سعى المرء إلى كسب رضا عدد كبير من الناس «مجهولى الهوية» عن لا تربطهم به أى صلة ، وأن الثناء يمكن أن يقبل ويسمى إليه إذا صدر من شخص معين أو عدد قليل من الأشخاص الذين يكن المرء لهم احتراماً وتقديراً ، أما الشهرة ، أو صدور الثناء من أعداد غفيرة من الناس لا يعرف المرء قدرهم الحقيقي ، فيجب ألا يكون باعشاً على الفخر أو السرور . بل لعله قريب من العمل « الخادش للحياء » .

- ١٤ -

أصابتنى دهشة عندما أدنى بى استعراضى لكل هذه البدايات والنهايات ، إلى اكتشافى لهذا العدد الكبير من الأمثلة على نوع أو آخر من خيبة الأمل . كما راعنى أيضاً أن اكتشف فجأة كثرة الأشياء التى أصبحت أعتبرها غير جديرة بالاكتراث أو غير مهمة . ما أكثر الأشياء التى كنت اعتبرها مهمة بل وضرورية فى يوم ما فلم أعد أعتبرها كذلك . إن أى نوع من الطعام ، مهما كان ما يجلبه لى من لذة فى الماضى ، يمكن الآن بسهولة أن يحل محله نوع آخر دون أن أشعر بخيرمان . كما لم أعد أعلق الأهمية القصوى التى كنت أعلقها على قراءة كتاب بعينه ، ناهيك عن الأفلام السينمائية التى اكتشفت حيلها فلم يعد من السهل خداعى بها . لم أعد أتلهف على سماع الأخبار أو قراءتها مثلما كنت أفعل ، إذ لم أعد أعلق أهمية كبيرة على تصريحات ثبت لى أن أكثرها كاذب أو على وعود أكثرها لا يتحقق . أما لغت الأنظار الذى كنت أتوق بشدة إلى تحقيقه فقد تبين لى أن القدر الضئيل الذى حققته منه يزيد بكثير عن حاجتى . إذا كان الأمر كذلك حقاً ، فما هو المهم إذن؟ وكيف يصبح لمحة معنى إذا فقد كل شىء أهميته فى نظرى؟

لا بد أننى لازلت أعتبر بعض الأشياء مهمة . بل ومهمة جداً ، إذ أننى لاحظت أنى

لم أفقد قدرتي على الابتهاج، بل والابتهاج الشديد أحيانا، ولا أستطيع قط أن أزعجني الآن أقل مسعادة أو رضا عن حياتي مما كنت في أي وقت من الأوقات في الماضي. صحيح أن هناك أنواعا من السرور والابتهاج كنت أشعر بها في بعض الملاحظات في الماضي ولم أعد أشعر بمثلها الآن. أذكر مثلا ذلك السرور الغامر الذي كنت أشعر به عندما كان القطار يقترب من محطة فيلكستو (Felixstowe) بإنجلترا، وهي البلدة التي كان يقيم بها والدا زوجتي، إذا كنت قادمة إليها من لندن، وأعرف أن زوجتي تنتظرنني في محطة القطار. كيف يمكن أن يتكرر مثل هذا الشعور الآن؟ وكذلك شعوري عندما رأيت أول مقال لي يتناول قضية اجتماعية وسياسية عامة، وهو منشور في مجلة الأهرام الاقتصادي في فبراير ١٩٨٢، وعنوانه مكتوب بالخط العريض على غلاف المجلة. كيف يمكن أن يتكرر هذا الشعور الآن بعد كل ما نشر لي من مقالات وكتب؟ نعم إن مثل هذه المشاعر لا يتكرر، فما هو إذن تفسير ما أشعر به الآن من رضا عن حياتي واستقبالي لكل يوم جديد بدرجة من التفاؤل من النادر أن شعرت بمثلها في الماضي؟ تفسير ذلك أني، وإن كنت فقدت المشاعر المتأججة بالسرور فقدت أيضا المشاعر الملهبة بالحزن. لقد عرفت عيوي وقبعتها، ولم أعد أعذب نفسي بأن أتمنى أن أكون شخصا آخر أو أحصول على ما أعرف أن من المستحيل تحقيقه. أصبحت مستعدا لأن أقبل بسهولة أن هناك من هو أفضل مني في هذا الأمر أو ذلك، فأنسا بأن لدي من هذا الشيء أو ذلك ما يكفيني وزيادة. ولكي أجد أيضا أن خوفي من المستقبل، بما في ذلك الخوف من الموت، أقل بكثير مما كان. أصبحت مقتنعا، بدرجة أكبر من اقتناعي في أي وقت في الماضي، بقول الفيلسوف البريطاني دافيد هيوم (David Hume) إن الموت لا يخيفه لسبب بسيط وهو أنه لن يكون موجودا عندما يبعث الموت، وقوله أيضا إن لا مبالاة بما إذا كان سيموت في الأسبوع التالي أو بعد بضع سنوات هي بالضبط يقدر لا مبالته بما إذا كان قد ولد في منتصف القرن الثامن عشر أو أوائله.

لم تكن تصل إلي مسامعي أخبار الموت، عندما كنت أصغر سنا، إلا لماما، وكانت فترات طويلة تفصل بين خبر وآخر. فوجدت أنني كلما تقدم بي السن، تتوالى علي أخبار موت الكثيرين من معارفي وبعض أصدقائي، وهم في سن قريبة

من سنّى. ومع توالى هذه الأخبار وتضاؤل المدد الفاصلة بينها أصبحت دهشتى لدى سماع الخبر تقل، وإذا بالخبر يصبح أكثر فأكثر خبراً عادياً، بينما كان يبدو لى منذ عشرين أو ثلاثين سنة خيراً شاذاً ومدهشاً.

لاحظت أيضاً تغيراً فى مشاعرى إزاء مواقف العزاء. فقد كان من أثقل الأمور على نفسى منذ عشرين أو ثلاثين عاماً، الذهاب إلى سرادق للعزاء، وأحاول تجنّبه بقدر الإمكان، فلا أذهب إلا عندما لا يكون ثمة مقر من ذلك. ولكنى الآن أجدنى الجلوس فى سرادق العزاء والاستماع إلى القرآن من قارئ يجيد التلاوة، باعثاً للراحة النفسية والسكينة، ومناسبة للتفكير من جديد، دون مقاطعة من أحد، فى الشخص الذى فقدناه. وأتذكر أحياناً والذتى عندما كانت تحدثنا عن صديقة من صديقاتها فقدت كثيرين من أعزائها، منهم بعض أولادها، فكانت تستنزى فرصة سماعها عن أى عزاء يقام بالقرب منها، ولو كان لشخص لا تربط بها صلة، فتذهب لتقديم العزاء كمجرد فرصة للذرف الذموع من جديد والجلوس وسط نساء نعرف أنهن يشعرون بمثل مشاعرنا. كانت أُمى تصف لنا هذا بفهم تام لمشاعر هذه المرأة، وتضيف ما معناه أنها أحياناً تشعر بشعور مماثل. كنت أتمجّب لسماع ذلك إذ أن أُمى لم تصادف فى حياتها الكثير من الصدمات لفقد أشخاص قريبين منها لهذه الدرجة. ولكن أُمى كانت تتكلم، على الأرجح، عن الأحران بصفة عامة، وهى كثيرة.

نعم إن أسباب الحزن كثيرة، ولكن مصادر الفرح كثيرة أيضاً، ولا زال لدى الكثير منها. كتابة مقال أو كتاب جيد، أو اعتبره جيداً، خاصة إذا حصل على تقدير شخص أو أشخاص أحمل لهم تقديراً ولو كانوا قليلين. إلقاء محاضرة ناجحة فى موضوع يثير حماسى. رؤية ابنتى متهجّة أو أحد ابنتى سعيداً لآى سبب، وخروجى معهم، ومع زوجتى وحفيدتى، شريف ولارا، لوجبة شهية فى مطعم جميل، كل هذا يجلب لى سروراً متجدداً. ولا زال لقائى بزوجتى، بعد غيبة طويلة أو قصيرة، يملأ نفسى بالسرو، وإن لم يكن موجعاً بالعاطفة كما كان عندما كنت فى شبابتنا.

صحيح أن الأمثلة على خيبة الأمل كثيرة، ولكن ما أكثر ما غرّ به أيضاً فى حياتنا

من أحداث سارة لم يكن يخطر ببالنا وقوعها، ولا كنا نأمل فيها في أكثر لحظاتها
تداولاً. نعم، ما أكثر الآمال التي تصاب بالخيبة، ولكن ما أكثر مصادر السرور التي
لم تكن نتوقعها أو نطمح إليها. صحيح أن الإصرار على إنهاء القصص نهاية
سعيدة موقف لا يعبر عن الحقيقة، ولكنه ليس أقل صدقاً من الإصرار على إنهايتها
نهاية غير سعيدة.

في ٢٣ نوفمبر ١٩٩٤، حلت ذكرى ميلاد والد زوجتي، وكان قد توفي قبل
ذلك بشهور قليلة، وكنا جميعاً نحبه حباً جماً فحزننا لموته أشد الحزن، رغم أنه كان
قد بلغ السابعة والثمانين، ولم يكن هو راغباً في أن يعيش أكثر مما عاش. في ذلك
اليوم قررت زوجتي وابنتي، وكانت ابنتي وقتها حاملاً تنتظر مولودها في أي لحظة،
أن تذهبا إلى قبره لتضعاه عليه باقة من الزهور. وأثناء عودتهما بالقطار جاء ابنتي
المخاض فأسرعتا إلى مستشفى قريب وضعت فيه ابنتي طفلاً جميلاً في مساء نفس
اليوم الذي ولد فيه جدّها. ولا زال هذا الطفل (شريف) الذي بلغ الآن الثانية عشرة
من عمره، مصدر فرح متكرر للجميع. هكذا تحولت الذكرى المحزنة فجأة إلى
حادث سعيد، وإذا بنهاية حياة حافلة بكل أنواع الحزن والسرور، تتحول إلى بداية
واعدة بكل أنواع السرور والحزن.

كتب أخرى للمؤلف

باللغة العربية:

- ١ - مقدمة إلى الاشتراكية، مع دراسة لتطبيقاتها في الجمهورية العربية المتحدة. مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦ .
- ٢ - مبادئ التحليل الاقتصادي - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٦٧ .
- ٣ - الاقتصاد القومي: مقدمة لدراسة النظرية النقدية - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٦٨، ١٩٧٢ .
- ٤ - الماركسية: عرض وتحليل ونقد لمبادئ الماركسية الأساسية في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٧٠ .
- ٥ - المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٧٩، ١٩٨٣ .
- ٦ - محنة الاقتصاد والثقافة في مصر: المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨٢ .
- ٧ - تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟ خرافات شائعة عن التخلف والتنمية وعن الرخاء والرفاهية، مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣، والهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ .
- ٨ - الاقتصاد والسياسة والمجتمع في عصر الانفتاح - مكتبة سيدبولي، القاهرة، ١٩٨٤ .
- ٩ - هجرة العمالة المصرية: (بالاشتراك مع إليزابيث تايلور عوفى) - مركز البحوث للتنمية الدولية (أوتوا)، ١٩٨٦ .
- ١٠ - قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد علي إلى اليوم. دار على مختار للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٧ .

- ١١ - نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع في مصر - مكتبة مديولى، ١٩٨٩ .
- ١٢ - مصر في مفترق الطرق - دار المسقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٠ .
- ١٣ - العرب ونكية انكروت - مكتبة مديولى، ١٩٩١ .
- ١٤ - السكان والتنمية : بحث فى الآثار الإيجابية والسلبية لنمو السكان ، مع تطبيقاتها على مصر - المؤسسة الثقافية العمالية ، معهد الثقافة السكانية ، القاهرة . ١٩٩١ .
- ١٥ - الدولة الرخوة فى مصر - دار سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
- ١٦ - معضلة الاقتصاد المصرى - دار مصر العربية للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ١٧ - شخصيات لها تاريخ : رياض الرئيس للمكتب والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٧ ، الطبعة الثانية ٢٠٠٠ .
- ١٨ - ماذا حدث للمصريين؟ - كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٨، ومكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثالثة، دار الهلال، فبراير ٢٠٠١، الطبعة الرابعة، دار الشروق، ٢٠٠٦ .
- ١٩ - المثقفون العرب وإسرائيل - دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥ .
- ٢٠ - العولة - سلسلة (اقرأ) - دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثانية ٢٠٠٠، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١ .
- ٢١ - التنوير الزائف - سلسلة (اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، دار عين للنشر، ٢٠٠٥ .
- ٢٢ - العولة والتنمية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، ٢٠٠١ .
- ٢٣ - وصف مصر فى نهاية القرن العشرين - دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥ .
- ٢٤ - كشف الأفتعة عن نظريات التنمية الاقتصادية، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٢ .

- ٢٥- عولة القهر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢، الطبعة الثانية ٢٠٠٥.
- ٢٦- كتب لها تاريخ، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٢٧- شخصيات مصرية فذة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٢٨- عصر الجماهير الغفيرة، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥.
- ٢٩- عصر الشهير بالعرب والمسلمين، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٤، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤، الطبعة الثالثة، دار الشروق ٢٠٠٧.
- ٣٠- مستقبلات: تأملات في أحوال مصر والعرب والعالم في منتصف القرن الواحد والعشرين، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، أبريل ٢٠٠٤.
- ٣١- خرافة التقدم والتخلف، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.

باللغة الانجليزية:

1. Food Supply and Economic Development With Special Reference to Egypt, F. Cass, London, 1966.
2. Urbanization and Economic Development in the Arab World, Arab University in Beirut, 1972.
- 3 The Modernization of Poverty: A Study in The Political Economy of Growth in Nine Arab Countries, 1945 - 1970 - Brill, Leiden, 1974, 2d Edition, 1980.
- ترجم إلى اليابانية في ١٩٧٦ وحاز جائزة الدولة التشجيعية في ١٩٧٦.
4. Project Appraisal and Income Distribution in Developing Countries, (Coedited with J. MacArthur) a special issue of World Development, Oxford, February. 1978.
5. International Migration of Egyptian Labour, (with Elizabeth Taylor Awny), International Development Research Centre, Ottawa, 1985.
6. Egypt's Economic predicament. Brill, Leiden, 1995.

7. Whatever Happened to the Egyptians? Amerian University in Cairo Press, Cairo, 2000.
8. Whatever Else Happened to the Egyptians?. American University in Cairo Press, Cairo, 2004.
9. the Illusion of Progress in the Arab world, Auc Press, Cairo, 2006.

كتب مترجمة:

- ١- التخطيط المركزي : تأليف جان تبيرجن ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢- مقالات مختارة في التنمية الاقتصادية (بالاشتراك) ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٣- أنماط من التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية ، تأليف راجنار تيركه ، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٤- الشمال- الجنوب : برنامج من أجل البقاء ، تقرير اللجنة المستقلة المشكلة لبحث قضايا التنمية الدولية برئاسة ويلي برانت (بالاشتراك) ، الصندوق الكويتي للتنمية ، الكويت ، ١٩٨١ .

ملحق الصور



▲ ابن عمير

▼ الجنر فاضلة

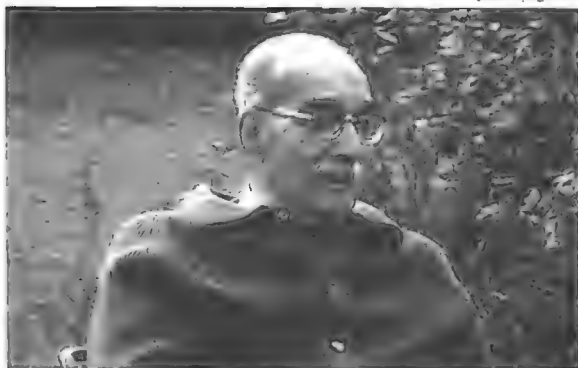


إخوتي في الشيخوخة



▲ أخي محمد

▼ أخي عبد الحميد





▲ مع نجيب محفوظ في كازينو قصر النيل (حوالي ١٩٩٦)

▼ خان و الشيخ إمام في بيتنا بالمعادي (١٩٩٢)





▲ مبشرين عظماء مع العائلة المعنوية في
انعامات الحرية



▲ مع مستقبل غلق في القفاطر اخبره بمضمر
(حوالي ١٢٥٥) وبغنا فذروني شوشة

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

▼. مدد احدث للمصريين (١٩٤٨)

▼ چنورج اور وپل





▲ محاضر بالجامعة الأمريكية (حوالي ١٩٨٠)

▼ أقيم حفل تخرج أحمد حسن سبزواري من الجامعة الأمريكية (١٩٨٢)





▲ - جماعة كلية الحقوق عين شمس (جوانس ١٩٧٧)

▼ من باحلول، من رحلة خمس مندوبيات عن الصندوق تكسيس للتنمية (١٩٧٤)





▲ حازم في زيجة لابن ثامر في بوسطن (١٩٩٣)

في حواشيتو - كامدراج (١٩٦٣)

▼ من اليمين: حصة مجدي، حازم البيلوي، وليام ميخائيل، برهام عطالله





▲ الأولاد والعميدان في جراتشستر (٢٠٠٥)

▼ في جراتشستر - مع ابني أحمد (٢٠٠٥)





▲ جلال ولارا (۱۹۹۶)
▼ می چرانشتر (۲۰۰۲)





▲ جلال ولارا بن كامپروچ (۱۹۴۸)

▼ جلال ولارا هي كامپروچ (۱۹۴۸)





▲ جلال وشریعت (۱۹۹۵)

▼ خان وشریعت (۱۹۹۹)





▲ الممدان شريف ولارا (٢٠٠٥)

▼ لارا (٢٠٠٠)



سامر و حبیبته کسا (۲۰۰۶) ▼



▼ احمد بن شریف ولان می دیگفتو (۲۰۰۳)



▶ أحمد ونارا يوم زفافهما (٢٠٠٦)



▼ أرفقي مع نارا وروحة أمي أحمد بريم زفافهما (٢٠٠٦)





▲ داسة يوم رفاضة (١٩٩٢)

▼ دانية وأشرف يوم الزفاف (١٩٩٢)





▲ في حفلة حظيرة دالية (١٩٩٠)

▼ يوم زفاف داسة وهراة الفاتحة مع زوجها أشرف والمادون (١٩٩٢)





▲ أحمد ودالية وقاسم من الكويت (١٩٧٥)

▼ أحمد ودالية وقاسم في حفلة تخرج دالية (١٩٩٠)





▲ دانية وأحمد من الكويت (١٩٧٦)

▼ تامر وأحمد من الكويت (١٩٧٦)





▲ جان وأحمد في نادي النزال بالكويت (١٩٧٤)

▼ أحمد وتامر وحديثهما في الكويت، (١٩٧٥)





▲ مع جان من فيلاكتو الجنترا (١٩٩٤)



▲ والد جان من كامبردج (سوانس ١٩٧٨)

▼ والد جان في الشبحوخة (جوانس ١٩٨٠)





▲ بیج حار من کانسیرج (جولائی ۱۹۶۲)

▼ بیت والدی جاں من ہیلکستو حیث خصیفا کثیرا من شہزاد احسب (۱۹۶۶ - ۱۹۶۸)





▲ تامر (١٩٧٧)

▼ أحمد (١٩٧٧)



▲ تامر، في شارع عدا بالسعداء قبل أن تكتب
الليبرت (١٩٧٧)

▼ دانيه في سابعة من عمرها (١٩٧٧)





▲ مع پیمان در پیشانی بالعمادی (جوانی ۱۹۶۵)



در صومعه و درها، در نیلکستو سد لروج (جوانی ۱۹۶۶) ◀



▲ جان مع والدتها. قبل الزواج (جوانى ١٩٥٩)



والد: جان يوسف جان موم سمرعا إلى
 ▶ مصور لأول مرة (١٥ مايو ١٩٦١)



▲ مع جان بومرڈ خان (۱۹۱۰ء)

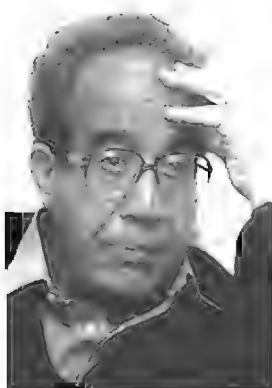


◀ الروایہ (۱۹۶۵ء)



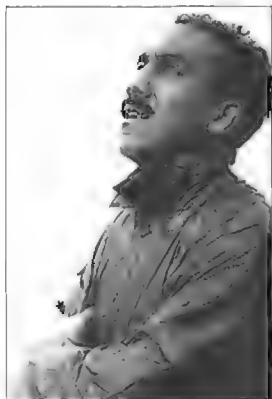
▲ في العشرين

▼ في السنين



▼ في الثلاثين





▲ أنس حسين

▼ جلال (من العاشرة)



▲ أنس محمد (جوانس ١٩٦٥)

▼ أنس حافظ





▲ ابن وامر، و خوالى، محمد، أحمد من حديقة قصر المنزلة (١٩٥٢)



▲ ابن وأولاده، ساعد، محمد، فخر، نرجس، بالفتاوى، الخيرية من (جول ١٩٦٠)
من اليمن، عبد الحيد، وفاتمة، وحسن، وأن، حافض، وبسملة، أحمد



▲ آبر و افس (جوانس ۱۹۶۹)



▲ أسد أستاذ الجامعة بعد أن استبدل الزي
بأوروبي، مارسه في الأزهر في (جوانس ١٩٩٦)



▲ سيد الباي الأزهرى



أسد في جوانس الخامسة والعشرين،
وبمها أسد محمد وأختهم بريمة ◀

مطایع الشروف

لخامه: ٨. شرح مسوده النصوص - 1٠٢٢٣٩٩ . فاكس 2٠٢٢٧٥٦٧ (١٠٠)
مرويه: ٩١٦٦٠ . فاكس ١٠٢٢٣٩٩٩ . فاكس ٩١٦٦٦٥٠ (١٠٦)

ماذا علمتني الحياة ؟

منذ سنوات كثيرة، رأيت فيلما بولنديا صامتا لا يزيد طوله على عشر دقائق. ظلت قصته تعود إلى ذهني من وقت لآخر، وعلى الأخص كلما رأيت أحداً من أهلي أو معارفى يصادف في حياته ما لا قبل له برده أو التحكم فيه.

تبدأ القصة البسيطة بمنظر بحر واسع، يخرج منه رجلان يرتديان ملابسهما الكاملة، ويحملان معاً، كل منهما في طرف، دولاباً عتيقاً ضخماً، يتكون من ثلاث ضلف، وعلى ضلفته الوسطى امرأة كبيرة. يسير الرجلان في اتجاه الشاطئ وهما يحملان هذا الدولاب بمشقة كبيرة، حتى يصلان إلى البر في حالة إعياء شديد، ثم يبدآن في التجول في أنحاء المدينة وهما لا يزالان يحملان الدولاب. فإذا أرادا ركوب الترام حاولا صعود السلم بالدولاب وسط زحام الركاب وصيحات الاحتجاج. وإذا أصابهما الجوع وأرادا دخول مطعم، حاولا دخول المطعم بالدولاب فيطردهما صاحب المكان.

لا يحتوى الفيلم إلا على تصوير محاولتهما المستميتة في الاستمرار في الحياة وهما يحملان دولابهما الثقيل، إلى أن ينتهي بهما الأمر بالعودة من حيث أتيا، فيبلغان الشاطئ الذي رأياه في أول الفيلم، ثم يغيبان شيئاً فشيئاً في البحر، حيث تغمرهما المياه وهما لا يزالان يحملان الدولاب.

منذ رأيت هذا الفيلم وأنا أتصور حالي وحال كل من أعرف وكان كلاً منا يحمل دولابه الثقيل، يأتي معه إلى الدنيا ويقضى حياته حاملاً إياه دون أن تكون لديه أية فرصة للتخلص منه، ثم يموت وهو يحمله. على أنه دولاب غير مرئي، وقد نقضى حياتنا متظاهرين بعدم وجوده، أو محاولين إخفائه، ولكنه قدر كل منا المحتوم الذي يحكم تصرفاتنا ومشاعرنا واختياراتنا أو ما نظن أنها اختياراتنا. فأننا لم اختر أبى وأمى أو نوع العائلة التي نشأت بها، أو عدد إخوتي وموقفي بينهم، ولم اختر طولى أو قصرى، ولا درجة وسامتى أو دعامتى، أو مواطن القوة والضعف في جسمي وعقلي. كل هذا على أن أحمله أينما ذهبت، وليس لدى أى أمل في التخلص منه.

